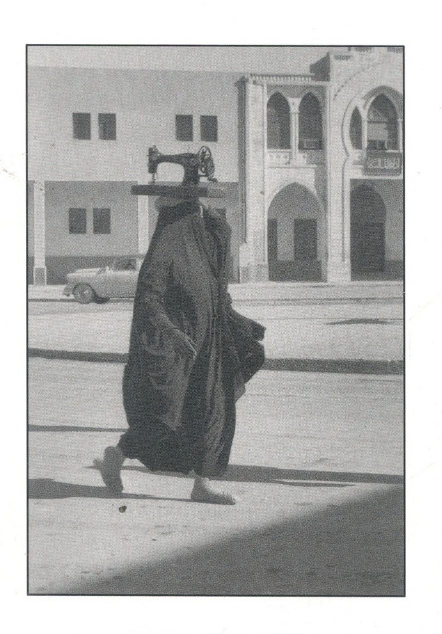
عبد الله القصيمي

هذي هي الأغلال



منشورات الجمل

عبدالله القصيمي: هذي هي الأغلال

عبد الله القصيمي

هذي هي الأغلال

منشورات الجمل

عبد الله القصيمي (١٩٠٢-١٩٩٥) أول رجل دين وهابي، من الرعيل الأول، نزع ثوبه الديني، بعد ممارسة طويلة. أقام لسنوات طويلة في الخارج، خصوصاً في بيروت والقاهرة. له العديد من المؤلفات، منها: **البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية** (١٩٣١)؛ **الثورة الوهابية** (١٩٣٦)؛ **الصراع بين الاسلام و الوثنية** (١٩٣٧)؛ **كيف ذل المسلمين؟** (١٩٤٠)؛ **هذي هي الأغلال** (١٩٤٦)؛ **العالم ليس عقلاً** (١٩٦٤)؛ **أيها العقل من رآك؟** (١٩٦٤)؛ **كبرياء التاريخ في مازق** (١٩٦٦)؛ **هذا الكون ما ضميره؟** (١٩٦٦)؛ **العرب ظاهرة صوتية** (١٩٧٧). صدر له عن منشورات الجمل: **لئلا يعود هارون الرشيد** (١٩٩٧) و**عاشق لعار التاريخ** (١٩٩٩).

عبد الله القصيمي: هذي هي الأغلال، طبعة جديدة

كولونيا - ألمانيا ٢٠٠٠

الطبعة الثانية، ٢٠٠٦

Postfach 210149
50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982
Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

إن الجهل الإعتقادي قد ضرب على قومنا عقداً فوق عقد، وإن أفضل ما يعمله المرء أن يحل عقدة من هذه العقد... إن للوهم الواحد في الحياة ثلاث نتائج:

أولاها أن يعوق عن السير إلى الغاية المنشودة، وثانيها أن يوجه جهة أخرى مضادة، وهذا فيه الإبعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول سدى، وثالثها إفساد العقل، فإن الأوهام تأكل العقول، وكل وهم يأخذ من العقل بقدره. ولا تزال الأوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزاً عن التمييز ويتخلى في النهاية عن وظيفته... إن ما في هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التي تفقدها أمة فتهوى لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية، وتأخذ بها أمة أخرى فتنهض لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة... ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة المليون المسلم، يستغني عن هذه الأفكار إذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية.

* * *

إن الدين إذا فسد العمل به صار آلة ضعف وإنحطاط.

(أحد فلاسفة الغرب)

* * *

طلاسم هذا الذل دقت وإنما
تفك بسر العلم هذي الطلاسم
يقولون حظ اليعربيين نائم
لقد وهموا فالسعي لا الحظ نائم

(أحد شعراء العصر)

مرفوع إلى
باعث العرب ومقيم دولتهم الملك عبد العزيز آل سعود

يا صاحب الجلالة:

إن آباء جلالتكم العرب الأحرار لما أن تدفقت جحافلهم المظفرة على بلاد الأكاسرة الجبارين، وعلم رستم قائد الفرس الأعلى أنها الهزيمة لا شك فيها بعث إلى سعد بن أبي وقاص: أن أرسل إلينا من قبلك من نعرف منه الأغراض التي قدمتم إلى بلادنا من أجلها، فبعث إليه سعد رسله، فسألهم رستم فكمان جوابهم الذي لم يختلف أن قالوا جميعاً: إن الأغراض التي أحرجتنا وأقدمتنا إلى بلادك هي: أولاً أن نخرج الناس من عبادة المخلوق إلى عبادة الله[1]، وهي ثانياً أن نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، وهي ثالثاً أن نخرجهم من جور الأديان إلى عدل الإسلام.

---

(١) مما يشهد لما بلغه العرب من تربية الشخصية ومن حراستهم لطاقة الفرد النفسية من الضياع والإنهيار والضعف والضعة ما جاء أن عمر بن الخطاب رأى مع عيينة بن حصن أحد سادات العرب في الجاهلية والإسلام جماعة يمشون وراءه فعلاه بالدرة، فقال عيينة اعلم ما تصنع يرحمك الله، فقال عمر أما علمت أنها فتنة للمتبوع مذلة للتابع. وما جاء أنه – أي عمر – ضرب قوماً مشوا وراء أحد الصحابة وقال إنها فتنة للمتبوع ومذلة للتابع. وما جاء عن أحد التابعين، قال خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه أناس فقال لهم الكم حاجة؟ قالوا لا ولكن أردنا أن نمشي معك قال ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

ولن يتصور المرء تربية أسمى من هذه التربية، ولا إيماناً بالإنسانية المثالية أبلغ من هذا الإيمان، ولا وضعاً لحقوق الفرد في الجماعة وفي الدولة أعظم مما سمعنا. ونحن لا نستطيع أن نعلم ما لهذا من قيمة إلا إذا علمنا فساد ذلك العهد ومظالمه وكيف كان الفرد مسلوب الحقوق بل كيف كان الناس يجهلون أن للفرد حقوقاً أو أنه من الممكن أن يكون له حقوق، ولا إذا علمنا كم كان الآلهة البشريون الذين يجب أن تؤدي لهم حقوق الألوهية، بل وحقوق الربوبية وإلا فالويل لأهل الأرض جميعاً، بل الويل لهم على كل حال. فإن أولئك الآلهة كانوا يغضبون وينتقمون ويبيرون وإن عبدوا حق العبادة، لأن الغضب والإنتقام حقان من حقوق الإله على حسب ما يتصورون... ولولا لم يسد العرب في العهد الذي سادوا فيه لوجب أن نعتقد بأن العالم يسير بتدبير الفوضى، وأنه ليس هناك أسباب تقدم ولا أسباب تؤخر، ولكننا من المؤمنين بالنظام وبالأسباب والمسببات.

ومعنى هذه الكلمات القصيرات أن العرب الأحرار إنما بعثوا إلى العالم في الزمن الذي وجب أن يبعثوا فيه ليبلغوه رسالتهم المحمدية وهي تتلخص في ثلاثة أمور جامعة: الأول: تخليصه من مفاسد عبودية رجال الدين، وعبودية القادة والرؤساء الظالمين، وعبودية سائر المخلوقين، تلك العبودية التي أرهقت العقول والمواهب والقوى البشرية فلم تقدر على الإنبعاث والنهوض إلى جسيمات الأمور، فظل الإنسان الأحقاب والأحقاب عاجزاً عن أن يحقق من معاني الإنسانية وأهدافها سوى مظهرها فحسب. وثاني الأمور الثلاثة الجوامع: تخليصه من ذلك النظام الحكومي الفاسد الذي رماه بالفقر والضيق والشقاء، وكل تلك التي كانت - وما زالت - مبعث الإنحطاط والفساد، ومصدر الفوضى والشر الكثير. وثالث الأمور الثلاثة: تخليصه من المعتقدات والمذاهب والأديان الواهنة التي جردت الإنسان من كل فضيلة، وعطلت فيه كل نبوغ وعبقرية وإنطلاق في تحصيل المعاني الإنسانية المهذبة لما في هذه المعتقدات والمذاهب والأديان من الجمود والتضليل والتعويق والتخدير للقوى الفاضلة.

يا صاحب الجلالة:

إن العرب الكرام لما أن آمنوا بهذه المعاني والمبادىء واندفعوا إلى الدنيا ليشركوها معهم في الإيمان بها أرغموا التاريخ العالمي العام أن يكتب لهم تاريخاً وأن يسجل لهم إنقلاباً كاد في سرعته وقوته ومفاجآته أن يخرج عن جميع سنن التطور التي عرفت حتى اليوم: إنقلاباً بهر الكثيرين من العلماء والباحثين الذين يحاولون التغلغل في الأسباب والمسببات، فعجزوا أن يجدوا له تعليلاً بين العلل والمعلولات، فذهبوا يقولون إن العرب كانوا - فيما سمي الجاهلية وقبل الإسلام - أمة راقية متوثبة لمكانها الجديد من القيادة والصدارة. لأنه من غير المعروف في نواميس التطور المعروفة، ولا في تواريخ وقيام الأمم وسقوطها أن شعباً من الشعوب يتخلى فجأة عن عزلته السياسية وعن أميته التي تكاد تكون شاملة ليثب وثبة واحدة تحله موضع الزعامة العالمية.

ولكن الذي فهمناه، والذي يجب أن يفهمه الناس جميعاً هو أن للجماعات دائماً جانبين من القوى والمواهب: جانب زاهر بارز، لأنه وجد ما يظهره وما يبرزه، أو لأنه لم يجد ما يمنعه الظهور والبروز، وجانب خفي مستور كامن، لأنه لم يجد ما يظهره، أو لأنه وجد ما يمنعه من أن يظهر ويبرز... والقوى البشرية

تشبه في كمونها وبروزها قوى الأرض وقوى الطبيعة أجمع. ومن المعلوم أن قوى الأرض، وكل القوى أيضاً، تظل كامنة ساكنة ما وجدت ما يمنعها الظهور، أو ما لم تجد ما يعمل على إظهارها وبعثها. وقد ظل النفط في الجزيرة كامناً مستوراً منذ وجد، كأنه لا شيء فيها، وكأنها لا تحمل في أحشائها جنيناً نفيساً كل يتمنى حضانته وكفالته، حتى هيأ الله لها جلالتكم، فأخذت تخرج كنوزها من النفط وغيره، وأخذ العالم يؤمن بقواها الكامنة الطبيعية. وهكذا هي من الناحية الزراعية... والأمة العربية كانت في عصورها التي عرفت بالجاهلية أمة ذات قوى كامنة هائلة كمون كنوزها الطبيعية في أرضها. وكانت عوامل هذا الكمون وأسبابه معروفة أو على الأقل موجودة، فلما زالت هذه العوامل والأسباب برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وجاء ما بعث الكامن منها وثبت تلك الوثبة التي حار في تعليلها وفهمها الباحثون. ولكن لا معنى للحيرة في هذه الوثبة إلا إذا كان من الممكن الحيرة في خروج النفط في الجزيرة على عهد جلالتكم لأنكم أمرتم بإخراجه وهيأتم الأسباب التي تخرجه والقوى التي تبعثه. ومثل هذا كان العرب في المملكة السعودية قبل أن يوحدهم الله على يد جلالتكم. فقد كانوا ذوي قوى كامنة واستعداد مستور. فلما آن الأوان والفضل لله ثم لجلالتكم، طفقت هذه القوى تبرز وهذا الإستعداد يظهر... والعرب اليوم - بل والمسلمون كافة - متخلفون عن الأمم الغربية تخلفاً ظاهراً، لا نقول في شيء دون شيء، بل يجب أن نقول وأسفاه في كل شيء. ولكن هذا التخلف ليس طبيعياً، وإنما هو تخلف يشبه العرب قبل عهد جلالتكم عن العالم من الناحية الإقتصادية. ويشبه تخلف العرب قبل الإسلام من الناحية السياسية والعسكرية عن الرومان والفرس دولتي العالم في ذلك العهد، أي إنه تخلف ظاهري فقط لوجود أسباب معينة عارضة وهم ينطوون على مواهب وقوى كانت تستطيع إلحاقهم بمن سبقوهم إذا أخرجت وأبرزت، وتستطيع القضاء على هذا التفاوت بينهم وبين الآخرين... ولقد صار معلوماً أن عظمة الشعوب ليست في الإستقلال السياسي، ولا في وفرة العديد، ولا في ثروة البلاد الطبيعية، ولا في الوطنية الباسلة، ولا في الحماسة المتوقدة، ولا في الإتفاقات وقيام الوحدات... وصار معلوماً أن شيئاً من هذا لا يهب الشعب تلك المنزلة الدولية الرفيعة المحترمة، ولا ذلك التأثير القوي في المجتمع العالمي. بل صار معلوماً أن أمراً من هذه الأمور - بل هذه الأمور كلها

مجتمعة – ليس في طاقتها أن تحافظ على الإستقلال السياسي إذا كان موجوداً، ولا أن ترده إن كان مفقوداً، ولا أن تصونه من عدوان وعادين... ولكن عظمة الشعب الحقيقية التي تطأطىء الدنيا أمامها إجلالاً ورهبة تتجلى في شيء واحد لا ثاني له: هذا الشيء الواحد هو قدرة الشعب الذاتية على الإنتاج العقلي والمادي من ناحية الأفراد. فالشعب الذي يتفوق أفراده في هذا الإنتاج هو الشعب الذي له التفوق المطلق، وله السيادة المطلقة، وهو الشعب الذي تخفض له الدنيا رأسها... والفرق بيننا وبين شعوب أوروبا وأمريكا لا يعدو الفرق بين أفرادنا وأفرادهم في هذا الإنتاج. فإنهم لما وفر إنتاج أفرادهم العقلي والمادي وضعف إنتاج أفرادنا – أو أضحى مفقوداً – أضحوا أقوى منا في كل شيء، فسادوا وتأخرنا. والقوي هو سيد الضعيف في قانون الأزل وقانون الأبد أيضاً. وهو قانون مطبق على الإنسان وعلى الحيوان وعلى النبات وعلى الجماد، بل وعلى كل شيء. فهو قانون خالد من قوانين الطبيعة الخالدة. وقوانين الطبيعة هي بالنسبة لها كالوجود، لا تتخلى عنها ما دامت موجودة، كما أنها لا تتخلى عن وجودها ما دامت كذلك. وإذا ما سألنا العلماء اليوم: لماذا صارت الشمس هي المركز للمجموعة الشمسية، ولماذا صار أكبر نجم في كل مجموعة من المجاميع الفلكية الأخرى هو المركز الذي تدور حوله الأتباع والأقمار وتدين له وتنجذب إليه، ولا تستطيع مفارقته، قالوا لنا هذا قانون الطبيعة وقانون القوة. وإذا سألناهم: هل من الممكن التملص من القوانين الطبيعية، أجابونا بلا طبعاً. وكما أن العشرين أقل من الأربعين، وكما أن هذا العدد لا يمكن أن يكون مساوياً لهذا العدد بحال من الأحوال، فمثله الشعوب التي هي أكثر إنتاجاً وأضخم قوة، لا بد أن تكون سيدة الشعوب التي هي أقل منها في هذا الإنتاج وأضعف منها في هذه المقدرة. ولا يمكن أن يقوم التساوي بين هذه وهذه إلا أن يكون بالكلام مثل أن يغلط طفل فيقول إن العشرين أكثر من الأربعين أو أنها مساوية لها. ولكن هذا القول لا يغير الحقيقة الأبدية وهي الإختلاف والتفاوت.

ما الذي أعطى الطوائف اليهودية هذه المكانة الدولية وهذا الإعتبار الدولي اللذين لم ينلهما كثير من الشعوب المستقلة سياسياً؟ إنه مقدرة هذه الطائفة العجيبة على الإنتاج الفردي.

فعلينا إذن أن نعرف كيف يعظم إنتاج الفرد الذاتي، وعلينا أن نحشد كل

قوانا لتحطيم ما من شأنه أن يضعف هذا الإنتاج، ولتحطيم القيود التي تعوق القوى الفردية عن القيام بوظائفها الإلهية، وعن إخراج أفضل ما فيها من إستعداد وآخر ما عندها من طاقة.

وفي هذا الكتاب الكشف عن الأسباب والعوامل التي قضت علينا بهذا التخلف وبهذا التفاوت بيننا وبين الغربيين والتي أضعفت الإنتاج لدينا وجعلتنا عاجزين عن اللحاق بالركب البشري. ولكن العرب والمسلمين يحتاجون من أجل إفهامهم هذه الحقيقة إفهاماً عاماً شاملاً إلى قيادة بارزة، وإن الآمال لترنو – لأسباب واضحة جلية – إلى جلالتكم، فجئت أرفع إليكم الكتاب، سائلاً الله أن يسعد القائد وأن يحفظه ويسدده، راجياً أن أكون قد قدمت لأمتي وديني ما فيه نفع أو ما فيه دفع ضر. وقد آن أن يقبس الناس من تلك الشعلة المقدسة التي أوقد جذوتها مصلح الجزيرة العظيم الشيخ محمد بن عبد الوهاب.[1]

---

(١) ها هنا ملاحظة خليقة بالتفكير. ذلك انه قد قام في أوقات كثيرة متقاربة ومتباعدة، وفي بلاد متعددة رجال مخلصون يدعون إلى ما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقد بذلوا كل إخلاصهم وعلمهم رجاء ان يصيبوا نجاحاً، ولكنهم قد أخفقوا جميعاً أخفقوا سياسياً واخفقوا دينياً: فالأمراء والملوك والرؤساء رفضوا هؤلاء الدعاة ورفضوا دعوتهم، بل وتألبوا عليهم مع العامة: فسجنوا وآنوا فريقاً منهم، وازوروا وتباعدوا عن فريق آخر وبهذا عدوا مخفقين سياسياً أما دينياً فإن دعوتهم لم يكتب لها النجاح ولا القول لدى العامة والجماهير، بل عادوها وعادوا أصحابها وأصروا على البقاء في ما كانوا فيه. وبهذا صاروا فاشلين دينياً.

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد كتب له ولدعوته النجاح المطلق أما من الناحية السياسية فإن آل سعود العظام قد شادوا وأقاموا صروحها على دعوته منذ اواسط القرن الثاني عشر الهجري حتى اليوم وقد أوى أمراء آل سعود آل الشيخ محمد وقربوهم وأكرموهم وأخذوا عنهم ولا يزالون يفعلون ذلك، ولم يحاولوا التخلص منهم في وقت من الأوقات لا في أوقات الشدة ولا في أوقات الرخاء. وأما من الناحية الدينية فقد كان النجاح عظيماً. ذلك أن الناس هناك خاصة وعامة قد آمنوا بهذه الدعوة وقبلوها ظاهراً وباطناً قبولاً لا يشوبه شيء من التردد أو الريب. وإنه لا يخطر على بال إنسان واحد اليوم – كما لم يخطر قبل اليوم – أن يرفض هذه الدعوة أو أن يشك فيها. فالإيمان بها كان إيمان إقتناع لا إيمان اضطرار أو حاجة أو ظرف من الظروف. ومن اكبر الدلائل على ذلك أن آل سعود قد غلبوا على أمرهم في عهدين معروفين، وخرج حكم الجزيرة من أيديهم إلى أيدي قوم آخرين هم خصوم لهذه الدعوة، ومع هذا فإن الناس هناك بقوا مستمسكين بالدعوة مؤمنين بها كما كانوا في عهد آل سعود المؤيدين لها... فنجاح الشيخ إذن كان نجاحاً مطلقاً، وإخفاق الآخرين إذن كان إخفاقاً مطلقاً. فما الأسباب؟ أما إخفاق الآخرين في كل زمان ومكان فلا بد من عزوه إلى أن الناس الخاصة منهم والعامة في تلك البلاد كانوا غير

مستعدين إستعداداً حاضراً لقبول فكرة التوحيد الخالصة. بل كانت هناك مواقع مؤلفة من النظام الإجتماعي القائم، ومن التربية الدينية المختلة ومن الوراثة ومن البيئة ومن التفكير العام، تحول بينهم وبين الإيمان بمبدأ التوحيد النقي. ومن أجل هذا نجد أكثر الذين يقبلون هذا المبدأ إجمالاً من أهل هذه البلاد يدخلون عليه في التفصيلات ما ليس منه، أي أنهم في الأكثر لا يستطيعون إدراك هذا التوحيد وهذا السمو الفكري إدراكاً صحيحاً كاملاً مبرأ من شوائب ما يضاده وينافيه. وسبب هذا هو عجزهم عن التحرر من سيطرة المواقع الآنفة وهي النظام الإجتماعي والتربية الدينية والتفكير العام والبيئة والوراثة. هذه هي أسباب فشل أولئك الدعاة المحزن. ولا يزال هذا الفشل يتلقى كل من يحاول ما حاوله أولئك الدعاة

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد كان نجاحه التام يرجع إلى أمرين أساسيين أحدهما. أن الناس في جزيرة العرب الخالصة كانوا كافة مستعدين لقبول هذه الدعوة وللإيمان بها، ولكن لماذا كانوا مستعدين دون غيرهم؟ كانوا مستعدين لأن النظام الإجتماعي القائم عندهم والتربية الدينية والتفكير العام والبيئة والوراثة لأن ذلك كله لا يأبى قبول هذه الدعوة بل إنه يقبلها ويهضمها بسهولة ويسر، إذ لا تنافي ولا تنافر بينهما بل بينهما التوافق التام... ومن ثم فإن أجزاء معينة من جزيرة العرب عجز أهلها عن فهم هذه الفكرة وعن الإيمان بها مع كثرة من جاؤهم من أنفسهم بالدعوة إليها. وسبب هذا أن رسوماً دينية، ونظماً إجتماعية أجنبية، وغلت عليهم بلادهم في عصور مختلفة فأثرت في تفكيرهم وفي تربيتهم الدينية تأثيراً كان هو العائق الأكبر الأظهر.

أما الأمر الثاني من الأمرين الأساسيين في نجاح الشيخ محمد فهو أمر خاص به وبأسلوبه العام وبحياته الخاصة والعامة.

إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان أحد أولئك الرجال القليلين الذين تتكافأ قواهم العقلية والعلمية والخلقية فيصيبون النجاح الذي يبغون. وإن كل إنسان – سواء أكان عادياً أم كان عبقرياً – له قوى مختلفة، أحياناً تكون متكافئة، وأحياناً تكون متنافرة متفاوتة. ولا ينجح من الناس في الغالب – سواء في ذلك الأفراد والجماعات – النجاح التام الصحيح إلا من تكافأت قواه تكافؤاً تاماً. فإذا كان للإنسان قوة علمية غير مكافئة لقوته العقلية أو لقوته الخلقية مثلاً، أو كان العكس لم يكن إنساناً مرجواً له النجاح المطلق في الأكثر ولا مرجوة منه الفائدة المنشودة لأن قواه حينئذ تتهادم ويدمر بعضها بعضاً.

أما إذا تكافأت هذه القوى فإنها كلها حينئذ تنطلق في سبيل واحدة وقوة واحدة إلى الغرض الأقصى فتبلغه. والأمم في هذا كالأفراد سواء. وقد رأينا كيف صرعت أمة من أكبر الأمم وأعظمها في قوتيها العسكرية والعلمية، ولكن هاتين القوتين كانتا فوق قوتيها السياسية والخلقية. فلم يكن بين قواها تكافؤ فتنافرت وراحت تتخبط بين هذه القوى تخبط من وقع بين قوتين متنافرتين حتى خرت صريعة خائرة متهدمة. وهي ليست أمة بل أمم، وإنما أردنا المثل فقط.

أما الأفراد الذين يسقطون في الميدان وتتلقاهم الخيبة والفشل أينما وجدوا وذهبوا على رغم المواهب الهائلة التي امتازوا بها لأنها لم تجيء متكافئة فكثيرون جداً، وطريق الحياة يغص بهم دائماً، وهم يشاهدون كل وقت مجندلين دون أغراضهم وأهدافهم وإن أغلب الناس من هذا القبيل.

قبل البدء

لست أعلم قضية أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها بينما هي أولى القضايا بالتفكير والعناية والبحث من هذه القضية. وذلك أن جموعاً بشرية هائلة - قيل أن أعدادها تبلغ أربعمائة مليون منتشرة في سهول فسيحة واسعة من أفريقيا وآسيا وأوروبا أيضاً، تدين بدين مبادئه السليمة الأولى هي أسمى ما يتصوره العقل البشري من القوة والحث على مواصلة السير في سبيل المجد والكمال - عاجزة منذ مئات السنين عن اللحاق بالركب الإنساني المغذ الخطا إلى هذه الحياة التي تنفجر كل يوم عن ينبوع دفاق بالمثل الإنسانية أو العلمية التي من ملكها فقد ملك ناصية هذا الوجود واحتكم فيه وفي من فيه من حيوان وجماد ونبات... وقد غلبت هذه الجموع على أمرها في كل معنى من معانيها وضرب من ضروب حياتها... فهي من الناحية السياسية خاضعة، بل خاضع ما تحت أقدامها إما بالفعل وإما بالقوة، كما يقول المناطقة، للسلطان الأجنبي - ومن الناحية العلمية عاجزة عن أن تقدم للتراث العلمي شيئاً يمكن أن ينسب إليها، وعاجزة عن أن تستغني عن الآخرين في أمر من أمورها الدقيقة أو الجليلة - وهي من الناحية الصناعية عاجزة عن إيجاد الملاعق لأفواهها وإبر لأثوابها - ومن الناحية الزراعية عاجزة - لولا الآخرون - عن الإنتفاع الصحيح بغزارة مياهها وخصب أرضها - أما من الناحية التجارية فإن أكبر عاصمة من عواصمها عاجزة عن أن يكون لأحد أبنائها متجر واحد يضارع أحد متاجر هؤلاء الغزاة أو يغني عنه... وهكذا هي في كل وجه من وجوه حياتها وغرض من أغراض وجودها.

ومما يوجب الدهشة والإستغراب أن هذه الجموع الهائلة عاجزة أفراداً كما هي عاجزة أمماً، فلم يستطع أفرادها ومهاجروها في أوروبا وأمريكا أو إحدى القارات الأخرى أن يوجدوا لأنفسهم مكاناً في هذه الحياة تتعلق به الأبصار أو يبعث على الإعجاب أو يؤثر في المجموع الصناعي أو التجاري بوجه من وجوه التأثير كما فعل غيرهم... وإن العجب ليأخذ منا كل مأخذ - كما يجب أن يذهب الألم في نفوسنا كل مذهب - إذا نظرنا لرأينا الرجلين من سوريا أو لبنان أو غيرهما، أحدهما مسلم والآخر مسيحي، يخرجان يضربان الأرض، يطلبان

الثراء والمجد، فيهبطان أمريكا أو يهبطان وطناً إسلامياً كمصر مثلاً. فما هو إلا أن ينغمس ذلك المسيحي في ذلك المجتمع القوي اللجب، ثم لا يلبث أن يرفع رأسه عالياً، فإذا به قد دفع الجموع عن موضعه، وإذا به يذكر حينما يذكر أصحاب رؤوس الأموال الضخمة وملوك الصناعة المتوجون بتاج العصامية البراق... أما صاحبه المسلم فيبقى في مهاجره ما بقي بدون أن يحس له وجوداً كما لم يحسس له وطنه حينما خرج منه فقداً ما عدا النادر القليل.

وقد أخذ هذا التفاوت بين الفريقين في الوطن الواحد ومن العنصر الواحد يتعاظم يوماً فيوماً، حتى أصبح - ملحوظاً جداً في جميع الأقطار التي يسكنها المسلمون وغيرهم أن غير المسلمين يفوقون المسلمين في كل ضروب التقدم وفي كل وجوه الحياة بشدة وقوة، سواء في ذلك الجوانب المادية والجوانب المعنوية... وهذا التفاوت العجيب لم يقتصر على الشرق دون الغرب أو على البلاد العربية دون الأخرى غير العربية، بل يوجد في أوروبا وأمريكا كما وجد في الشرق العربي وفي الشرق غير العربي من الشعوب الآسيوية والإفريقية.

وقد التقيت هذا العام في الحجاز بأناس ممتازين وآخرين عاديين من بلدان إسلامية كثيرة، فتحدثنا طويلاً ومرات كثيرة في هذه المسألة، فوجدت كلمتهم متفقة على وجود هذا التفاوت بأشكال وصور قوية بارزة في كل مكان، وإن كانوا حينما حاولت أن أفهم منهم العوامل والأسباب لذلك لم أجد عندهم شيئاً، بل وجدتهم في الأكثر يذكرون أشياء هي بعيدة جداً عن المسألة وعن أن تكون أسباباً للمسألة، زاعمين أنها هي الأسباب الحقيقية. وهذا واأسفاه مما يبعد عن معرفة المرض الحقيقي، ثم مما يبعد عن نيل الشفاء أو التماس الشفاء... وإن الأمراض في نفسها خطيرة مخيفة، ولكن أخطر هذه الأمراض أن يكون المرء مريضاً ثم لا يدري ما المرض، بل يذهب بظنه شيئاً آخر، ويظل يتمنى العلاج من ذلك الشيء الآخر حتى يهلك، لأنه في نفس الأمر عاجز عن العلاج وعن الشفاء من تلك الأمور التي زعمها أمراضه... والخطوة الأولى اللازمة لمحاولة العلاج - أو لإفادة العلاج - هي معرفة المرض. وقد كان خطب الإنسانية في مراحل وجودها الأولى في عجزها عن معرفة أمراضها، ثم في عجزها عن الخلاص منها لو عرفتها قبل تقدم المباحث الطبية والكشوف العلمية... إنها ظلت كل تلك الأحقاب الغابرة جاهلة بأمراضها وبأسبابها، ثم جاهلة بالعلاج الذي فيه

ضمان الشفاء... وستظل الإنسانية أيضاً تعاني أمراضها الإجتماعية والعقلية والإعتقادية حتى تتوصل إلى معرفتها معرفة صحيحة جازمة، وإلى تعيينها تعييناً قاطعاً صحيحاً، وحتى تتوصل إلى معرفة الخلاص والشفاء منها. وإذا كان صحيحاً قولهم: إن تشخيص الداء نصف العلاج فإن أصح منه أن يقال: إن العلاج مستحيل ما لم يشخص الداء... فعلينا إذن أن نعرف أمراضنا وأن نعمل على معرفتها إذا كنا راغبين حقاً في أن نكون قوماً صالحين نافعين لأنفسنا ولغيرنا في هذه الحياة.

يوجد اليوم قوم يعدون من خيرة المسلمين تعليماً وأخلاقاً، ينادون ما وسعهم النداء: بأن جماع علل المسلمين هو سفور المرأة وإختلاطها بالرجل، ويزعمون أنهم لو رجعوها إلى البيت وإلى الحجاب لاستطاعوا بسهولة وسرعة أن يثبوا على قمة المجد الدولي... وقد عبأ هؤلاء القوم كل قواهم للنهوض بهذه الفكرة.

ولا يمكن أن يصدق هذا القول إلا إذا صدق القول: بأن سواد جلود الزنوج هو السبب في حرارة الشمس وفي غزارة ضيائها. ويجب أن يعلم هؤلاء الإخوان الفضلاء أن الأجنبي الظافر حينما اعتدى على بلاد المسلمين وسلبهم حريتهم كانوا – أي المسلمون – آخذين بالحجاب وبالتفريق بين الرجل والمرأة بلا هوادة ولا اعتدال، وأن يعلموا أيضاً أنه لا تزال توجد إلى اليوم أمم مستمسكة بهذين الأمرين بعناد وشدة. ومع هذا فإنها – أي هذي الأمم – تعد بين الشعوب نموذجاً رائعاً للهوان والضعف والجهل والمسكنة...

ويوجد إلى جانب هؤلاء جماعات أخرى عظيمة الشأن من حيث العدد والحماسة، تكاد في هذه الأيام تقيم الدنيا وتقعدها – وأنا أعني كما لا يخفى دنيانا فقط لا دنيا الأعداء – مبشرة برسالة روحية خلقية، استاقت في طريقها جماهير الشباب، وأوشكت تصيب معظمهم بنوع من جنون الفكرة التقي البار، أو الجنون المقدس.

خلاصة هذي الرسالة: أن طريق المجد الإسلامي المنشود ينحصر في الرجوع إلى الأخلاق الدينية الأولى، وفي تنفيذ الحدود الشرعية، وفي أداء الزكاة، وفي إقامة سائر الفروض اليومية والشهرية والسنوية، ثم في الإيمان بالله والجهاد الديني في سبيله... وقد انطلقوا في كل مكان يبشرون بهذه الرسالة،

وأخذوا بأساليب قوية بارعة نشيطة لنشرها والدعوة إليها حتى كثر المؤمنون بها والمعجبون والمثنون... ويا ليت هؤلاء يعرفون أن الأخلاق الدينية المحض وكل ما يدعون إليه ويبشرون به من الفضائل هو سبيلنا بلا شك إلى دخول ملكوت الله، وإلى امتلاء أنفسنا بالجمال والرضا والثقة... ولكن السبيل إلى المجد القومي المطلوب ينحصر في أشياء أخرى: في الأخلاق الصناعية والتجارية والإقتصادية والمادية والعلمية... وإذا كان لا أمل لنا في أن يخرج صيام غاندي الإنجليز من الهند، فإنه كذلك لا أمل لنا في أن نخرجهم هم وسواهم من الغاصبين بصلاتنا أو صيامنا أو إيماننا المجرد، أو بأخلاقنا الدينية الصرف، فالأخلاق الصناعية الإقتصادية العلمية المادية هي التي تعز الشعوب وتحلها الذروة... ويؤسفنا أننا لا نزال محتاجين إلى فهم هذي الحقيقة وإلى تفهيم الآخرين إياها... أما الأخلاق الدينية المحض فتلك أشياء أخرى، لها نتائج أخرى. ولهذا فإن المستعمرين والغاصبين والمنافسين وغيرهم من ضروب الأعداء، لا يرهبون هذي الأخلاق ولا يخشون أصحابها، ولا يؤلمهم كثرتهم وكثرتها، بل لعلهم يعملون على أن تكون الشعوب التي يريدون افتراسها أو بقاءها تحت سلطانهم وعدوانهم، متدينة مسرفة في تدينها، محافظة على كل فضائلها الدينية... وإنما يخشى هؤلاء الأخلاق الصناعية المادية العلمانية، لأنهم يدركون ما لهذه من قوة ومنافسة.

ولعله من الواضح المستغني عن كل بيان أن ألمانيا واليابان وأشياعهم إنما انتصروا في بداية هذه الحرب المنتهية بصناعاتهم وجيوشهم المزودة بالقنابل والطائرات والمدافع والدبابات الكثيرة المتفوقة، وأن خصومهم إنما انتصروا في آخر الجولة بهذه الأمور نفسها، وأن الفضائل والأخلاق الدينية وأشباهها لم تتدخل لا في البداية ولا في النهاية.

أمريكا اليوم مثلاً هي أقوى منا – مع الفروق المخجلة بلا شك – فإلى ماذا ترجع قوتها وتفوقها علينا، وإلى ماذا يرجع ضعفنا وعجزنا؟ من الجلي المفروغ منه أن أمريكا لم تتفوق علينا بسبب إيمانها بالله، أو بسبب أخلاقها الدينية أو الروحية... وإنما نالت هذا التفوق بأخلاقها الصناعية والإقتصادية والمادية والعلمية، وأننا إنما عجزنا عن اللحاق بها لعجزنا عن اللحاق بأخلاقها هذي، لا لعجز في روحانيتنا أو في إيماننا بالله أو في فضائلنا الدينية... لا أحد اليوم

يستطيع أن يماري في هذي الحقائق بعد أن ظفرت روسيا وجيوشها بأعظم نصر عرفه البشر مع أن هؤلاء سلبيون من هذه الناحية تماماً.

فطريق المجد القومي إذن يجب أن يكون معروفاً واضحاً متفقاً عليه، ويجب أن يعلم أنه غير ما يبشر به هؤلاء الإخوان الصالحون... إن كان هؤلاء الإخوان يعرفون هذا الطريق ولكنهم إنما يدورون حولها الآن اضطراراً، وإنهم بعد حشد الحشود سيتعرفون إلى طريقهم الحقيقي: هذا هو الأمر الذي ينوون فما أبعد ما ذهبوا بأنفسهم وبأتباعهم. ونظنه مخطئاً جداً من حاول أن يقوي نظره بقراءة الحروف الصغيرة تحت النور الضئيل...

كم تستولي علي شتى العواطف إذا رأيت هؤلاء الشبان المخلصين المتوقدين حمية وغيرة يقادون بهذه الأفكار، دون أن يدروا من أمرها سوى أنها تسرف في إعطائهم الوعود السخية الكريمة الرخيصة، وسوى أنها تؤكد بلوغهم كل ما يرجون ويحبون من آمال بأضعف الأسباب وأصغرها... إني لأهتف أحياناً كثيرة إذا رأيت هؤلاء المؤمنين - كما كان يهتف أحد أدباء فرنسا إذا رأى أمثالهم: يا للسذاجة المقدسة، ويا للإيمان المخدوع!

يقال إن الدعاة ينجحون كثيراً ويلقون المؤمنين الكثيرين بهم بين الشعوب الإتكالية التي يعتمد أفرادها على الآخرين في تحقيق آمالهم لعجزهم هم عن تحقيقها. فأمثال هؤلاء يسارعون إلى تصديق كل من جاءهم بفكرة أو مبدأ أو دين أو مذهب، زاعماً أنه سيعطيهم كل شيء إذا ما اتبعوه وآمنوا به وأخلصوا في إيمانهم... ويسارعون إلى التنازل لتبوعهم أو قائدهم أو زعيمهم أو مرشدهم عن كل شيء فيهم، ويصبحون له آلات إنسانية تقاد بأذنيها لا بعقلها، ويهبونه منهم الطاعة العمياء. وهؤلاء يعسر جداً إفهامهم أو إخراجهم من قبضة هذا المؤمن به، وتذهب الحجج والبينات لديهم عبثاً ولغواً... فعلينا نحن إذن أن نتوقع رخص الإيمان ورخص المؤمنين ما لم نصبح أمماً إستقلالية ذاتية نعتقد أنها تبلغ آمالها بأعمالها وأفكارها وقواها الذاتية الفردية، لا بإتباع الدعاة والرؤساء الكرماء بالكلام... إن أعاصير رجعية مجنونة لتهب في هذه الآونة الأخيرة على مصر التي رضيناها لنا زعيمة، وإنها لتترنح تحتها. ولا ندري أتثبت لها أم تتهاوى تحت ضرباتها الوجيعة.

لست أحاول هنا وقف العاصفة، فهي لن تقف، ولكنها ستتكسر على

الشواطئ الصخرية، وستذهب مزتها في إنطلاقها في هذا الفضاء الرحيب، وفي دورانها حول نفسها. وحينئذ نرجو أن توجد العوامل التي تمنع هبوبها من جديد، أو لا توجد العوامل التي تجعلها تعصف مرة أخرى.

ولا أجد مفراً من أن أنكر هؤلاء الإخوان أن الروح الدينية كثيراً ما تكون سلبية تجاه الحياة، وعطلاً في أصحابها إن لم تشايعها روح متوثبة من المادية الواقعية الصارمة ومن التربية العالية... وفي الحق أنهم قليلون جداً – إن لم يكونوا غير موجودين – أولئك الذين استطاعوا أن يجمعوا بين التدين وبين الإبداع في الحياة والنهوض بها. ولهذا فإنه ليكاد يعجز الباحث أن يجد متديناً حرفياً استطاع أن يكون في الحياة شيئاً مذكوراً، وأن يتقدم بها ويعطيها ما ليس عندها، ونجد كل الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم والأساليب المبتكرة العظيمة هم من أولئك الموصوفين بالإنحراف عن الدين وبالتحلل منه... والعيب بلا ريب عندنا ليس عيب الدين ولكنه عيب المتدين العاجز عن التوفيق بينه وبين مطالب الحياة... وقد أدرك هذه الحقيقة القدماء. ويروي أن زياداً – ذلك القائد الداهية العربي المشهور – قال: أما عبد الله بن عمر فقد قعدت به تقواه – يعني عن النهوض إلى السيادة والمجد – وقال المتنبي يصف الرجل الذي سيكون عونه في إنتزاع الملك:

شيخ يرى الصلوات الخمس ناقلة
ويستحل دم الحجاج في الحرم

يريد أنه غير متدين، لأنه يرى المتدين غير أهل لما يطلب ويراد منه...

ولما قال أحد الشعراء يمدح المأمون:

أمسى إمام المهدي المأمون مشتغلا
بالدين، والناس بالدنيا مشاغيل

غضب وقال: ما زدت على أن جعلتني عجوزاً عاجزة عن الحياة.

فطبيعة المتدين – غالباً – طبيعة فاترة، فاقدة للحرارة المولدة للحركة، المولدة للإبداع... ومن ثمة فإنك غير واجد أعجز ولا أوهن من هؤلاء الذين يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية... ونرجع لنكرر مرة أخرى أن الدين نفسه لا ذنب له، ولكن الذنب ذنب النفس البشرية التي لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين، والتوفيق بين الروحين روح الدين، وروح العمل للحياة. وسيكون عملنا

هو محاولة التوفيق.

وإن مما يؤلم ومما يتعجب منه حقاً أن هذا الإنهيار الشامل لم يكن وقفاً على الشعوب الإسلامية فحسب، بل شملها وشمل الشعوب المؤلفة من المسلمين وغير المسلمين فقد اجتاح الضعف والإندحار والسلطان الأجنبي كل الشعوب الموحدة الإسلامية والشعوب المختلطة حتى لم يفلت صغير ولا كبير من هذه القبضة المحكمة القوية، ومن هذه البطشة القاصمة.

ومن المشاهد الموجعة أن الشعب من هذه الشعوب يظل جامداً في موضعه لا يتقدم، بل ولا يتحرك ولا يأخذ بشيء من وسائل الحضارة والعمران القوي ولا بالعلم الحديث - أو لا يطلي مظاهره ومظاهر بلاده بذلك - إلا إذا وصل نفسه بهؤلاء الغرباء واستعانهم واستقدمهم كمعلمين مرشدين أو قدموا هم غزاة فاتحين. وصار مقدار ما يأخذ الشعب وما يكسب وما يستفيد من هذه الحضارة وهذا العلم وذلك العمران مقيساً موزوناً معدوداً بالسنين والأعوام التي قضاها في كفالة هؤلاء، وبعدد الشركات والمتاجر والمصانع والخبراء الفنيين الذين استخدموا في وطنه وأراضيه، أو على الأصح الذين سادوا في أراضيه. فكلما كثرت هذه الأعوام والمتاجر والشركات وزاد عديد هؤلاء الخبراء والفنيين في وطن من الأوطان كثر بقدر ذلك مظاهر حضارته أو طلاء حضارته كما هو الواجب أن يقال، وكلما نقص ذلك نقص ذاك... ولهذا فإنك إذا أردت أن تسأل: أي هذه الشعوب والأوطان أكثر حضارة وعمراناً، أو أيها أكثر استعارة للحضارة والعمران، أو أيها أقدم في ذلك وجب عليك أن تقول: أي هذه الشعوب والأوطان اتصل بأوروبا أول، وأيها أكثر إنتفاعاً بشركات أوروبا ومتاجرها وخبرائها وأموالها... وما أحسب بلداً من بلاد المسلمين استطاع أن ينجو من هذا الناموس الشامل الصارم... وقد شوهد وإلى اليوم لا يزال يشاهد أن الأمة التي تختار العزلة التامة والإكتفاء الذاتي تظل محرومة من كل أسباب هذه الحياة الحاضرة، محرومة من كل ما يسمى تقدماً، متمسكة بخيوط تلك الحياة القديمة الواهية. ونحن نعرف وأكثر القراء في ظني يعرفون أن أمة من هذه الأمم اختارت لنفسها البقاء خارج هذه الحلقة المضروبة فصارت مضرب الأمثال في ضعف الشأن وسوء الحال حتى إن بلادها كلها - وقد كانت في أزمان متقادمة موئلاً للحضارة والسلطان والمجد - لا يوجد فيها اليوم طبيب واحد ولا مدرسة

واحدة ولا صحيفة واحدة وسكانها لا يقلون عن سبعة ملايين من الأنفس البشرية تحمل أربعة عشر مليون عين وأربعة عشر مليون أذن!!

ومن الملاحظات الجديرة بكل عناية وتفكير أننا - حتى المتعلمين منا في المعاهد الأجنبية أو في المعاهد الموضوعة حذو المعاهد الأجنبية الذين يحملون الشهادات العلمية العليا التي يحملها زملتهم من الأوروبيين والأمريكيين - قد عجزنا عن اللحاق بالآخرين وعن مساواتهم في الإنتفاع بالشهادات العليا والدراسات العليا: فإن هؤلاء المتعلمين منا عندما يتخرجون من هذه المعاهد يبقون وقصارى أمرهم أن يكونوا مقلدين ناقلين محتذين مراجعين فاقدين كل إبتكار وتجديد وسير بالعلوم التي درسوها إلى الأمام خطوة واحدة... وإن الذين يحملون الشهادات العليا عندنا في العلوم المختلفة يتعدون الإحصاء، ولكن أي إبتكار علمي جاءوا به، وأية نظرية لم يسبقوا إليها سلمها لهم العلم، وأي إكتشاف في ناحية من نواحي المعرفة وفقوا إليه، وأية خطوة خطوها بالإنسانية القائمة على خطوات بنيها؟

أما زملتهم الأوروبيون والأمريكيون الذين خرجوا من المعاهد التي خرجوا منها، والذين يحملون الشهادات التي يحملون فهم الذين يقدمون إلى العلوم وإلى الثروة الإنسانية العامة كل يوم شيئاً جديداً. وهم الذين يفتحون للبشرية كل حين باباً من أبواب المعرفة لم يفتح لأحد من قبلهم. وهم الذين ينفقون أوقاتهم جادين دائبين في فرش الطريق وإزالة كل العقبات الموجودة فيها. وهم الذين على أجنحتهم طار الإنسان حتى سبق الخيال. وهم الذين تنتظر منهم الإنسانية أن يحققوا لها كل أغراضها وأن يقضوا على متاعبها وآلامها! فما أعظم الفرق بين الفريقين! فما هي العوامل الخفية التي قضت بهذا التفاوت المخزي المفزع؟

هذه مناظر بشرية متكررة تؤلم كل نفس، أو يجب أن تؤلم كل نفس، ويقف عندها طويلاً كل مفكر او يجب أن يقف عندها كذلك. ولكننا - والأسباب خفية أو تكاد تكون خفية - نمر بها ممثلة أمامنا، بل ممثلة في أوطاننا وفي أنفسنا إذ نحن أشخاص الرواية - بل ومؤلفوها - غافلين معرضين لا نمنحها أقل التفات ولا أسرع نظر... فمن منا فكر تفكيراً جاداً صادقاً في هذه المشاهد الباكية متلمساً الأسباب، باحثاً في الأعراض والأمراض محاولاً الوصول إلى مصدر الداء وإلى علة العلل؟ ومن منا قال لنفسه أو لغيره: إن هذه ظاهرة غريبة، وحالة

إجتماعية مريبة، كيف حدثت وكيف يمكن أن تعالج؟

إن المطابع عندنا تخرج لكبار الكتاب ولصغارهم كل عام ما يصعب عده من الأسفار المؤلفة في الآداب ونحوها ولكن أي كتاب أخرجته في هذه القضية بل أي كاتب فكر فيها؟ الظاهر أن الشعوب إذا مرضت أمراضاً إجتماعية خطيرة ضعف شعورها بالحياة، ثم تبع ذلك ضعف شعورها بأمراضها وآلامها، ثم تبع ذلك ضعف تفكيرها فيما أصابها وما يصيبها! والإحساس بالآلام هو في الحقيقة برهان الحياة الفياضة المتدفقة وبرهان القوة والعافية... ومن أجل هذا كان إحساس الإنسان أقوى من إحساس الحيوان، وإحساس الحيوان أقوى من إحساس النبات، ثم الجماد لا إحساس له لفقده الحياة. بل إن الكبار أعظم إحساساً من الصغار لأن حياة هؤلاء أكبر من حياة هؤلاء! وإذا عرفنا هذه الحقيقة لم يكثر تساؤلنا ولا إستغرابنا لخضوع الشعوب والجماعات المنحطة القريبة في معانيها من الحيوانات بصبر هو الرضا عنه لكل هذه الآلام المصبوبة عليها ولاستبعاد الآخرين الأقوياء لها، غير محاولة أن ترفع رؤوسها أو تلقي عن كواهلها شيئاً من هذا العذاب، أو مفكرة تفكيراً صحيحاً جاداً في أنها مظلومة مستبعدة أو أنها موضوعة في غير الوضع الإنساني الصحيح... بينما نجد الشعوب والجماعات الأخرى ذات الحياة والشعور القوي والإحساس الفياض تقوم قيامتها على من أراد أن يصيبها بشيء ما من هذه المصائب التي تنزل كل وقت بالجماعات والشعوب الأولى... فلا يجب أن نعجب إذن كثيراً إذا رأينا أمة من الأمم تسام كل ألوان الخسف غير قائلة: لا، بل غير متألمة بل غير شاعرة بعذابها، ثم رأينا أمة أخرى تعصف بكل ما أمامها إذا ما مسها ماس... ومن هنا كان المتنبي حكيماً جداً حينما قال:

من يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بميت إيلام

وليس بجميل منا أن نطالب الجماعات بأن تفكر في حالتها المنكرة الخبيثة وتفكر في محاولة تغييرها ونبذها حتى نستطيع أن نشعرها بآلامها ونشعرها بأن هنالك حياة إنسانية أرقى وأفضل من حياتها التي تحياها. هذه خطوة في أول السلم لا بد منها... فالسبب إذن في أن قومنا لا يفكرون كما يجب في دائهم العضال، ولا يتطلبون أو يتلمسون له العلاج هو أنهم لم يشعروا به شعوراً قوياً

يبعث على الإنكار أو الثورة لأن أمراضهم اشتدت بهم حتى صاروا لا يكادون يحسونها. ومن عجب أن يكون وجود الشيء وشدته باعثاً على عدم الشعوب به! ومن هنا أيضاً كان المتنبي خبيراً جداً حينما قال مبيناً عن هذا المعنى الدقيق الغامض:

وشكيتي فقد السقام لأنه
قد كان لما كان لي أعضاء

أما أنا - وقد يكون هذا لسوء حظي - فلقد فكرت في هذه المسألة تفكيراً شاقاً مضنياً، وما زلت منذ ست سنوات أو تزيد ورأسي يلتهب بالتفكير فيها إلتهاباً، مقلباً لها على كل الوجوه، محاولاً إنضاجها في معمل الفكر. وما فتئت كل هذه الأعوام أثير مع الأصدقاء ومن يظن بهم الفهم والعلم حولها المعارك الكلامية، والحروب الجدلية، بغية الإحاطة بها من كل أطرافها. والإلمام بأسبابها، حتى لقد ظننت بها شبه مريض، أشفى إذا تحدثت فيها وأمرض إذا سكت عنها... وقد اجتهدت أن أدرس القضية درساً دقيقاً من كل وجوهها وإحتمالاتها، فدرستها في الكتب التي ظننتها مصدر الداء، ودرستها في التاريخ الخاص والعام، ودرستها - وهذا أبلغ الدروس - في نفوس المسلمين: في نفوس الخاصة والعامة المتعلمين والجاهلين، الآخذين معارفهم عن الشرق أو عن الغرب... وقد حرصت كل الحرص لما تشرفت بأداء فريضة الحج في العام الماضي على أن أتصل بالمسلمين الذين جمعتهم هذه الفريضة إتصال بحث ودرس وتنقيب واستقراء، وأصررت على أن أغوص إلى الأعمال وأن أستخرج الدفين الكمين، وأن أصل من تلك النفوس الحائرة إلى ما لم يوصل إليه قبلاً، وأن أكتشف منها ما ظل كل هذه الأحقاب مجهولاً حتى بلغت - حسب ظني - ما أردت. وقد كان كثيرون من الإخوان يعجبون من عنايتي بالصغائر المتصلة بهذه القضية إذا ما رأوني ملحاً في السؤال، ملحفاً في طلب الإكتشاف، وإذا ما رأوني أسأل وأكلم من لا يجوز - بادىء الرأي - أن يسأل وأن يكلم من دهماء الناس وعامتهم.

وقد خيل إليّ أني قد صدرت في هذه الدراسة والبحث عن نتيجة طيبة كاملة بل نتيجة صحيحة لا شك فيها عندي، فجئت أعرضها هنا عرض مؤمن بها وأسجلها تسجيل مؤمن بما سجل.

أن التفاوت الذي ذكرناه بيننا معشر المسلمين وبين الأجناس والأمم الأخرى

لا بد له من أسباب وعلل. وهذا ما لا ريب فيه. فليس من المعقول أن يكون تقدم قوم وتأخر آخرين مشابهين لهم في ظاهر الخلق بل وباطنه مجرد صدفة من الصدف أو مجرد إتفاق لا تعليل له، بل كل شيء قائم على أسباب وعلل.

والمسألة لها إحتمالان أو فرضان من حيث النظر العام: أحدهما أن يقال: إن هذا التفاوت طبيعي في أصل التكوين وجبلة الفريقين. وثانيهما أن يقال إنه تفاوت عارض له أسباب عارضة من الممكن علاجه ومن الممكن الشفاء منه.

أما الفرض الأول فليس من الممكن القول به ولا المصير إليه. وذلك أن تطور العقل البشري في جميع مراحله ومراحل وجوده - وأن التاريخ العام لقيام الأمم وسقوطها ولتوثبها وركودها - وأن تعاقب الأمم والشعوب على عرش الحضارة وتداولها الأخذ بيد المدنية - وأن إختلاط العناصر وتمازجها - بحيث لا يوجد عنصر نقي حقيق لا تشوبه شوائب العناصر الأخرى التي فرضت متأخرة طبيعة أو فرضت متقدمة طبيعة - وأن ما ثبت ثبوتاً لا ينهض لهدمه شيء من إستعداد كل إنسان - حسب ما يصادفه في طريقه وحياته - لأن يكون إنساناً راقياً مهذباً أو إنساناً منحطاً فاسداً - إن ذلك كله - مضافة إليه أشياء أخرى كثيرة - لا يبقى لهذا الإفتراض فرصة لأن يكون مقبولاً قائماً. وهناك شيء أخر في هذه المسألة هو أعظم مما ذكرنا وأظهر. ذلك أن علماء التشريح قد أثبتوا أنه لا فرق يذكر بين جمجمة هذا الإنسان السيد الراقي اليوم وبين جماجم هذه الشعوب التي نشكو اليوم من ضعفها وهوانها لا من ناحية الحجم ولا من ناحية التلافيف والتعقيد والوضع. وأثبتوا أن المخ العام في أممنا الواهنة المغلوبة على أمرها والأمم القوية المبتكرة المتحكمة في مصاير العالم ليس له فروق يوبه لها تقضي بهذا التفاوت العنيف البعيد... فهذا الإفتراض مفروغ إذن من بطلانه، وإذن فالإفتراض الآخر هو الصحيح الواجب المصير إليه، وعليه بنينا بحثنا وكتابنا.

وسنثبت في الفصول الآتية أن المسألة لا تعدو أن تكون تفاوتاً بعيداً في فهم الحياة وفهم سنن الوجود وفهم ما بين الأسباب والمسببات من ارتباط، وفهم الإنسان نفسه وفهم صلات الإنسان بالإنسان وصلاته بالوجود وفهم كل ما يقع تحت الحس والوجدان، وإن الحواجز والعوائق التي وقفت في سبيل المسلمين لا تخرج عن أن تكون عوائق معنوية نفسية إعتقادية حملوها أنفسهم

فوهنت، ووضعوها في طريقهم فحادوا عن الطريق، وجللوا بها الوجود فلم يفهموه أو يعرفوه ولم يعرفوا حدوده وقوانينه، فتاهوا فيه وذهبوا إلى غير مذهب وسلكوا غير سبيل. فاعترض طريقهم من عرفوا الطريق وأخذهم بقوة سنن الحياة من علموا سننها.

شعبان هبطا هذا الكوكب الأرضي الواسع الأرجاء الكثير الأخطار، أحدهما فكر في نواميس هذا الكوكب الذي هبطه وفي قوانينه ونظمه وفي نواميس أهله وقوانينهم ونظمهم تفكير فاحص فاهتدى إلى كل شيء مما يتصل بذلك فسار تحت ضمان معرفته في قوة لا يكبو ولا يضل، فاستغل واستقل وثبت أقدامه وقواعده على العلم والعرفان... وشعب آخر هبط غريباً في هذا الكوكب جاهلاً نواميسه وقوانينه ونواميس من فيه وما فيه وقوانينه، بل جاهلاً نواميس نفسه ونواميس وجوده، فلم يدر كيف يأخذ ولا كيف يدع ولا كيف يسير ويتجه، ولم يعرف ما يقوده إلى النجاح والفوز ولا ما يؤدي به إلى الفشل والدمار... هذان شعبان فماذا عسى أن تكون النتيجة لإجتماعهما؟ ليس هنالك أدنى ريب في أن الغلبة ستكون للعلم والعرفان، وقد كانت حقاً، وليس هنالك أقل تردد في هزيمة الجاهل إذا ما اصطدم بالعالم وقد حقت بلا صعوبة.

فمهمتنا إذن في هذا الكتاب – بل مهمتنا العامة – أن نعمل على دلالة قومنا بأن الله جلت قدرته وضع لهذا الوجود سنناً لا تبديل ولا تحويل لها، وأن هذه السنن تسير – وفق حكمته وعدله – سيراً دقيقاً موزوناً مقدوراً لا تشويش فيه ولا اضطراب كأنه مسألة رياضية لا يختلف في حلها العلماء ولا تختلف نتيجتها لإختلاف العلماء الحالين لها. فالنتيجة هي هي واحدة سواء أقام بحلها المسلم أم قام بحلها الكافر، وسواء أحلها الشرقي أم حلها الغربي فإن الحقائق المجردة لا تتغير لإختلاف المتناولين لها أو لإختلاف أديانهم ومبادئهم... فإذا ما استطعنا – وذلك ما يجب أن نستطيعه – أن نفهم قومنا ذلك، وإذا ما استطاعوا هم أن يفهموه حقاً – وذلك ما يجب أن يفهموه – كان من اليسير جداً بل ومن المحقق يقيناً أن يسيروا سيراً سريعاً – لا إبطاء ولا تأخير – في سبيلهم التي خلقهم الله وأعدهم وهيأهم وأمرهم للسير فيها – أي إلى الكمال وإلى الحياة القوية. فإن الله قد ذرأ خليقته وذرأ فيها بذور الكمال وذرأها مهيأة لأن تبلغ

أقصى ما في الحياة من قوة ونجاح. وذلك أن الله خلق الأشياء لتكون كاملة لأنه كامل، ولتبلغ أشدها في وقت من الأوقات كما قلنا. فالحيوان – وعلى رأسه الإنسان طبعاً – والنبات والجماد خلقت وفيها عناصر الشوق الطبيعي الآلي والشوق الإختياري الإرادي وكل هذه الأفلاك التي تزين الظلام في حلكة الليل الأصم – وهذه الأرض التي صارت من كمالها وقوتها تنبت الإنسان والحيوان وكل ما فيها مما يجل عن الحصر والتسمية ومما يسعد الإنسان ويهبه الراحة والعيش الهنيء: حدث العلماء أن كل هذه الموجودات خلقت – أول ما خلقت – لا تصلح لشيء مما هي صالحة له اليوم وليست شيئاً له قيمة بالنسبة لما صارت إليه اليوم. ولكنها ظلت – لما وضع الخالق فيها من إستعداد للكمال والتقدم – تدرج إلى غاياتها وتحبو في طريقها جادة لا يعوقها عائق ولا يصدها صاد حتى أصبحت اليوم شموساً ونجوماً لامعة تغمر الوجود بهجة وجمالاً وحياة وضياء...

والإنسان بلا أدنى ريب وهب من الإستعداد للكمال والوثوب والقدرة على إبراز أجمل ضروب الحياة وأقواها ما لم يوهب مخلوق آخر، ولكن الإنسان – لسوء حظه وقد يكون لحسن حظه – جعل سيره نحو الكمال إختيارياً وآلياً معاً لا آلياً فقط – بمعنى أنه من الممكن بالنسبة له السير نحو الكمال والسير أيضاً نحو النقص والدمار. وكلا الأمرين بيده وتحت مشيئته لأن الله شاء له ذلك.

فكان من اللازم الضروري المحافظة حينئذ على خطواته كيلا يزل أو يضل ولكيلا يخرج عن الطريق. ولا جدال في أن شيئاً من الأشياء لا يستطيع أن يصل إلى غايته المرسومة إذا أزيلت عنه العوائق وزحزحت الموانع ثم استعملت المواهب الكامنة فيه وألهبت إستعداداته الطبيعية. ولكن يجب أن يفهم هنا – وهذا له شأن خطير كبير – أن في إستعداد المواهب البشرية وفي طاقتها أن تمضي في سبيلها دون وقوف، فعلينا أن نرفع هذه الموانع ثم لا نحتاج بعد ذلك لأن نلتمس مهمازاً ندفع به الإنسان إلى العمل بطبيعته بل هذا المهماز موجود فيه وفي طبعه... فارفعوا هذه الأوهام والخرافات والقيود الذهنية والأغلال الإعتقادية ثم انظروا كيف يكون الإنسان.

وإن رجائي إلى كل قارىء لهذا الكتاب أن يشاركني الإهتمام بهذه القضية

الإنسانية الكبرى، وألا يعتقد أن المسألة لا تخرج عن أن تكون أفكاراً تقرأ أو سطوراً تتلى ثم تنسى كما تنسى صغار الحوادث اليومية.

والله المسؤول أن يلهم الصواب والحكمة، وأن يعين على بلوغ الغرض المنشود، وألا يجعل العمل باطلاً ولا الجهد ذاهباً.

عبد الله القصيمي

لقد كفروا بالإنسان - الإيمان به أول

العلم للرحمن جل جلاله
وسواء في غمراته يتقمقم
ما للتراب وللعلوم وإنما
يسعى ليعلم أنه لا يعلم

«الزمخشري»

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعي العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

«الرازي المفسر»

فيك يا أغلوطة الفكر
حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما
ربحت إلا أذى السفر
فلحى الله الألى زعموا
أنك المعروف بالنظر
كذبوا، إن الذي ذكروا
خارج عن طاقة البشر

«ابن أبي الحديد المعتزلي»

لعمري لقد طفت المعاهد كلها
وجولت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر
على ذقن أو قارعاً سن نادم

«الأمدي المفلسف»

* * *

بعثت إحدى الشركات الكبرى بخبرائها الفنيين إلى مكان ما في دولة ما للقيام بالبحث عن النفط، وبعد القيام بالإختبارات اللازمة الأولية نقضوا أيديهم قائلين: إنه لا يوجد نفط في ذلك المكان وإن وُجد فمقادير ضئيلة لا توازي التكاليف والنفقات. فتخلت الشركة عن هذه الثروة المرتجاة. ولكن شركة أخرى أرسلت خبراءها إلى المكان نفسه، للغرض نفسه، في الدولة نفسها، فجاءت النتيجة مقررة وجود ما ينشدون، فأسرعت تلك الشركة إلى شراء تلك الكنوز المخبوءة المجهولة المقادير من أهل تلك البلاد، ووضعت لها ولهم شروطاً أنفقوا عليها. فبدأت أعمالها وأخرجت الكنوز فأفادت هي وأفادت البلاد وازدادت بتلك الثروة العالمية العامة والتفت العالم إلى ذلك المكان وحسبوا له الحساب بعد أن كان في حساب النسيان والإهمال.

هذه حادثة وقعت سقناها هنا لنقول إن الإنسانية في نظرها إلى نفسها وإلى مواهبها الكامنة وكنوزها الذاتية المخبوءة تشبه خبراء الشركتين في إختلاف رأيهم في وجود النفط وفي إختلاف النتائج التي تلزم كلاً من الرأيين والنظرين... ففريق من الإنسانية - بل أمم وشعوب - ينظرون إلى أنفسهم نظر خبراء الشركة الأولى اليائسين من الحصول على النفط في ذلك الموضع، أي ينظرون إلى أنفسهم نظرات اليأس والقنوط من أن يكون فيها مواهب نادرة وإستعدادات طيبة يكمن وراءها النبوغ والعبقرية والكنوز الذاتية. بل يرون أنهم خلقوا ضعفاء مجدبين، وسيبقون كذلك ضعفاء مجدبين ما بقوا، ويرون أنهم خلقوا من الضعف للضعف فلن يعدوا طورهم ولن يقدموا نفطاً ولا غيره. فلا يحاولون القيام بعمل ما لإستخراج ما لم يؤمنوا بوجوده، فيظلون كما ظل ذلك المكان مئات الألوف من السنين لا يأتون بشيء ولا يلفتون نظر أحد ولا يفيدون الإنسانية شيئاً ولا يضيفون إلى ثرواتها المختلفة قليلاً ولا كثيراً...

أما أفراد آخرون وشعوب أخرى فينظرون إلى أنفسهم نظر خبراء الشركة الأخيرة المؤمنين بوجود النفط وبوجوب إستنباطه فيرون - وهم ينظرون إلى أنفسهم - أنهم حريون بالإستثمار والإستغلال وأن مواهبهم الطبيعية حرية بأن تخرج وتصدر النبوغ والعبقرية، فينشطون إلى العمل ويأخذون بكل الوسائل، فيصبحون ما شاؤوا مجداً وضخامة شأن، ويصيرون أعظم مصدر للحضارة البشرية وأكبر مولد للقوى العلمية.

وهذا يلخص أظهر الفروق بين الشعوب، وهو الذي يحدد إتجاهاتها ويضع لها طرقها، فالشعوب والأفراد الذين لا يؤمنون بأنفسهم ولا بالإنسانية ولا بقواها يقفون في مكانهم لا يتقدمون لأنهم يجهلون مصادر القوة التي يكون بها التقدم وهي الإستعداد الذاتي الذي لا ينضب ولا ينفد والذي لم يقيد بقيود ولم يحد بحدود. فيهملونها كما يهمل الجاهلون العاجزون الغافلون القوى الطبيعية الخصبة بدون إستغلال ولا إستثمار وهي تحت أقدامهم وبين أيديهم وأمام أعينهم، وهذا هو شأن الأمم الهمجية والأفراد المنحطين... لكن الشعوب التي تؤمن إيمان علم وإستيثاق بهذه الموارد البشرية والكفايات الإنسانية والطبائع الفنية ينهضون للإستنباط والإستخراج وللشحذ والصقل فيثرون ذلك الإثراء العظيم. فيصبح الفرق بين هؤلاء وهؤلاء مثل الفرق بين موضعين مخصبين غنيين بالمعادن وبالعناصر اللازمة لضروب المزروعات: أحد الموضعين استغل واستغلت كنوزه وطبيعته، وترك الآخر مجهولاً مهملاً.

إن الشعوب الراقية تمتاز بالإيمان بالثراء الإنساني الطبيعي، ولهذا تحاول الظفر بكل شيء والوصول إلى كل شيء، والتغلب على كل شيء وتجربة كل شيء، فتسير إلى الأمام بالمدنية وتسير بالحياة خطوات واسعة، وتدفع في سبيلها كل عناصر الحضارة وتنقل الإنسان في وجوده وحقيقته من طور إلى طور أعلى وأرقى. وما من شعب – سواء أكان في الشعوب الحديثة أم في الشعوب القديمة – أمكن أن يسود وأن يقتعد مقعداً ملحوظاً رفيعاً إلا وكان متزوداً بهذا الإيمان بقدر معلوم معين. وقد كان الإغريق والرومان والمصريون القدماء والعرب وأوروبا الحديثة وأمريكا طبعاً وغيرهم ممن أوجدوا التاريخ الإنساني وصنعوا الحضارات مدفوعين – على أقدار مختلفة متفاوتة – بفيض من هذا الإيمان. وكل شعب يكفر بالأنسانية – الأنسانية المطلقة، إنسانيته هو وإنسانية غيره– ويكفر بمواهبها وثرواتها الذاتية الطبيعية ويؤمن بأنها مقيدة بقيود وحدود لا تتعداها ولا تتخلص منها، وأنها ليست مطلقة القوى وليس متروكاً لها الطريق – الطريق الذي ليس له نهاية تحده ولا غاية تلزمه الوقوف عندها – نعم كل شعب يكون هذا رأيه وهذا إيمانه بالإنسانية لا محالة من أن تفتر هممه ويضعف عمله وأن يقف عاجزاً عن التحليق في سماء اللانهاية، وأن يرضى من زمنه بالتافه الحقير وبالنصيب اليسير... ولو أن هذه الأمم التي ترهب العالم اليوم وتسوقه

إلى غاياتها الخاصة فقدت هذا الحافز ورأت أن للتقدم وللعلوم وللقوى وللعلو والسير إلى الأمام غايات وحدوداً لا يستطاع قهرها ولا إجتيازها لأثر ذلك أعظم تأثير في توثبها وفي حياتها ووجودها، تأثيراً لا شك في أنه يحد من سلطانها ويضعف من شأنها.

لماذا ينبغ العبقريون الذين يهدون إلينا المخترعات والمكتشفات؟ بماذا يمتازون على الآخرين الذين لم ينبغوا نبوغهم ولم يكونوا مثلهم؟ أيمتازون بالذكاء الخارق؟ ليس هذا كل ما يميزهم، إذ لا شك في أنه يوجد في من لم ينبغوا نبوغهم من هم مثلهم ومن هم يفوقونهم ومن هم قريبون منهم ذكاء. إذن أيمتازون بالهمم الوثابة التي لا تعرف الكلال؟ لا ريب في أن هذا من أعظم وأظهر ما يمتازون به، ولكن لماذا يمتازون بهذه الهمم التي لا تمل العمل والإقدام ولا تكل من الإجهاد والإرهاق؟ يغلب على الظن أن الذي يزودهم بهذه الهمم الخاصة الممتازة والذي يقدم لها الوقود حتى لا تقف والنشاط حتى لا تنصب هو هذا الإيمان بالمقدرة الإنسانية، وإيمانهم بأنهم متمتعون بالقوى التي ستوصلهم إلى غاياتهم وأهدافهم والتي ستتمم لهم مخترعاتهم ومكتشفاتهم... وليس من موضع للشك في أن أحد هؤلاء لو أنه فقد هذه الشعلة – وهو في طريقه للمجد الخالد بل وهو يبني مجد الإنسانية الأرفع – لوقف في مكانه يحيط به اليأس ويغمره الكلال...

وقد اتصف كل أولئك الذين جاؤونا بالمخترعات والمكتشفات الكبرى التي نحيا اليوم هذه الحياة على حسابها بمعين من هذا الإيمان بالطبيعة البشرية لا يعرف النضوب. وقد استطاع مكتشفو أمريكا وغيرها – يمدهم هذا الإيمان الفياض – أن يتخطوا عقبات وحوائل عجز كل أهل عصرهم ومن قبلهم عن تخطيها، وقد خارت كل القوى والعزائم أمام المعوقات التي خارت هي أمام عزائمهم وقواهم المشبوبة بحرارة هذا الإيمان. وقد حاول تخذيلهم وترهيبهم وتعويقهم كل من عرضوا عليهم فكرتهم وإيمانهم ولكن لا شيء استطاع أن يثني ذلك الإيمان الذي جاءنا بأمريكا الجبارة وبغيرها.

وكل أصحاب النظريات العلمية والدعوات الإصلاحية التي سيطرت على مصير التاريخ وغيّرت مسيره كانوا ممدين بهذا الإيمان الذي لا يتضعضع... أن أعظم فرق – أو أعظم ما أوجد الفرق بين الأمم الهمجية والرجال الخاملين وبين الأمم المتمدنة والرجال المتوثبين – هو هذا الإيمان بالإنسانية. فالأمم

والرجال الذين وثبوا امتازوا كما ذكرنا بهذا الإيمان، والأمم والرجال العاجزون القاعدون - وكذلك الأطفال - لم يرزقوا هذا الإيمان، بل رزقوا - وأخبث به رزقاً - الإعتقاد اللازم المسيطر بأن الإنسان خلق عاجزاً محدوداً مهيناً حقيراً لا قدرة له على التحكم في الطبيعة القاهرة الغالبة ولا بد له تستطيع الإمتداد إلى تغيير هذا العالم الذي أوجده الله ولا إلى تغيير صبغته التي صبغه الله بها... فعليه أن يعترف بعجزه وحقارته وضعفه وحدوده وألا يتجاوز قدره أو يتخطى طوره، بل عليه أن يفر أمام الطبيعة وأمام ظواهرها وأن يركع مستسلماً مستخذياً طالباً النجاة والعافية كما تصنع الشعوب الأولية البدائية، وكما يصنع الأطفال الأغرار وكما تصنع العجماوات إزاء كل ظاهرة طبيعية ومنظر كوني ومشكل خطير كبير وأزمة مجتاحة غالبة.

أن رقاب كل هؤلاء تخضع وهامهم تنحني أمام المشكلات الإنسانية الكبرى كمشكلة الفقر ومشكلة المرض ومشكلة البطالة ومشكلة الجدب ومشكلة الجهل ومشكلة الأخلاق ومشكلة الإستقلال والسيادة الوطنية وكل مشكلة... ويرون أنهم ليسوا أهلاً لحل مشكلة من هذه المشاكل، بل وأنهم غير مخاطبين بحلها، بل وأن محاولة حلها وعلاجها من التطاول على الله ومن محاولة الوثوب على مقام الألوهية المقدس. وما عليهم إلا أن ينتظروا من الله أن يصنعها لهم كما يشاؤون ويشتهون؟ وكل ما يجب عليهم في هذه الحالة أن يطيلوا الدعاء والبكاء وأن يصدقوا الضراعة والمسكنة وأن يجملوا الإنتظار... وهكذا تمر الأيام والشهور والسنون، بل والقرون، وهم يؤملون وينتظرون ما لن ينالوا لأن الله لا يفعل لمن لا يفعل لنفسه، ولا ينصر من لا ينصرها كما قال القرآن: "إن تنصروا الله ينصركم "وفي الإنجيل: "أن الله يعين عبداً يعين نفسه."

أما الآخرون المؤمنون بالإنسانية وبأنفسهم فيهبون لعلاج كل مشكلة وينهضون لحمل كل عبء، فيصيبون مرة ويفشلون أخرى إلى أن يصيبوا في النهاية النجاح الحقيقي الأكبر وهنا تصبح الإنسانية إنسانيتين: إنسانية راقية ناجحة عالمة قوية وأخرى ذليلة فاشلة جاهلة ضعيفة وقد أصبحنا - وأسفاه - من الإنسانية الأخيرة.

أن أولئك يريدون كل شيء من السماء ومن الآلهة المتعددة الأخرى. أما هؤلاء فيعلمون أن عليهم أن يرجعوا إلى أنفسهم وأن يعولوا عليها وأن يطلبوا منها كل

شيء وأن في إستطاعتها أن تهبهم ما فقدوا وما احتاجوا إليه... فيبدعون في الأعمال ويسيرون في الطريق، أما أولئك فقصاراهم النحيب والدعاء المذل، ثم الإنتظار الطويل الممل، ثم التسلي والإشتغال بذلك كله عن العمل وعن إقتحام الصعاب.

وإن أبشع صورة لهذه الحالة النكراء هؤلاء الخطباء الذين يقرعون مسامعنا كل يوم جمعة بهذه الضراعات الكاذبة والإبتهالات الوقحة الذليلة - داعين على الآخرين - سائلين الله أن يسقط عليهم السماء أو يخسف بهم الأرض أو يجعلها عليهم ناراً، وأن يدمرهم وأن يجعلهم هم وأموالهم ونساءهم وذراريهم غنيمة باردة لهم ولأمثالهم من المسلمين العاجزين عن الحياة. ولكن الله لن يصنع ذلك أبداً ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، لا حتى تمتد ألسنتهم بالسوء والسباب وتفيض قلوبهم بالحقد على المتفوقين العاملين والحسد لهم.

ومعلوم أن الدعاء أضعف وسيلة يلقي بها عدو عدوه، بل إنه ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تعويض وتصريف خبيثة ضارة. وبيان ذلك أن إنساناً ما إذا غضب أو حنق على إنسان آخر - أو أمة على أمة أخرى - لسبب من الأسباب كالظلم والعدوان أو المنافسة والحقد والحسد - صار هذا الحنق والغضب قوة دافعة، من الممكن، أو من المؤكد، أن تدفع ذلك الحانق الغاضب إلى العمل أو إلى الإنتقام والبطش. ولا محالة من أن تندفع هذه القوة في سبيل ما من سبل الإندفاع. والسبيل الطبيعي النافع لها أن تندفع في سبيل الإنتقام والبطش أو العمل والإنتاج - أي ينتقم المظلوم من ظالمه أو يعمل وينتج ليلحق أو يسبق منافسه الذي أضرم في قلبه نار الغيظ. ولكن إذا وجدت هذه القوة لها متنفساً وطريقاً آخر غير هذا الطريق الطبيعي انطلقت فيه فألفت في إنطلاقها هذا تعويضاً ومصرفاً عن الوجه الآخر. وهذا معروف في كل القوى المندفعة بالضغط أو الدفع. وإن أعظم قوة تسير أعظم الآلات وأكبرها لتعجز عن القيام بوظيفتها هذه إذا وجدت لها طريقاً غير هذا الطريق أو متنفساً.

وقد كان المفروض في هذه الشعوب والأفراد الحانقة الغاضبة المهتاجة على من ظلموها أو فاقوها وسبقوها أن تقوم بعمل ما مثمر لتحطيم هذه الحواجز والقيود والأغلال والفروق الظاهرة المخزية - تدفعها قوة الحنق أو قوة الحسد

والمنافسة. ولكن هؤلاء سلكوا طريقاً آخر لتبديد هذه القوى الذاتية النفيسة... أنهم اشتغلوا بالسباب والدعاء والإتهام وسائر ألوان الكلام، فوجدوا في ذلك أعظم راحة تخلصهم من تلك القوى المتولدة من إحتراق الإنفعالات والعواطف المختلفة.

إنها فروض ثلاثة: إما أن تدفع هذه العواطف إلى العمل وإما إلى الكلام، وإما أن تبقى هما مخامراً وغيظاً دفيناً، تحتبس نيرانه المتوهجة في النفس...

أما العمل فهو ما يجب أن يكون أثراً لهذه العواطف وبهذا تصبح نافعة مفيدة حافزة على النجاح والإبداع. وأما الكلام – أي السباب والدعاء والإتهام – فهو المصرف الخبيث لها والملهاة المفسدة المعوقة للبشر عن الإنتاج والعمل النافع. وأما الهموم ودفن الأحقاد في حنايا النفس فهذا قد يكون شر الفروض الثلاثة من الناحية النفسية غير أنه لا ريب في أن هذه العواطف والإنفعالات هي من القوى الدافعة الضاغطة كما ذكرنا، فلا بد أن تنتهي بصاحبها إلى أحد الأمرين الأولين: العمل أو السباب والتشفي الساذج، فلنحذر الأخير لنصير إلى الأول.

لقد رأينا – وإننا لا نزال نرى، كما يرى غيرنا أيضاً – الحشود الكثيرة التي وجهت هذا التوجيه السخيف القاتل، تظل تقتل أوقاتها وتجود بساعات نفيسة من ليلها ونهارها في الدعاء على المتفوقين الناجحين، وعلى الظالمين الذين يجب أن يقاوموا وفي السب والإتهام ونثر الإشاعات عنهم، وفي الآمال الباطلة الراجية من الله أو من الزمان أن يتبرع بتدميرهم وبالقضاء عليهم – لا لشيء إلا لأنهم هكذا يشتهون ويريدون... وإن هؤلاء البائسين ليشعرون بأعظم العزاء في هذا الأسلوب البدائي المنكر! !وهم لا يدرون أنهم بذلك يحطمون أمضى سلاح أودعه الله للإنتقام أو للمنافسة والمباراة والتذاود حول مشرع الحياة.

وكم من الفروق بين أن تقوم بعمل ما – مهما كان هذا العمل صغيراً – إزاء منافس قوي أو ظالم جبار وبين أن تذهب تصطفي أبرع ألفاظ الدعاء وأجمعها، وأقبح الإشاعات والإتهامات وأشنعها، لتنتزعها من أعماق عاطفة محترقة مضطرمة لتصلي بها منافسك أو ظالمك فلا تصليه ولكن تصلي نفسك وتدمر حياتك، فلا تزداد إلا إحتراقاً وهبوطاً بينما يزداد هو مجداً وإرتفاعاً.

ولعله مما يبالغ ويضاعف في سرور أعدائنا المحتلين أن تنشق حناجرنا كل أسبوع في مساجدنا بالدعاء عليهم ويلعنهم لأنهم يعلمون عواقب ذلك كله. وأن

المثل الغربي القائل": لا تلعنوا الظلام ولكن أوقدوا الشمعة "لخير ما يجب أن تنسج على نوله التربية والتوجيه العاطفي والعقلي.

وقد لونت الثقافة التي ما زلنا منذ ألف سنة تقريباً نطعم على مائدتها بهذه الألوان الدكناء... فمن رأي هذه الثقافة - وهو الرأي الذي لا رأي لها سواه - أن الإنسان ما خلق ليكون يوماً ما عظيماً بل إنه خلق ضعيفاً في عقله وجسمه، وليس له مفر من هذا الضعف. وكل محاولة تبذل للفرار من هذه الحقيقة هي محاولة خاسرة. وعند هذه الثقافة أن الإنسان محدود وأنه ليس من المستطاع أن يخرج من حدوده إلا إذا كان من المستطاع أن يخرج من عبوديته ومخلوقيته. فإن هذا التحديد الذي زعموه وخالوه هو أحد معاني العبودية والمخلوقية وأحد ما يلزمهما. وإطلاق القوى المختلفة من الحدود والقيود لا يكون - في رأي هذه الثقافة - إلا للخالق وحده. والأشعار التي أوردناها في مطلع هذا البحث تبين عن حكم هذه الثقافة في هذه القضية أحسن إبانة: ففي قول الزمخشري أن العلم لله وحده أما من سواه من المخلوقين فهم في غمراتهم أو غفلانهم يتقمقمون، وليس لهم أن يطلبوا علماً ولو حاولوا هذا الطلب لما بلغوا ما طلبوا، وذلك أنهم تراب: خلقوا من التراب ومصيرهم التراب، وما للتراب وللعلوم. وهم إنما خلقوا ليعلموا وليعلم سواهم أنهم غير قادرين على أن يعلموا شيئاً وأن يكونوا علماء وأن يفلتوا من أصفاد الجهل:

ما للتراب وللعلوم وإنما
يسعى ليعلم أنه لا يعلم

فالإنسان عند الشيخ الزمخشري ما خلق إلا من أجل التدليل بجهله على أنه جاهل جهلاً طبيعياً لا يمكنه التفلت منه. وهذا بمثابة الحكم بالإعدام على المواهب الإنسانية بل على الإنسانية في كل معانيها.

وأما الشيخ الرازي فيرى أن أقصى خطوات العقل البشري أن يعجز عجزاً مطلقاً وأن يقع في عقال يمنعه التفكير والعمل والتقدم والتأخر. ومعنى هذا أن العقول كلما فكرت وعملت وحاولت الإقدام في مجالها ازدادت حيرة وضلالاً وضعفاً وجهلاً وعجزاً عن المعرفة! فمن الخير لها إذن أن تحجم وألا تقدم، ومن الخير لها أن تبقى في مكانها لا تبرحه لئلا تضل ولئلا تذهب بداداً ثم لا ترجع أبداً.

لكن ابن أبي الحديد يحكي أنه قد أضاع عمره كله في تلمس الحقيقة - والحقيقة أغلوطة من أغاليط الفكر - وأنه حار في أمره. ويحكي أن العقول الأخرى أيضاً قد سافرت وجهدت قبل أن يسافر ويجهد عقله هو طلباً لهذه الحقيقة، ولكنها لم تظفر بها ولم تربحها، وإنما ربحت مشقة السفر العقلي! ثم ينحي باللائمة على أولئك الذين زعموا أن الحقيقة يمكن أن تعرف بالبحث والنظر والفكر، ويدعو عليهم - مترفقاً بهم راحماً لهم من أجل جهلهم ومن أجل ما أصابهم من العناء والنصب. ثم يرسل حكمه الصارم قاضياً عليهم بأنهم في زعمهم هذا قد كذبوا، وزاعماً أن عرفان الحقيقة خارج عن الطاقة البشرية. فليس في إمكان البشر مجتمعين أن يدركوها وأن يعلموها! فليقنعوا إذن بالجهل الذي هم أهله، وليدعوا تطلب المحال وما لا ينال.

على أن الشيخ الآمدي - بالبيتين اللذين نقلناهما عنه - قد رمى البشرية العامة بما أصمى فقد زعم أنه قد طاف بالمعاهد العلمية كلها طواف مختبر مستخبر، وأنه قد جول بطرفه بين تلك المعاهد جميعاً تجويل فاحص مستقص، راجياً أن يرى أو أن يعلم من نفعه بحثه ودراسته أو من هداه عقله وكتبه فاطمأن إلى عرفان، أو برد كبده الحري ببرد الإيقان... ولكنه - واأسفاه - لم يجد أحداً من هؤلاء الذين طلبهم وإنما وجد من وضع كفه على ذقنه من الذهول وشدة الحيرة ومن ذهب يقرع سنة من الندم والأسف على ما أنفقه من الأعمال العقلية والفكرية التي كان أمله فيها أن تهبط به على ساحل النجاة فهبطت به في ظلمات من الشك والريب والغواية.

وقد صنع أحد هؤلاء أنشودة قديمة يتناقلونها في كتبهم ويترنمون بها في مجالسهم، ويزينون بها أحاديثهم... قالوها في مذمة أولئك الرجال الذين حاولوا في عصور سحيقة أن يضعوا اللبنات الأولى في بنيان هذه الحضارة، وأن ينحتوا الأحجار التي قامت عليها المدنيات سافاً بعد ساف... وقد ظنوا أنهم بوضع هذه الأنشودة الظالمة يرضون الله إذ يخصونه وحده بالعلم، ويرضون الأديان وأصحابها إذ يحسبون أنها إنما جاءت لتجرد الإنسان من كل القوى العقلية والمادية لتقدمها للخالق من غير أن يشاركه فيها مشارك! وقد جاء في هذه الأغنية قولهم متهكمين ساخرين:

من أنت يا أرسطو ومن
أفلاط قبلك قد تجرد
ما أنتمو إلا الفراش
رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه
ولو اهتدى رشداً لأبعد

يعنون بهذا أن هؤلاء الرجال الباحثين وغيرهم من الفلاسفة حكمهم حينما أرادوا الدنو من المعرفة ومن العلم الذي لم يهتك حجابه حكم الفراش الذي يرى النور المتوقد فيثب عليه ويدنو منه فيحترق فيموت! وقد كان حكم العقل الراشد يقضي بأن يبعد عن السراج وعن نوره لينجو، ولكن الفراش لا يهتدي لأنه لا عقل له. وكذلك هؤلاء الذين يطلبون المعرفة ويحرقون أنفسهم بطلبها من غير أن يدركوها ويجهلون كما يجهل الفراش الهاجم على النار والنور. فالمعرفة إذن لا يمكن الوصول إليها، ومن حاول هذا الوصول هلك في طريقه.

هذه صور قليلة تنبيء عن مقدار سيطرة هذه الروح الخبيثة الشريرة على ثقافة هؤلاء الذين تعلق العالم الإسلامي منذ مئات السنين بركابهم فراحوا يجرونه وهو لا يدري أين هو ذاهب فأصابه من الجروح والقروح والأحوال المذهلة ما أعجزه حتى اليوم عن الإفاقة وعن الشعور بما هو فيه من الآلام. إن من كلامهم الذي سار مسار الأمثال: "العجز عن الإدراك إدراك" يعنون أن العجز عن العلم علم.

انظر إلى هؤلاء الواقعين صرعى في معركة الحياة الرهيبة، العاجزين عن النهوض وعن الحياة الصحيحة، ثم سلهم فرداً فرداً: لماذا سقطوا ولماذا عجزوا تعلم أنهم قد سقطوا وأنهم عجزوا لأسباب، وأن أحد هذه الأسباب هو شكهم في أنفسهم وكفرهم بكفاياتهم الذاتية بل كفرهم بالكفايات الإنسانية.

نعم، كل إنسان يحب النجاح غريزة، ويعشق الكمال، وكل إنسان فيه الإستعداد الطبيعي لهذا النجاح ولهذا الكمال، بل كل شيء في هذا الوجود - سواء في ذلك الجماد والنبات والحيوان - سائر في طريقه الطبيعي سيراً آلياً أو إختيارياً إلى النجاح وإلى الكمال النسبي اللائق به، وكل شيء أعد إعداداً طبيعياً ليحيا حياة صحيحة بالنسبة لوجوده وحقيقته. وما من شيء ينحرف عن

هذه الحياة الصحيحة ويعجز عن الإستمتاع بها إلا لآفة طارئة عاقته عن أن يصل إلى ما هيء له. فإذا عجز نوع من أنواع النباتات عن بلوغه الغاية المقدرة له من النمو والقوة والجمال فهل هناك من يرتاب في أن آفة من الآفات النباتية عدت عليه وأن هذه الآفة ليست طبيعية وإنما هي عارضة. والإنسان بلا خلاف أولى هذه الموجودات بالكمال وبالحياة القوية لأنه أرقاها؛ فلماذا إذن لا يبلغ هذا الذي يحب ويعشق والذي جعل مستعداً لبلوغه؟ لماذا لا يبلغ النجاح ولا الكمال مع أنه يحبهما ويعشقهما ومع أنه خلق وفيه الإستعداد والكفاية الفطرية الذاتية لبلوغهما؟ لماذا لا يبلغ الصانع والتاجر والزارع والعالم والمتعلم وكل صاحب فكرة أو عمل الغاية التي يحب والنهاية التي يتصورها؟ ولماذا يرضى من كل ذلك بالحظ التافه وبالحصة الحقيرة؟؟ لهذا أسباب بلا ريب، من هذه الأسباب الجهل والعجز وضعف الهمة. ولكن لماذا يبقى جاهلاً بما يجب عليه من أجل النجاح فيما هو فيه وعاجزاً عن الأخذ بما يلزم من أجل النجاح؟ لا تردد في أن من أسباب ذلك جهله بنفسه وكفره بما فيه من ذاتية عريقة، في استطاعتها - إذا أحسن إستخدامها والإنتفاع بها - أن تحطم أصفاد الجهل وأغلال العجز والضعف. فالأمر إذن يرجع في كثير منه إلى الكفر بالإنسانية المشتركة... ثم ضعف الهمة!؟ لماذا يرضى الإنسان بالهمم الضعيفة الواهنة ولماذا لا يثب حتى يصير من ذوي الهمم الغلابة القهارة؟ لهذا أيضاً كما لا يخفى أسباب. لأن رضا الإنسان بالدون ليس طبيعياً فيه ولا غريزياً... بعض هذه الأسباب شكه أيضاً في مقدرته على أن يكون من أرباب الهمم العاتية العالية وإعتقاده أنه عاجز عن صعود هذه القمة - أي جهله بما يكمن فيه من القوى وضروب الإستعداد وجهله بحقيقة الإنسان من حيث هو إنسان. وإلا فإن النجاح الحقيقي يغري ببذل الثمن مهما كان غالياً، ومهما كان كثيراً. فالخوف في الغالب من بذل الثمن لن يكون مانعاً عائقاً ولكن الذي يمنع ويعوق ويقعد بالهمم والقوى عن النهوض هو الشك في النجاح، وهو العجز عن الإيمان بالقدرة الشخصية التي تكفل الفوز وتبلغ الغرض البعيد.

وأمور الناس كلهم قائمة على الإعطاء رجاء الأخذ وعلى التضحية من أجل إنتظار الجزاء، وكلهم مستعدون فطرة وطبيعة أن يعطوا وأن يبذلوا، وإن آلم الإعطاء والبذل إذا آمنوا إيماناً لا شك فيه بأنهم سيأخذون أكثر وأفضل مما

أعطوا وبذلوا، سواء أكان هذا الإعطاء وهذا البذل ذهنياً أم جسدياً أم مالياً... ولولا هذا الإستعداد الإنساني الشامل لوقفت كل الأعمال، ولما استطاع الإنسان أن يتقدم ولا أن يتأخر ولا أن يفعل شيئاً. هذه طبيعة إنسانية لا يمكن ردها ولا تبديلها، وهي في خير الإنسانية بلا شك، بل عليها قامت كل الحضارات والمدنيات والعمران، بل وكل الأعمال الصالحة البارة التي يفعلها الأبرار الصالحون رجاء الجزاء الأخروي. ولو فقد الإنسان هذه الغريزة لما استطاع أن يكون شيئاً مذكوراً. وعلى هذا فلا شك في أن هؤلاء الذين يزعمون أنهم مؤمنون بالأجزية والمكافآت في دار البقاء وهم يصرون على المخالفات وعلى كسب السيئات وترك الحسنات غير مؤمنين حقاً لا بالثواب ولا بالعقاب وإلا لعملوا لما يؤمنون به. والمسألة مسألة شك أحياناً يكون ظاهراً، وأحياناً أخرى يكون مقنعاً. ولو ارتفع هذا الشك لكانت النتيجة غير ذلك. فليس الفرق بين الصالح الورع المنقطع إلى عمل الصالحات وبين الفاجر المكب على الشهوات المحرمة هو أن الأول أحرص على الخير لنفسه وعلى البذل والإعطاء من أجل الأخذ والجزاء من الثاني، كلا فإنهما يستويان في هذه الناحية. بل قد يكون الفاجر أحرص على ذلك من الصالح إن كان في هذا تفاوت. ولكن الفرق بينهما أن الصالح آمن بالأجزية إيماناً تاماً أما الفاجر فإنه لم يؤمن بها هذا الإيمان، وإنما شك وظن ظناً أو كفر كفراناً أو نسي نسياناً، فراح يأخذ ما استطاع أخذه ولم يجد إيماناً بالعاقبة يحمله على أن يعطي عاجلاً ليأخذ آجلاً. والحكمة المتبعة عنده قول القائل:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به
في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

فكل هؤلاء الذين نراهم عاجزين عن النجاح راضين من الأعمال ومن الحياة ومن أنفسهم بأحقر ما يمكن لا يجب أن نفهم أنهم قد رضوا بذلك وهم يرون أن في إستطاعتهم الحصول على أحسن وأفضل منه أو أجمل. وإنما يجب أن نفهم أن من أعظم ما حملهم على هذا الرضا أو هذه القناعة هو أنهم لم يعلموا أن في قدرتهم أن يصنعوا شيئاً وأن يتخلصوا مما هم فيه وأن يظفروا بما يحبون ويشتهون.

اقنع إنساناً ما - تاجراً أو صانعاً أو زعيماً أو من شئت من ضروب الناس

- بأن فيه العناصر اللازمة لأن يكون أكبر وأعظم مما هو ومما كان، ومكنه من أن يؤمن بهذا إيماناً بمعناه الصحيح ثم انظر هل من المنتظر أن يتخلى عن هذه الفرصة وأن يقنع بحالته الحاصلة خوف البذل وخوف الإقدام إلا إذا كان من المنتظر أن يعلم إنسان بأن تحت قدميه كنزاً عظيماً لا يحول بينه وبين الظفر به إلا العمل على إخراجه ثم يتركه لأنه لا يريد أن ينصب ولا يريد أن يقوم بعمل من الأعمال ولو في سبيل إخراج الكنوز الموضوعة تحت قدميه. وإذا عقلنا سر هذا في الطبيعة البشرية بل في طبيعة الحياة كلها تجلى لنا عمق قول أبي الطيب وغزارته:

ولم أر في عيوب الناس شيئاً
كنقص القادرين على التمام

من الصدق والحق أن يقال لا عيب أشنع من أن يقدر إنسان على الكمال والنجاح ويعلم من نفسه تلك القدرة ثم يأبى الكمال ويزّور عن النجاح؟ إن مثل هذا الإنسان إن وجد لا بد أن يكون شاذاً في قوانين الطبيعة شذوذاً هو المرض عينه.

من الواجب المفيد أن نعرف من أين جاء الإنسان هذا الكفر بذاته وإنسانيته أو لماذا كفر بهما هذا الكفر! يلوح أنه كفر هذا الكفر لأنه أراد أن يؤمن بالله الإيمان الذي تصوره. فقد تصور أن أساس الإيمان بالله قائم على التفريق بين الخالق والمخلوق أو بين الله وعباده. فالله يجب أن يعتقد بأنه كامل في كل شيء قوي في كل شيء. والعبد يجب أن يعتقد بأنه ناقص في كل شيء ضعيف في كل شيء. ثم تصور أنه كلما بالغ في تنقيص الإنسان والمخلوق وفي تضعيفه فقد بالغ في تعظيم الله وفي الإيمان وبكمالاته وأن كل ما يخلعه على الإنسان من النعوت الفاضلة والأوصاف المحترمة إنما ينتقصه من حق الله ومن نعوته وأوصافه. فإذا ذم علم المخلوق وقوته ووصفه بالجهل والضعف فقد كان ذلك بمثابة الثناء على الله وعلى واسع علمه وعلى إختصاصه بالعلم والقوة، وتصور أن ذلك يرضي الله كل الرضا وأن خلافه يغضبه كل الإغضاب، لأن الله لم يشأ لعباده أن يساووه ولا أن ينازعون في الكمال والعظمة أو السلطان العلمي أو المادي، فحدد قواهم العقلية وغيرها بحدود صارمة معلومة لا يستطيعون تعديها: فعلومهم ومعارفهم وعقولهم محدودة بحدود ضيقة، ليس لها أن تتجول في باحات المعرفة

كيف شاءت أولاً أن تنطلق من أغلال الجهل والنقص كلما أرادت، وإلا فما الفرق بينهم وبين الله! وما الفرق بين صفة المخلوق وصفة الخالق؟ وهل يرضى السيد العظيم أن يكون لعبيده الأذلاء من الصفات مثل ما له، أو هل يرضى أن ينازعوه كماله؟ ثم البرهان العقلي يقضي بألا يكون المخلوق الحادث مثل القديم الأزلي في أمر من الأمور وإلا فلا فرق بين القدم والحدوث ولكن المسألة كلها قائمة على التفريق بين الحدوث والقدم أو بين القديم والحادث. ولولا هذا لما كان هناك عابد ومعبود، ولكن الديانات كلها مبنية على العبودية. ومن أجل هذا كله ومن أجل غيره أيضاً فإنهم ما فتئوا يضعون الأهاجي المريرة الواصفة للإنسان بجميع أوصاف الإنحطاط الذهني وغير الذهني. وقد رأوا – وما زالوا يرون – أنهم بهذه الأهاجي يتقربون إلى الله وينالون رضاه ويتملقون ألوهيته، لأنهم يذمون من عداه. فالخطيب والواعظ والشاعر والمفسر والمحدث والمتصوف والمتفلسف – كل هؤلاء وغيرهم يرون أنهم لا يبلغون الثناء على الله وأنهم لا يحسنون الإحسان المطلوب منهم المفروض عليهم إلا إذا بدأوا كلامهم وختموه بهجاء الكفايات الإنسانية، وإلا إذا حكموا على الإنسان بالموت وقالوا كما قال أحد شيوخهم – وهو الشيخ الزمخشري كما سبق: – إن العلم للرحمن فقط وأما الإنسان فما خلق إلا من أجل أن يتقمقم في جهالاته وغفلاته ومن أجل أن يثبت له أنه لن يكون عالماً وأنه تراب وأن التراب لا يمكن أن يعلم شيئاً.

وقد أكثروا جداً من هذه الفلسفة المجنونة المخذولة ومن هذا التدين المدخول حتى أصبح الخلاف فيهما خلافاً لديهم ولدى القطعان التابعة لهم في إحدى القضايا المفروغ منها. وصار من العقائد الثابتة للخاصة والعامة أن الإنسان لا يعدو أن يكون أحد تلك الأشياء التافهة الحقيرة التي لا يرتجي منها خير ولا علم ولا قوة. وصاروا كلما سمعوا ذكر المشكلات والأزمات الإجتماعية والعلمية والإقتصادية والنفسية والخلقية والأدبية، وسمعوا إمكان تغلب الإنسان عليها وحله لها ونهوضه بها، وسمعوا ما ينتظر من وثوب الإنسان بالعلوم وكل نواحي الحياة وقهره للأمراض وللجهل وفتوحاته العلمية المرتقبة التي قد تفضي إلى القضاء التام على صنوف الشقاء الإنساني: صاروا إذا سمعوا هذا أو سمعوا شيئاً منه اشمأزوا منه ومن قائليه واتهموهم بفساد الإعتقاد وبالزندقة والإلحاد. إذ يرون أن مثل هذه المزاعم تدل على أنه – أي

الإنسان - ترك غير محدود القوى الذهنية وأن له أن يشارك الله في عمله وأن يخرج من نطاق الإنسانية الضعيفة الواهنة إلى رحاب الألوهية التي تتصرف كيف تشاء وتعلم ما تريد، وهذا عندهم نهاية الكفر والضلال. ولكنهم لا يشمئزون الإشمئزاز البالغ، ولا يثورون الثورة الجامحة إلا إذا سمعوا أن علم الإنسان قد يتوصل إلى ما يظنونه غيباً. فلو أقيمت لهم كل الدلائل على أن الإنسان قد يستطيع بآلاته الدقيقة المحكمة وبأشعته المختلفة القوية التي هتكت كل حجاب أن يعلم ما في بطن الأنثى - أذكر هو أن أنثى - كما يعلم الأمراض الباطنة ويراها رأي العين ويعلمها علم اليقين، وكما يرى المخلوقات الميكروسكوبية التي كانت من وراء المادة، ومن الأشياء الغيبية قبل صنع الميكروسكوبات وغيرها من الآلات - أو أنه قد يستطيع التوصل إلى جعل إخصاب المرأة كما يريد إن شاءه ذكراً وإن شاءه أنثى - كما توصل إلى هذا في كثير من النباتات والحيوانات، بل كما قيل إنهم قد صنعوه في الإنسان نفسه: - نعم لو أقيمت لهم كل البراهين على أن الإنسان قد يستطيع هذا أو أنه قد استطاعه لما آمنوا ولو سمعوا من يدعيه ويقوله لكان أقل ما يرمونه به التكفير.

وهكذا قد أصروا على إتهام الإنسان وعلى إتهام مقدرته، وأصروا على أنه ما خلق ليعلم ولا ليتحكم بعلمه في الكون ولا ليخضع الطبيعة ويسوقها إلى أغراضه ومصالحه، بينما كان الآخرون جادين في إستغلال المقدرة الإنسانية مصرين على أنها قد تعطي الشيء الكثير إذا أحسن إستخدامها وإستغلالها، وأنها قد تسمو حتى لا يعوقها عائق وتقدم حتى لا تجد مكاناً للإحجام. فكانت النتيجة بالنسبة للفريقين مختلفة كل الإختلاف. وليس هنالك مجال للشك في أن الفرق سيكون عظيماً جداً بين أمتين أو إنسانين أحدهما يرى أنه صالح لأن يعلم ويعمل ويقهر كل صعب، والآخر يرى أنه عاجز مهين لا يصلح إلا ليبكي نفسه وينشد الأناشيد في ضعفه وجهله، وإلا ليرتقب من الكون الذي يطبق عليه أن يرزأه بما يشاء ويصيبه بما يحب بدون أن يستطيع الدفع عن نفسه لأنه عاجز مخذول متخاذل أمام الطبيعة، راكع أمام قوى الكون.

ومن غريب الإستدلال الباطل في حقيقته، العجيب في مرماه أنى قرأت مرة في كتاب مطبوع لأحد المسيحيين ما خلاصته: إن القول بألوهية المسيح وإن كان باطلاً في نفسه إلا أنه مفيد في نتيجته، وذلك أننا إذا أفهمنا الدائنين بالنصرانية

ففهموا أن بشراً في مظهره ومنظره ومولده وحياته وكل صفاته استطاع أن يترقى حتى صار إلهاً يفعل فعل الآلهة ويعلم علمهم ويخضع الأمم والشعوب إلى أن تدين له بالألوهية والربوبية وتعبده، فقد فتحنا مجالاً للتسامي والرقي لا حد له، يأخذ بالهمم والآمال فتتسامى هذا التسامي وتطمح بأبصارها إلى هذا المرتقي العظيم... وفي هذا من الحفز للهمة والإغراء بالوثوب ما يعجز عن وصفه الواصفون، ولهذا فإن الفرق في عظمة الآمال وإتساع المطامع عظيم بين الأمم المسيحية وغيرها... هذا خلاصة قول هذا المدافع عن تأليه المسيح... وليس بخاف ما في هذا القول من محاولة للتسامي بالمواهب الإنسانية والحقيقة الإنسانية، وكم من الفرق بين هذه الروح التي أملت هذا الكلام وبين تلك الروح التي أملت قولهم (ما للتراب وللعلوم إلخ)... لقد عظم الفرق في التوجيه والإتجاه فعظم الفرق في النتيجة والغاية. ولا يفهمن أحد من سياقنا لهذا الإحتجاج أننا نرضاه. كلا وإنما سقناه لما فيه من الدلالة على رغبتهم الشديدة في أن يتساموا بآمالهم وأعمالهم.

ومن الحسن أن يفهم القارىء أن هذه الفلسفة التي ذكروها في ضعف الإنسان فلسفة باطلة، يردها النظر كما تردها النصوص الدينية الصحيحة... إذ لا ريب من ناحية النظر أن الصانع يعظم كلما عظمت صنعته وعظمت آثار صفاته ويمدح بذلك، وأنه ينقص إذا نقص الشيء الذي يفعله ويوجده ويذم بذلك. فعلى حسب الشيء تكون الآثار والأفعال، فالذي يفعل العظيم المحكم البديع الصنعة يكون عظيماً، والذي يصنع الحقير التافه ولا يستطيع أن يصنع غيره يكون تافهاً حقيراً. وهذه قضية منطقية لا خلاف فيها. فإذا أثنينا على الإنسان الذي هو مخلوق لله فقد أثنينا على خالقه، وإذا نممناه فقد كدنا نذم خالقه – أو فقد نممناه من حيث لا ندري ولا نريد – ولهذا فإن الأديان كلها قد دأبت على لفت الأنظار والتوجيه إلى المخلوقات الكبيرة العظيمة كالشمس والقمر والنجوم والسموات والأرض لما في ذلك من التعظيم لله ومن الإبانة عن سلطانه وعظمته ومن التدليل على أنه الإله الكبير المتعالي.

ولهذا أيضاً فقد جعل المقربين لديه كالملائكة والأنبياء والرسل هم أقرب الموجودات إلى الكمال وأعظمها علماً وذكاء وقوة. فالنظر إذن يرشدنا إلى أنه يجب – إذا أردنا تعظيم الله – أن نعظم مخلوقاته وأن نعتقد بأنها قد خلقت

مستعدة للكمال وأنها إذا لم تكمل فهي التي أبت لنفسها هذا الكمال الذي أراده لها خالقها، إذ الكامل يخلق الكامل ويريده، والناقص يخلق الناقص ويريده ويعجز عن سواه.

وأما من ناحية النصوص فلنذكر في هذا المقام ما حكاه الكتاب الكريم عن الإنسان الأول إذ قال": وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة - إلى قوله - وعلم آدم الأسماء كلها- إلى قوله:- قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم "...الآية. فأخبر تعالى عن الإنسان أنه مستخلفه في الأرض. ومعلوم أن الخليفة في العادة ينوب عمن استخلفه. ولا يستخلف الحكيم العاقل إلا خليفة جديراً بالقيام بالخلافة قياماً صحيحاً لا يمنعه القيام بها - كما يجب - جهل ولا عجز ولا هوى. ولو كان الله يعلم أن الإنسان مطبوع طبع طبيعة على الجهل الذي لا يمكن الخلاص منه لما اختاره خليفة له في أرضه. ثم من المعلوم أيضاً أن الخليفة يكرم ويشرف بقدر شرف مستخلفه وكرمه. فمن كان الله مستخلفه كان ذلك نهاية الشرف ونهاية الكرم. ثم من العادة أيضاً أنه لا يبشر ولا يخبر بوجود الشيء قبل وجوده إلا إذا كان ذلك الشيء عظيماً محبوباً مرضياً، ولا يمكن أن يخبر ولا أن يبشر بوجود الأشياء التافهة الحقيرة. والإنسان إذا كان عظيماً وكانت له قيمة فإنما ذلك بعقله وعلمه لا بشكله وصورته بلا خلاف. والله قد أنبأ الملائكة بوجود هذا الموجود العجيب قبل أن يوجد وبشرهم به. والعادة أيضاً قاضية بألا يخبر العظيم بالشيء إلا إذا كان الشيء شريفاً عظيماً، فلو كان الإنسان تافهاً حقيراً صغيراً في قيمته الأدبية لما أخبر الله الملائكة به ولما جرى فيه حديث. وقد قالت الملائكة متعجبة مستفهمة بعد علمها بهذا النبأ: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء "فقال الله معقباً على مقالتهم هذه، دالاً على الحكم والأسرار الكامنة وراء هذا الوجود ووراء سفك الدماء والإفساد الظاهري الذي لا بد منه لما جبل عليه هذا المخلوق الغريب من الطباع والغرائز: "قال إني أعلم ما لا تعلمون" فكأنه تعالى قد قال للملائكة رداً على سؤالهم وتعجبهم: نعم هو يسفك الدماء ويفسد في الأرض ولكن بوجوده ينطوي على أسرار وفوائد وحكم تفوق أضرار هذا السفك للدماء وهذا الإفساد في الأرض. وهذه الفوائد والحكم هي

بلا شك نتيجة لما امتاز به من العقل والذكاء والإستعداد للترقي المطلق في كل معنى من معانيه وأمر من أموره. فهو بمثابة أن يقال: حقاً هو يظلم ويشب الحروب ويفعل غير ذلك من الآثام القانونية والشرعية ولكن هذه الأفعال تتلاشى أمام فضيلته الحقيقية وميزته البارزة الظاهرة وهي موهبته العقلية والأدبية التي لا يقف ترقيها وتقدمها عند حد.

ثم في هذا الرد الذي أجاب الله به الملائكة إشارة تكاد تكون جلية إلى أن هذا السفك للدماء في الحروب وغيرها، وإلى أن هذا الإفساد في الأرض هو وإن كان في ظاهره وفي ملمسه القريب، وفي حكمه القانوني شراً إلا أنه ضروري، لأنه من أسباب تقدم الإنسان وأسباب نضجه وبلوغه رشده وأسباب وصوله إلى الدرجة الرفيعة التي هيئ للوصول إليها بإستعداداته المختلفة كما أشار إلى ذلك الكتاب الكريم في آيات كثيرة صريحة. فلولا هذه الحروب وهذا التنازع والتسابق إلى الحياة وإلى سرقة الحياة - ولولا شحذ القوى الذهنية لخدمة الحروب والتنازع والسباق إلى إمتلاك الحياة - ولولا هذه الغرائز والطباع التي ركبت في الإنسان وساقته إلى سفك الدماء وإلى مظالمة الآخرين والعدوان عليهم - لولا هذا كله ولولا سواه أيضاً لما قدر الإنسان على أن يبلغ هذه الدرجة التي بلغ، ولما ظفر بكل هذه الأشياء التي بها قد ظفر، ولما برزت موهبته العقلية هذا البروز. فإن الحروب بل وكثيراً من هذه المظالم هي أعظم صقل تصقل به القوى، وأعظم موقظ ومنبه لما يكمن فيها وفي طبيعتها من معان سامية. فكأن هذه الشرور هي شرور في الظاهر فقط، وكأنها بمثابة العملية الجراحية القاسية الموجعة في أولها، المفيدة المصلحة في نتيجتها - أو كأنها إمتصاص من أخلاق الإنسان الفاسدة أو التي يقال إنها فاسدة قانوناً وعرفاً... والقصاص حياة كما قال الله في كتابه: "ولكم في القصاص حياة." فأصبح هذا الجواب من الله للملائكة تنبيهاً واضحاً إلى فضيلة هذا الإنسان وإلى قيمته وإلى ما يشتمل عليه وجوده وأعماله - حتى سفكه الدماء وإفساده في الأرض - من فوائد ومصالح. فمن ذم الإنسان واستصغر أمره أو قدح في فضيلته من أجل بعض أفعاله كخروجه وتنازعه على البقاء الموجب للتظالم، ومن أجل إتيانه ما يسمى فساداً أحياناً كان فاعلاً قائلاً ما فعلته وقالته الملائكة لما أن تعجبت من جعله خليفة في الأرض. ولكن الملائكة قد رجعوا عن هذا التعجب أو عن هذا الإستفهام أو الإعتراض لما أن دلهم الله

على الحكمة البالغة في هذا الجعل والإستخلاف. أما من بقي مصراً على مذمة الإنسان وقدحه فيه، فقد بقي مصراً على ما رجعت عنه الملائكة، ومقلداً لهم في ما تركوا وتبرأوا منه، ومصراً على ما أبان الله أنه غير صحيح وغير حق.

أما قوله "وعلم آدم الأسماء كلها" فهو تصريح بعلم الإنسان كل شيء فقد وكده بقوله "كلها" فإن من علم الأسماء علم المسميات وإلا فلا معنى لعلمه ولا فائدة منه، والقصد للمسميات لا الأسماء، والأسماء لم توضع إلا لمسمياتها. فمن عرف إسم شيء ولم يعرف مسماه كان ذلك لغواً وكان ذلك العرفان جهلاً. على أن من عرف إسم أمر من الأمور ولم يعرف ما المراد به لم يسم عارفاً ولا عالماً بذلك. فإن المعرفة والعلم للأشياء لا للأسماء. ولو أن إنساناً علم لغة من اللغات - أسماءها وأفعالها وحروفها - ولم يعلم مدلولاتها ولا المراد بكل لفظ منها لما قيل إنه يعلم اللغة. وعلى كل حال فإن من المستحيل على عاقل أن يتعلم الأسماء كلها ثم يبقى جاهلاً بمسمياتها، بل إذا علم هذه فقد علم تلك.

وقوله "ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء" واضح في أن المراد علم الأشياء لا علم أسمائها. ومن الواجب أن يعلم هنا أيضاً أن موضوع اللغات يجب أن يكون موجوداً قبل اللغات نفسها، فالناس إنما يضعون لغاتهم - أفعالها وأسماءها وحروفها - ليدلوا بها على أشياء موجودة مائلة أمامهم، ولا يمكن أن توضع اللغة - لا أفعالاً ولا أسماء ولا حروفاً - قبل وجود الأفعال والمسميات نفسها حقيقة. فكأن اللغات إشارات أو صفات. ولا تعرف الصفات ولا الإشارات إلا بمعرفة المشار إليها الموصوفات. فتعليم الإنسان الأسماء كلها وعلمه إياها صريح إذن في سعة علومه وفي أن معارفه ليست لها نهاية ولا غاية بل هي قابلة للإتساع وقابل هو للتعلم والإستزادة حتى يعلم الأسماء كلها ويعلم دلالتها على مسمياتها. ومعنى هذا أن يعلم كل شيء. وقد دلت كشوفه العلمية الأخيرة ومعرفته كل ما أمامه - حتى استطاع أن يعرف عناصر الطبيعة وأن يعدها عداً، وأن يعلم ما هي مركبة مكونة منه - على هذه الحقيقة القرآنية والنبوة الإسلامية.

وعرض الله الأسماء كلها على الملائكة وسؤاله إياهم إنباءه بها وعجزهم عن معرفتها، وإعترافهم بالعجز، ثم أمره لآدم أن ينبئهم، وأنباؤه إياهم بها يدل ذلك كله من وجوه كثيرة على فضيلة الإنسان العلمية. فإنه يثبت أولاً أنه أعلم من

الملائكة. ومن المفروض المعلوم أن الملائكة ذوو مكانة علمية ظاهرة، فمن كان أعلم منهم كانت فضيلته العلمية لا تدفع. ثم فيه ثانياً أنه جعل مقام الإنسان منهم مقام المعلم. ثم فيه ثالثاً أنه أراد تعالى أن يظهر للملائكة أنفسهم فضيلته بهذا الأسلوب وهذه الطريقة التي لا يخفى ما فيها من التحدي والتعجيز لهم ومطالبة الإعتراف له بهذه الميزة الكبرى.

وقوله "إن كنتم صادقين" يشير إلى أن مذمتهم للإنسان وإستصغارهم شأنه وحكمهم عليه بسفك الدماء والإفساد في الأرض، وزعمهم أنهم هم خير وأحسن منه، لأنهم يسبحون له ويفسدون اسمه: يشير إلى أن ذلك غير صواب وغير حق. ولهذا قال "إن كنتم صادقين" أي صادقين في الإتهام والقدح والإدعاء. ففيه دفاع جلي قوي عن الإنسان. وقوله بعد إنباء آدم لهم: "قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون" إبطال ورد لقدحهم في الإنسان ولزعمهم أنه مفسد مقاتل لا خير فيه، وإثبات أن هذه الرذائل والشرور – أو ما حسبوه رذائل وشروراً – تذوب في غمار فضائله العقلية وترحض بتيار علمه... فهذه أساليب متعددة أريد بها إظهار المكانة الإنسانية من الناحية الأدبية. وقد صدقت هذه المكانة وختمت بخاتم لا يقبل التزوير والإدعاء وهو أمر الله للملائكة بأن يسجدوا له، وسجودهم، وطردهم تعالى لمن أبى السجود، وحكمه الأبدي عليه بالكفر والهلاك. وأوامر الله العليم الحكيم ليست عبثاً وليست مجرد أوامر خالية من الحكمة والقصد والتعليل. فما أمر الله الملائكة – وهم المقربون لديه – بالسجود له لفضيلة فيه ليست فيهم ولميزة ذهنية فضل بها عليهم. وكذلك ما طرد من امتنع عن السجود له إلا لأنه امتنع عن فعل شيء جميل واجب فعله. والله أعلم حيث يأمر وينهي، وحيث يبعد ويقرب، وحيث يضع رسالته.

ومن الآيات المسوقة لبيان هذه المكانة قوله تعالى "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم." والمراد هنا بالتقويم الذي وصف بأنه أحسن تقويم هو تكوين الإنسان – من حيث خلقته العامة ووضع أعضائه وأجزائه وكل ما فيه وضعاً مبدعاً يؤدي من حيث الأعمال والوظائف إلى الإبداع والإحكام. فالمخ والرأس والقلب واليدان والرجلان والعينان واللسان والأذنان وكل ما ظهر وما بطن منه وصفات هذه الأشياء كلها قد كونت تكويناً هو الإبداع والإحكام. ولا يمكن أن يقال بصدق

وحق إن شيئاً من الأشياء قد قوّم أحسن تقويم إلا إذا كان يستطيع أن يؤدي وظيفته ويؤدي الغرض المنشود منه أحسن تأدية، سواء في ذلك الموجودات الجامدة والموجودات الحية النامية. فالإنسان إذن من ناحية آلات الفهم والعقل والشعور والإدراك فيه وآلات العمل كلها قد جاء في أحسن تقويم وتكوين، والإنسان إذن قد أعد من الناحية الأدبية والعقلية والخلقية ليكون المثل المقصود الأعلى وإن كان هذا لا يحصل إلا بالتدريج والبطء كما تقضي نواميس التطور نحو الكمال والإستواء، ذلك التطور الذي يبدو لنا أنه بطيء وأنه مسرف في البطء وإن كان بالنسبة لعمر العالم سريعاً مسرفاً في السرعة.

وليس من الممكن أن يكون الثناء على الإنسان بحسن التقويم عائداً إلى صورته الظاهرة ومنظره الخارجي فقط لأن في المخلوقات ما هو أجمل وأحسن منه من هذا الوجه ولأن الله قد ذم حسن الصورة المجرد من الفضيلة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: "وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة – إلى قوله: "قاتلهم الله أنى يؤفكون" ولأن الله قال بعد ذلك: "ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات" والذين آمنوا وعملوا الصالحات يردون أيضاً أسفل سافلين وكان المراد بذلك الصور والمظاهر.

وقال تعالى: "وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون" ففي الأرض وفي نفس الإنسان آيات للموقنين! فما هي الآيات التي في نفس الإنسان والتي لفت الله الإنسان إلى نفسه من أجلها ودله عليها؟ أعظم الآيات في النفس الإنسانية هي القوى العلمية والأدبية والعقلية والخلقية. وإلا لو كان القصد هو البناء المادي المنظور لما كان هناك ما يميزه على المخلوقات الأخرى حتى يستحق به أن يلفت إليه خاصة وأن ينبه عليه لوحده في هذه الآية، وهو مما في الأرض من هذه الناحية. فلماذا ذكر تخصيصاً بعد التعميم إن لم تكن الإشارة إلى ميزاته الجليلة الكبيرة لا إلى ما يشاركه فيه كل شيء في الأرض من المخلوقات.

وفي قوله "أفلا تبصرون" نعى على هؤلاء الذين لا يبصرون الآيات الكامنة في أنفسهم وفي النفس البشرية العامة ولا يحاولون الإنتفاع بها ولا إستخدامها، وعلى هؤلاء الذين لا يرون هناك من الكنوز الذهنية أعظم مما في الأرض من كنوز الذهب والفضة والفحم والنفط وغيرها مما لا يقوم بثمن – تلك الكنوز التي لولا كنوز النفس العلمية لما أمكن إخراجها ولما أمكنت معرفتها ولما علم كيف تخرج

ولا ماذا يصنع بها لو أخرجت.

ومن الجميل جداً، البالغ في جماله أقصى الغايات أن يجمع الكتاب بين الآيات الموجودة في الأرض والآيات المستقرة في النفس الإنسانية، موجهاً إليهما معاً، ناعياً على من لم يبصرهما، وعلى ما لم ينتفع بهما. فإن فيهما كليهما كنوزاً هي آيات بل غايات. والفرق بينهما أن كنوز هذه مادية وكنوز تلك أبنية ذهنية، وأن الإنتفاع بأحدهما وإستخراجه متعذر إلا إذا عرف الإنتفاع بالآخر وعرف إستخراجه. ومن عجز عن أن يبصر كنوز الأرض التي تحت قدميه أو كنوز نفسه التي بين جنبيه كان حقاً أخسر الخاسرين وكان حقاً ممن لا يبصرون وممن يجدر أن يقال لهم "أفلا تبصرون."

ومن المصائب المؤلمة أننا معشر المسلمين الذين نزلت عليهم أمثال هذه الآية منذ أربعة عشر قرناً تقريباً لا نزال غير مبصرين لكنوز الأرض التي هي آياتها، ولا لكنوز أنفسنا التي هي إستعداداتها، ولا نزال محتاجين في هذه وهذه إلى الآخرين ليخرجوها لنا وليبصروها ويروها، ولا نزال عاجزين عن أن نبدي أقل عون ومساعدة صادقة فنية في عملية هذا الإخراج والإستخراج بل وعملية الإبصار، ولا نزال حريين بأن يقال لنا "أفلا تبصرون" مكررة علينا آية نزلت منذ ألف وأربعمائة سنة. فهذه الآية أقوى أمر لنا بأن نحاول إبصار أنفسنا وإبصار ما تنطوي عليه من القوى العجيبة. فأين من يبصرون! وإن العمى قبيح ولكن أقبح أنواعه هو العمى عن النفس لأن من شقي بعدم إبصاره لغيره كان أشقى جداً إذا لم يبصر نفسه.

وقال تعالى: "الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان." البيان هو الإبانة عن الأشياء. وقد أطلق هذا البيان الذي يراد به الإبانة ليدلنا على أنه يعني به الإبانة المطلقة العامة. ولا يبين عن الأشياء إبانة مطلقة عامة إلا من علم الأشياء وعلم حقائقها وتفاصيلها وخصائصها علماً عاماً شاملاً، وعلم ما يجوز لها وما يستحيل عليها وما يناسبها وما لا يناسبها وما يصاحبها ويفسدها وهكذا. وإلا فلن يكون مبيناً عنها إبانة صحيحة كاملة فالإنسان إذن معد مهيأ كي يكون مستطيعاً البيان عن هذا الوجود الذي يحيط به والذي لا يستطيع الإنفصال عنه. وهذا لا يكون إلا إذا علمه علماً حقيقياً وعلم كل ما يتصل به. ونتيجة هذا هي الإحاطة العلمية الشاملة... والآيات في هذا كثيرة جداً

من العبث محاولة إستقصائها وجمعها وشرحها في هذه الكلمة الإستطرادية القصيرة العجلى.

ومن الأحاديث التي يحسن إيرادها هنا حديث صحيح مشهور قدسي هو قوله صلى الله عليه وسلم حكاية لما قاله الله: "ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها"... ومن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله - وهذا بلا ريب على غير ظاهره - فلا بد أن يكون بصره نافذاً وسمعه واعياً وعمله موفقاً قوياً، ولا بد أن يكون له من القوى والأعمال ما لم يعهد الناس وما لم يعرف الناس، ولا بد ألا يكون هناك حدود تحده ولا قيود تقيده إذا شاء أن يفكر وأن يعلم وأن يعمل وأن يرى ويسمع، ولا بد أن يكون مستطيعاً أن يصنع ما يشبه أن يكون خارجاً عن الطاقة البشرية المعروفة وما يكاد يضاف إلى قسم المعجزات، ولا بد أن تبقى مواهبه العاقلة متجددة متوثبة لا يمنعها مانع ولا يهرب منها هارب، ولا يقال لشيء من الأشياء - كائناً ما كان - إن هذا فوقها أو إنه بعيد عن متناولها أو إنه ليس مما يدين لها. والله حينما خلق هذا الوجود العجيب الجميل أراد له أن يبلغ في الأجل المعلوم رشده وكماله وأن يخرج كل طاقته الكامنة على أحسن وجه وأجمله، ولكنه تعالى أراد أن يبلغ ذلك بأسباب إذ قد ربط كل شيء بأسباب من ورائها أسباب ليكون كل شيء متحركاً سائراً عاملاً لا جامداً ولا ساكناً. ثم أراد تعالى أن تكون أسباب هذا النضج والبلوغ العقلي بواسطة أعظم وأفضل ما فيه، وكان أفضل وأعظم ما فيه هو الإنسان فأراد تعالى أن يكون الإنسان هو الذي يبلغ به رشده وكماله، فأطلق لعقله العنان ليظل متنقلاً من طور إلى طور ومن سن عقلية إلى أخرى حتى يصل بنفسه وبالعالم معه الحد المعلوم المقدور على حسب السنة الموضوعة وهو بتنقله هذا وبقيادته للعالم إنما يبصر ببصر الله ويسمع بسمع الله ويبطش بيد الله ويمشي برجل الله -أود أن الله يكون حينئذ سمعه وبصره ويده وقواه العقلية والبدنية. لأنه بتطوره وتنقله- سائقاً معه العالم - يقوم بدور المنفذ لنواميس الله، العامل على إبلاغ سنته تعالى نهايتها بما أعطاه من الخصائص المختلفة. والحكيم إذا ندب أحداً للقيام بأمر جليل يريده، أو ندبه لتأدية رسالاته أو إحدى رسالاته سلّحه بكل ما يلزم للمعركة وكمله بأنواع الكمال الذي لا بد منه لأجل إتمام

الرسالة. والإنسان بلا نزاع هو سيد هذه الأرض وقائدها وسيد ما فيها. فلا محالة من إختصاصه بخصائص القائد السيد وإلا كانت سيادته وقيادته باطلتين مرفوضتين قائمتين على الجور والظلم، ولكنهما سيادة وقيادة سلمهما الجميع بلا قيد ولا شرط. فلا محالة من أن تكون صلته - أي صلة الإنسان - بالسيد الأعلى، أي بالله، صلة الملهم المخصوص، أو صلة من يكون السمع والبصر واليد والرجل ليحسن القيادة وفاق ما يريده القائد الأعلى.

ولعل من أظهر الدلائل على هذا الإختصاص وعلى هذا القصد أن الله قد أهّل الإنسان لتلقي رسالاته التشريعية، وأهّله لمكان وحيه، وسما به وقربه حتى صار منه موضع النجي الكليم، فصار المبلغ عنه، وصار أنبياؤه ورسله منه. ومن كان هكذا فلا يمكن أن يكون محدود المدارك من حيث الإجمال، ولا أن يكون محجوراً على تفكيره ونظره بنوع من أنواع الحجر، ولا مضيقاً عليه بصورة من صور التضييق. فإن من استطاع أن يتلقى عن الله فقد سما إلى أبعد سماء وبلغ مكان الإرتفاع فوق كل الوجود. وهذا الإرتفاع على كل الوجود يجب أن يكون بحق وجدارة وهو لا يكون كذلك إلا إذا كان إرتفاعاً من حيث المعنى والحقيقة كما كان من حيث الظاهر والصورة. ومن ارتفع على الوجود كله بمعناه كان معنى هذا إخضاع الوجود له، وإخضاعه لا يمكن إلا بفهمه وفهم أسراره. فالإنسان إذن يجب أن يكون فاهماً هذا الوجود مدركاً كل ما فيه إدراكاً وفهماً تامين صحيحين. وإذا كان كذلك فلا حدود ولا قيود. ولكن يجب أن يعلم أن هذا الإدراك والفهم من حيث الجملة لا من حيث الأفراد. فإن معارف كل فرد محدودة مقدرة، ومعارف الفرد دون معارف الجماعة ومعارف الجميع.

هل الإنسان غير عظيم، أو هو أهل لأن يساء به الظن ويساء بإستعداده الذاتي؟ إن هذا السؤال لا يمكن ولا يصح أن يجاب عنه بالألفاظ وإنما يجب أن يكون جوابه بالواقع والحقائق المشاهدة الملموسة.

إن للإنسان حدين من حيث وجوده: حد هو وجوده الأول يوم أن رأى ورأته هذه الأرض، وحد هو تاريخه الموجود الآن الحاضر المشهود أمامنا. وما بين هذين الحدين أو الطرفين هو جملة تاريخه وأعماله الواقعة التي يمكن أن تكون له ويمكن أن تكون عليه، ويمكن أن تدل على أنه غير عظيم وأن تدل على أنه عظيم.

لا محالة من أن نتصور الإنسان في بداية وجوده عارياً من كل معرفة كما كان

عارياً من كل لباس. وعلمنا أن هذا التصور صحيح لا يحتاج إلى عناء ولا بحث طويل. فإننا لا نزال نشاهد الإنسان - بعد بلوغه هذه الغاية العظيمة من المعارف والعلوم - يأتي إلى هذه الدنيا حينما يأتي عارياً من جميع المعارف. جاء إلى هذه الحياة - ولا مجال للجدل في كيف جاء - كما يجيء الأطفال اليوم على أحسن تقدير. على أن من الواجب أن نعتقد أن هنالك فرقاً عظيماً من حيث الإستعداد الكامن بين أطفال اليوم والإنسان الأول، لأن أطفال اليوم يحملون في دمائهم تراث الآباء والأجداد كله بخلاف الإنسان الأول الذي جاء لا يحمل معه سوى ما ورث من منبته إن كان فيه ما يورث... نعم جاء إلى الحياة كما يجيء أطفال اليوم من حيث التجرد من كل معرفة ومن كل لباس: لا يعرف لغة ولا كتابة ولا إشارة دلالة على الكلام، ولا زراعة ولا صناعة، ولا شيئاً مما هو ضروري لذلك. فهو لا يعرف أن يبني بيتاً يسكنه ويأوي إليه إتقاء ما تأتيه به الطبيعة ولا أن ينسج ويخيط له ثوباً يلبسه، ولا ناراً ينضج عليها ما يأكله وتوفر له الدفء والحرارة، بل لا يعرف وسيلة من وسائل التفاهم، والتفاهم هو أول الخطوات. فلا يدري ما يجول بخاطر من حوله بل لا يدري أن لهم خواطر تجول بالمعاني والأفكار والخطرات لا يدرك شيئاً مما يحيط به. فيفزع من كل ظاهرة كونية: يرى البرق فيفزع، ويسمع الرعد فيطير لبه هلعاً، وتهب الريح فيتقسمه الخوف والرعب، وينزل المطر فلا يعلم كيف يفعل ولا كيف يفهم، ويرى جريان الأنهار والمياه فيحسبها تجري بالحياة والإرادة مثله، ويحسبها قادرة على إيذائه، بل يرى الظلام فيظنه يتراقص بالأشباح المؤذية المهاجمة وبكل ما يخيف ويذعر... أما طلوع الشمس وغروبها - وكذا النجوم والكواكب - فأعظم ما يملأ جوانحه روعاً... وهكذا كان لا يعلم شيئاً ولا يأمن شيئاً... والخوف عادة وليد الجهل، فإن من يجهل الشيء يخافه. وقد نشأ عن هذا الخوف وعن هذا الجهل أن نمت فيه فكرة العبادة لهذه الظواهر الكونية ولهذه الأشياء المتحركة المضطربة. فإن الخوف يحدث التفكير في دفع ما يخاف وفي إتقائه. والجاهل الضعيف إنما يدفع عن نفسه ويتقي ما يرهب بالملق، والملق له صور كثيرة إحدى هذه الصور البكاء والضراعة - كما يفعل الأطفال. والبكاء والضراعة هما أعظم مظاهر العبادة... فراح يعبد كل ما يرى ويسمع عبادة ساذجة حقيرة. فكان الإنسان إذ ذاك يتلخص في شيئين: في الجهل المطلق بكل شيء، وفي عبادة كل شيء متقلب

مضطرب. ونعود فنقول مرة أخرى: إن أحسن وأصدق صورة ترسم للإنسان في ذلك العهد هو الطفل من حيث العري من كل لباس علمي وبدني.

والآن لننتقل نقلة فكرية، ولنرجع رجوعاً سريعاً خاطفاً من تلك العهود الموغلة في القدم، ولنمر بتاريخ ثلاثمائة ألف سنة أو تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً من تاريخ هذا الإنسان الطويل البطيء من غير أن نقف على مرحلة من مراحله حتى نقف وقفة طويلة ممعنة عند تاريخنا اليوم وعند الإنسان في القرن العشرين. ولنحاول أن ننسى ما بين هذين التاريخين من تاريخ، ولنأخذ الفرق بين هذين التاريخين أو هذين العهدين أو هاتين الصورتين ولنجعله هو مجموع ما عمله الإنسان بفكره وجسمه... إن أول نظرة إلى صورتي الإنسان في عهديه وتاريخيه لتملأ العين وتملأ القلب إعجاباً بهذا الإنسان الصغير البدن، المحدود بالحدود المادية الضيقة.

ماذا نرى الآن في هذه الحياة التي تموج بأعمال الإنسان وماذا نرى من القوى المادية والفكرية التي أوجدها هذا المخلوق وجعلها في خدمته وملكاً له؟ كيف استطاع الخروج من تلك الظلمات الأزلية حتى وصل إلى هذا العصر، وكيف استطاع الوصول إليه في سيره المتعثر واستطاع أن يسدد وقع أقدامه المتحركة في الظلام بدون أن يكون له هاد إلا طبيعته، ومرشد إلا حاجته ونور يبصر به السبيل إلا أمله، وبدون أن يكون له قوة دافعة إلا إستعداده المولد للطاقة بعد الطاقة بدون عطل أو توقف؟ لقد بدأ في إيجاد تاريخه وبناء حضارته بداية توجب الرثاء والإعجاب معاً: فكر في أنه محتاج إلى أن يتفاهم أفراده، وفي أن هناك حاجات مشتركة يجب أن يعلمها كل فرد – أو على الأصح فهم كل فرد في نفسه أنه يريد أن يفهم عن غيره وأن يفهم غيره ما في نفسه وما عنده وما يضطرب في جوانحه. ولكن ما كان يعرف وسيلة واحدة من وسائل التفاهم. فراح يحاول أن يتخاطب وأن يتفاهم بالأصوات التي لا مقاطع ولا معاني لها كالأطفال سواء حينما يلجون في طلب حاجاتهم بالبكاء والصراخ الذي هو تصويت فقط. فظلت هذه هي وسيلة تخاطبه وتفاهمه الوحيدة أزماناً يعجز التصور عن تحديدها تحديداً دقيقاً. ثم ترقى درجة بقصد أو بغير قصد بأن ذهب يتخذ لنفسه طريقة للتفاهم والتخاطب أفضل من التصويت المبهم، فذهب يتخاطب بالإشارات والحركات... وهذه طبعاً أفضل وأوضح من الوسيلة الأولى لأنها أدنى إلى

التحديد والإفهام. وإن الأطفال ليتبعون طريقة أسلافهم في التنقل من وسيلة إلى وسيلة أخرى محاولين الإفهام والإفصاح. فإنهم بعد أن يظلوا مدة معينة يتكلمون ويأمرون وينهون ويطلبون بالأصوات المجردة يذهبون بعدها إلى الإستعانة بالإشارات والحركات. ومن العجيب أن محاولة الإفصاح عن الغرض بالإشارة والحركة والتمثيل البدني لا تزال ملازمة الإنسان اليوم... ثم غبر أحقاباً بعد أحقاب يدأب لنفسه ويكدح لها كدحاً متواصلاً عنيفاً، ويصنع التجارب تلو التجارب ويخرج النماذج إثر النماذج، مستعيناً بوسيلتيه الأوليين: الإشارة والحركة حتى ظفر بعد ما لا يمكن تخيله من العناء والمشقة والزمان بما يصح أن يسمى أول لغة إنسانية ذات مقاطع وحروف مفهومة... وهنا يجب أن يقال بحق وصدق: لقد استطاع الإنسان أن يخرج بغنم عظيم وأن يمضي أشواطاً هائلة في طريق أهدافه وفي طريق هذه الحضارة الحاضرة التي يتمتع الإنسان اليوم بها. إذ قد استطاع بمعرفته أول لغة أن يضع حداً فاصلاً بين عهود الطفولة – أو الحيوانية على رأي آخرين – وبين العهود الإنسانية، وأن يخلي الطفولة والحيوانية وراءه بحيث لا يخشى عليه الرجوع إليها مرة أخرى. ويجب أن يسمى هذا العهد أول تاريخ للإنسانية وأول نقطة استطاعت الوثوب منها. ولو أن الإنسان بقي عاجزاً عن الظفر باللغة لبقي عاجزاً عن بلوغ كل ما بلغه، ولبقي عاجزاً عن أن يصنع له تاريخاً يفوق تاريخ الحيوان.

ونحن لا نستطيع أن نقدر قيمة اللغة ومقدار ما أنفق في سبيل الحصول عليها إلا إذا تصورنا جمعاً من الأطفال الذين لم يسمعوا حرفاً واحداً من حروف اللغات المختلفة ألقى بهم في إحدى الجزائر التي لم يقطنها الإنسان بعد ثم تركوا وشأنهم على أمل أن يتوصلوا فيما بينهم إلى لغة بها يتفاهمون ويتخاطبون، وتصورنا كيف يخفقون وكيف يعجزون عن تحقيق هذا الأمل وعن الوصول إلى هذه الأمنية.

أما بعد اللغة فقد أمكن أن تتلاقح الأفكار وأن يغذي بعضها بعضاً وأن يصبح كل فكر ملكاً مشاعاً ورأياً إنسانياً عاماً، في استطاعة كل فرد من أفراده أن يصيره ملكه وفكره. لهذا كله ولشدة الوثبة التي وثبها الإنسان وبعد الخطوة التي خطاها في مجموع قواه الذهنية والشعورية والجسدية وعظم النقلة التي انتقلها والمسافة التي خطاها راحت معارف الإنسان وأعماله تتسم بسمات

النضج والتقدم المستمر العجل. فعرف أشياء من الزراعة والصناعة ولكنها كانت بلا ريب أولية، وعرف أشياء أخرى كثيرة غير الزراعة والصناعة مما عد مميزاً للإنسان عن المخلوقات الأخرى... وبعد أشواط في مضمار الحياة الإنسانية البحتة لا يمكن تحديدها تحديداً تاماً استعملت فيها الخطوط والرسوم والصور التافهة والأشكال المشوشة والتجارب العديدة المضنية ظفر الإنسان بإختراع آخر لا يقل عن إختراع اللغة وسيلة ونتيجة... هذا الإختراع هو إختراع الكتابة، أو ما يمكن أن يدعى كتابة صحيحة. وهذان المخترعان: اللغة والكتابة هما أعظم الأسس التي شيدت عليها المدنية البشرية كلها، بل هما الشرطان الأولان اللازمان لها. ولولاهما لظل البشر حتى اليوم في جهالاتهم الأولى النكراء... ولا يقل إختراع اللغة والكتابة عن أكبر مخترع نالته الإنسانية في كل عهودها. بل كل المخترعات التي جادت بها عقول القرن العشرين والقرن التاسع عشر تتضاءل قيمتها وفوائدها إزاءهما وإزاء فوائدهما وقيمهما... وعلى هذا لا يمكن أن يعد مخترعو القرن العشرين والقرن التاسع عشر أجل خدمة للإنسان وأسرع خطوا به إلى الأمام من مخترعي اللغة والكتابة.

أخذت المعارف والعلوم والأعمال الصناعية والزراعية وغيرها تتساوق وتتدافع بعد هذا بسرعة عظيمة، وأخذت كلما تقدمت خطوة ازدادت سرعتها واتسع المجال أمامها إذ كأن الخطوات التي تخطوها والمكاسب التي تكسبها، والفتوحات التي تفتحها تصيرها قوى وطاقات تمنحها قوة الدفع وقوة الإندفاع وقوة الإستمرار... ولا شك في أن المخترعات التي تمت في القرن التاسع عشر أكثر من المخترعات والكشوف التي تمت في تاريخ الإنسان كله، وفي أن المخترعات والكشوف التي تمت والتي ستتم في القرن العشرين ستفوق في كثرتها وضخامتها مجموع المخترعات والكشوف – وفيها مخترعات القرن التاسع عشر وكشوفه – التي تمت في جميع العصور الخوالي. وهكذا.

وسيكون لهذا نتائج طبيعية: إحدى هذه النتائج أن الإنسان كلما تقدم وكلما ازدادت علومه تضاعفت قدرته على التقدم وعلى السير في سبيله وعلى إدراك العلوم تضاعفاً مقدراً بمكاسبه العلمية والكشفية والعقلية تقديراً رياضياً لا تختلف نتيجته. والشأن في هذا كالشأن في سائر القوانين الرياضية. فإنه إذا ضرب عدد ما في عدد آخر ثم ضرب العدد المضروب في الناتج من عملية الضرب

مرات عديدة فإن الناتج من آخر عملية يفوق الناتج من جمع جميع الناتج في العمليات الأولى كلها... ونتيجة هذه النتيجة أن تقدم الإنسان سيبقى مستمراً مضروبة سرعته في كل الخطوات التي خطاها في تاريخه كله. ومعنى هذا أن تقدمه لن يتوقف البتة، بل يأخذ في طريقه حتى يبلغ أقصاها ومنتهاها إن كان لها منتهى. ولو ضرب عدد في عدد مهما كانا صغيرين على أن يضرب العدد المضروب في كل ناتج لاستغرقت هذه العملية كل الأعداد الموجودة بل والمفروضة. وهذا برهان رياضي قاهر على أن أشواط الإنسان ستنهي المعركة كلها وستوصله إلى كل أهدافه وستضعه في أقصى الطريق وستجعله يتقدم حتى لا يجد متقدماً ويعلم حتى لا يدع مجهولاً إلا أن توقف هذه العملية الرياضية الإنسانية، ولكن لا سبيل إلى وقفها إلا بوقف الحياة فيه لأن هذه العملية هي عملية الحياة، فما دام الإنسان حياً فلن يقف عمل حياته شيء لأن الله القدير العليم قد أراد هذا كله لحكمة عليا.

غير أن من الممكن أن يوجه إلى هذه النتيجة الصادقة في ظاهرها ومقدماتها إعتراض بأن يقال: إننا نشاهد - كما نعلم - أن سير الإنسان إلى الأمام يقف أحياناً كثيرة وقوفاً قد يكون الجمود نفسه حتى يبدو أنه لن يسير مرة أخرى وينام حتى يخيل إلى من يفكر بأنه لن يستيقظ. بل قد يأخذ في الرجوع إلى الوراء والسير القهقري... وقد تنتاب هذه الحالات وهذه الأعراض الرجوعية أحياناً الإنسانية جمعاء وتنتاب أحياناً أخرى أمة دون أمة وفريقاً دون فريق وتكاد توجد هذه الأعراض في كل زمان.

ولكن من السهل أن يقال إجابة عن هذا الإعتراض السليم في ظاهره: إن عملية التقدم مستمرة بلا توقف وبلا رجوع إلى الوراء بحال من الأحوال. أما ما يشاهد مما يظن توقفاً أو تأخراً فليس سوى هدوء ظاهري - أي إن الحالة لا تعدو أن تكون طوراً من أطوار الكمون الذي يصيب كل شيء ويوجد في كل شيء. ومثل هذا قطعة من الأرض تزدرع وتستغل فإنها في حالة زراعتها وإستغلالها لا يظن ولا يقال إنها في حالة تأخر وضعف في الظاهر ما دامت غلتها غير متناقصة. أما إذا تركت هذه القطعة من الأرض بدون زراعة وبدون إستغلال فإنها في الظاهر لا تعطي شيئاً ولا تأخذ شيئاً أما في الحقيقة فإنها إذا تركت كذلك تقوى وتتفاعل العناصر الكامنة فيها مع أشعة الشمس ومع الهواء ومع كل عوامل

التعرية حتى تصير بعد مدة من الزمان في قوة تمكّنها من الإغلال والإثمار الكثير القوي إذا ما زرعت بحيث يتبين بعد زراعتها وبعد تمكينها من إظهار طاقتها أنها ما كانت في حالة تأخر ولا في حالة جمود وإنما المسألة مسألة هدوء في الظاهر فقط. بل نقول: إن كل شيء له كمون وظهور. فالظهور هو مظهر يدل على الكامن ولكن عدم الظهور لا ينفي الكمون أو لا ينفي الكامن. فقد يكون تقدم الشيء مهما كان هذا الشيء ظاهراً وباطناً أي ظهوراً وكموناً، وقد يكون كموناً فقط. وليس من الممكن أن يكون ظهوراً صرفاً. فإن الشيء الذي لا حقيقة له لا يمكن أن يكون له مظهر من المظاهر. ونحن إذا رأينا أرضاً هادئة لا يصح أن نقول إنه لا براكين ولا زلازل فيها تتوثب للإنطلاق والإنفجار والخروج بمجرد الهدوء الذي نشهده. وإذا حصلت هذه الإنفجارات والهزات، أي البراكين والزلازل وجب الإعتقاد بأنها أثر من آثار الداخل أي الكامن قبل حدوث الظاهر، وإذا لم نر نفطاً نازاً على وجه الأرض ومتدفقاً جارياً لم يجز لنا أن نقول إن الأرض خالية من هذا السائل النفيس. ولو قلنا هذا لكان مثلنا كمثل من قال إن الإنسانية قد تقف وقوفاً تاماً أو ترجع القهقرى لأنها تتخلى أزماناً كثيرة عن إخراج الكامن من قواها والساكن من إستعدادها... فالتقدم الإنساني الذي نتحدث عنه ونذكر أنه مستمر بدون توقف هو التقدم في المدارك والعقول وكل ما يسمى معاني إنسانية وأخلاقاً إنسانية وقوانين إنسانية. ولكن هذا التقدم الإنساني قد يكون بارزاً لوجود عوامل الإبراز، وقد يكون كامناً كما تكمن قوى الطبيعة المختلفة: كما تكمن الكهرباء والمغناطيسية والجاذبية وكما تكمن طاقة الحديد والفحم فيهما. وهكذا... بل كما تكمن صفات الإنسان العليا فيه كالشجاعة والمروءة والنجدة والكرم والذكاء وسواها حتى يوجد ما يظهرها... فالتقدم الإنساني إذن مستمر لا يتوقف فكيف الرجوع إلى الوراء. والإعتراض المذكور إعتراض يرد على هذه الحقيقة العلمية.

والنتيجة الثانية أن هذا التفاوت الموجود العظيم بين الأمم والشعوب سيظل مع تقدمها كلها باقياً مع حفظ النسبة - بمعنى أن الأمة التي قطعت ألف شوط إلى المدنية أو في المدنية ستبقى النسبة بينها وبين الأمة التي قطعت مائة شوط فقط كالنسبة بين رجل يملك ألف جنيه وبين رجل آخر يملك مائة جنيه إذا اتجر بالألف وبالمائة وكان الربح السنوي أو الشهري يساوي الأصل وما يجد من

الأرباح السابقة. ومعلوم أن النسبة تبقى كما هي مهما تقادمت السنون. هذا على إفتراض تساوي نسبة الربح السنوي أو الشهري في الألف وفي المائة. ولكن يجب أن يراعى أن الأموال الطائلة أقدر على رفع نسبة الربح من الأموال القليلة وعليه فإن الفرق سيتعاظم كلما كرت الأعوام بين صاحب الألف وصاحب المائة كما سيتعاظم هذا الفرق بين من قطعوا ألف شوط في الحضارة وبين من قطعوا مائة فقط. وإذن فالفجوة بين الفريقين صائرة إلى الإتساع والتزايد.

هذا معنى قد أشار إليه بعض كتاب الغرب مستحسنين له واجدين فيه الضمان الكافي لأن تظل أممهم وشعوبهم سيدة حاكمة، وتظل هذه الشعوب والأجناس التي نحن أحدها محكومة مسودة مهما تقدمت ووثبت وتعلمت وأخذت كل ما يستطاع أخذه من العلوم والصناعات التي بها ساد الغرب وحكم وتحكم. ولكن يجب أن يقال هنا: إن هذه النتيجة قد تكون صحيحة وصادقة لو كان رقي الأمم ونضجها يقاس بما يظهر منها وبما تعمله فقط دون ما يكمن فيها وما يمكن أن تعمله وأن تظهره. غير أن الذهاب إلى هذا وإلتزامه يشبه أن نحكم على إنسان قد تعلم بأنه أرقى وأنضج طبيعة وأعظم إستعداداً من إنسان آخر لم يتعلم، لأننا شاهدنا المتعلم يفعل ويعلم ويحسن ما لا يفعله ولا يحسنه ذلك الإنسان الآخر الذي لم يتعلم. مع أننا نعلم جميعاً بأن ذلك الذي لم يتعلم قد يكون في إستعداده الطبيعي أعظم وأذكى من ذلك الذي تعلم وأنه لو تعلم لفاقه وسبقه في كل شيء.

ويشبه أن نرى إنساناً غامر وقام بأعمال معينة تجارية أو صناعية أو زراعية أو غيرها فنجح نجاحاً رائعاً فنسرع إلى الحكم بأنه أرقى وأعظم في إستعداده من إنسان آخر معين لم يغامر ولم يقم بعمل من الأعمال فلم يصب نجاحاً ولا شيئاً مما أصاب ذلك المغامر المخاطر، ونسرع إلى الحكم بأن ذلك الذي ترك مواهبه راكدة كامنة لا يمكن في يوم من الأيام – مهما حاول وناضل – أن يكون مثل ذلك الناجح ولا أعظم منه... أو يشبه أيضاً أن نرى جوادين، أحدهما في الرباط والآخر في السباق، فنزعم أن الذي في السباق أصل من ذلك الذي في الرباط، وأنهما لا يمكن أن يستويا ولا أن يفوق ويسبق الذي في الرباط الذي في السباق، بحجة أننا شاهدنا الذي في السباق يسابق فيسبق ويستعين بأصالته فتنجده، وأننا شاهدنا الآخر في رباطه محبوساً محكوماً... أو يشبه أن تدعي

بأن أرضاً خير من أرض وأخصب، ولا برهان لدعوانا سوى أن إحدى الأرضين زرعت فأنبتت وأخصبت، وأن الأخرى لم تزرع فلم تنبت ولم تخصب. مع أن الناس يعلمون جميعاً بأن التي لم تزرع قد تكون في طبيعتها وحقيقتها أعظم وأقوى وأخصب من الأخرى... أو يشبه أن نحكم بأن بلداً من البلدان أغزر نفطاً - مثلاً - من بلاد العرب، وحجتنا في هذا أن البلد الذي حكمنا بأنه أغنى بالنفط من بلاد العرب قد رزق شركة قوية أو حكومة غنية فقامت بإخراج نفطه والإنتفاع به، وأن بلاد العرب ترك نفطها في جوفها حبيساً سجيناً... إلى غير ذلك من الدعاوي السطحية الباطلة.

إننا معشر المسلمين - أو معشر الشرقيين إذا استثنينا أمة واحدة - متأخرون عن الغرب في كل ما يهب السيادة والقوة، وكذلك بلادنا متأخرة في الظاهر عن بلاد الغرب: فهي لا تغل لا زراعة ولا معادن ولا مناجم مثل ما تغل بلاد الغرب. فهم - أرضاً وأنفساً - أرقى وأعظم إنتاجاً منا أرضاً وأنفساً أيضاً. فأرضهم تخرج أكثر مما تخرج أرضنا إجمالاً، وناسهم ينتجون أكثر مما ننتج نحن أفكاراً وعلوماً ومعارف وأعمالاً. ولا أحد يقدر أن يرجع السبب في تأخر إنتاج أرضنا عن إنتاج أرضهم إلى أن أرضهم أغنى وأوفر طبيعة وخصباً من أرضنا. بل كذلك بحارهم تعطي لحوماً وأشياء أخرى أكثر مما تعطي بحارنا. وليس هذا بلا شك عائداً إلى إختصاص بحارهم بالثراء دون بحارنا. وكذلك القول في عجزنا عن أن نفعل مثل أفعالهم وأن نعلم كعلومهم وأن نصنع ما يساوي أو ما يفوق صناعاتهم. فهو عجز غير راجع إلى الطبيعة والإستعداد، كما أن عجز أراضينا وبحارنا عن أراضيهم وبحارهم غير راجع إلى الطبيعة والإستعداد. بل المسألة تتلخص في أنهم هم قد أحسنوا إستغلال أرضهم ونفوسهم وأخرجوا ما في الإمكان إلى الواقع وما في الطاقة إلى القوة، وأما نحن فقد تركنا الممكن في إمكانه والكامن في كمونه والطبيعة في ركودها وسكونها، وتخلينا عن الإظهار والإبراز لأسباب عارضة إذا زالت - وستزول - زال هذا الركود العام وتماست الطبيعة وتحاكت فأخرجت ما في الطاقة وصيّرته قوة...

والنفوس كما قلنا كنوز مدفونة كما دفنت جميع الكنوز، تحتاج إلى الإخراج والإستثمار وإلا بقيت في مدافنها كأنها غير موجودة كما يبقي الأموات في

أجداثهم حتى يؤذن لهم بالبعث والخروج.

لماذا لا يصير الحيوان مثل الإنسان في فهمه وعلمه وإدراكه إذا ما علم كما يعلم الإنسان؟ ولماذا تقف معارفه عند حد معلوم لا تجوزه بحال من الأحوال؟ ولماذا لا تقف معارف الإنسان عند الحد الذي تقف عنده معارف الحيوان؟ إن السبب في ذلك هو الإختلاف بين الحيوان والإنسان في الطبيعة والإستعداد. فطبيعة الإنسان تبقى هي طبيعة الإنسان وفوق طبيعة الحيوان وإن ترك بدون تعليم، وطبيعة الحيوان تبقى هي طبيعة الحيوان ودون طبيعة الإنسان وإن علم وأريد منه أن يبلغ أقصى نهاية النضج والكمال العلمي... فكل شيء إذن تؤهله طبيعته وإستعداده. فالإنسانية لها مستوى معلوم مقدور لا تهبط تحته ولا ترتفع فوقه قبل الأوان المحدود. وهذا المستوى يرتفع ويتزايد شيئاً فشيئاً على مر الزمن ويتكون ويستوي وينضج كذلك رويداً رويداً بتفاعل مهيأ كما تتفاعل وتتكون المعادن والأحجار الكريمة والخسيسة والعناصر كلها في مواضعها، بل كما تتفاعل وتتكون الطبيعة كلها. ولا شيء يمنع هذا التفاعل والتكون: لا يمنعه أنه لا ينتفع به أو أنه يجهل أو ينكر أو أنه في أماكنه المجهولة... فإستغلال الشيء والإنتفاع به شيء، وتكونه وتفاعله وسيره في طريقه المرسومة وعلى سننه شيء آخر... فمواهب الإنسان وطبيعته المقدورة الموزونة سائرة في سبيلها وسبيل تحقيق غايتها ونهايتها وتكاملها، سواء استغلت أم لم تستغل، وسواء أبرزت أفعالها أم لم تبرز. وهذا لأن مواهب الإنسان العلمية والعقلية راجعة إلى استواء وتكافؤ وتكامل في محل هذه المواهب وفي موضعها أي إلى تكوين المخ وتكوين ما به الإدراك والفهم تكويناً يهيئه ويؤهله لأن يبدي من المعارف والقوى العلمية والعقلية ما يقضي بالحكم له بالنضج والكمال والتكافؤ. ولن يقف في طريق هذا المحل - أي محل المواهب - إهمال الإنتفاع بها، ولن يعوقها عن نموها وأخذها في سيرها الجهل بها أو الجهل بإستغلالها... وهذه ليست فروضاً نظرية بل هي حقائق واقعية يشهد لها جملة تاريخ الإنسان وجملة تدرجه في مدارج الإستواء والنضج. فإننا لو انتزعنا طفلاً من بيت عريق غريق في الأمية والجهالة المتوارثة القديمة، بحيث لا نجد في آبائه وأجداده من استطاع أن يخرج من نطاق الأمية ثم وضعناه في معهد علمي فيه أطفال أشتات من بني جنسه، منهم من كان آباؤه وأجداده وأسلافه يتوارثون العلم حتى عدوا سلسلة من المتعلمين لا يوجد بين

آحادها جاهل لكان من الواقع المشاهد الكثير أن يتفوق ذلك الطفل على من في المعهد جميعاً ولكان من الممكن الواقع المشاهد أن يتفوق على أطفال قد توارثوا العلم والتعلم آباءً وأجداداً... ومعنى هذا أننا نستطيع أن نخرج المواهب الكامنة من ذلك البيت العريق الغريق في الأمية بتعليم أحد أطفاله وبتعريض مواهبه للخروج وللإشتعال مرة واحدة من حيث الظاهر وحيث الإبراز. أما من حيث الحقيقة والواقع فإن مواهبه كانت تنمو وتتكامل وإن كانت لم تجد ما يخرجها ويوقدها ويشعل مصباحها... وهذا الحكم يصدق في الأمم كما صدق ويصدق في الآحاد. فإن التاريخ القديم والحديث قد عرف أمماً أخرجت مواهبها من الكمون والإمكان بسرعة محيرة. وأحسن مثل يذكر لهذا الأمة العربية في التاريخ الأوسط، والأمة اليابانية في التاريخ الحديث. وهذا يصدق عكساً أيضاً، أي إن مواهب الأمم البارزة قد تختفي وتلجأ إلى الكمون فجأة ولكن بأسباب ولأسباب. وقد يكون هذا الإختفاء واللجوء بطيئاً حتى يبدو للنظر الأول أن هذه الأمم التي انطفأت نار مواهبها فسكنت وركدت أقل جداً من أمم برزت فجأة في الميدان وظهرت مواهبها أعمالاً وحقائق مشهودة تملأ الحياة حياة وقوة وضجيجاً... ومن هذه الأمم التي أصيبت مواهبها وألزمت بالإنكماش والكمون الإغريق والرومان والعرب. ويخشى – على إحتمال بعيد جداً – أن تلحق بهم أمم من أمم هذا العصر الفتية. غير أن هذا الإحتمال بعيد جداً لأن الأمم أو الأمة إذا بلغت شأواً معيناً من السمو والرفعة فقد يكون من غير الممكن المحتمل النزول عنه حتى ولو أرادت هي بل ولو أراد العالم كله لها ذلك. إذ يكون مثلها في رفعتها وتبوئها مكانها الرفيع كمثل كوكب أفلت من منطقة جذب إلى منطقة جذب أخرى حتى أصبح مستحيلاً عليه هو وعلى العالم كله أن ينزل به من تلك المنطقة أو أن يزحزحه عنها. ويجب أن يكون معلوماً أن للمعاني مناطق جذب وقوة جذب كما للمادة وكما للكواكب والشموس. والعزة للأقوى الأغلب في المعاني وفي المادة معاً.

* * *

أما معارف الإنسان اليوم وشهادتها على عظمته وعلى ضخامة ما ينتظره من الآيات العلمية الإنسانية فأمر من الواجب أن يكون فوق كل خلاف وجدال. لقد كادت الطبيعة أن تستسلم بلا قيد ولا شرط لعلم الإنسان وعقله وكادت – أو قد فعلت – أن تضع في يده قيادها يتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب.

أي شيء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب؟ لقد هاجم كل شيء في معقله وغزاه في مكمنه بإنتصار مبين ساحق. فلقد هاجم أكبر وأقدم أعداء الإنسانية - بل وغير الإنسانية من الحيوان والنبات - وهو المرض فقهره. لقد عرف أسباب هذا العدو القديم الشنيع الذي لازم الإنسان منذ وجد بل لازم الحياة وعرف وسائل مقاومتها: عرف كيف ينشأ ومم ينشأ، ثم عرف كيف يحارب ويقضي عليه. لقد غزا جيوشه الميكروسكوبية الخفية التي يصح أن يقال إنها لولا الآلات الدقيقة القوية التي هتكتها من عوالم ما وراء المادة وما فوق الطبيعة! فعلم كيف تعيش هذه الجيوش وكيف تتكاثر وتنمو وكيف تموت وتبيد ثم كيف تتقي قبل هجومها وكيف تطرد وتقتل وتؤسر إذا هجمت واحتلت الأجسام! لقد صنع لها الأسلحة الفتاكة والأطعمة السامة المهلكة ووضع لها الأرصاد والآلات الحساسة التي تعرف أين توجد وأين تحل وأين تعسكر! لقد علم من شأن هذا العدو ما يجعلنا نوقن بأنه عن قريب جداً سيخر صريعاً بين يدي هذا الإنسان وأمام علمه وستستسلم له كل جيوشه إستسلام مهزوم مقهور، وسيصنع بهذه الجيوش الطاغية الباغية ما أراد: إن أراد أبقى وإلا أفنى على ألا تضر منه أحداً لما سيوجده من أسلحة المقاومة وأسباب الحماية الثابتة المتقنة.

لقد تلفت هذا المخلوق الضئيل العجيب، مفكراً صادق التفكير، فوجد أنه أسرة واحدة كبيرة كثيرة مفرقة تفصل بينها الأبعاد والمسافات ووجد أن هذه الأسرة تسكن بيتاً واسعاً جداً - هو الأرض - ووجد أن هذه المسافات والأبعاد والسعة والتفريق تفيت عليه أغراضاً جلى، وحاجات لا يستغني عنها. فهب يستنجد فكره: كيف يزيل المسافات والأبعاد، وكيف يجعل الإنسانية كلها حقيقة كأنها أسرة واحدة تقطن بيتاً صغيراً لا أبعاد له ولا مسافات... فماذا يفعل وما عساه يستطيع أن يفعل! إنه أوجد ما جعل الأرض ومن فيها وما فيها كأنها كرة صغيرة في يده يقلبها صباح مساء بين يديه ويعلم ما يحدث فيها بلا عناء ولا خفاء ولا تعب... فطوى الأبعاد والمسافات. وكان له ما أراد. وراح أفراده يتخاطبون في أطراف هذه الأرض كما يتخاطب أفراد البيت الواحد الصغير بل أسرع وأروع! إنه يستطيع أن يبعث برسالة من رسائله الصغيرة أو الكبيرة، العظيمة أو الحقيرة فتطوف حول الأرض في أقل من ثانية! ثم ما ثانية؟ إنه هو

الذي أوجدها أيضاً وحددها وعرفها.

إن أحقر وأصغر إنسان في أي مكان كان، في مجاهل الصحراء ومضارب البدو، أم في أحضان المدن والمدنية ليضع إصبعاً من أصابعه الضئيلة العليلة على زر كهربائي فيديره فيسمع ما يشاء من لغات ومن أصوات ومن كلام ومما يشاء. ويضع إصبعه أيضاً على زر من هذه الأزرار المسحورة بقوى العلم والسحرية فيقول... ماذا يقول؟ يقول ليكن نور فيكون له ما يشاء.

لقد قضى على الأبعاد المكانية قضاء حاسماً - سماعاً ورؤية وإنتقالاً أيضاً - أي إنه صار يرى ويسمع وينتقل بدون أن يكون للأبعاد سلطان. لقد هزمت الأبعاد المكانية إذن. أما الأبعاد الزمانية فكانت معركتها لا تقل عن معركة الأبعاد المكانية ولا عن غيرها من المعارك العلمية التي اقتحم الإنسان غمارها بعلمه روعة وإنتصاراً! إنه استطاع أن يطير على أجنحة العلم وأن يرجع إلى الوراء الزماني آلاف الملايين من السنين، وأن يوجد نفسه قبل أن يوجد بما يفوت الأعداد أو يكاد... إنه راح يولد هذا الوجود ويشهد تكونه وتوالده وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد: كيف ولدت مادة الكون ومتى ولدت وكيف ظلت تتفاعل وتتطور، ثم كيف أخذت تتوالد ثم كيف ولدت هذه الشمس وغيرها من الشموس، ثم كيف راحت هذه الشموس نفسها تلد الأتباع والبنين من قبضتها بها وليحفوا من حولها: يدورون ويتحركون ولكن لا يستطيعون الخروج من قبضتها ولا الإنفصال عنها أو الإبتعاد ولا الإستغناء عن سلطان جذبها... فكأنها بينهم أب وقور مبجل بين أبناء كرام بررة يطيفون به ليأتمروا بأمره وليفعلوا ما يحب ويشتهي. وراحت هي تفيض عليهم بأنوارها وحرارتها وقوتها مثل ما يفيض الأب الحكيم الرحيم على بنيه أنوار الهداية وحرارة الإيمان وقوة الرجولة.

انظر! إنه مشهد من مشاهد العلم التي لا يقدر على إبصارها والإستمتاع بها إلا هذا الإنسان. فيا له من مخلوق ما أعظم حظه لو استطاع أن يعلم ذلك أو أن يفيد منه.

ثم راح يحدث كيف راحت هذه الأتباع توجد الأتباع، وكيف راحت الأبناء تصير من الآباء. فقد ولدت السيارات الأقمار كما ولدت الشموس السيارات. فكأن السنة واحدة لا تختلف، في الجماد، كما هي في النبات، كما هي في الحيوان.

ثم رجع يشهد كل العصور التي مرت بهؤلاء الآباء والأبناء والأحفاد. وطفق

يحكي حكاية العليم المستثبت الأدوار المتقلبة التي مرت بها والتطور البديع المنظم الذي ظل يسوقها ويدفعها إلى الكمال. ويحكي كيف أخرجها هذا التطور من الحالة الغازية أو السديمية وما قبلها إن كان لها قبل إلى حالة التكاثف والتكتل، ومن حالة الإضطراب والقلق إلى حالة الإستقرار والهدوء، ومن العصور الجليدية والنارية إلى عصور الإعتدال، ومن حالة التكتل والفوضى الهندسية التي لا تمكن من سكناها ومن الإنتفاع بها إلى حالة التشذب والتهذب والتمهد الذي جعل منها السهول والسهوب والأنهار والجبال والأودية والمرتفعات والمنخفضات وكل ما نشهده اليوم فيروعنا منظراً ومخبراً. وقد وقف وهو آيب من هذه الرحلة العلمية الطويلة البديعة على عصر وجود الحياة في كوكبنا هذا وقفة غير قصيرة. فحضر بشغف وإهتمام متزايدين هذا الفصل الشائق من الرواية – وهو فصل ظهور الحياة، وهي اللغز المعقد الذي لا يزال العلم الدائب واقفاً أمامه حائراً دائباً على محاولة حله. فحضر وجود الإنسان ووجود غيره من أنواع الأحياء. فلزم هذه الموجودات الطريفة – وعلى رأسها الإنسان – فتدرج معه ومعها وهو وهي يحبوان في مدارج الحياة والوجود، فوصف الإنسان ووصف أيضاً غيره منذ وجوده البدائي الشقي إلى وجودنا هذا، المتحضر المهذب السعيد. فكتبه فصلاً من أعجب الفصول، يصف وصفاً يكاد يكون تصويراً لهذا المخلوق وكل ما شهد وهو يتنقل من طور إلى طور ومن حالة إلى حالة، من حالات النعماء والبأساء، حتى صعد هذه القمة الرفيعة من المدنية التي منحت الحياة كل هذه الألوان الزاهية من ألوان السعادة والترف والعيش الرخي... ثم لم يقف بعلمه عند هذا بل ذهب مسرعاً يسابق الوجود فيسبقه وذهب يخبرنا عما بقي من عمر هذا العالم وعمر هذه الحياة وهذا الوجود الذي سبق أن ولده وأن شهد نشوءه وتكونه، وعما بقي من عمر هذا الإنسان وغيره من الأحياء، ويخبر عن الأحداث والحوادث التي لا تزال في طريق الوجود والتي لا تزال تترقب لتثب وثبتها.

يا للعجب! إنه قد فرغ من علم الأرض وما فيها وما سيكون فيها ومن دراستها ودراستهم ثم رنا ببصره الحاد الطموح إلى ما هو أسمى وأعلى موضعاً وأوسع وأكبر فخرج من كوكبه هذا الذي لم يشبع رغباته ومطامحه العلمية إلى رحاب الفضاء بآلاته وأرصاده ورياضياته وخياله يجوبه جوباً ويرود

ما فيه روداً: يعدد ما فيه من عوالم ويصف أوضاعها وهيئاتها ومقاديرها وأبعادها وأعمارها وأنوارها وحرارتها وقوتها وسيرها وسرعة سيرها ودورانها والتناسب القائم بينها، ويميز التابع من المتبوع والطائف من المطوف حوله والوالد من المولود. بل يحللها حتى يعرف ما هي مركبة منه وما هي عناصرها وما مادتها وما غير ذلك. ثم لا يقضي هذا كله وطر شهواته العلمية بل يجمع أمره على ما هو أعظم ويعد العدد ويقوم بالتجارب بعد التجارب ليتصل بهذه السماوات العلويات إما بالرسائل الكلامية اللاسلكية وإما بالإنتقال إليها على متن سفن سهمية تطلقها قوة العلم وتوجهها حيث يريدون... نعم هم لم يصلوا حتى اليوم إلى هذه الغاية ولكن من زعم أنهم لن يصلوا يوماً ما فقد أساء إلى نفسه.

وهكذا لا ينتهون عند حاجة من حاجات النفس يظفرون بها فكأنه لا نهاية لحاجات هذا المخلوق وكأنه لا شيء يرضي طموحه العلمي إرضاء يحط لديه رحاله وكأنه خلق ليمضي بسنة الله حتى يبلغ بها غايتها القصوى وحتى يوجد الكمال المنشود الذي أراده الله الكامل لعالم صنعه بيديه... فمن أراد لهذا الإنسان ألا يستمر في رحلاته الكشفية العلمية فقد أراد بلا ريب بسنة الله ألا تمضي في سبيلها. ومن أراد ذلك فلا شك في أنه عاجز عن بلوغ مراده.

لا أدق كلاماً من الله العلي حينما قال "ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم" فالإنسان حقيقة لم يشهد خلق هذه العوالم الكبرى لا السماوية ولا الأرضية ولا خلق فرده الأول لأنه إنما وجد بعد ذلك إذ البيت يوجد قبل السكن فيه. فأنبأ الله بهذه الحقيقة الصحيحة الواضحة. ولكنه لم يقل "ما أعلمتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم" بل اختار نفي الإشهاد على نفي الإعلام وكأنه إنما أشار بهذا الإختيار إلى أن الإنسان بمداركه الفكرية قد يعلم خلق السماوات وخلق الأرض وخلق نفسه بل وخلق كل شيء كما علم بذلك سائر العلوم التي علمها والتي صارت حقائق مشهودة منظورة. أما شهوده أو إشهاده لوجود العوالم التي خلقت قبله فغير ممكن. والشهود والإشهاد غير العلم والإعلام. فالإشهاد هنا يراد به إشهاد الحضور. ولو أن الله قال ما أعلمتهم خلق السماوات والأرض لنهض أقوام من هنا وهناك ينازعون في معارف الإنسان وينكرونها عليه ويدّعون أن القرآن قد أنكرها. فالشهود قد نفي

بهذه الآية... وأما العلم فقد أثبت بقوله تعالى "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" فالرؤية هنا رؤية العلم أو الرؤية البصرية بواسطة العلم وليس المراد رؤية البصر العادية للأشياء العادية لأنهم لم يفقدوا هذه الرؤية حتى يقال: إن الله سيريهم إياها. وآية الله في الآفاق التي أخبر القرآن أنهم سيرونها هي هذه الكشوف والمخترعات أو الآيات الكونية التي يراها الإنسان بوسائله العلمية والتي لولا هذه الوسائل لما استطاع رؤيتها. فالجديد هو المرئي أو الرؤية هي الجديدة لأمور قديمة أو هما معاً جديدان: المرئيات والرؤيات. ولا بد من القول بأن الآية تشير أو أن فيها إشارة إلى العلوم الحديثة وإلى آياتها وإلا لما كان لها معنى مفهوم بيسر.

وأما الآيات في الأنفس فهي الحقائق النفسية التي اكتشفها العلم، وهي أيضاً الحقائق التكوينية والتشريحية والمبتكرات العلمية التي تفجرت عنها النفس البشرية وكل ما يتصل بالحياة الإنسانية مما كشفه العلم وأعان عليه ومما لم يعلم إلا أخيراً.

والآية دالة على أن معارف الإنسان ومرائيه ورؤيته للأشياء متجددة متطورة كما يقرر العلم، وعلى أن الإنسان يسير دائماً إلى الأمام ولا يرجع إلى الوراء. لأنه إذ رأى الآيات التي لم يكن رآها من قبل فلا بد أن يكون ذلك راجعاً إلى قواه العقلية المبتكرة التي أوجدت ما لم يكن موجوداً وعلمت ما لم يكن معلوماً – أي التي جددت في مخترعاتها وأحدثت في موجداتها، أو راجعاً إلى مقدرته الذهنية التي جددت في خيالاتها وإدراكاتها... والتجديد في العلم أو في المعلومات إنما ينشأ عن التطور. ولو كان الإنسان لازماً حالة واحدة من الناحية العقلية والخيالية – أو لو كان يرجع القهقرى – لما حصل جديد لا في علمه ولا في معلوماته بل ولا في خيالاته.

* * *

وصل الإنسان وقت نزول القرآن إلى طور معين من التدرج نحو الحياة ونحو الرشد العقلي. وكان هذا الطور لا يعدو النظرة السطحية والإلمام بظواهر الأشياء دون النفوذ إلى بواطنها. فكان يرى رؤية قد يضبطها الإستقراء بعض الضبط، وقد تفلت من كل ضبط وهو الأكثر الأغلب، فكانت أحكامه على الأمور، وكانت علومه مبنية كلها على هذا الإلمام الظاهري الصادر عن الرؤية الناقصة، وكانت

هذه المرحلة من وجود الإنسان بمثابة النهاية أو القرب من النهاية لطور لا يبعد جداً عن الطور الحيواني الذي كانت وسائل إدراكه تنحصر في الحواس الغليظة المجردة مع شيء غير كثير من التفكير الصادق والخيال الذي له بعض القيمة... فأنزل الله في كتابه متحدثاً عن هذا الطور قوله تعالى "يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا" فعلومهم كلها كانت ظاهرية: يرون الظواهر الطبيعية والفلكية والنفسية والإجتماعية وسواها ولكن لا يدرون لماذا هي ولا ما هي! ولا يدرون ما الأسباب وما أسباب الأسباب: يرون الشمس والقمر وغيرهما معلقة في الفضاء متحركة ذاهبة آبية دائرة سائرة بنظام ومواعيد لا تختلف ولا تتخلف. ويرونها تبعث بالحرارة والأشعة ولكن لا يدرون لماذا ولا كيف هذا! بل لعلهم ما كانوا يفكرون في هذه الظواهر والمشاهدات! لماذا لا تقع علينا وعلى الأرض! ما الذي يمسكها ويمنعها من الوقوع! ما الذي يديرها ويحركها ويضبط مواعيد غيابها وطلوعها! ما الذي يمدها بهذه الأنوار والحرارة التي لا تنفذ! كل هذا لا أسئلة له عند هؤلاء وإن سألوا فلا أجوبة صحيحة. وكل ما يمكن أن يقولوا في هذا أو كل ما يمكن أن يفهموا: أن الإله - أو الآلهة - هي التي تفعل ذلك أو أنها - أي الشموس والكواكب - هي التي تفعله بنفسها لأنها آلهة أو لأنها كائنات حية متحركة إما إله وإما حي عاقل. فكانت الكواكب المتحركة الطالعة الغائبة على حسب ما يرى آلهة في أزمان عند أقوام، وأحياء في أزمان أخرى عند أقوام آخرين... والطفل كما قلنا غير مرة يعطينا أبداً صورة كاملة لأولئك الأسلاف الماضين. والأطفال حتى اليوم إذا رأوا شيئاً يتحرك ويسير حسبوه حياً وحسبوا حركته وسيره بإرادته وقصده مثل ما يصنعون هم. ولا تزال بقايا هذه الإنسانية الظاهرية السطحية موجودة.

وكانت تلك الإنسانية منذ وجدت ترى التفاحة تسقط على الأرض وترى كل ما رأى مكتشف قانون الجاذبية ولكنها لم تستطع أن تفطن إلى ما فطن إليه نيوتن في هذه المسألة. وكانت ترى كل ما رأى مكتشفو قوة البخار والكهرباء وجميع المكتشفات والمخترعات التي قلبت حياة الإنسان. غير أنها كانت عاجزة عن أن ترى غير الظواهر وغير ما يرى الأطفال من مظاهر الأشياء... وهكذا كانوا أمام جميع مظاهر الكون.

وكانوا أيضاً يعلمون فتك الأمراض بالأبدان ويعلمون أعراضها ومظاهرها

ويعلمون أنها تورد موارد العطب ويعلمون شيئاً كثيراً من أنواعها على حسب إختلاف أعراضها ولكنهم كانوا جميعاً جاهلين بأسبابها جاهلين بما وراء الأعراض... فلا يدرون من عوالم الميكروبات شيئاً فهم لذلك لا يدرون من وسائل مقاومتها شيئاً أيضاً فكانت هذه الجيوش الخفية القوية تغزوهم فيبصرون وقعاتها وفعلاتها لأنها ظاهرة ولا يبصرونها هي لأنها من عالم الحقائق المستورة خلف الظاهر... فكانت دائماً منتصرة عليهم وكانوا أبداً مهزومين أمامها بدون قتال.

وكانوا أيضاً يرون كل الظواهر التي تؤيد قانون الوراثة وتشرحه والتي تدل على ما كان عليه الإنسان الأول من أخلاق وطباع ووحشية، والتي تعطي مباحث علم النفس ما شاء من مواد لبنائه وتثبيته ووضع حدوده... غير أنهم لبثوا أمام هذه الحقائق والظواهر شاخصين بأبصارهم كما يشخص الأطفال إلى القمر: يرونه كل ليلة يجيء ويذهب ويرونه يصغر ويكبر ويحيا ويموت ويغمرهم بضيائه الباهر وهم في بيوتهم ومخادعهم ثم لم يفهموا من هذا شيئاً سوى هذه المرائي... إنهم رأوا كما رأى المتخصص اليوم بدراسة علم النفس أن الأطفال يولدون وهم يحملون معهم شر الأخلاق وأظلم الطباع وأنهم لو تركوا لسجاياهم لما تورعوا عن إثم ولما أنفوا من ظلم ولما فعلوا شيئاً حسناً من أجل أنه حسن أو لأن فيهم ما يحفزهم على فعل الحسن... ورأوا ما يجب أن يعلموا منه أن الحسنات – أو الميل لفعل الحسنات والخير – لم يولد مع الأطفال وإنما لقنوه تلقيناً وارتاضوا عليه بحكم التقليد والتربية والمشاهدة والتعليم بعد الولادة... وكان يجب أن يكون لهذا دلالات عديدة عندهم ولكنهم بقوا مع هذا كله يقولون ويعتقدون أن الأطفال – بطبيعتهم – ملائكة وأنهم مجلولون مجبورون على الخير وحب الخير مع أن الواقع أنهم بطبيعتهم شياطين أشرار.

وهذا يدل على أشياء كثيرة لم يفطنوا لواحدة منها، من هذه الدلالات أن الإنسان بطبيعته شرير خبيث ظالم وأن الإنسان الأول كان كذلك في كل عهوده وأن الأطفال يرثون هذا الشر والخبث والظلم من أولئك الآباء الأولين الظالمين الأشرار... أما الخير والإحسان وكل هذه الصفات والألفاظ الجميلة التي يتصف بها الإنسان والتي يدعو إليها ويمتدحها ويأمر بها فهي مكتسبة إكتساباً من الأديان ومن التربية التي كونها الإنسان لنفسه بحكم الضرورة

والحاجة والأنانية أيضاً. فإن الخير تدفع إليه الأنانية كما سيجيء بيانه في فصل مقبل... وعلى هذا فمن الجهل الفاضح التلفت إلى الوراء بقصد الإقتداء والإحتذاء. وإنما يجب الهرب دائماً من الماضي والتطلع إلى المستقبل الباسم راغبين آملين أن يمحو كل وراثات ذاك الماضي وأن ينزع تأثيرها وسيطرتها على الإنسان المقبل. فالحنين – من أجل هذا – إلى الماضي والتصايح بالدعوة لتقليد الأولين والأخذ عنهم بلاهة.

ومن هذه الدلالات الإيمان بأن الإنسان يتقدم ولا يتأخر وأنه خلق متطوراً من شر إلى خير ومن نقص إلى كمال.

ومن هذه الدلالات أيضاً العلم بأن ترك الأطفال لطبائعهم بدون تعليم ولا تربية إنما هو بمثابة تركهم للوحشية العريقة الغريقة في كل ألوان العدوان وأنهم إنما يبنون بقدر ما يخلصون من تلك الطباع الموروثة العادية، ويهدمون وتهدم أممهم وشعوبهم بمقدار ما يترك لهم ومعهم من هذه المخلفات الموروثات... وعليه فالرجل والمرأة أيضاً اللذان يتركان من غير تعليم وتربية إنما يتركان لهذه الوحشية العاتية فلا أمل فيهما – أي في الرجل والمرأة الموكولين لطبيعتهما من حيث الإنسانية بل هما من أعداء الإنسانية التي بنتها التربية والتعليم والأخلاق المكتسبة.

ويجب التنبيه هنا إلى أن الإسلام قد نبه إلى هذه القضايا كلها تنبيهاً صريحاً فمن نصوصه الصريحة قوله تعالى" والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً "أي لا تعلمون شيئاً من هذه الأصول المعلومة في الأخلاق وفي التربية وفي الأديان وفي التعاليم المختلفة. وهذه الأمور إنما تعلم بالتعليم فمن تركوا بدون تعليم بقوا لا يعلمون منها شيئاً وبقوا أشراراً ظالمين لأنهم لا يعلمون الأصول المنافية للشر والظلم، الناهية عنهما.

فالأطفال – ذكوراً وإناثاً – يكبرون وتكبر معهم هذه الطبائع العدوانية إن لم يعلموا.

ومن هذه النصوص قوله تعالى "وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً" وقوله "قتل الإنسان ما أكفره" وقوله "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى" وقوله "وأحضرت الأنفس الشح." والآيات في هذا كثيرة معلومة. وفي الحديث الصحيح المشهور (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)

وقد أكثر شراح الحديث من الكلام على هذا الحديث كدأبهم في كل نص يقع بين أيديهم. ولا التفات إلى ما قالوه فيه لأنه غير قائم على أصل من أصول العلم المقررة... والمعنى الذي يجب أن يفهم: هو أنهم يولدون على الفطرة الأولى. والفطرة الأولى معروفة وهي الجهل بكل التعاليم الموجودة اليوم عند الإنسان سواء أكانت تعاليم دينية أم تعاليم أخرى، فهم لا يعلمون شيئاً من هذه التعاليم بسجاياهم وطباعهم لأنها تعاليم إكتساب وتلقين، وإنما يعلمونها إذ لقنوها وعلموها. وكل طفل وما يلقن ويعلم – أي إنه يتجه على حسب التوجيه الذي يصادفه وعلى حسب ما يريده موجهه. فإن كان معلمه وموجهه ومربيه نصرانياً جاء نصرانياً، وإن كان يهودياً جاء يهودياً، وإن مجوسياً فكذلك، وإن كان مسلماً فلا بد من أن يكون مسلماً كما يشاهد في كل زمان ومكان.

ومن المعلوم أن لكل دين من هذه الأديان ولأصحابها طريقة في تعليم الأخلاق والتربية المأخوذ أكثرها من الدين نفسه. ولو تركوا لم يعلموا شيئاً لا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا إسلامية لبقوا على فطرتهم أي مجردين من كل دين. وفطرتهم هي العدوان المطلق الذي لا يعرف القيد ولا الضبط. والفطرة حينما تطلق إطلاقاً ليست ممدوحة وليست خيراً. وإذا قيل: الأمم الفطرية كان يعني بذلك تلك التي تركت بعيدة عن التعليم والتهذيب فهي جاهلة مجرمة. والفطرة مأخوذة من الفطر وهي في أحد معانيها الخلق. فالرجل الفطري هو الذي ترك لخلقته الأولى التي لا أثر للعلم والتعليم فيها وهذا لا خير فيه.

والإسلام لا يقبل شهادة الأطفال. ونحن نفهم أنه إنما رد شهاداتهم لما جبلوا عليه من الكذب والتزوير والظلم والأخلاق الرديئة والجهالة العمياء. أما قول بعض الفقهاء – أو قولهم كلهم – إنه رد شهادتهم لأمور أخرى ذكروها فهو من جملة أقوالهم الكثيرة التي تموج بها الكتب موجاً من غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية.

وهنا يجب أن يفطن القارىء إلى أنه لا تناقض بين دعوتنا إلى الإيمان بالإنسان ومواهبه العديدة، وبين قولنا هذا في جبله على الظلم والعدوان. فإننا نريد بالقوانين معاً: أن الإنسان خلق ناقصاً شريراً ظالماً جاهلاً، ولكن خلق إلى جانب ذلك معداً للتطور وللسير بالتدريج نحو الكمال ونحو البلوغ العقلي والخلقي. فهو شر بالنسبة للماضي خير بالنسبة للآتي. وهذا يحملنا على أن

نعمل لتدمير الماضي الفاسد وبناء المستقبل الصالح.

ولا يظن أحد من القراء أنه يدخل في هذا الأصل الخبيث الشرير والظالم آدم أو غيره من الأنبياء الذين جاؤوا برسالة الإصلاح العامة، وجاؤوا لنقل البشر من ماضيهم الخبيث إلى رسالاتهم الطيبة الهادية التي تعمل على إبلاغهم طور الفضيلة المبتغاة... وإنما نعني بذلك تلك الإنسانية المتروكة لجهالاتها ولطباعها غير الطيبة. وكلامنا لا يحتاج إلى مثل هذا التنبيه. ولكن التجربة دلتنا على أنه يجب الحساب لما هو أبعد من هذا عن القصد. والإنسان - كما هو موضوع كلامنا - شرير بحسب الأصل والطباع الأولى. فإحتياجنا إذن لهذا التنبيه راجع إلى هذا الأصل وإلى محاولة إتقانه.

هذه كلمة استطرادية فلنرجع إلى أصل البحث الذي أردنا به التدليل على أن الإنسان كان وقت نزول القرآن لم يعد كثيراً طور رؤية الظواهر دون معرفة البواطن فنقول:

وكانت الإنسانية أيضاً إذ ذاك تعلم وترى أن أمماً تسقط وأمماً أخرى تقوم، ولكنها ما كانت تعرف لماذا يسقط من يسقط ولا لماذا ينهض من ينهض ويسود من يسود. وكل ما كان يمكن أن تعلل به هذه الظواهر هو زعمها أن الآلهة - أو الإله - قد غضب على الأمم الساقطة الهاوية فخفر لها فأسقطها، ورضي - أو رضيت أي الآلهة - على الأمم الأخرى القائمة السائدة فأقامها وسودها. أما الأسباب الإجتماعية أو النفسية أو غيرها من الأسباب التي صارت اليوم معلومة مدروسة في قيام الأمم وسقوطها فكانت عازبة عنهم وكانوا عنها بعيدين، لأن تطورهم ورشدهم كان حينذاك لم يبلغ هذا المدى.

هكذا كانت الإنسانية يوم نزل القرآن: ترى ولا تعلم - أو تنظر ولا تبصر كما جاء في الكتاب الكريم" وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون. "وما أجمل هذا النفي والإثبات مجتمعين، وما أروعهما متواردين. وقد جاءت إشارة الكتاب الكريم على هذا المعنى في آية أخرى أوضح وأجلى وهي قوله تعالى "فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور." وقد كان القرآن ناعياً على الإنسان نقصه وحاله حينما قال: "يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا" لأن الله يريد بهذا المخلوق المختار الكمال وبلوغ الرشد. وهذا لا يكون إلا بعلم البواطن والنفوذ إلى إدراك الحقائق. أما الوقوف عند الظواهر فهو شأن الطفولة.

والطفولة بلا ريب ليست هي القصد من الوجود وليست هي غايته وإنما هي طريقه وبدايته.

وجاء في الكتاب في سورة أخرى: "وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون" ولا يمر بالآيات مع الإعراض عنها إلا من لم يستطيعوا تجاوز الطور النظري البصري المجرد، لأن الحاسة العقلية عندهم التي تنفذ في الأشياء متجاوزة مجرد النظر ضعيفة أو مفقودة أو ساكنة سكوناً يمنعها تأدية وظيفتها. ويشترك في هذا النظر الظاهري ثلاثة أصناف على ثلاث درجات مرتبة: الحيوان ثم الأطفال ثم الأمم البدائية أو الأمم التي أصيب عقلها العام بجمود يشبه الموت.

كان هذا الطور الذي بلغته الإنسانية يوم نزول القرآن. وقد عمل الإسلام أعمالاً باهرة لا تكفر لنقل الإنسانية من طورها هذا إلى ما هو أكمل وأفضل، فكان له من التأثير في هذا النضج البشري الذي نشاهده اليوم ما هو معروف. فقد خطت الإنسانية بعد ذلك الطور الذي نعاه القرآن عليها خطوات فاتت في سرعتها وقوتها كل حساب وظن... فالإنسان اليوم قد خلف وراءه عصر الظواهر، وأصبح لا يقنعه ولا يشبع نهمه إلا أن يعلم كل شيء علم ظاهر وباطن: إنه لم يكتف بأن يعلمك كل نواميس هذه الطبيعة بل ذهب يقسمها إلى خلايا وإلى عناصر وإلى ذرات، وذهب يعلم خصائص كل ذلك بل ذهب يتحكم في هذه الخلايا والعناصر والذرات. إنه لم يرض بأن تقدم إليه مائدة عليها ألوان الطعام الشهي الواهب للجسم ما يحتاج إليه، بل رأى أنه لا بد أن يعلم العناصر التي يتألف منها هذا الطعام ويعلم نسبها ومقاديرها. ثم راح يؤلف من هذه العناصر أطعمة صناعية تفوق في جودتها وحسنها وفائدتها ومذاقها الأطعمة الطبيعية... إنه قد حصر كل هذه الموجودات أمامه في عناصر عينها وعددها فجاءت حوالي إثنين وتسعين عنصراً، فكان هذا كالإنتصار في معركة فاصلة، ترتب عليه كل ما يترتب على الإنتصار في المعارك الفاصلة. وقد طفق من أجل ذلك يباري الطبيعة ويساميها في كل أفعالها وعجائبها. وصار من المألوف المعروف أن يقال: هذا طبيعي وهذا صناعي، أي طبيعي وإنساني. وأصبح البترول الصناعي والمطاط الصناعي والخشب الصناعي والصوف الصناعي واللؤلؤ الصناعي وكل شيء صناعي لا يقل في منظره ومخبره عن أخيه الطبيعي... وإننا لنخشى

أو نرجو - وقد تحقق الأيام أي الأمرين أحسن - أن يأتي الزمن الذي يقال فيه: الإنسان الصناعي والحيوان الصناعي... وهذا ما لا يزال العلم أمامه حيران عاجزاً. ولكنه لم يعترف بالعجز ولم يفكر في الإستسلام للإخفاق، بل ما فتىء يهاجم ويناضل بعزم من يعلم أنه منتصر لا محالة. ومحاولة صنع المادة الحية أو إيجاد الحياة في المادة لا تزال من المعارك الملتحمة التي لم يكتب للعلم حتى اليوم الظفر بها. إذ يكاد يكون سر الحياة من أسرار الطبيعة التي لم يرفع عنها العلم الأستار. ولكن الإنسان يقول: إنه قد انتصر في نضال هو أشد من هذا النضال الدائر الحامي من أجل الإنتصار على سر الحياة ولغزها. وعلينا نحن أن ننتظر وأن نلزم الحياد حتى نرى لمن يكتب النصر.

لقد لون الإنسان اليوم كل وجوه الحياة بألوان مشرقة ولامعة بعد أن كانت مغبرة مكفهرة: لقد حسن كل شيء فيها بعد أن وهبه النظام وجعل له الأصول والقوانين. كان كل شيء مضطرباً، وكان كل شيء مشوشاً لا نظام له ولا قاعدة، فأصبح اليوم يرى عالماً كله النظام وكله الترتيب في كل ناحية من نواحيه ومعنى من معانيه.

ولنذكر هنا مثلاً واحداً لنعرف به قيمة ما بلغه الإنسان وقيمة ما أعطى الحياة من جمال وروعة وراحة ونظام: كان الإنسان الأول يراع من رؤية البحار ويرهبها أشد الرهبة، وكان لا يخطر على باله أن يجيء يوم يخاطر فيه بحياته فيركب متن هذا العدو الجياش الصاخب. ولقد لبث على هذا أحقاباً وأحقاباً. ثم بعد ما لا يعرف الآن على وجه التحقيق من الدهور وفق أن يتوصل إلى نقر جذوع النخل والأشجار الأخرى فيطفو بها على سطح الماء مزهواً أو مذعوراً. ولنرسم في أذهاننا صورة لذلك الإنسان وهو على ظهر سفينته تلك وكيف كان منظره ومنظرها... ثم لم يزل يسوقه التطور شيئاً فشيئاً ويدفعه حتى تهيأ له أن يركب هذه المدن الجميلة الطافية اليوم ساخرة من البحر ومن أمواجه ومن صخبه ونصبه، غير منتظرة ريحاً تسوقها أو حظاً يخدمها! ولنفكر في الجهود العقلية والصناعية التي بذلت للإنتقال من ظهور تلك الجذوع إلى هذه السفن التي تزهى بها البحار في هذا العصر.

إن كل ضرب من ضروب الحياة الإنسانية قد أدخل عليه من التجميل والتحسين والتكميل مثل ما أدخل على صناعة السفن وتصميم السفن. إذا

علمنا هذا ثم ألقينا نظرة فاحصة على عالمنا اليوم وعلى ما غمره من صناعة الإنسان وعلم الإنسان ونظم الإنسان أيقنا حينئذ بعظمة هذا المخلوق، وأتينا بالجواب الصحيح الذي يجب أن يجاب به السؤال السابق: (هل الإنسان غير عظيم.)

* * *

إن من السخف المبين أن يظل خطباؤنا وعلماؤنا ووعاظنا وجميع رجال الدين وغير رجال الدين ينشدون الأناشيد ويقذفوننا بالخطب تلو الخطب وبالمقالات إثر المقالات، مؤكدين لنا بأن الإنسان ما خلق ليكون عالماً، ولا ليكون شيئاً كبيراً، ولا ليغالب الطبيعة والحياة، ولا لينازع الله في علمه وقوته وقدرته، ولا ليخرج من طبيعته... وإنما خلق عبداً ضعيفاً جاهلاً ليبقى أبداً ضعيفاً جاهلاً. وإنما خلق من التراب وسيبقى أبداً في التراب! وإنما خلق ليثبت له ويبين أنه لن يستطيع أن يكون عالماً كما يقول أحد الشيوخ الذين أوردنا كلامهم! ...إنه ما خلق ليحل المشكلات ولا ليقضي على الأزمات ولا ليدخل التغيير الكبير على شيء من هذا الوجود الجبار الذي منحه الله نظامه... وإن من السخف المبين أيضاً أن نظل خاضعين لهذه الثقافة الميتة التي حكمت علينا وعلى مواهبنا الإنسانية بالإعدام من غير أن نحاول التجديد فيها ولا الخروج عليها ولا التبديل في نصها أو روحها، حتى لنسمعها كل يوم جمعة – بل كل يوم – تلحن وتعاد فوق منابرنا وفي جمعياتنا وفي كل ما يقال وما يكتب عندنا: نعم إن من السخف كل هذا بينما الآخرون الذين نسميهم أعداءنا جادون ماضون في إستغلال مواهب الإنسان ومواهبهم الإنسانية حتى استطاعوا أن يصنعوا كل هذه الحضارة وكل هذه المدنية وكل هذه الحياة، وحتى استطاعوا أن ينقلوا هذه الحضارة وهذه المدنية وهذه الحياة كل يوم خطوات إلى الأمام، وأن يضيفوا إليها كل حين جديداً. وحتى عجزنا نحن أن نشاركهم أقل مشاركة أو أن يكون لنا في ما فعلوا أضعف أثر. نعم! إن هذا من السخف المبين ومن الغبن الفاحش أيضاً.

إن أقل ما يجب أن نفعله الآن هو أن نشيد ثقافة جديدة كل الجدة منتزعة من روحنا المضغوطة تحت هذه الثقافة الخبيثة القاتلة، وأن نقيم قواعد هذه الثقافة على روح هذه المواهب بالإنسان وبمواهبه التي لا تحصى، ليتسنى لنا بعد هذا

الإيمان الإتجاه إلى إستغلال هذه المواهب وإلى الإنتفاع بها. ثم أن نعد هؤلاء الذين يدعوننا إلى الكفر بالإنسان مجرمين لا يستحقون منا إلا مثل ما يستحق أصحاب الدعوات والمبادىء الهدامة.

إنه لو اعتقد إنسان إعتقاداً قائماً على الوهم بأنه مقيد بقيود لا يستطيع التغلب عليها ولا الخلاص منها لبقي قاعداً مستسلماً لهذه القيود الوهمية ولما حاول النهوض ولا المسير، ولو اعتقد بأنه مقعد وأنه لا يقدر على القيام لظل قاعداً، ولو وضع في مكان ثم أفهم بأن ذلك المكان مغلق وأنه لا يمكنه الخروج منه بحيلة من الحيل لألزمه ذلك الإغلاق الوهمي مكانه، ولما أمكن أن يلتمس الوسائل للنجاة والإفلات إلا أن يكون لديه منفذ للأمل يتعلق به. وكذلك الجماعات والشعوب التي تعتقد - خطأ - بأن قواها العقلية مقيدة بقيود وهمية أو أنها مقعدة أو أنها موصدة عليها الأبواب تظل خاضعة لهذه الأوهام ما دامت خاضعة للإيمان بها.

وأخيراً لقد زعم هؤلاء الهدامون أن الرسول الكريم قال (من عرف نفسه فقد عرف ربه) ثم زعموا أن معناه: من عرف نفسه متصفة بأضداد صفات الله، أي بالجهل والغباء والحقارة والضآلة والضعف والإفتقار والفقر والموت وبكل الصفات المرذولة المقوتة فقد عرف ربه بالعلم والقوة والغنى وكل صفات الكمال، أي إن العبد يجب أن يكون على الضد من أوصاف الله، أي على الضد من أوصاف الكمال، أي يجب ألا يكون كاملاً وألا يدعي أنه كامل، ويجب أن يبالغ في إنتقاصه وتحقيره وبالحكم عليه... وهذا من شروحهم وتفاسيرهم المضللة التي ملأوا بها الكتب بل زحموا بها الطريق - وأي طريق؟ إنه طريق العقل وطريق الحياة الصحيحة... والتفسير الصحيح لهذا القول لو كان صحيحاً أن المراد: من عرف نفسه على حقيقتها فعرف مواهبها العديدة الكامنة وخصبها العجيب فاستثمرها عرف ربه معرفة صحيحة، وعرف سننه العامة العادلة، وعرف ما يجب له تعالى وما يجب أن يبرأ منه، وعرف بطلان ما ينسبه إليه الجاهلون الأغبياء الذين لم يعرفوه معرفة صحيحة لأنهم لم يعرفوا أنفسهم هذه المعرفة. وكل الذين ينسبون إلى الله الجهل والعبث والسفه والفوضى في الأحكام وفي الأوامر والنواهي وفي القضاء والقدر، وينسبون إليه الحقد وحب الإنتقام وكل ما لا يجوز - وكل الذين يعبدونه عبادة باطلة سخيفة ويريدون منه شيئاً

سخيفاً، ويسألونه ما لا يمكن أن يكون وما لا يمكن أن يقع - وكل الذين يعبدون سواه ويظنون أن هذه العبادة ترضيه وتقرب لديه - إذ هي عبادة المقربين عنده: كل هؤلاء ما صنعوا هذا إلا لأنهم لم يعرفوا أنفسهم على حقيقتها لأن معرفة الشيء إنما تكون بمعرفة صفاته، ومن جهل صفات شيء فليس عارفاً له، والذي يعرف صفات نفسه لا بد أن يستفيد من هذه المعرفة، وأعظم فوائدها أن يقدر الأمور تقديراً صحيحاً. وإذا قدرها هذا التقدير الصحيح فلا بد أن يكون قد عرف الله معرفة صحيحة بعيدة عن الأباطيل وعن الترهات الإعتقادية التي ينساق إليها الجاهلون. والله يعرف بالعلم لا بالجهل، وعند هؤلاء المخربين أنه إنما يعرف بالجهل! ولهذا فإنهم يقولون من عرف نفسه بالجهل فقد عرف ربه بالعلم. وإذا عرف نفسه بالجهل - وكانت هذه المعرفة صحيحة، ثم كان ذلك سبباً في معرفة الرب كان المعنى والنتيجة أن الله يعرف بالجهل وأن الجهل من أسباب معرفته! ولكن لا يدّعي هذه الدعوى إلا قوم لا نصيب لهم في العقل ولا في الدين.

العلم حجاب - الجهالة أم الفضائل -
أكثر أهل الجنة البله
هكذا قالوا:

روى جماعة منهم الحاكم وصححه أن الرسول عليه السلام قال (لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة واستعينوا عليهم بالمغزل وسورة النور.)

ورووا أن علي بن أبي طالب مر بامرأة تعلم الكتابة فقال (أفعى تسقي سماً.)

ورووا أن النبي عليه السلام قال (إن البيان والبذاء من النفاق، وإن العي والبذاذة من الإيمان) وأنه قال (إن الله يكره البليغ من الرجال.)

ورووا أنه عليه الصلاة والسلام رأى التوراة مع أحد أصحابه فاستشاط غضباً وقال (أمتهوكون أنتم) الحديث...

ونقلوا روايات كثيرة مشهورة جاء فيها أن عمر بن الخطاب كان يمنع من قراءة كتب الأوائل وقراءة التوراة والإنجيل ويعاقب على ذلك، وأنه كان يقول في كل كتاب يحاولون قراءته: (أيوافق ما فيه القرآن) إن كان يوافقه قال فالقرآن يغنينا ولا معنى حينئذ لقراءته، وإن كان يخالفه قال: لا خير في شيء يخالف القرآن. وهنالك الرواية المشهورة التي ذكرها بعض هؤلاء مستحسناً لها ومفتخراً بها، منهم المقريزي ومن لا يقلون عنه، وهي الرواية التي قيل فيها إن عمر أمر بتحريق مكتبة الإسكندرية قائلاً: إن كان ما في المكتبة موافقاً للقرآن أغنانا القرآن عنها ولا حاجة بنا إليها، وإن كان مخالفاً له فلن نبقى على شيء يخالف القرآن، وإنها أحرقت. وقد طار بهذه الحكاية المختلقة بعض من يحملون على العرب والإسلام فرحاً.

وقد تكلموا كثيراً في تحريم المنطق والفلسفة وألفوا في ذلك كتباً منها كتاب الأسيوطي المشهور (أقوال أهل المشرق في تحريم تعلم المنطق) وقد حكى في هذا الكتاب الإجماع - أو شبه الإجماع - على تحريمه. ومن العبارات المشهورة عندهم في هذا قولهم (من تمنطق فقد تزندق.) وفي الكتب المدروسة في الأزهر: فأبن الصلاح والنواوي حرما (أي حرما تعلم المنطق.) وقد شنعوا على الخلفاء العباسيين الذين وجهوا عنايتهم إلى تعريب كتب الأقدمين وعدوا هذه العناية من مثالب بني العباس، لأنهم في زعمهم نقلوا إلى المسلمين علم الكفار، وساعدوا

الزندقة والإلحاد على الإنتشار.

وجاء في كتاب مطبوع حديث التأليف أن أحد العلماء المشهورين جداً قال: "كل ما يسمى علماً مما ليس في الكتاب ولا في السنة ومما ليس من علوم المسلمين فهو لا يخلو من أحد إحتمالين: أحد الإحتمالين أن يكون غير علم وأن تكون تسميته بالعلم من تسمية الجهل بالعلم خطأ، وثانيهما أن يكون علماً حقيقة ولكنه علم ضار غير نافع. فلا يجوز للمسلمين تعلمه ولا قبوله."

وجاء في أحد الكتب الدينية المشهورة المحترمة جداً في معرض تقسيم الأفكار إلى جيدة وإلى رديئة ما نصه:" منها – أي من الأفكار الرديئة الضارة – الأفكار في الصناعات الدقيقة التي لا تنفع بل تضر كالفكر في الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصاوير، والفكر في العلوم التي لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفس كمالاً ولا شرفاً كالفكر في دقائق المنطق والعلم الرياضي وأكثر علوم الفلسفة التي لو بلغ الإنسان غايتها لم يكمل بذلك ولم يزك نفسه – إلى أن قال – فكل هذه الأفكار مضرتها أرجح من منفعتها. ويكفي في مضرتها شغلها عن الفكر في ما هو أولى وأعود عليها بالنفع عاجلاً وآجلاً."...

وكتب ابن عربي والشعراني وغيرهما ملأى بمذمة التعلم والعلم، ومن الأقوال المشهورة في هذا قولهم: (العلم حجاب.)

ومن البلاء حقاً أنهم لم يقصروا عند إمتداح الجهالة بل قاموا – ببلاهة كثيفة – يمتدحون الجنون والبله والبُله والمجانين، فرووا أنه عليه السلام قال: (أكثر أهل الجنة البله) وأنه قال (المؤمن غر كريم، والمنافق خب لئيم) وأنه قال (إن الله يدخل قوماً الجنة كأن قلوبهم قلوب الطير) أي في السذاجة والسلامة من المكر والخبث، ومن الدهاء والذكاء. وراحوا كالمصروعين ينشدون في إمتداح الجنون والمجانين.

مجانين إلا أن سر جنونهم
عظيم على أبوابه يسجد العقل

وجاء في النهاية لابن الأثير – مفسراً البله الذين هم أكثر أهل الجنة:–

"البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة." وهكذا قال غير ابن الأثير.

وهم يقصدون أن المؤمنين حقاً الذين يخصون بدخول الجنة هم الذين يكونون بالأوصاف المذكورة من الغباوة بالشؤون الدنيوية وبما يلزم لها. وقال أحدهم في تفسير البله: (الأبله هو الأبله في دنياه، الفقيه في دينه.)

وفي النهاية لابن الأثير أيضاً:

"المؤمن غر كريم، أي ليس بذي نكر فهو ينخدع لإنقياده ولينه وهو ضد الخبث. يريد أن المؤمن المحمود من طبعه الغرارة وقلة الفطنة للشر وترك البحث عنه... ومنه تحديث قول الجنة: يدخلني غرة الناس، أي البله الذين لم يجربوا الأمور فهم قليلو الشر ينقادون. فإن من آثر الخمول وإصلاح نفسه والتزود لمعاده ونبذ أمور الدنيا فليس غراً في ما قصد له ولا مذموماً بنوع من الذم."...

ومما ذهب كالمثل قولهم (العجز عن الإدراك إدراك)، يعنون إمتداح الجهل وأن الجاهلين هم العلماء حقاً لأنهم عرفوا قدرهم وهو الجهل فوقفوا عنده.

وهنالك قسم كبير من الأولياء عند الذين كتبوا في الطبقات يسمون بالمجانيب أو بالأولياء المجانيب. وقد أورد الشعراني في كتابه (طبقات الأولياء الكبرى) أسماء طوائف كثيرة من هؤلاء المجذوبين. وهكذا صنع غيره.

* * *

لقد تبين بهذا أن الفساد الفكري عند هؤلاء كان فساداً عاماً وكان فساداً أصيلاً. فهم لم يكتفوا بمدح الفقر والمرض والجوع وكل ألوان الشقاء كما سيأتي، بل امتدحوا كما رأى القارىء الجهل والغباء! ثم لم يكتفوا بهذا أيضاً، بل امتدحوا الجنون وضعف العقل والعجز عن التصرف في الحياة! وهم لم يقصروا عند هجاء الثراء والصحة والعافية بل هبوا - بكل ما أوتوا من بله - يهجون العلم والمتعلمين والعقل والعاقلين! فهم إذن قد قصدوا إلى كل مقومات الإنسانية، وإلى كل عناصر الحضارة والمدنية، محاولين هدمها وتدميرها.

لقد سرت هذه الأفكار والآراء وغيرها في البيئات الإسلامية سرياناً عجيباً، وغزت معقل الإعتقاد ومعقل التوثب الفكري، حتى أضحت روحاً عامة للخاصة والعامة - إذا استثنينا من استثنى الله - مدى ألف سنة تقريباً، وظل المسلمون الذين يعيشون بهذه الروح طوال هذه العصور ينظرون إلى العلوم التي لا تتصل بالعبادة الحرفية الشخصية بعين الجفاء والإشمئزاز بل والبغضاء! ولبثوا ينظرون إلى من يحاولون الإتصال بهذه العلوم ودراستها أو ترجمتها نظراً كله

الكره والمقت والإتهام! ولبثوا يعدون من اشتغل بها ملاحدة وزنادقة أو فساقاً إلى عهد قريب جداً، بل لا يزالون كذلك حتى اليوم في بعض البلاد التي لم يغمرها نور العلم والتي لم تستطع الخروج من أكمام الجهل.

فقد عدوا من شغلوا بعلوم الإغريق - سواء أكانت طبيعية أم رياضية أم فلكية أم فلسفية أم طبية - ملاحدة، وألفوا كتباً في ذمهم وإكفارهم وتبيان أضرارهم! وكذلك حسبوا من درس شيئاً من هذه العلوم من المسلمين والعرب. وقد اجتهدوا في تحامي هؤلاء وتحامي كتبهم وتحامي النظر إليها وعملوا على قتل هذه الكتب وعلى دفنها... فأمثال الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان وأبي بكر الرازي والكندي وسواهم - ممن قاموا بتجارب ودراسات لها قيمة صادقة في الكيمياء والطبيعة والرياضة والفلك والطب والفلسفة - محاربون مكروهون متهمون في دينهم وأخلاقهم. وهم لا يذكرون حينما يذكر علماء الإسلام وأعلامهم ورجالهم البارزون. أما كتبهم التي بحثت في هذه العلوم فلا توجد في المكتبات بل ولا يسمع بها ولا تذكر إذا ذكرت كتب المسلمين. ومن المؤسف حقاً أن الذين شهروا هذه الكتب وشهروا مؤلفيها وأخرجوهم من ظلمات القدم والنسيان هم علماء أوروبا أو من أخذوا عن علماء أوروبا. أما المسلمون فقد أجمعوا على رفض هؤلاء ورفض مؤلفاتهم وعلومهم وعلى تجنبها وتجنبهم. ومن أجل هذا لم يوجد بعد هؤلاء من ينهضون بإتمام ما بدأوه أو بتوسيعه أو للسير في الطريق التي اختطوها ونهجوها. بل ما كان مثل هؤلاء العلماء العلميين في هذا التاريخ الطويل المظلم الظالم إلا كومضات لمعت في ليلة حالكة ثم تلاشت وتلاشى مصدرها من غير أن تعود مرة أخرى إلى أن غمرنا بل وغمر العالم نور النهار الذي خرج من جانب آخر.

ومن أجل هذا كانت مقاومتنا للعلوم التي غزت العالم كله مقاومة صادقة طويلة، وكان نفورنا منها نفوراً حقيقياً، وكان إباؤنا إياها إباء مصمماً، وكان إتهامنا لها إتهاماً معززاً بالبغضاء والتشنيع.

لقد قامت أوروبا - قارة الضباب والثلج والظلام - منذ ثلثمائة سنة - بل تزيد - تحاول بكل الوسائل الخروج من ظلامها وجهلها. فما زالت كل هذه القرون تناضل هذين العدوين نضالاً مراً عنيفاً حتى ظفرت هذا الظفر العجيب. وكنا نحن إذ ذاك نأبى أن نبصر أو أن نفكر أو أن نستيقظ بل أو أن نقلد، ونأبى أن

ننظر إلى من حولنا وما حولنا. بل كنا لا نبغي بجهلنا ولا بليلنا بديلاً من العلم أو من النهار والنور. فلقد كنا مأخوذين متأثرين بل مخدرين أو مسحورين بأقوال هؤلاء الشيوخ المدمرين الذين كتبوا لنا وخلفوا وراءهم هذا العداء الكريه المرير للعلوم، ولا سيما علوم الكافرين والآخرين من الأمم الغربية.

وكنا إذا ما طاب لهذه القارة أن تغزوا بلداً من بلادنا وأن تنتقص جانباً من جوانبنا بقوة علومها التي كرهناها ونممناها، فغزت ما شاءت غزوه، وعصبت ما أرادت عصبه بدون عناء أو مقاومة – لأن الجهل لا يقدر على مقاومة العلم – فغرنا أفواهنا بدون أن نتكلم، وشخصنا بأبصارنا ولكن من غير أن نبصر، واستكت آذاننا فلا نسمع. لأن الحجب والموانع كانت تحول بيننا وبين أن ننظر أو نسمع أو نتكلم أو أن نستفيد مما يحيط بنا. كانت حجباً وموانع كثيفة أقامتها ونسجتها هذه التعاليم وهذه الآراء المخربة التي غبرنا نلقنها ونطعم بسمومها القرون بعد القرون.

لقد بقينا نحن وبقوا هم هكذا: يعلمون ونجهل، ويقوون ونضعف، ويأخذون ونعطي، ويزيدون وننقص حتى قامت هذه النتيجة المروعة المخزية، وهي أننا فقدنا نحن كل شيء وأخذوا هم كل شيء. والسبب في هذا كله يتلخص في شيء واحد: هو أننا تعلمنا كيف نبغض العلوم وكيف نأباها وننفر منها، بينما كانوا هم يتعلمون كيف يبغضون الجهل، وكيف ينفرون منه، بل وكيف يقاومونه ويدمرونه ويهزمونه.

ولقد كانت آثار هذه التعاليم التي ورثنا إياها هؤلاء القوم قوية فعالة. فإننا عملاً بهذه الوصايا بقينا محافظين بأمانة على عداوة العلم حتى اللحظات الأخيرة، وظللنا مغمضين أعيننا خيفة أن تبهرنا أضواء العلم في كل بلد من بلادنا وكل ركن من أركاننا. وما قبلنا من فتوح العلم إلا ما يدخله علينا هؤلاء الغزاة الغربيون إضطراراً وإكراهاً. وكنا ننظر أيضاً إلى العلوم أو أطراف العلوم التي تنتقل معهم أو ينقلونها معهم نظرات يشوبها الشك والريب والحذر. وكان بودنا لو أنهم أبيدوا هم وعلومهم وذهبوا إلى غير رجعة. وما زلنا نسمع هذه الأماني والآمال تنشد فوق منابر المساجد ومنصات الخطب والمحاضرات في النوادي والجمعيات. وما زلنا حتى اليوم نسمع من يرفعون عقائرهم جاهدين يدعون على هذه العلوم وعلى أربابها ويسألون لها الدمار والفناء، ويضرعون إلى

الله طالبين إليه ألا يبقى منهم ولا منها باقية، لأنها في زعم هؤلاء الواعظين الناصحين الباكين أو المتباكين علوم لا تجلب سوى الشر، ولا تحدث سوى الفساد والإلحاد. ولا شك في أن روح هذه الكراهية إنما هي بقية من بقايا هذه التعاليم وأثر من آثارها وصوت من أصواتها.

ومما يدل دلالة قاطعة على مبلغ تأثرنا بأقوال هؤلاء المشايخ في بغضة العلم وذمه أننا أبينا - حتى اليوم - في بلادنا المستقلة التي لم يغزها هؤلاء الأعداء العلميون بجيوشهم ولا بشركاتهم وأموالهم وأعمالهم أن نقبل هذه العلوم أو نفتح لها باباً من أبوابنا أو أن نرضاها مهما بذلت لنا الشروط. ونحن نرى الآن بعض البلاد تأبى إباء تاماً أن تقبل عندها لوناً من ألوان العلم أو مظهراً من مظاهر الحضارة التي صنعها العلم، على زعم أن هذه العلوم هي علوم قوم كافرين لا تليق إلا بالكافرين، أو أنها علوم لا خير ولا فائدة منها، لأنها دنيوية لا تفيد في عبادة الله ولا في طاعته، أو على زعم أنها تدخل معها الفساد والفسوق أو تدخل معها أهلها، أو على زعم أنها علوم مخربة مدمرة... تعددت الأسباب والمنع لا بد منه.

وما استطاعت البلاد الإسلامية الأخرى أن تقبل بعض هذه العلوم أخيراً إلا إكراهاً لأن أهلها أدخلوها معهم كذلك أو لأسباب قاهرة ليس لهم فيها اختيار ولا يد... وظني أن أكثر المسلمين الآن لو رجعوا إلى إختيارهم الخاص في قبول هذه الحضارة وعلومها وفي رفضها لكان الرافضون الآبون هم الأكثرين، والأدلة على ذلك كثيرة مشهودة حسية. وكلنا يعلم أن ملكاً شرقياً مسلماً سلب عرشه وطرد من بلاده لأنه أراد - بعد رحلة في أوروبا - أن يدخل على قومه الحضارة والعلوم الحديثة. وكلنا يعلم أيضاً أن بلداً إسلامياً مستقلاً لا يزال اليوم يعيش على هامش الحياة وعلى الفطرة الأولى...

وقد ظل المصريون المسلمون إلى عهد قريب جداً يرفضون تعلم الحساب - دع غيره من العلوم - متأثرين بهذه الروح المعادية للعلم. وكانت الأعمال الحسابية من أجل هذا موقوفة على الأقباط حتى إن أصحاب الأموال والأعمال كانوا مضطرين إلى هؤلاء للقيام بأعمال دوائرهم. وكانت أكثر الوظائف - إن لم تكن كلها - التي تحتاج إلى حساب وإلى كتابة مقصورة عليهم خاصة بهم. وإلى اليوم لا يزال شيء كثير من هذا عالقاً بالأذهان.

وقد تجلى أيضاً أثر هذه الروح في لبنان. فإن المسلمين هناك قد بقوا مجانبين للمعاهد الأجنبية الموجودة، ثم ممتنعين عن دخولها. أما غير المسلمين من اللبنانيين فقد أقبلوا على هذه المعاهد بشغف، فأخذوا منها العلم والتربية وحب الحياة. فأصبحوا هم الطليعة في نهضة لبنان العلمية والأدبية، بل في نهضة كل البلاد العربية، فقد تعلم الناس منهم فن الصحافة والأدب والشعر، وأشياء أخرى. نعم من الممكن أن يقال إن التعصب الديني هو الذي حمل المسلمين في لبنان على إجتناب تلك المعاهد. ولكن الصحيح أن التعصب جزء السبب وليس كل السبب، وكذلك كراهة العلم والدعوة إلى كراهته ليست بالسبب كله. بل التعصب وروح العداء للعلم سببان من أسباب وليسا كل الأسباب كما يجب أن يقال.

لماذا هذا كله وما أسبابه وعوامله؟ إن أعظم أسباب هذا وأظهر عوامله هو هذا الميراث الثقيل الوبيل الذي ورثناه عن هؤلاء الشيوخ الذين لم يوفقوا إلى شيء كثير من العقل أو العلم أو النظر السديد أو الإستقراء النافع.

نعم كل ما ذكر صحيح، ولكن لماذا كره هؤلاء العلم ولماذا كتبوا في كراهته وفي مذمته؟ إن لهذا أيضاً أسباباً، منها الظاهرة الجلية ومنها الباطنة الخفية. وإن أظهر وأكبر هذه الأسباب هي سيطرة الفكرة الزهدية القاضية بذم الدنيا ونبذ كل ما يتصل بها وكل ما يعين عليها وما ييسر من أسبابها. فإن الزهد في الدنيا وفي الحياة المترفة المنعمة يفضي إلى الزهد في ما هو من عواملها ومقوياتها.

إن أساس أكثر أخطاء هؤلاء الدعاة هو أنهم اعتقدوا أن العبد لا يكون عبداً لله حقاً مخلصاً له إلا إذا كان ضعيفاً في كل شيء عاجزاً عن كل شيء: ضعيفاً في ماله وفي جسمه وفي صحته وفي علمه بل وفي عقله. فالقوة للعبد في كل شيء مذمومة لأنها عنوان الجبروت، ولأن القوة يجب أن تكون لله وحده. أما العبد فله الضعف، لأن الضعف أدل على العبودية، ولأن الضعيف أقرب إلى الخضوع والإستسلام والإقرار لله بالعبادة. فالمال مذموم، والقوة مذمومة، والصحة مذمومة، والعلم والعقل مذمومان، وكل ما هو من صفات الله مذموم إذا كان صفة للعبد! ومن أجل أن يحققوا هذه العبودية الضعيفة المستسلمة الخاضعة ذموا العلم وذموا الذكاء النادر والعقل الجبار، وذموا الفصاحة والبيان وذموا كل ما يهب صاحبه القوة أو الكمال، وامتدحوا الجهالة والغباء وضعف العقل

والجنون والعي والفهاهة وكل ما يهب صاحبه ضعف الشخصية وخور الإرادة والعجز عن المقاومة: رأوا بتفكيرهم العاجز أن أعظم فرق بين الخالق والمخلوق هو الضعف والقوة: الضعف في المخلوق والقوة في الخالق. ورأوا أن أحدهما لا يصح أن يتصف بصفة الآخر. فالخالق لا يصح أن يتصف بالضعف والمخلوق لا يصح أن يتصف بالقوة. فكل ما هو ضعف هو كمال في المخلوق، وكل ما هو قوة هو كمال في الخالق. والعلم والذكاء والعقل والبيان والبلاغة من أوصاف الأقوياء القادرين، فإتصاف المخلوق بها عند هؤلاء الأدعياء يخرج به عن طوره وحدوده. أما الجنون والجهل والفهاهة والبله فمن صفات الضعف والضعفاء، فحسن إذن قيامها بالمخلوق مثل ما قالوا في الصحة والمرض والثراء سواء.

وهذه الفكرة الفاسدة إنما إنتزعوها من قياس فاسد أخذوه مما بين أيديهم. وهو أنهم وجدوا أن الإنسان أحياناً كثيرة قد يأنف من قوة عبده وخادمه وممن هو تحته، ومن ذكائهم وعقولهم وعلومهم، ويغار ويحقد ويحسد ويخاف من ذلك. وكذلك كثير من الملوك والأمراء والزعماء والرؤساء قد يغارون من رجالهم الموصوفين بهذه الصفات: فقد يحسدونهم ويحقدون عليهم ويخافونهم ويتمنون لو كانوا متصفين بالصفات الأخرى التي تضمن لهم إنقيادهم وإستسلامهم وضعفهم أمامهم. وقد روى التاريخ العدل أن بعض قادة الأمم - بل كثيراً منهم - كانوا يعملون على أن يحولوا بين شعوبهم وبين العلم ويحرمونه عليهم لأنهم يخافون إمتناعهم عليهم وعسر طاعتهم لهم إذا تعلموا. وحتى في هذا العصر لا يزال يوجد فريق من هؤلاء القادة الذين يخشون العلم. ومما يؤلم أنه يوجد اليوم في إحدى البلاد العزيزة علينا من لا يكافئون المتعلمين إلا بالسجن والعذاب والمطاردة.

وجدوا هذا قد يقع ويصدق في أخلاق الإنسان وفي أعماله الضعيفة، فذهب إلى أوهامهم أن الله أيضاً كذلك، لأن الإنسان دائماً يفهم إلهه فهماً متأثراً بالنظام الإجتماعي الذي أمامه وبالبيئة التي هو فيها. هكذا فهموا أن الله يرضيه ويعجبه من عبيده ألا يكونوا موصوفين بصفات القوة الخاصة به، بل أن يكونوا موصوفين بعكسها أي بالضعف بكل ضروبه.

ثم رأوا أيضاً بإستقرائهم الناقص أن الغباء والعي والفقر العقلي قد يقارنه الصلاح والإنقطاع للعبادة، وأن الذكاء والعقل والنبوغ والعبقرية قد يقارنها

التمرد والشرود والريب، فاستخرجوا هذه النتيجة - وهي أن الأذكياء والعقلاء والعلماء يضلون ويكفرون، وأن البله والأغبياء والجهلاء قوم يتصفون بالصلاح والطاعة والإستقامة وسلامة الطوية والإستسلام لله ولقضائه وقدره ولكل ما يطلب منهم ويحكم به عليهم دون أن ينبض لهم عرق بالإباء والإمتناع... ثم لم يحتاجوا لكثير من التفكير ليحكموا وليروا من أي الفريقين يجب أن يكون المسلم. هذا شيء.

وشيء آخر، وهو أنه لا ريب في أن كثيرين من الذين قالوا ما قالوا في مدح هذه النقائص إنما حملهم على ذلك رغبتهم في أن يضمنوا لأنفسهم السيادة والزعامة ونصف الألوهية أو كلها، لأنهم يدركون بداهة أن الأغبياء والجاهلين والبله هم الذين يسهل عليهم أن يسلموا لهم وأن يكونوا بين أيديهم كالأموات بين أيدي الغاسلين كما يعبرون! أما أهل الذكاء والعقل والعلم فمن العسير إنقيادهم وتسليمهم. فنهضوا يدعون بإخلاص إلى ما يعطيهم السلطة وما يهبهم ملك القلوب، بل وملك الجيوب. ومن هنا قال الصوفية في تعليمهم (العلم حجاب) وقالوا (الجهالة أم الفضائل) وقالوا (اللهم ديناً كدين العجائز) وقالوا (العجز عن الإدراك إدراك.)

ويحكي الشعراني في كثير من كتبه كما يحكي غيره أن مشايخ الطريق وأساطين الصوفية كانوا إذا رأوا من يقرأ ويتعلم زجروه وقالوا له: لا تأخذ علمك عن الأموات ولكن خذه كما نأخذه نحن عن الحي الذي لا يموت! والأموات عندهم هم المخلوقون سواء أماتوا أم كانوا أحياء، لأن الخلق كلهم في لغتهم ميتون وإن كانوا لما يموتوا بعد! وهم يريدون بهذا منع التعليم ومنع الأخذ عن الكتب وعن الأساتذة محافظة على سلطان الجهل الذي يرعى لهم سلطانهم ويحافظ عليه.

وقال ابن عربي في كتابه (الفتوحات المكية) ونقله عنه الشعراني في كتاب (اليواقيت والجواهر): "إن المنكرين لما تعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عباداً تولى تعليمهم في سرائرهم! إذ هو المعلم الحقيقي للوجود كله وعلمه هو العلم الصحيح. وكان أبو زيد البسطامي يقول لعلماء زمانه: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. وكان الشيخ أبو مدين إذا سمع أحداً يقول أخبرني فلان عن فلان يقول:

لا تطعمونا القديد" كل هذا كلام الشعراني وابن عربي.

وقد أرادا - أعني الشعراني وابن عربي - أن يفرقا بين المجانين والمجاذيب الذين هم في رأيهم أكبر الأولياء فقالا ما نصه: "إن الفرق بينهما أن المجانين سبب جنونهم فساد المزاج عن أمر كوني، وأما المجاذيب فسبب ذهاب عقولهم التجلي الإلهي الذي جاءهم على بغتة فذهب بعقولهم! فعقولهم مخبوءة عند الحق منعمة بشهوده عاكفة في حضرته متنزهة في جماله، فهم أصحاب عقول بلا عقول! والمجانيب ثلاثة أقسام: الأول من يكون وارده من القوة. وكان أبو عقال المغربي من أهل هذا المقام. الثاني من يمسك عليه عقله في حضرة الله ويبقى عليه عقل حواسه فيأكل ويشرب ويتصرف من غير تدبير ولا روية ويتناول العيش الطبيعي كسائر الحيوانات"... ثم ذكرا القسم الثالث قائلين: "واعلم أن أكبر من جذبه الحق إلى حضرته الرسل"... وأي تضليل أكبر من هذا؟

ومن الأوهام العظيمة أيضاً التي جعلتهم يذمون الإشتغال بالعلوم ولا سيما العلوم التي لا تتصل بعلوم الدين والعبادات إعتقادهم أن الإنسان' إنما خلق لينفق كل جهوده وأعماله وأوقاته في العبادة، أما ما سوى ذلك فالإشتغال بالباطل الذي يؤاخذ الله ويعاقب عليه، وإعتقادهم أن من اشتغل بالعلوم الدنيوية أو التي تفيد في الدنيا فقد اشتغل بخدمة الباطل، والباطل هو الدنيا وكل ما يعمل لها ومن أجلها. ولا أضل عندهم من عبد خلق لعبادة الله فتركها واشتغل بعبادة الدنيا أو بعبادة نفسه من طريق الدنيا. فمن أعظم الضلال في رأيهم إنفاق شيء ما من القوى والأوقات والأعمال - التي إنما أوجدت لتصرف كلها في خدمة الله - في خدمة الدنيا أو خدمة ما يخدم الدنيا... لهذه الأوهام والأسباب المنكرة أشاع هؤلاء الثناء على الجهالة وعلى الجنون والبله وضعف العقل، وأشاعوا مذمة العلم والذكاء وقوة العقل، حتى صار الناس الذين قضى عليهم قراءة كتبهم والإيمان بها ينظرون إلى العلوم نظراً هو الخشية والحذر، وينظرون إلى الجهل والغباء ونقصان القوى الفكرية نظراً كله الثقة والإطمئنان، حتى أضحى الجنون والبله وأعراضهما عنوان الولاية والإيمان العميق لدى هؤلاء المضللين ولدى المضللين بما كتبوا وقالوا! وحتى رأينا من يسيرون وراء المجانين العراة في الطرقات العامة يبتغون عندهم علم الغيب وهتك أستار المستقبل وقضاء الحاجات بما لهم من قوى الولاية وقوى أهل الله المقربين

المتازين المدللين لديه! وحتى رأينا من يكتبون في أولياء المجانين والمجانيب وفي كراماتهم وخوارقهم ومن يكذبون الكتب في مناقبهم وفضائلهم! وحتى سمعنا من ينشدون ثملين في الثناء على المجانين:

مجانين إلا أن سر جنونهم
عظيم على أبوابه يسجد العقل

وحتى وجدنا من يجرؤون ممن يعدون محدثين وأئمة دين أن ينسبوا إلى رسول الإنسانية الأكبر عليه السلام أنه قال (أكثر أهل الجنة البله!) وحتى طار على كل لسان مديح الجهل والغباء وهجو العلم والعلماء. وراح الجماهير وغيرهم يقولون في عباراتهم المتوارثة التقليدية: كان الشيطان أعلم العلماء وأعلم الملائكة! يقصدون بهذا إتمام العلم وأنه من حيث هو علم لا قيمة له وأنه من أسباب الغواية والضلالة كما كان علم الشيطان سبب غوايته وكفره وتمرده! وراحوا يقولون أيضاً: إن العلم غير مقصود ولكن المقصود هو العمل فإذا وجد العمل فلا حاجة إلى العلم! وصار الكلام الموحي بالخشية من العلم وإساءة الظن به فائضاً على كل لسان متمثلاً به في كل مناسبة. وحتى عز الإقبال على العلم وعجز المسلمون في العهود الأخيرة، عهود النهضة العلمية أن يشاركوا أضعف مشاركة في وضع قواعد العلم ووضع قواعد الحضارة، وحتى عجزوا عن أن يضيفوا إلى بنائه لبنة واحدة أو ينقلوه إلى الأمام خطوة واحدة، وحتى صار من العسير جداً تخليصهم من آثار هذه الأفكار الهدامة وخروجهم من نطاق الجهل والغفلة الذي ضربه عليهم بإحكام هؤلاء المشايخ، وحتى ضعف كل الضعف تأثرهم بإختزازات العالم ورجفانه من سرعة السير إلى الأمام بخطواته الثابتة القوية، وحتى فسد نظرهم إلى الأشياء وإلى الحياة فساداً يحتاج إصلاحه إلى جهاد مرير عنيف.

إن طريق العلم ليس بالطريق القصير ولا بالسهل الإجتياز. وإن ما ركب في الإنسان من طباع مختلفة متباينة ليعمل من جهة على جذبه إلى أرض الجهل وحضيض الغباء إن لم توجد من جانب آخر قوى أدبية ومبادىء جليلة إنسانية تعمل بقوة على رفعه إلى أفق العلم وسماء المعرفة. فالإنسان تتنازعه أشياء كثيرة طبيعية ومبادىء أخرى أدبية بينهما إختلاف. فإذا وجدت الطباع المثبطة المعوقة من التعليم والتلقين ما يعينها على تثبيطها وتعويقها انتصرت على المبادىء

والميول الأخرى الداعية للنهوض والوثوب والإقدام، وإن وجدت هذه الأخيرة وما يعنيها كانت هي المنتصرة الظافرة بالإنسان. والإنسانية بمجموعها ملزمة بأن تعمل على إيجاد المبادىء والتعاليم الأدبية والدينية والشعرية والإجتماعية التي يكون عملها إستنهاض الطبائع والميول المتوثبة، ونصرها على الأخرى المثبطة المعوقة. فإذا أوجدت أمة من الأمم مبادىء وتعاليم فيما بينها تشجع غرائز الركون والإخلاد إلى الجهل وحضيض الغباء وتوحي بالرضا وتعطل ميول النهوض والوثوب كانت القاضية، وكانت تلك الأمة مقضياً عليها بأن تبقى جاهلة غبية. وإن كانت الأخرى كانت الأخرى.

فهؤلاء المشايخ الذين دعوا إلى الجهل، ومدحوا الجنون ونقصان القوى المدركة قد عملوا على إبقاء من ابتلوا بالإيمان بأقوالهم في شرك الجهل وأغلال الغفلة دون أن يستطيعوا النجاة والهرب إلا بقوى أخرى أدبية تنتزعهم إنتزاعاً. وهذا ما نعمل له إن شاء الله في هذا الكتاب.

فالواجب علينا إذن أن نحطم هذه الأقاويل وأن نحطم أصحابها إن كان لا بد من تحطيمهم بلا شفقة، وأن نضع من جديد أقاويل صارمة ومبادىء قوية تدعو إلى العلم المطلق بلا قيد أو شرط، وتمدح العلوم كلها وتمزق الجهل وكل ضعف فكري تمزيقاً لا يبقي باقية... يجب أن تكون تعاليمنا وثقافاتنا كلها قائمة على أنه لا يوجد علم يضر ولا جهل ينفع، وأن كل شر إنما يرجع إلى الجهل، وكل خير إنما يصدر عن العلم. والعلم هو العلم المطلق، العلم بكل شيء، وأننا لا يمكن أن ننال بالجهل شيئاً، ولا أن يفوتنا بالعلم شيء وأنه لا رجاء في أخلاق ولا في دين ولا في شيء من الأشياء الجميلة إلا بالمعرفة، وأن ضعف المسلمين وتأخرهم وفقدهم كل أنواع الإستقلال والسيادة لا يعود إلى فساد في الأخلاق، ولا إلى خلاف في الرأي والقلوب، ولا إلى شيء مما يحسبه الجاهلون... وإنما يعود إلى شيء واحد فقط: يعود إلى الجهل بما به قوة الآخرين، أي إلى الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها...

كيف نصبر بعد اليوم على قوم يذمون لنا العلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية والفلكية والطبية والفلسفية، وينشدون الأناشيد في مدح التصوف والزهد والدجل والشطح والرقص الديني ومدح القذارة والأمراض والجهالة والجنون والبله؟ كيف نحترم هؤلاء؟ أم كيف نرجع إلى كتبهم ونجعلها مرجعاً من

أهم مراجع الدين والثقافة والعقل ثم نطبعها وننشرها وندعو إليها وندرسها في معاهدنا ومدارسنا لنخدر بها من بعدنا كما خدرنا بها من جاؤوا قبلنا لتكون السلسلة متواصلة، وليكون الشقاء مضموناً.

إن الله جلت قدرته إنما نظم هذا العالم هذا النظام العظيم الرائع وحكمه هذا الحكم الذي لا إختلاف فيه ولا اضطراب بالعلم به وبنواميسه وقوانينه وقواه وأسراره. وإننا نحن أيضاً لن نحكمه أو نحكم شيئاً فيه ولن ننظمه أو ننظم شيئاً فيه إلا بهذا العلم أيضاً. وإن أنفسنا ووجودنا منه فلن نحكمها أو ننظمها إلا بالعلم الطبيعي، أي بعلمها من ناحيتها الطبيعية. وشيء هو وسيلة المولى عظم شأنه لحكم العالم وتنظيمه كيف نذمه ونكرهه أم كيف نستطيع أن ندرك نظاماً وحكماً بدونه؟

* * *

ومن اللازم هنا أن نعلم أن القرآن قد أشاد بفضل العلم والعقل أعظم إشادة، وعلق عليهما الخير والسعادة والفلاح، وامتدحهما بكل أساليب الإمتداح، وذم الجهل والضعف العقلي بكل عبارة، وجعلهما شعار الخيبة والفساد والفسوق والكفر والضلال... وأن نعلم أنه قد وصف المؤمنين بالعلم والفكر والتدبر وبالألباب والنهي والإستبصار والإعتبار وبكل لفظة تؤدي هذه المعاني، ووصف الكافرين والفاسقين والضالين بالجهل والغباء والغفلة وبكل عبارة تعطي هذا المعنى... وقد حكي عن أصحاب السعير أنهم حكموا على أنفسهم بأنهم ما كانوا من أصحاب النار إلا لأنهم لم يكونوا من أصحاب العقول قائلاً: "وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير" فسجل الله عليهم في كتابه بأن فقدهم العقل والسمع - والسمع هنا يراد به سمع الإعتبار لا سمع الأذن - هو ذنبهم الحقيقي فقال معقباً على قولهم هذا "فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير" وذنبهم الذي اعترفوا به هو أنهم لم يكونوا يسمعون أو يعقلون. وليس هناك تدليل أعظم من هذا التدليل على جلالة شأن العقل وسماعه، وعلى ما في ضعفه ونقصه من شقاء وسوء عقبى. وقد أراد الله أن يذم الإنسان في موضع وضع فيه نفسه وضعاً جر عليه الوبال وعلى من معه فيه ومن حوله فلم ير تعالى أبلغ في الذم والإنكار عليه من نعته بالجهل فقال: "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها

الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً"... بل حكي في موضع من مواضع الإشادة بالعلم قوله تعالى "إنما يخشى الله من عباده العلماء"، فحكم بأن العلماء سيخشون الله لا محالة وأن من ليسوا علماء فلن يخشوه لأن تركيب هذه الآية اللفظي يرجع إلى: "لا يخشى الله إلا العلماء." والقرآن بالإجمال قائم على جملتين: الثناء على العقل والعلم، وذم الجهل وضعف العقل. ومن العبث محاولة إثبات هذه القضية بالشواهد، فإنها قضية مسلمة لا خلاف فيها ولا خفاء. ولكن الخلاف قد يقع في المراد بالعلم حينما يطلقه القرآن. فقد يحسب كثيرون ممن انحرفوا عن فهم كل شيء أن المراد به هو العلم الديني فقط، أي العلم بالنصوص وشروح الشراح وتعليقات المعلقين القائلة: هذا حلال وذاك حرام وهكذا... ولكن لا ريب في أن هذا المصير في فهم العلم القرآني خطأ فاضح، بل المراد بالعلم – حيث أطلق – ما هو أعم وأشمل، أي يراد به المعرفة من حيث هي معرفة بلا نظر إلى موضوعها. فكل معرفة علم. والقرآن قد أطلق العلم ولم يقيده بالعلم الديني، فمن قيده فقد قيد إطلاق الله وإطلاق كتابه. بل إن مساق ألفاظ العلم في الكتاب ووضعها في موضعها صريح في أن المراد به ما أعم وأشمل، وهذا جلي عند من تتبع موارد الآيات ببصر نافذ. ولينظر القارىء إلى قوله تعالى: "كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً هو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون." وليس من الممكن أن يدعي بأن المراد بالعلم هنا هو الديني، بل المراد علم الإجتماع وعلم النفس، فهو الذي يدل على أن الحروب وإن كانت في ظاهرها وفي أوائلها القريبة شراً وبلاء إلا أنها قد تكون في عواقبها ونتائجها الأخيرة خيراً. إذ قد تقدم الإنسانية وتخدم المعارف والعلوم والمخترعات التي تبقي فوائدها... وقد تكون إصلاحاً وتطهيراً لكثير من أخلاق المتحاربين ورداً وردعاً لمطامعهم، ومفيدة لأشياء كثيرة يدرسها علماء النفس والإجتماع والتاريخ... وليس يخفى اليوم على أحد من العلماء أن هذه الحرب التي لم تصب البشرية بحرب أشد منها هولا تنطوي على فوائد علمية وخلقية ونفسية وقانونية لا تخصى... وكذلك كانت الحرب الماضية وكذلك ستكون الحروب المقبلة. ومن هنا كان قوله تعالى: "كتب عليكم القتال وهو كره لكم"... الآية من الناحية الإجتماعية العلمية في غاية من السمو وصدق الدلالة. وإن مما يدخل في دائرة الإعجاز أن يكتشف مثل هذه النظرية في الجزيرة العربية منذ

ثلاثة عشر قرناً من الزمان، فلا مفر من الإذعان لمنزله.

ثم لينظر القارىء إلى قوله تعالى من سورة النساء وهو يقسم المواريث: "آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً. فريضة من الله. إن الله كان عليماً حكيماً." ولينظر ما المراد بالدراية المنفية عنهم هنا وما المراد بالعلم المثبت لله! لا شك أن المراد بهما دراية وعلم غير الدراية والعلم الدينيين.

وقال تعالى إنباء عن يوسف الصديق: "قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم." وعليم هنا لا يقصد به العلم بالحلال والحرام والواجبات والمستحبات الشرعية. ولكن هو العليم بالشؤون الإقتصادية والمالية وبطرق الجباية وتنمية موارد الثروة تجارية وزراعية وصناعية... بل يمكننا أن نقول بدون أن نخشى الغلط: إن كل مورد ذكر فيه العلم والعقل ممدوحين والجهل والبله مذمومين في القرآن لا يراد به العلم والعقل في الدين ولا الجهل والبله فيه، وإنما يراد شيء آخر أعم وأشمل.

وما من ريب في أن من يعلم الأشياء بالوسائل العلمية التجريبية أحق بوصف العلم ممن يعلم ذلك من طريق الألفاظ دون فهم، وممن يعلم الحلال والحرام الدينيين من غير الحكمة. وأيهما أحق بوصف العليم؟ الذي يعلم خبث الزنا والربا والخمر وغيرها وأضرارها الصحية والعقلية والإجتماعية والنفسية والقانونية بالوسائل العلمية التجريبية والإستقرائية، أم الذي يعلم ذلك من طريق النص بدون عقل ومن طريق الشروح والجدل الفقهي؟ وأي الرجلين أقرب إلى إجتناب هذه الخبائث وتركها لأنه مقتنع بخبثها؟ وأي الناس أولى بنعت العلم: الذين يتركون الشرك وعبادة الأصنام والمخلوقين لأنهم علموا فساد ذلك ومضاره الإجتماعية والنفسية والعقلية، أم الذين لقنوا تحريم ذلك تلقيناً مجرداً من الإدراك الحقيقي؟ وأيهم أجدر بهذا الوصف الجميل: أقوم وهبهم الله عقولاً ممتازة كبيرة عبقرية فشحذوها ثم استخدموها في إختراع أشياء عظيمة أسعدت الإنسانية كلها ونجت بها من ويلات كانت تعانيها منذ وجدت، وقدمت إليها أموراً كانت محرومة منها أيضاً منذ وجدت، أم قوم ذوو عقول ضيقة حرفية تقليدية، عكفوا في زوايا مجهولة منتبذة وراحوا يهذون ويكتبون، وليس لهم من سامع ومن مفكر فيهم وفيما يكتبون سوى الغباوة: راحوا يكتبون في تكفير من يصنع كيت وكيت، وفي تفسيق أو تضليل من يأتي كذا أو كذا، وفي

تقسيم الأحزاب والأوراد اليومية والشهرية والصباحية والمسائية وتعديدها، وفي تقسيم البدع الدينية إلى واجبة ومستحبة ومباحة ومكروهة وحرام، وفي سرد طبقات الأولياء وحشد كراماتهم وخوارقهم ومخاريقهم وغير ذلك من الأمور التافهة التي شغلت أكثر الرؤوس؟ لا أرى أن العقلاء يختلفون في الجواب عن هذه الأسئلة أو يختلفون في من هم أولى بأوصاف العلم والعرفان. فالذين يزعمون أو يظنون أن العلم والعقل الممدوحين في الإسلام هما الخاصان بالأمور الدينية فقط قوم واهمون.

ومن الأحاديث المشهورة الدالة على أن العلم في إطلاق الشرع غير ما ذهب إليه هؤلاء قوله عليه السلام في قصة تلقيح النخل (أنتم أعلم بأمور دنياكم.)

ومما يجب التنبيه إليه هنا - لأن الذين ورثوا عن هؤلاء الشيوخ كراهة المعارف لا يفتأون يغلطون ويخلطون فيه - إن العلم لا يمكن أن يكون شراً ولا أن يكون داعياً إلى الشر والفساد والإجرام والطغيان. وذلك أنهم هبوا - وخاصة في هذه الأيام التي تفاقمت فيها ويلات الحرب - يصرخون منادين بسقوط العلم زاعمين أنه هو الذي شب هذه الحرب، وهو الذي يقدم لها الوقود فيزداد إضطرامها وإلتهابها... وقد نادى كثيرون من خطباء المساجد وخطباء الجمعيات في هذه الأيام بمقاطعة علم أوروبا والبراءة منه! وسألوا الله مخلصين - على ما زعموا - أن يخلص العالم والإنسانية من هذا العلم ومن أهله! ثم ختموا دعاءهم وإدعاءهم ودعايتهم بمطالبة المسلمين والمخلصين بالرجوع إلى الدين ونبذ كل شيء سواه. فكأن الدعاية ضد العلم لا تزال قائمة ولا تزال متصلة الحلقات منذ كان أولئك الشيوخ هم الطرف الأول لهذه الحلقة، وكان هؤلاء الخطباء والوعاظ هم الطرف الآخر لها.

والذي يجب أن يقال وأن يعلم رداً على هؤلاء وبياناً للحقيقة: أن العلم ليس هو الذي أوقد هذه الحروب، ولا هو الذي أمر بها، ولا هو الذي دعا إلى إلقاء القنابل على المدن وعلى غيرها... ولكن الذي أمر بذلك كله هي الأحقاد والمطامع والأنانية والميول الشريرة الموروثة عن عصور الجهالة... فالعلم لم يأمر معلني الحرب بأن يعلنوها ولم يأمر ملقي القنابل أن يلقوها. وإنما أمرهم أغراضهم ومصالحهم وحفائظهم الذاتية أو ما اعتقدوه مصالح وأغراضاً... ووظيفة العلم والعقل هي إنارة الطريق وفتحه فحسب. وهذا كقوله تعالى" وهديناه النجدين

"أي الطريقين: طريق الخير والشر. وقوله تعالى" فألهمها فجورها وتقواها."وقوله" إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً. "والعلم والعقل لا يفعلان غير ذلك. وطباع الإنسان الأخرى هي التي تعين سلوكه وإتجاهه... وهما لا ذنب لهما، بل إنهما يعينان على تخفيف وتلطيف ما تجره الأحقاد والطباع الظالمة من شقاء وعذاب. وكم للعلم والعقل من وقاية وحماية وخدمات في هذه الحرب وغيرها ولولاهما لكان الشر أعم وأتم. فالعلم خير كله والجهل لا شيء منه خير. ولو كان العلم هو الذي يشب الحروب لما وجدت في عصور الجهل مع أنها كانت في تلك العصور أكثر. فالعلم مثلاً هو الذي صنع الطائرة والقنبلة والمدفع ولكنه ليس هو الذي أشار إستعمالها في الشر والظلم كما أن الله هو الذي خلق الإنسان وخلق عقله وقواه وخلق الوجود كله وخلق المواد الأولية التي تصنع منها الطائرة والقنبلة والمدفع والمتفجرات وسائر المهلكات. ولكنه ليس هو الذي أمر بإستعمال هذه الأشياء في الإهلاك والتدمير والتخريب والإبادة. ومن قال إن العلم يلام على هذا لزمه أن يلوم الذات العلية لإيجادها هذه الأشياء ولإيجادها الإنسان وإعطائه العقل والذكاء الذي يستعمل في الشر!

* * *

الإنسان هي أم سلعة؟

أما قضية تحريم التعليم على المرأة فهي من أغرب القضايا التي تمر بالتاريخ البشري. وهذا التحريم يشبه في معناه ومرماه تحريم النظر عليها بإنتزاع آلته منها. بل لا ريب أن عمى الجهالة أفتك وأشد ضرراً من عمى الحس. ولو أن قائلاً قال: إنه يجب إبطال الحواس كلها وغيرها من أعضاء المرأة، فلا ترى ولا تسمع ولا تشم ولا تذوق ولا تلمس ولا تمشي ولا تفكر ولا تعمل – أي بأن تبطل فيها جميع الأعضاء التي تكون بها الرؤية والسمع والشم والذوق واللمس والمشي والتفكير والعمل والحركة لئلا تستعمل إحدى هذه الحواس والأعمال في فساد أو فجور أو خروج على الآداب المحترمة في عين الرجل: لو أن قائلاً قال هذا لما كان مبعداً في هذا القول ولا ظالماً أكثر من إبعاد وظلم هؤلاء الذين يقولون بتحريم تعليم المرأة وتحريم الكتابة عليها، لأن هذا التعليم في زعمهم قد يكون سبباً في فسادها أو فجورها أو شرودها أو عملها شيئاً يغضب أنانية الرجل الظالم المستبد الأناني.

إن تاريخ قضية المرأة مع الرجل تاريخ طويل مملوء بالظلم والأنانية والجهل. ويمكن أن يقال إجمالاً أن الرجل والمرأة وجدا – أول ما وجدا – بدائيين فطريين ليس بينهما شيء يذكر من تمييز أحدهما على الآخر ومن التفريق بينهما من الناحية الإجتماعية، حالهما تشبه إلى حد كبير حال المخلوقات الأخرى الآن التي هي دون الإنسان مباشرة. وما حكاه القرآن عن آدم وحواء يدل دلالة تكاد تكون صريحة على أنه لم تكن بينهما الفروق الموجودة اليوم وقبل اليوم بين الرجل والمرأة، بل لم تكن بينهما فروق تذكر من ناحية الإتصال بالحياة وناحية إتصال أحدهما بالآخر وإتصالهما بالآخرين. ثم بعد هذا الوجود البدائي راحا يتطوران في الوجود، وراح يتطور نظر أحدهما إلى الآخر، وبدأ التعقيد والتمييز يدخلان على حياتهما ويدخلان عليهما، كما هي العادة والسنة الطبيعية الإلهية في وجود الأشياء بسيطة غير معقدة ولا متمايزة ثم وقوعها تحت سلطان التعقيد والتمييز. ومن المشاهد أن التعقيد والتمييز والتفريق في وجود الأطفال أقل كثيراً منه في وجود الكبار، وإن هذه الأشياء تنمو مع نمو الطفولة ودلوفها إلى الأنوثة والرجولة... ثم أخذت تتعاظم وتتكامل مطامع الرجل وشهواته في المرأة، كما

أخذت مطامعها وشهواتها هي أيضاً تتعاظم وتتكامل فيه. فصار تلهبه عليها وتطلبه لها قوة طاغية، كما كان كذلك تلهبها هي وتطلبها إياه. فأضحى كل منهما طالباً مطلوباً محباً محبوباً. وكان من المظنون أن يتساويا في العرض والطلب وفي القوة والضعف، وأن يكون خضوعه لها كخضوعها هي له. ولكن قوة طبيعية، ووظيفة إلهية، وحالة لا مرد لها تدخل في هذه المسألة فتقضي على المرأة بأن تكون موضع الإخصاب، وأن تكون الحامل المرضع الحاضنة، وأن تكون الحائض المتعبة، والوالدة المجهدة، وأن تكون هذه العمليات كلها شاقة مرهقة قاضية بأن تكون المرأة أقل في ميدان الحياة والعمل من الرجل وأكثر تبعات، لإتصال الأولاد الصغار بها دون الآباء ولحوقهم إياها. فكانت من أجل هذه الأمور وغيرها مضطرة محتاجة للإستعانة بالرجل. فعلم الرجل حاجتها وإضطرارها إليه، فأدخل المسألة في باب المساومة، ووجدها فرصة مواتية دانية لفرض سلطانه وفرض حكمه المطلق. فلم تجد المرأة بدأ من الإستسلام والخضوع لعجزها عن الحرية والإستقلال. وقد وجدت في هذا الإستسلام والخضوع في البدء بعض الراحة والإطمئنان، لأنها بذلك تخلت عن كثير من التبعات وألقت بها على الرجل وأعانها عليها... وبهذا تم تسليم المرأة تسليماً يكاد يكون بلا قيد أو شرط للرجل، وجاءت شروط هذا التسليم بأن يكون الرجل هو الملك المالك وهي العبد المملوك، وأن يكون الآمر الناهي وأن تكون المطيعة المنفذة، وأن يكون إجمالاً بيده مصيرها وتصريفها والحكم عليها كيف شاء وكيف شاءت شهواته وأنانيته ورجولته البدائية غير المهذبة. فراحت هذه الطباع والميول تتحكم وتبتكر وتخترع من الفروض والواجبات على المرأة ما أرهقها وأعجزها وقعد بقواها عن العمل، وما أورثها هذا العجز الذي يشبه أن يكون طبيعياً فيها، وهذا الفرق المبين بينها وبين الرجل في المدارك وفي كل شيء... وقد استطاع الرجل أن يتحكم فيها تحكماً عجيباً وأن يثقلها بل أن يقتلها بأحكامه الجارفة الطاغية. فكان له – على حسب ما شرع لنفسه وما شرع له واضعو القوانين وهم من الرجال – أن يسترقها وأن يجعلها سلعة تباع وتشترى، وتوهب وتستوهب، وأن يستمتع بها كيف أراد، بالزنا القهري، أو المتراضى عليه، بالجعل والأجر أو بالزواج أو بما يسميه زواجاً وبما لا يعد ولا يحصى من الصور التي كلها إرغام.

وكان نظره إليها إجمالاً وحكمه فيها مثل نظره إلى ما يتحصل عليه بالبيع

والشراء ومثل حكمه فيه. وكان له أن يفعل كل ما يرضي غرائزه بدون معارضة وبدون قانون يمانع ويحاكم أو يعاقب. فكان من بعض أحكامه عليها أن تمنع من النظر البتة وأن يوضع على عينيها حجابان كثيفان يحولان بينها وبين الإبصار خيفة أن تنظر إلى رجل آخر وهذا يغضب غيرة مالكها وسيدها. والحجاب الكثيف المتجاوز للحدود الشرعية الموجود اليوم بقية من بقايا ذلك الحجاب. وكان أيضاً من بعض أحكامه أن يضع رجليها في القيود طول حياتها أو زمناً طويلاً من حياتها، وأن يمنعها الخروج مهما كانت الأغراض، وأن يحرم عليها الضوء والشمس والسماء، وألا يبيح لها الكلام ولا الملكية - أي ملكية الأموال والعقارات - وأن يأبى عليها إبداء الرأي والتعليم، وأن يقضي عليها بأنها ليست إنساناً وأنها إن كانت إنساناً فليس لها روح...

وفي القانون الروماني أن للرجل على المرأة السيادة المطلقة حتى إن له بقتلها إذا شاء، وليس لها معه حق التملك. وعند اليونانيين أن عليها حقوقاً وليس لها حقوق. ويرى الرومان واليونان أنها كشيء امتلك مثل جميع الأشياء التي تمتلك بالفتح أو بالشراء أو بالتنازل، فهي عند الرجل - أي زوجها - كفرسه أو كسلاحه، له أن يؤجرها ويقرضها ويبيعها. وكانت عندهم أمة شرعية، لزوجها عليها الحقوق التي له على ماشيته وعبيده. ويرى أفلاطون في كتاب الجمهورية أن الواجب تداول المرأة كسائر الأشياء... ومن الدعاوى التي ادعاها الرجل على المرأة أنها لا تدخل الجنة مهما عملت من الصالحات... إلى أحكام كثيرة طويلة فرضتها قوة الرجل على ضعف المرأة... وقد بقي كثير من هذه الأحكام.

ولقد جاهد الإسلام جهاداً عظيماً في سبيل المرأة لإنقاذها من هذه المظالم وللنجاة بها من هذا الجبروت المقوت: ففرض لها حقوقاً عظيمة، ورفع عنها آصاراً وأغلالاً، وعمل أعمالاً جليلة لإعطائها النور والحياة الصحيحة... وفك عنها تلك القيود وسجل حقوقها الواجبة المشروعة في القرآن، تتلى في الصلوات وفي كل مكان، وأمر بتعليمها وتعلمها ووجه إليها الخطاب والأمر والنهي كما وجه إلى الرجل سواء. ورفع عنها كل إكراه وقهر في كل صلاتها وحياتها - رفع عنها إكراه الأب والأخ والأقارب، كما رفع عنها إكراه الزوج وأقارب الزوج. وقد فرض لها الميراث كما فرض للرجل وأكثر من وصاياه بها ولها. وقد صنع لها وفي سبيلها كل شيء جميل طيب. وكان من النصوص القاضية الفاصلة في هذه

القضية قوله تعالى" ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف. "وليس هنالك إنصاف وإنقاذ يخطر في التصور أفضل وأكبر من هذا الإنصاف وهذا الإنقاذ اللذين أنزلهما الله في كتابه المقدس تخليداً لحقوق المرأة ووضعاً لها في موضعها الطبيعي.

وقد بقي من مظالم الرجل وأنانيته النكراء - في ما بقي - تحريم التعليم على المرأة وزعمه أنه يجب أن تظل محرومة من كل سلاح قد ترفعه في وجهه، ومن كل قوة قد تقاوي قوته. وإنه يعلم أن أعظم سلاح وأقوى قوة هو العلم، فذهب يحرمه عليها ثم ذهب كدأبه يتهم الأديان بهذا التحريم. ولا ريب في أن من أسباب هذا التحريم غيرة الرجل وجهله.

بماذا يعللون تحريم هذا التعليم، وما هي الأسباب التي يدعون أنها هي الموجبة لهذا التحريم؟ يقولون في ذلك: إن المرأة خلقت للبيت لا للوظائف ولا للمتاجر ولا للدواوين وغيرها، وما دامت كذلك فما فائدة التعليم! ويقولون إن المرأة إذا تعلمت طغت أخلاقها وخرجت عن طورها وأضحت مخلوقاً طاغياً باغيا! ويقولون أيضاً إن تعليمها يوجب إختلاطها بالرجال وإتصالها بهم. وهذا حرام وإجرام! ويقولون بعد ذلك: إنها إذا علمت وفهمت كالرجل راحت تنظر إلى الرجال نظرة المساواة، وراحت تكبر في نفسها وتتكبر. وإذا ما نظرت إلى حقيقتها هذه النظرة فلن تذل للرجل ولن تخضع له الخضوع المطلوب المبقي على المودة وعلى الحياة بينهما مستقرة مقبولة... هذا كل ما يذكرون أو كل ما يمكن أن يذكروه في هذه القضية.

وهذه الأمور التي عدوها أسباباً وبراهين مستدلين بها على أن من الخير إبقاء المرأة جاهلة، هي في الحقيقة تدل على عكس ما أرادوا.

أما أن المرأة خلقت للبيت فيقال: إذا صح هذا وصح أنه يجب بقاؤها كذلك بحيث تنقطع صلاتها بالخارج وأعمالها فيه - وليس من الممكن أن يكون صحيحاً - قيل في الجواب: إن هذا مما يوجب أن تكون متعلمة مثقفة لا أمية غبية. وذلك أن وظيفتها إذا كانت في البيت وللبيت فمعنى هذا أنها مسؤولة عن سعادة البيت ومن فيه من الأولاد والزوج وغيرهم، وعن التنظيم والتدبير والتربية والإرشاد والتوجيه والتمريض وعن كل ما يلزم في هذا من بناء أجسام الصغار وبناء أرواحهم، ومن سياسة الكبار وتوفير افراحهم وعن حل جميع

المشكلات والأزمات التي تنعقد بين الصغار والصغار، وبين الكبار والكبار وبين كل أحد... وبالإجمال مسؤولة عن كل ما يتصل بالبيت ومن بالبيت: فمسؤولة عن دراسة أولادها وعن مواظبتهم على الذهاب إلى المدرسة وعنايتهم بدروسهم وعن نجاحهم وسبقهم وإستمرارهم، وعن المحافظة على صحتهم ما داموا أصحاء، وعن معالجتهم وتمريضهم إذا مرضوا، وعن غذائهم وما يصلح من ذلك وما لا يصلح في حالة الصحة والمرض، وعن نومهم - متى وكيف، وعن ملابسهم - ما هي وكيف هي، وعن لعبهم ولهوهم وجدهم ودخولهم وخروجهم، وعن مراقبة نمو أجسامهم ونفوسهم وعن كل شيء له صلة بهذه المسائل... ومسؤولة عن الزوج - عن تخفيف أزماته ومساعدته فيها إذا نزلت وعن توجيهه وتشجيعه على الإقدام وعلى إدراك النجاح، وعن سياسته ورضاه وإبعاد كل ما يمكن أن يؤذي نفسه أو جسمه وما قد يشكو منه من قرب أو من بعد، وعن محادثته بالأحاديث التي تجلب الرضا والغبطة، وتبعد ما يجلب الهم والكآبة، وعما يجب في هذه المحادثة من اللطف ودقة الحس وشفوف النفس، وعن مجانبة كل الألفاظ الجارحة أو التافهة أو المنكرة أو النابية أو التي قد تحدث نوعاً من أنواع الإشمئزاز أو الغضب.

ومسؤولة عن نفسها - وأعظم بهذه من مسألة - كيف تهذب ظاهرها وباطنها، ثم كيف ترى وتسمع وتبدو وتشم، وكيف تظهر لنفسها ولزوجها ولأولادها ولأقاربها وزوارها ولكل أحد، وكيف يكون سلوكها العملي والقولي والفكري أمام أطفالها وأبيهم وأمام كل الناس، وكيف تروض نفسها وتروض أخلاقها وطباعها على كل حسن جميل، وكيف تصلح أفكارها وعقائدها ودينها وتبعد عنها الفساد والخطل والبدع والشناعات وصنوف الترهات والعادات القبيحة، وكيف تستطيع أن تتخلص من التقاليد الباطلة السخيفة، وكيف تجد الشجاعة والحذق والبراعة في هذا التخلص، وكيف تتطور مع ما يجد على مر الزمان من الآراء والعلوم والعادات والأشياء الجميلة الحسنة المفيدة... وكيف وكيف... وكم نقول من كيف وكيف.

إذن هي مسؤولة عن كل ما في البيت وعن كل ما يدخل فيه وما يخرج منه... والأمة كلها لا تخرج في مجموعها عن أن تكون مما يدخل ويخرج من البيت وفي البيت. وأفراد الشعب قاطبة أبناء البيت. فهي مسؤولة عنهم إذن جميعاً: فهي

مسؤولة عن الأمة كلها، وعن إسعادها وتربيتها وتوجيهها وسوقها إلى الخير والكمال، وعن بناء أجسامها وتكوين أرواحها.

وإذا كان هذا كله حقاً - وهو بلا ريب حق - قيل كيف يمكن للمرأة الجاهلة المحرومة من كل تعليم ومن كل تهذيب، بل المحرومة من مبادىء الكتابة والقراءة أن تقوم بكل هذا؟ بل كيف يمكن المرأة المتعلمة نصف تعليم أو بعض تعليم أن تقدر على القيام بهذه الأعمال الجلي؟ بل لو قيل كيف تستطيع المرأة المتعلمة أفضل تعليم وأكمله أن تفي هذه الأغراض حقها، وقيل إن هذا غير مستطاع لكان قولاً حقاً.

أليس معنى هذا أنه يجب أن تكون المرأة عالمة بكل علم إن كان ذلك مستطاعاً أو أن تكون ملمة بمبادىء العلوم كلها إلماماً كافياً، وأن تكون عارفة بأصول التربية، وأصول علم النفس، وأصول علم الإقتصاد والفلسفة والآداب، عارفة بطرق التغذية وأصناف الأغذية وبالصحة والتمريض وبشيء كثير مما يسمى الفنون الجميلة، عارفة بالمحادثة وأصولها، عارفة بكل ما يلزم لصلات الناس بعضهم ببعض.

لو أن قائلاً قال: إن تعليم المرأة أوجب وأفضل من تعليم الرجل من أجل ما ذكرنا ومن أجل ما سواه لما كان قوله باطلاً ولما كان قائلاً غير الحق. ولو أن قائلاً قال: إن الأمة التي لا تتعلم نساؤها لا أمل في نهوضها ووثوبها - أو قال إن الأمة التي لا تتعلم نساؤها لا رجاء في أن يتعلم رجالها تعلماً صحيحاً مجدياً - أو قال إن الأمة التي تتعلم نساؤها - ونقصد بلا شك التعليم الصحيح المثمر - فلا محالة أن تدفع رجالها إلى التعليم وأن تعد شعباً متعلماً - أو قال إن من أظهر الأسباب في إنحطاط المسلمين وتأخرهم عن الآخرين وعجزهم في كل الميادين جهل المرأة - أو قال إن الأمة التي يتعلم نساؤها دون رجالها لأفضل من الأمة التي يتعلم رجالها دون نسائها - أو قال علموا المرأة ثم املأوا أنفسكم بالثقة والأمل ولا تخشوا بعد تعليمها شيئاً - لو أن قائلاً قال هذا كله أو قال بعضه لما قال له العاقلون: أخطأت... فهذا الذي ذكروه إذن هو برهان على وجوب تعليمها لا على وجوب جهلها.

إننا لو جمعنا هؤلاء المصابين بالعاهات الدائمة الذين تغص بهم الطرقات في كل مكان، ثم حاولنا أن نقوم بتحقيق دقيق لتاريخ إصاباتهم وكيف أصيبوا

لعلمنا أنهم أصيبوا كلهم من جراء الإهمال، وأن أسباب الإهمال ترجع كلها إلى جهل الأم لأنها غير متعلمة، فهي لا تعلم عقبى التفريط ولا تعلم كيف تؤدي الأسباب لا محالة إلى نتائجها! بل إنها لا تدري ما الأسباب وما المسببات: فليس المرض عندها هو الذي يحدث الموت أو العاهة، وليس العلاج والوقاية هما اللذان يمنعان ذلك! وهي تعالج مرض العين مثلاً بالتميمة والرقية، كما تعالج جميع الأمراض بالطلاسم والسحريات! بل تعالج الأمراض النفسية أو الفساد الخلقي بهذا. وليس للطب ولا للعلم لديها قيمة. ولو أنها آمنت بعض الإيمان بفائدة بعض هذا وحاولت الأخذ به لما عرفت كيف تفعل.

إن أعظم النفائس البشرية والكنوز الإنسانية - وهي الأطفال وصحتهم - لتوضع بغباء ليس له مثيل وبلاهة ليس لها ند في يد المرأة الجاهلة، فتفسدها وتضيعها وتبددها... إنه ليس في القوانين غلطة أكبر من ترك هؤلاء الأطفال ضحايا جهل هؤلاء الجاهلات بدون أن يوجد فيها ما يحميهم وينقذهم وينقذ صحتهم وحياتهم من هذا القتل والتشويه العلنيين.

من البعيد أو من المستحيل أن يصاب طفل امرأة متعلمة تعليماً كاملاً بإحدى هذه العاهات المنتشرة بين أطفال النساء الأميات... ومن الملاحظات التي تقررها الإحصاءات الصحية الرسمية أن نسبة الوفيات في أطفال الوطنيين أرفع جداً من نسبة الوفيات في أطفال الأجانب. ويجب أن يكون معلوماً أنه لا سبب لهذا سوى تعلم الأجنبيات وجهل الوطنيات المسلمات. وهذا السبب طبعاً لا يعرفه ولا يعترف به الجاهلون ولا الجاهلات. إذ قد يحسبون أن الله يتقصد المسلمين دون غيرهم بقتل أولادهم وتشويههم لأنه يحبهم أو لأنه يريد أن يبتليهم ويمتحنهم أو يعذبهم من أجل أن يجازيهم في الآخرة! كأن الله عندهم لا يحسن إلا إذا عذب وأساء أولاً! ولو أن إنساناً صنع هذا لكان أبخل البخلاء وأسفه السفهاء! تعالى الله عما يقول الجاهلون.

وأما قولهم: إن التعليم يفسد أخلاق المرأة وطباعها ويجعلها طاغية باغية - فهو قول لو وصف بأنه من أفسد الأقوال لكان ذلك أقل ما يستحق! إذ كيف يفسد العلم الأخلاق! وهل يفسدها سوى الجهل والغباء؟ ولو كان من طبيعة العلم الإفساد لكان مفسداً للرجل أيضاً ولما كان مأموراً به في الأديان والآداب والقوانين! ولا يدري كيف يمكن أن يكون النور سبباً في العثار، وأن يكون الظلام

سبباً في النجاة وفي إبصار الطريق وإبصار ما فيه؟

نعم قد يلاحظ على بعض المتعلمات عندنا وعند غيرنا أيضاً شيء من الإعوجاج والكبر والجور عن السبيل؛ ولكن ليس هذا راجعاً ولا ناشئاً من العلم والتعليم، ولكنه راجع وناشىء من البيئة الجاهلة ومن مخلفات الجهل الراسبة في النفوس وفي الأعماق، ومن عدم نضج التعليم ومن أشياء أخرى بلا شك. ولهذا فإننا نرى أن الشعوب المتقدمة في تاريخ تعليم المرأة أصلح نساء وأصلح تعليماً لهن وفيهن. وإذا علمت المرأة وهي من بيئة جاهلة ثم أصاب سلوكها ونفسها وشمائلها شيء من الوضر والضرر لم يكن العلم مسؤولاً وإنما المسؤول ما ذكرنا.

ثم لو كان هذا قاضياً بتحريم التعليم على المرأة لكان أيضاً قاضياً بتحريمه على الرجل فإن الرجال كثيراً ما يلاحظ عليهم بعض هذا الذي يلاحظ على المرأة إذا تعلموا، وقد يلحدون ويكفرون. والعلم بلا شك غير مسؤول لا في هذه ولا في هذه.

أما قولهم إن تعليمها يوجب إختلاطها بالرجال وهو غير جائز، فيقال إن الكلام في مطلق التعليم: أخير هو أم شر لا في طريقته، فهذا موضوع وذاك موضوع آخر، وليسا متلازمين لا واقعاً ولا عقلاً.

ثم يقال يحسب بعض الجاهلين أن مطلق وجود المرأة في المكان الذي فيه الرجل محرم دينياً وعفة. وهذا وهم وجهل. والأديان كلها بخلافه، وحسبنا الإسلام فيصلاً وقاضياً في هذه المسألة: إن الإسلام قد جاء بالإختلاط المحترم العفيف: فالحج فيه هذا الإختلاط، والصلوات فيها هذا الإختلاط، والحرب فيها هذا الإختلاط، والمواعظ فيها هذا الإختلاط، والتعليم فيه هذا الإختلاط. هذه أمور مجمع عليها بين علماء الإسلام لا يختلف نقل التاريخ فيها ولا في شيء منها. وقد كان الرسول عليه السلام يعلم الرجال والنساء جميعاً ويعظهم ويعظهن جميعاً ويجاهد بهم وبهن جميعاً. بل كان يأمر بخروجهن إلى المصلى أيام الأعياد ليصلين مع الرجال في الصحراء. وكانت النساء أحياناً يقفن في دروس الرسول ويسألن ويستفهمن في حضور من الرجال فيرد عليهن الرسول الكريم. وكان يأمر بلالاً وغيره بجمع الصدقات منهن في الإجتماعات التي تقام للمواعظ والتعليم. وهذا كله معروف. وهكذا كان الأمر في عهد الخلفاء

الراشدين. ومن الحوادث المشهورة المنقولة في هذا حادثة المرأة التي قامت تعترض على عمر وهو ينهي عن المغالاة في مهور النساء فقال عمر حينما ردت عليه المرأة واحتجت بالقرآن: كل الناس أعلم منك يا عمر حتى النساء، وهذا كثير جداً.

وفي الأحاديث أن أصحاب الرسول كانوا إذا صلوا معه الجمعة انصرفوا إلى بيت امرأة من الأنصار فأطعمتهم وناموا عندها. وفي حديث صحيح أن رجلاً دعا الرسول الكريم إلى الطعام فاشترط الرسول عليه أن يأخذ عائشة معه، وبعد المراجعة رضي الرجل فخرج الرسول وعائشة يتدافعان. وفي الحديث أيضاً أن الرسول وأبا بكر وعمر خرجوا ذات يوم وهم جياع إلى حائط لأحد الأنصار مستضيفين فلم يجدوه ووجدوا زوجه فقابلتهم وأدخلتهم حتى جاء زوجها. وفي حديث صحيح أيضاً أن أحد الأنصار تزوج فدعا الرسول وأصحابه إلى طعامه فكانت الزوج هي التي تخدم على القوم. وفي الحديث الصحيح أن أسماء امرأة الزبير كانت تجمع النوى من ضواحي المدينة لناضح زوجها، فمر بها الرسول وهو راجع هو وأصحابه من إحدى سفراته فرآها فأناخ لها ناقته ليردفها معه، قالت أسماء فذكرت غيرة الزبير فأبيت. ومن الروايات الصحيحة والحوادث الشهيرة أن النساء كن يتعرضن لرسول الله عليه السلام في حجة الوداع يسألنه عن الحج وأحكامه أمام الناس، وأن امرأة جاءته تسأله وكانت وسيمة جميلة وكان مردفاً معه الفضل بن العباس فأخذ الفضل ينظر إليها فراح الرسول عليه السلام يصرف وجهه ونظره إلى الناحية الأخرى. وفي حديث صحيح أن ضيفاً نزل على عائشة فاحتلم فأصبح يغسل ثوبه فقالت عائشة إنما يجزئك أن تغسل مكانه. ومشهور وخبر صحيح خبر قصة المرأة اليهودية التي دعت الرسول وأصحابه في فتح خيبر فقدمت إليهم طعاماً وضعت فيه سماً. وفي أحاديث كثيرة صحيحة من العسير جمعها أن النبي ومعه أصحابه كانوا يذهبون أحياناً كثيرة إلى النساء المسلمات ويطعمون عندهن ويستريحون. وهذه أشياء تعز على الإحصاء والجمع.

والتاريخ الإسلامي العملي والقولي مجمع على هذا. وفي الحديث الصحيح أيضاً أن امرأة جاءت إلى الرسول وهو في مجلس أصحابه فعرضت عليه نفسها للزواج فنظر إليها طويلاً مصعداً نظره ومصوبه، ثم أخبر أنه لا حاجة به إليها

فقام رجل من الحاضرين وطلب إلى الرسول أن يزوجه إياها فزوجه.

وفي القرآن الكريم الفاصل في كل خلاف: "ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان. قال ما خطبكما! قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء -... إلى قوله - فجاءته إحداهما تمشي على إستيحاء قالت إن أبي يدعوك"... الآية.

وفي سورة أخرى: "يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك"... الآية.

فهاتان بنتا شعيب النبي كانتا ترعيان غنمهما في الخلاء وتسقيانها وتروحان بها وتجيئان صباحاً ومساء بأمر والدهما وقد رآهما موسى النبي كذلك فلم ينكر عليهما بل كلمهما وسألهما وسقا لهما ووقف معهما وواقفهما... ثم ذهبتا إلى أبيهما النبي وأنبأتاه بذلك فلم ينكر عليهما بل أمر إحداهما بالذهاب إليه ودعوته إلى أبيهما في منزله ومكانه، فجاءته ماشية مستحيية وأنبأته أن أباها يدعوه فذهب معها وفي صحبتها ودلالتها... ولو كان في شيء من هذا إثم أو ريبة لما رضيه هذان النبيان. وإحدى هاتين اللتين كانتا ترعيان وتسقيان والتي ذهبت لدعوة ذلك الضيف الغريب وإحضاره وهدايته إلى البيت كانت بنت نبي وزوجة نبي: بنت شعيب وزوج موسى.

وقد أمر الكتاب الكريم بالإستشهاد بالمرأة وبتأديتها شهادتها، وأمر لها بالحقوق التي للرجل. وهذا لا يكون ممكناً إذا كان من الحرام الممنوع أن تجتمع هي والرجال في مكان واحد كما يحسب بعض المتشددين.

لا شيء يفيد مثل الفهم للأشياء، ولا شيء يضر مثل جهلها: لهذا أراني مضطراً إلى أن أحاول محاولة صادقة فهم هذي المسألة لنفسي وللقراء. ولست أريد سوى الحق أصبت أم أخطأت. وما من شيء يقف في طريق الشعوب والأفراد مثل الجمود والتعصب للموروث المألوف بلا برهان سوى القدم والإلف... وكم من التجار والصناع والعلماء والموظفين وغيرهم من صنوف الأحياء العاملين ظلوا حياتهم كلها حلفاء الضراء لأنهم عجزوا عن أن يغيروا في تجارتهم أو صناعتهم أو وظيفتهم أو طريقتهم أو أسلوبهم، لأنهم في الحقيقة عاجزون عن الخروج عما ألفوا وورثوا. وإن الناس على درجات متفاوتة جداً في هذه المسألة، مسألة القدرة على مفارقة المألوف، بل القدرة على إمتحانه لينبذ إن ثبت أنه غير صالح أو أن غيره أصلح منه. فبعضهم يضع قدميه في أسفل السلم

وبعضهم في أعلى السلم وبعضهم يقف بعيداً جداً... وليس الأفراد وحدهم هم الذين يتفاوتون في هذا، بل الشعوب كذلك تتفاوت تفاوتاً بعيداً. وكلما عظم حظ الشعب من النضج العقلي ومن استواء الآلة الفكرية عظمت قدرته على التحرر من أغلال الماضي الذي يظهر تحت الإختبار فساده أو نقصه، وعظمت قدرته على إختباره ووضعه تحت التجربة الحرة المطلقة... ويمكن أن يقال: بل كلما تعلم الشعب الجراءة على هذا التحرر وهذا الإختبار وهذا النبذ عظم نصيبه من الحضارة والرقي والحياة، فإن الشعوب كلها إنما تأخذ من الحضارة ومن الحياة والعلم بقدر ما لديها من إستعداد لهذه الصفات، صفات المرونة والإمتحان والإنتقال والتحرر والأمم التي تصاب بالجمود والركود والإستمساك بالمعروف المألوف يتضاءل حظها جداً من الحياة ومن القوة بل ومن المعرفة، ويذهب العالم كله من حولها يسير ويتحرك ويسعى وهي متجمدة متبلدة في مكانها عاجزة عن مسابقته ومتابعته، وتبقى أمام كل ما يجد ويحدث من الآراء والعلوم والصناعات وأساليب الحياة المختلفة داخل سور قوي من ذاتها وجمودها لا يمكن إقتحامه ولا إجتيازه، وفي حماية قوية شديدة من الثبات والبقاء، لاجئة إزاء كل مفاجيء جديد رائع إلى نصوصها المقدسة وإلى أديانها الكثيرة، متهمة لها بأنها تأبى هذا الجديد وتنكره. ويقوم من يعدون منها مصلحين متنورين يديرون المعارك الجدلية، منتزعين أسلحتهم من تلك النصوص وهاتيك الأديان ليقنعوا الآخرين من أممهم بجواز ذلك! ولكن أنى لهم هذا!

ولقد جهلت وهانت تلك الأمة التي تحتاج إزاء الحقائق السافرة الملموسة إلى براهين دينية تقنعها بفائدتها أو بجوازها وجواز الأخذ بها. وإذا ما رأيت أمة تعثير غبار الجدل الديني أمام ما يجد من مبتكرات العقل الإنساني – مجوزة أو مانعة، محللة أو محرمة – فاعلم أنها أمة فاشلة مريضة بعقلها وتفكيرها ودينها... والجمود شأن من شؤون الجماهير الجاهلة وشؤون النساء الجاهلات، وشؤون الأمم الهمجية. فكل هؤلاء حراص على ما ألفوا وورثوا، مقاومون لكل من يريدون دفعهم إلى الأمام والخروج بهم نحو النور. وأقدر الناس على التحرر والسير في السبيل هم أولئك الأقوام الممتازون الذين يهبون الشعوب ما هي فيه من أديان ومعارف وصناعات ومخترعات ومكتشفات...

ولولا هؤلاء لما استطاعت الإنسانية أن تنعم بشيء مما تنعم به اليوم من وجوه هذي الحياة المشرقة الواضحة، ولما استطاعت أن تدرج عن وجودها الأول الفطري البليد... فلكل هؤلاء الذين أعطونا هذه الحياة وعودونا على التحرر والخطو إلى الأمام شكر الإنسانية أجمع.

والقدرة على هذا التحرر هي برهان السمو الفكري، فإن من استطاع أن يترك ما ورث وألف هو وآباؤه منذ آلاف السنين أو مئاتها إنما يصنع ذلك لأن عقله قد أصبح قادراً على التمييز بين الأشياء مألوفها وما لم يؤلف منها، بل وما لم يوجد - وأصبح قادراً على الإمتحان والسبر الذي هو وظيفة العقل الكبرى... والذين يعجزون عن ذلك هم في الواقع لا يزالون عاجزين عن الإرتفاع على العجماوات في فهمها للأمور ودورانها حولها، وتناولها لها. فإن العجماوات إنما تهتدي وتتصرف بحواسها المجردة دون أن تشعر أو تفكر في أن ما لم تحسه وتعتده خير وأفضل مما رأت وأحست وألفت، بل دون أن تدري أن هنالك شيئاً غيره. فهي قانعة راضية بما ألفت واعتادت لا تعرف سواه... وكذلك هذه المخلوقات البشرية التي تأبى مفارقة إلفها وإعتيادها إنما تصر هذا الإصرار لأنها إنما تعيش أيضاً بحواسها المجردة، فما رأت وأحست واعتادت فهو الحق الذي لا حق وراءه، وما لم تر وتحس وتألف فهو الباطل الذي لا خلاف في بطلانه! فما بها إذن حاجة إلى تجربة أو موازنة أو تفكير أو حتى إختبار. فهي ثابتة قائمة مناهضة لكل من يريد لها الخير الذي لم تره. وهؤلاء هم الذين يقاومون الأديان والعلوم والإصلاح وكل جديد مفيد: فهم الذين يصرون على الشرك والوثنية لأنهما مألوفان، ويرفضون التوحيد لأنه جديد، وهم الذين يصرون على الجهل لأنه مألوف ويرفضون العلم لأنه جديد. ويصرون على الدمامة والقبح لأنهما مألوفان معروفان ويرفضون الجمال لأنه جديد، وعلى الظلم لأنه المألوف ويرفضون العدل لأنه جديد... وهكذا هم في كل جديد وقديم. وإن الحرب لم تزل مستعرة بين قديم هؤلاء وجديد المصلحين منذ كان الإنسان، وأعظم الناس في هذا هم الأنبياء ثم الأدنى فالأدنى على درجات متباعدة.

* * *

بعد كل هذا الذي تقدم نقول: إننا لا نرى مانعاً من أن نحكي آراء وحججاً يذكرها هؤلاء الذين صنعوا هذه الحضارة في موضوع المرأة وموضوع

الإختلاط والحجاب والسفور. ولسنا في حكايتنا لهذا ملتزمين القول والإيمان بكل ما فيه. وإنما نحن حاكون وعارضون لا غير. وحاكي الضلال ليس بضال إن كان في شيء مما نحكي ضلال. فليرح جماعة الأتقياء وأدعياء الأتقياء أنفسهم، وليمسكوا بعنان ثورتهم وغضبهم وورعهم، فما نحن غير ناقلين.

قال هؤلاء: إن أمامنا في هذه المسألة إحتمالين أو طريقين: أحدهما الزعم أنه يجب أن يحال بين الرجل والمرأة حيلولة شاملة بحيث لا يرى أحدهما الآخر أو يخالطه أو يشاركه في عمل من أعمال الحياة العامة. فالمرأة للبيت لا تغادره إلا إلى قبرها، والرجل للأعمال كلها خارج البيت، لا عدوان لأحدهما على الآخر. هذا إحتمال أو طريق.

والإحتمال الآخر أن يقال: كلا، فإن النساء شقائق الرجال، وإنهما سواء في هذه الحياة وفي القدرة عليها والحاجة إليها وفي أعمالها ومطالبها. وإن ما فيهما معاً من أعضاء وغرائز وميول متشابهة متساوية، ومن عقل وفكر وروح وحياة وتكوين عام لينادي بسقوط هذه الفروق المدعاة بينهما، وبألا يقضي على أحدهما بضد ما قضى به على الآخر، فإن ذلك تفريق بين متساويين متماثلين وهذا باطل في قانون العقل وقانون العدالة العامة بل وفي كل القوانين حتى في القوانين الطبيعية العمياء. ولو كان لأحد الجنسين عمل خاص به لا يصح أن يقوم به الجنس الآخر لفرق بينهما في الطبيعة العامة وفي الوظائف العضوية والروحية والفكرية والعاطفية، ولأعطى أحدهما من الأعضاء والغرائز والطباع والقوى الذهنية ما يناسب عمله فقط، ولحرم مما لا يناسبه، ولكن كلا، فإن هذا الفرق – أو التفريق – لم يوجد: لم يوجده الله تعالت قدرته. والتسوية بين الآلات مع إختلاف وتفاوت القصد بها والغرض والغاية منها لا يقع إلا من الجاهلين السفهاء. وما من شيء يمكن أن يقال إن الرجل يصلح له بطبعه إلا والمرأة تصلح له أيضاً بطبعها، وما من شيء يمكن أن تعجز عنه المرأة بطبعها إلا ويمكن أن يعجز عنه الرجل كذلك. فالذين يقولون بعد هذا كله: إنه محرم على المرأة ما أحل للرجل – بل ما أوجب عليه – يتهمون الله بالعبث والفوضى العملية والتشريعية.

إن للإحتمال الأول القائل: بدفن المرأة في منزلها حية لأضراراً كثيرة إجتماعية ونفسية وعقلية وصحية وخلقية أيضاً.

إنه لا بد أن تتزوج المرأة ويتزوج الرجل – أي لا بد أن يجتمعا بعد هذا

الإفتراق ويقترنا بعد هذا الإبتعاد المفروض، ولا بد أن تقوم بينهما المعاملة الفكرية والروحية واليدوية والقولية، ولا بد أن يكون أحدهما ملائماً للآخر عدلاً له منطبعاً به موافقاً مواتياً وإلا صارت الحياة بينهما مستحيلة أو بغيضة لا تحتمل. وإذا كانت هذه الأمور لا خلاف فيها بين الناس ولا خلاف في إشتراطها للحياة الزوجية الصحيحة فكيف يكون من الممكن الحصول عليها إذا كان أحدهما يجهل الآخر ويجهل طباعه الخاصة والعامة، ويجهل ميوله ويجهله كله ٨جهلاً عاماً، لأنه لم يتصل به ولم يره ولم يعرفه! !إنه حينئذ يدخل عالماً لا يدري منه شيئاً، فسيكون الإصطدام به هائلاً مستمراً، وسيكون التوافق بينهما مستحيلاً بعيداً، وستبني الحياة على أساس الجهل المطلق بها، وسيتهدم كل شيء من أركان هذي الحياة أو تظل خطراً دائماً قائماً فوق رأس الزوجين. لقد أكثر الفقهاء من الكلام على بيع المجهول - أو بيع الضرر - وذكروا أن ذلك مما يحرمه الدين، وأوردوا دلائلهم ونصوصهم. فالدين يحرم أن يشتري المرء شيئاً مجهولاً ببضعة قروش لأن مثل هذا الشراء مظنة للغش والخداع وعدم الرضا حين الإستلام والرؤية، ويوجب أن يكون المشتري معلوماً معروفاً، ثم يحل هذا الدين نفسه - على رأي قوم - أو على الأصح يحلون هم، بل يوجبون - أن يقدم المرء على ربط حياته ومصيره ومصير أولاده وكل ما يملك بامرأة يجعلها سيدة بيته المطلقة وسيدة ما فيه ومن فيه كل حياته أحياناً دون أن يدري من أمرها شيئاً سوى أنها امرأة؟؟ فأعجب لها من قضية لا شهود لها غير الجمود والجهل والتعصب الأعمى.

للمرأة حقيقة باطلة في ذهن الرجل وتصوره، وكذلك للرجل في ذهن المرأة وتصورها: فالمرأة مخالفة للرجل في جميع أخلاقه وطباعه وعاداته وميوله - هكذا يقول الرجل، لأنه هكذا يفهم: فهي غادرة ماكرة جاهلة جهلاً طبيعياً، شهوانية، لا ضمير ولا أمانة ولا عقل ولا فضيلة واحدة لديها، لا خلقية ولا روحية ولا عقلية... أما الرجل فهو على نقيض لها في هذه الأمور كلها. وكل ما يعرفه الرجل عنها أنها معين لا ينضب من الشهوة الجنسية الطاغية، وهي لا تصلح لشيء سواها ولا تتصور غيرها، ولا تطلب إلا إياها. وإذا أريد منها شيء آخر فذلك هو العبث والجهل... هذه هي صورة المرأة في ذهن الرجل وخياله. وهذا هو في رأيه وقوله فيها - وهكذا تضع المرأة أيضاً صورة الرجل وتطبعها

في ذهنها وخيالها: فهو مخلوق خصه الله بجناحين للطيران بهما من فنن إلى فنن ومن شجرة إلى أخرى لأكل ثمرها ثم تركها بل ثم إجتثائها واجتثاث أصولها: فهو لا يلتمس لدى المرأة سوى الشهوة البهيمية، وهو يتنقل ويطير وراء هذه الشهوة أينما تنقلت وطارت، وهو غادر لا يرعى عهداً ولا ذمة ولا ماضياً ولا إخلاصاً ولا خلقاً... فلتعامله المرأة على مقتضى هذه الحقيقة التي لونتها له وطبعتها في نفسها...

وها هنا - ومن أجل هذا كله - توجد خصومة حادة قديمة مستمرة بين الجنسين لا تهدأ ولا تخف: فكل منهما يريد إفتراس الآخر والإيقاع به قبل أن يصنع به خصمه ذلك، وكل منهما يواجه الآخر على هذا النحو من الخوف والحذر والريبة والتربص، وكل منهما يعمل على تعجيز الآخر وقهره وإضعافه... فما هي أسباب هذا؟ إنها هي بلا ريب جهل أحدهما بصاحبه. ولكن ما هي أسباب هذا الجهل؟ إن أسبابه - أو من أعظم أسبابه - هو ما يوجد بينهما من تباعد وعدم إختلاط حقيقي صريح من أجل الظن أن الإختلاط والتقارب يوقعان في الفساد والمنكر، إذ كل منهما يرى - على حسب ما لقن وورث - أنه يجب عليه أن ينأى عن الآخر وأن يخاف الإتصال به والقرب منه في الحياة العامة وفي كل مكان، وإذا حصل شيء من الإتصال واللقاء فإن التكلف والتصنع والتخفي والإستحياء المقصود يفسده ولا يبقى له فائدة ما.

إن الذين يعرفون المرأة معرفة صحيحة تامة ليتعجبون ويندهشون إذا قرأوا ما خطته أقلام الكاتبين من هذا الصنف عن خلائق المرأة وما تشتمل عليه من ميول وغرائز ليست إنسانية بالمرة، وإنهم ليعلمون أن تلك الأقلام إنما كانت تستمد مدادها من الجهل كل تلك العصور، وأن مآب هذه الأخطاء الشنعاء إلى أن هؤلاء الكاتبين والمؤلفين والشاعرين وغيرهم من الواصفين كانوا يصفون مخلوقاً لم يعرفوه لأنهم لم يروه ولم يخالطوه.

وقالوا: إن لوجود المرأة بين الرجال في حياتهم العامة في المصانع والمتاجر والمعاهد والنوادي والمستشفيات وسواها لفعلاً سحرياً: فهي تشيع النشاط الروحي والعقلي والقلبي أينما وجدت، وهي تلهب أجهزة الحياة وتبعث فيها الحرارة والحركة والقوة وتزيل عنها السأم والكسل والركود والجمود... والإنسانية - أفراداً وجماعات - إنما ترقى وتأخذ من الحياة والوجود والعلوم

كلها بقدر ما لديها من نشاط في الروح والعقل والقلب والحياة وبقدر ما تطرد عنها السأم والكآبة والركود والتبلد والميل العام إلى النوم في هذي القوى الأبدية. ولن تحيا أمة حياة صحيحة إلا إذ كانت مستيقظة نشيطة متوثبة تفيض سروراً وحركة وحرارة وحماسة في جميع قواها البدنية والروحية والعقلية... إن الحياة لتبدو كئيبة شوهاء، أحياناً كثيرة في أعين الكثيرين، فلا بد لها مما يجعلها ومما يجعلها حلوة مستساغة، ولا شيء في هذا الوجود يستطيع أن يعطيها ذلك مثل المرأة. إن الحياة لا تهب إلا بقدر ما توهب من الإخلاص، ولكن ذلك لن يكون إلا بقدر الحب لها، فيجب أن يكون حبها عند طالبيها ومريديها حباً صادقاً حاراً. والمرأة هي الكفيلة بأن تصير حبها هكذا... هذي حقائق لا ريب فيها كما أنه لا ريب في أن وجود المرأة بين الرجال يؤدي إلى هذا النشاط العام في هذه القوى العامة.

قالوا: وقد ثبت بالتجربة والإستقراء أن المصانع التي تؤلف بين الجنسين يكون إنتاجها أعظم من إنتاج المصانع التي يكون عمالها من أحد الجنسين فقط.

قالوا: وإن المدارس التي تجمع بين الطلبة والطالبات يجيء مستوى النشاط الذهني فيها أسمى بكثير من المستوى الآخر الذي يمثله أحد الفريقين فقط...

قالوا: وقد قامت البينة على أن وجود المرأة في المستشفيات بين المرضى والممرضين والأطباء أيضاً قوة لا تنكر، وأن الحياة في هذه المستشفيات تنشط جداً في الجميع: في الطبيب والمريض والممرض وفي كل شيء حتى الصحة والعافية تنشطان فيها وتسيران سيراً فيه قوة وفيه سرعة. وإنه من المستحيل أن تحصل هذه النتيجة في المستشفى الذي يضم الرجال فقط أو يضم النساء فحسب.

قالوا: وأما في ميادين القتال والبطولة فالأمر فيها لا يحتاج إلى تدليل: فهي تعطي القاتلين والزاحفين إلى الموت ما لا يوصف من الفتوة والصبر والإحتمال، بل والسرور في أحفل الساعات بالأحزان والأوجال، وهي تهبهم الإبتسام والإقدام، بدل العبوس والذعر والإحجام، وتخلق منهم رجالاً يسمون على المخاطر والمخاوف. ومما لا يحدث أن يقاتل الرجال المفردون المحرومون من هذه القوة وأن يصبروا في ميادينهم ويكونوا كما يجب.

قالوا: وإن الفروسية القديمة إنما وجدت وظهرت بدءاً بفعل المرأة وتأثيرها،

وإن الفارس إنما كان فارساً لأن المرأة كانت تراه وكان هو يريد أن يريها من صنيعه ومن نفسه ما يرضيها ويعجبها ويملأ جوانحها إحتراماً وإكباراً وحباً له وثقة به. ولهذا فإن الأمم القديمة كانت تخرج النساء في ميادين حروبها لتلهب الفرسان وتدفعهم إلى الوغي بقلوب لا تهاب. والعرب أنفسهم كانوا في جاهليتهم وفي إسلامهم أيضاً يرون هذا الرأي ويعرفون هذه الحقيقة ويحضرون النساء الشريفات وغير الشريفات مواطن قتالهم، وكثيراً ما كن ينشدن الأناشيد في تلك الأوقات يحمسن القاتلين ويبعثن في نفوسهم الجراءة والبسالة. هذا حسان بن ثابت شاعر الرسول الكريم يقول في إحدى قصائده:

تظل جيادنا متمطرات
تلطمهن بالخمر النساء

هذا معروف. وهكذا المرأة في كل شيء وفي كل فن من فنون الحياة.

قالوا: ولم يحدث أن عالماً أو أديباً أو شاعراً أو غير هؤلاء استطاع أن يكون شيئاً عظيماً إلا والمرأة من ورائه تدفعه وتلهمه وتلهبه وتعطي حياته الوقود والحرارة. ولهذا فإنه لم يقع في التاريخ قط أن أمة أبدعت في الحياة ونساؤها مقبورات في المنازل، مبعدات عن المجامع وعن الشؤون العامة: فأوروبا وأمريكا واليابان اليوم لم يبلغوا هذا الشأو البعيد في الصناعة والعلم وفي كل شيء إلا ونساؤهم من ورائهم وأمامهم وإلى جوارهم. وكذلك كان العرب والإغريق والرومان وكل الناس. فالمرأة هي القوة المحركة لقوى الحياة وقوى النبوغ في الرجل.

قالوا: وقد دلت التجارب أن تباعد الجنسين أحدهما عن الآخر يقضي بشدة التطلب: تطلب كل منهما لصاحبه وتلهفه عليه، وأننا كلما غالينا في الحجاب وفي التفرقة ازدادا هتكاً للحجاب على المخبوء المكنون، وتفكيراً فيه وفي الطريق الموصلة إليه، وإبداعاً وإبتداعاً في الموصلات المقربات، وأننا كلما تناسينا هذه الفروق بينهما وجمعناهما وأدنينا أحدهما من الآخر، فتعارفا وتلاقيا خفت شدة الطلب وهبطت حرارة الغريزة الدافعة الدافقة، وأصبح الإجتماع والإفتراق عاديين مألوفين، لا يحدثان عدواناً ولا مبارزة بين الغرائز المكبوتة المتأججة المتوهجة، ولا إحتراقاً ذاتياً داخلياً خطيراً - قالوا: وقد علم أن إعتياد الشيء يصيره إلفاً لا يجلب ضرراً ولا خطراً - وعلم أن الإنسان يكون أحرص

ما يكون على الممنوع المحرم البعيد، وأزهد ما يكون في المبذول المباح القريب، وأن هذه الغريزة الطاغية إنما يتجلى جبروتها المروع حين يكون ما تطلب مجهولاً محاطاً بالأسرار والألغاز، وأن ذلك كلما عرف وفهم تضاءل سلطانه وهان شأنه. والإنسانية محتاجة حاجة ظاهرة لأن تعمل - ما وسع العمل - على التخفيف من وطأة هذه الغريزة الشيطانية والحد من فعلها، لأن أكثر قوى الإنسانية ومواهبها ضائعة، منفقة فيها وفي ما يتصل بها وفي إضرام نيرانها. ولا شيء يستطيع القيام بهذا الغرض الجليل مثل ما ذكرنا - وهو محاولة إزالة الفروق بين الرجل والمرأة بمحاولة الجمع بينهما ما أستطيع إلى ذلك السبيل.

لقد كتب شيخ من شيوخ الإسلام المعروفين في كتاب له معروف منذ ثمانمائة سنة تقريباً يقول: لو كان لرجل من أهل بغداد نساء بغداد كلهن ثم جاءت امرأة من خراسان محجبة لا شتاق إليها ولظن أن تحت حجابها شيئاً ليس عند واحدة من النساء اللواتي في بيته وفي ملكه. وهذا صحيح وسببه الحجاب والبعد والجهل بهذه المطلوبة المشتهاة الخراسانية... إن الرجل ليترك زوجه البارعة الحسن ويذهب يتلمس من هن دونها في كل شيء من النساء القصيات الممنوعات المحرمات، والسبب هو ما ذكر أيضاً. وتجرد أحد الجنسين من ملابسه أمام الآخر مألوف في اليابان، وقد أضعف هذا جداً من قوى شيطان الشهوة المتبادلة.

قالوا: وقد علم علماً ليس بالظن أن الفساد الجنسي في البلاد الآخذة بالحجاب وبالتفرقة بين الجنسين أعظم جداً من الفساد في البلاد الأخرى الآخذة بالسفور وبالجمع بينهما، وعلم أن الحجاب والتفريق لم يستطيعا أن يقوما في سبيل هذه الغريزة العاتية المجتاحة المحتالة - وعلم أيضاً علماً تقرره المباحث النفسية الدقيقة أنه يكثر في الشعوب المحتجبة المفرقة بين رجالها ونسائها الشذوذ الجنسي، أو عشق الجنس لجنسه، ويقل جداً في الشعوب الأخرى الآخذة بغير ذلك. والإحصاءات كلها تثبت هذا. وعشق الجنس من أشنع ما تصاب به الأمم.

قالوا: وعلم أيضاً أن الحجاب والحرمان والحجر الخلقي يصيب الجنسين معاً بالعقد النفسية وبالإضطرابات العصبية التي يعز شفاؤها. وبدعة الزار إنما وجدت عند المحجبات القصيات المحرومات من غشيان المجتمعات، وهي لا

تعرف عند الأمم الأخرى ولا عند النساء البارزات المشاركات في إيجاد الحياة. ولا ريب في أن كثيراً من هذه الحالات النفسية التي يبتلي بها الكثيرون والكثيرات إنما مردها إلى هذا الحرمان الشنيع وإلى هذا الحجر الخلقي القاسي. وعلماء النفس والأطباء يعرفون اليوم ذلك جيداً.

قالوا: ولا معنى للريب في أن الإختلاط يهذب من أخلاق الفريقين ويرقق من شمائلهما ويسمو بهما مادياً ومعنوياً، ويحمل كلاً منهما على أن يظهر وأن يعتاد الظهور في أحسن الحالات وأجملها، وأن يشذب من عيوبه ويخفيها أو يطرحها وأن يروض نفسه على الأخذ بالكمال في الظاهر والباطن، في مخبره ومظهره. ولا شيء في قدرته حمل كل منهما بقوة على التجمل والتكمل مثل وضع أحدهما أمام الآخر وجهاً لوجه ومراقبة كل منهما لصاحبه. والجمال والكمال إنما يبلغان بتطلبهما، أي بالتجمل والتكمل.

قالوا: وإن من أعظم المسائل التي تجب عناية التربية بها مسألة إرتباك أحد الجنسين إزاء الآخر وإستحيائه منه وعجزه عن مواجهته مواجهة سليمة قوية ثابتة. فإن الإرتباك أو الحياء أو الإضطراب الذي يسيطر على موقف كل منهما من الآخر وعلى شعوره عقدة من أعظم العقد التي تؤدي إلى الخيبة والإخفاق في الحياة وعند مقابلة الأمور التي لا مفر من مقابلتها. ولا ريب في أن العلاج الصحيح الوحيد لرفع هذا الوهم القائم بينهما المتحكم في علاقاتهما هو التقريب بينهما وتناسي الفروق التي صنعها الوهم وغالى فيها الخيال المحروم المجدب.

قالوا: والجنسان إنما تصلحهما المعرفة، وتفسدهما الجهالة. ولا معرفة حقيقية مع الإنزواء والإبتعاد. فالمرأة التي تحرم من المجامع ومن الإتصال بالعالم الخارجي وبأهله من الرجال والنساء أيضاً كيف يمكن أن تكون لها معرفة نافعة؟ قد تكون أضعف وسيلة لهذه المعرفة هي القراءة المجردة والإكتفاء بالكتاب وبالدرس والمدرسة، وقد يكون أعظم وسيلة لذلك هو الإتصال بالعالم ولقاءه والأخذ عنه بدون وسيط. وإننا إذا فرضنا إنساناً ما قد أكب على كتبه في منزله وابتعد عن الحياة الخارجة وعن أهل هذي الحياة فلا محالة من أن نفرضه جاهلاً بأكثر ما تجب معرفته، عاجزاً عن مسايرة هذه الحياة ومعايشة أهلها متى خرج إليها وقضى عليه بهذه المسايرة وتلك المعايشة. فالجنس الذي يقول قوم إنه يجب أن يظل حياته كلها قصياً محرمة عليه المجامع والحياة الخارجة

الدائرة حول منزله أنى يمكن أن يكون له علم تجريبي صادق وعقل واسع ونافع ودراية هادية حقيقية؟

قالوا: وإن من شر ما تصنع الأمة بنفسها أن تتخلى عن أحد نصفيها وعن مواهبه وأن تفرض عليه البيت ما بقي حياً ليظل حليف الجهل والغباء والتصورات الرديئة الضارة والأوهام المختلفة التي يصنعها الفراغ المملول والإنطواء على النفس، والتي يخلقها الوقت المجدب المحروم من الحركتين: الفكرية والبدنية... إن الأمة لتضيق ذرعاً وفكراً ببضعة آلاف من أبنائها يعجزون عن أن يجدوا لهم في هذه الحياة عملاً، وترى أن ذلك من الأمور المخيفة الخليقة بالعناية والعلاج والإهتمام الصادق، فكيف بأمة - بل بأمم - تفرض هذا العجز على مئات الملايين من بناتها، زاعمة أنه لن تستقيم أخلاقها ولا حياتها ولن يقوم مجدها ودينها إلا بذلك؟

قالوا: ومن غير المستطاع أن توجد حياة صحيحة أو مجد أو علم أو ذكاء خارق عبقري إلا لدى من صحت أبدانهم ووهبت القوة والنماء الحقيقي، فهذه الصحة والقوة هما واهبتا هذه الأمور، بل إنهما أيضاً واهبتا صحة الأرواح... ولكن هذه الصحة لن يظفر بها من لزم البيت، ولم ينعم بالضياء والهواء، ولم يعمل أعضاءه إعمالاً صحيحاً منظماً يمنحها الإتساق والإنسجام والمرونة والقوة والحياة المتجددة... فالمرأة اللازمة للبيت لن تمنح هذه الصحة، ولن تمنح الجسم السليم القوي الحامل المثمر الأولاد الأقوياء الأذكياء، ولن توهب البدن الجميل الرائع، بل لا بد أن تكون مريضة عاجزة واهنة شوهاء المنظر والتركيب، ولا بد أن يجيء أولادها وأفكارها كذلك مرضى عاجزين مشوهين، فإن المريض العاجز الضعيف لا يعطي إلا مريضاً عاجزاً ضعيفاً مثله، ولا رجاء في مثل هذا الشعب: لا رجاء أن يكون شعباً عظيماً في ناحية من نواحي العظمة. فسلامة الأبدان وقوتها هي الشرط الأول لعظمة الأمم وإرتفاع مجدها. وقد لوحظ - بل ثبت ثبوتاً قاطعاً - أن النساء اللواتي استطعن الإفلات من هذا السجن القديم المخيف وانغمسن في الضياء والهواء - وأعطين أجسامهن الحركة والنشاط اللازم - لوحظ أن هؤلاء النساء قد جمل فيهم كل شيء: أجسامهن وأفكارهن وعقولهن وبل وأبناؤهن.

قالوا: ولا ندري ما هي الجريمة التي أتتها النساء البائسات حتى عوقبن من

أجلها بالسجن المؤبد: والسجون إنما فتحت وبنيت للمجرمين الذين يفعلون ما تحرم القوانين والشرائع. فإبداع النساء هذه السجون، ومعاقبتهن هذه العقوبة النكراء يجب أن يكون لها مادة قانونية أو وجه من الوجوه، وإلا فإنه يحسن – بل يلزم – أن تقام دعوى عامة من جانب النساء ضد الرجال الذين فرضوا عليها هذا العذاب والعقاب بدون ذنب جنته – كما لا ندري ما الذي أباح للرجال ما حرم على النساء: ما الذي أباح لهم الخروج والتصرف في الحياة والعمل تحت الشمس والهواء كما يشاؤون، وأباح لهم أن يعطوا أجسامهم ما تطلب وتشتهي من حرية وتنقل ودخول وخروج، وذهاب ومجيء: ما الذي أعطاهم حرية العمل المطلقة في البيت وخارج البيت، ثم حرم ذلك كله على المرأة وهي محتاجة إليه، مستفيدة منه، مستعدة له إحتياج الرجل وإستفادته وإستعداده؟ إن كل ما يمكن أن يذكر للإحتجاج به على وجه حرمان المرأة من هذا يمكن أن يذكر للإحتجاج به أيضاً على حرمان الرجل، وكل ما يذكر للتدليل به على جوازه للرجل يمكن أن يذكر للتدليل به على جوازه للمرأة بلا فرق. ومن المسلم به أن الخطر الذي يخشى من شرود المرأة وخروجها خطر مشترك لا يمكن أن يتصور ولا أن يتحقق إلا من الجانبين معاً: فلولا المرأة لما فسد الرجل ولولا الرجل لما فسدت المرأة... فإذا قيل إنه قد حرم الخروج على النساء والأختلاط بالرجال في مجرى الحياة خيفة أن يتصل بهن الرجال إتصالاً غير شريف، وخيفة أن يغرينهم ويفتنهم قيل: إن العكس صحيح وممكن أيضاً: أي بأن يحرم خروج الرجال من أجل هذا الإتصال وهذا الإفتتان. وكلاهما يصلح للداخل كما يصلح للخارج فما الفرق؟ يقول قوم: إن الرجل أقدر من المرأة على العمل والتفكير بدليل أن النساء لم يستطعن أن يساوين الرجال فيهما – أي في العمل والتفكير – في البلاد التي أطلقت لهن الحرية بأوسع معانيها... غير أنه من الممكن أن يقال: إن هذا غير صحيح: أما عجزهن عن هذي المساواة فهو راجع إلى عدة أمور: منها أنهن قريبات عهد بعصور الاستعباد والاذلال، فلا تزال سجون الماضي ذات آثار واضحة في مواهبهن وجميع قواهن، ولا يزلن حتى اليوم عاجزات عن التحرر من بقايا تلك العصور، وقد يحتجن إلى جهاد قد يكون طويلاً لإتمام هذا التحرر... ومنها أن الأمم كلها، حتى التي أعطت المرأة حريتها لم تقدر حتى اليوم على التخلص الصحيح من أوهام الماضي، فلا تزال المرأة والرجل معاً في هذه

الأمم يريان أن المرأة دون الرجل وأنه يجب أن تظل دونه - ولهذا فإنها لا تقوم بكل الأعمال التي يقوم بها الرجل. ولهذا - بلا شك - تأثير لا يقل عن تأثير قول الغربي للشرقي: إنك لا تصلح للحكم مع عمله على إبعاده وتنحيته عنه. ومنها أن المرأة والرجل لا يزالان - أو لا يزال جمهورهما - في الشعوب كافة يعتقدون أن أعظم عمل للمرأة في هذه الحياة أن تعد نفسها بشتى الأساليب لإغراء الرجل وجذبه إليها وإيقاعه في شرك حبها... فهي لذلك تصرف أكبر إهتمامها وتفكيرها ووقتها في صنع نفسها بحيث تصبح مطمح الأنظار وملتقى الشهوات. وهذا يشغلها عن الأعمال الجسيمة.

وينهض قوم آخرون ينادون بأن ما خصت به من وظائف الحمل والرضاع والحضانة يقوم مانعاً طبيعياً من هذه المساواة، فإنها وظائف مرهقة شاغلة... ولكن الطبيعة - الطبيعة التي طبعها الله - تدلنا على فساد هذا القول، فإنها ترينا أن الفرس والناقة وغيرهما من إناث الحيوانات لم تعجز عن القيام بالأعمال التي يقوم بها الحصان والجمل وغيرهما من ذكورها مع قيامها بهذه الوظائف... بل من الممكن القول بأن هذه الوظائف الطبيعية تقضي بأن يكون للمرأة أعمال فيها بعض الجهد والمشقة، وذلك لأنها في حاجة ظاهرة إلى القوة البدنية - ولا سيما أعضاؤها التي لها إتصال بهذي الوظائف والأعمال تقويها وتعدها لأن تكون قادرة شديدة الإحتمال. ومن غير الممكن أن يهمل عضو ويترك في الكسل الدائم والسكون المتواصل ثم يجيء صالحاً لما يراد منه قادراً عليه. وقد شوهد أن الريفيات وغيرهن، اللواتي يعانين الأعمال الشاقة أقدر على الحمل والولادة والرضاعة والحضانة من المنعمات المحبوسات في المنازل بدون حركة ولا عمل... فهي إذن من أجل ذلك أخلق من الرجل بالأعمال.

وقد يزعم زاعمون آخرون أن النساء يجب أن يلزمن البيوت لخدمتها وللقيام بشؤونها، لأنه لا يصلح للبيت ولا يصلحه سوى المرأة...

ولكن هذا خطأ أيضاً، لأننا نشاهد اليوم أن الطهاة وغيرهم من المختصين بخدمة المنازل والقيام عليها هم من الرجال دون النساء. وكل الأعمال التي قد يظن أنها من خصائص المرأة دون سواها ثبت أن الرجل يصلح لها ويصلحها...

يقول بعض علماء النفس: إنه من الخير والصواب ألا يميز بين الرجال والنساء في الزي ولا في العمل، لأن هذا التمييز يشعر كلاً منهما دائماً بأنه طالب

أو مطلوب، أو طالب مطلوب، وهذا الشعور يظل موقظاً أبداً للغريزة الجنسية، وهذا يشغل كلاً منهما ويرهقه ويحمله على الإحتيال وعلى القيام بعملية القنص... والإنسانية محتاجة جداً إلى تناسي هذه الأمور ما أمكنها ذلك.

وإذا كان هذا من الخير والصواب فمن الخير والصواب أيضاً ألا يميز بينهما بأن يكون أحدهما للبيت والآخر للأعمال خارج البيت؛ فإن هذا التمييز ينشط جداً في تنبيه الشهوة وفي الإغراء بالطلب. فإن المرأة التي تحجز في المنزل وتفهم أنها محجوزة لأنها في عين الرجل صيد مطلوب كلما رؤي ووجد وأمكن إصطياده تبقى دائماً متنبهة لهذا المعنى شاعرة به، مفكرة فيه. ولا يخفى على أحد ما لهذه الإحساسات من نتائج وآثار ومعان في نفسها... إذ كأن هاتفاً يهتف بها في أعماقها الخفية يقول لها: أنت مشتهاة مطلوبة، فهل تقبلين هذا الطلب، وهل تجيبين إلى مبادلة الشهوة بشهوة مثلها، وهلا تقومين بالتجربة؟ ما المانع من ذلك، ولماذا تحرمين على نفسك وعلى طالبك ومحبك أمراً شهياً لديك، هيناً عليك... وهكذا تدور في رأسها مئات التصورات من هذا القبيل... وكذلك الرجل الذي تبعد عنه المرأة ويفهم أنها إنما أبعدت عنه لأن فيها رغبته، ومعها مفتاح شهوته ولذته، ولأنه يحبها ويشتهيها، ولأنها كذلك تحبه وتشتهيه، وأنه من أجل هذا الحب وهذه الشهوة حيل بينهما... إلى آخر هذه الأفكار التي لا بد أن تتراكض في خياله، وتتأجج في أعصابه...

ومن المعلوم أن إتيان شيء ما لا يمكن أن يقع إلا بعد التفكير فيه: فالقتل والسرقة والزنا وغيره لا يحتمل أن يحدث لو لم يحدث التفكير فيه. فالتفكير سابق العمل. وإذا وقع التفكير فقد يقع العمل. فإذا فرقنا بين الرجال والنساء فلا محالة من حصول هذه الأفكار والخطرات. وما بعد التفكير إلا الخطر الحقيقي، وهو محاولة الوصول إلى المفكر فيه، وهو من ناحية أخرى عذاب المفكر إذا لم يدرك ما يفكر فيه، فهما خطران. ولهذا فإن مما يشبه المستحيل أن يجتمع رجل وامرأة – إذا كانا ممن لم يعتادوا الإختلاط – إلا وشغل كلاً منهما التفكير في الآخر. إن أساس كل شيء الفكرة.

لماذا لا يحاول الرجل أن يلتمس شهوته ولذته عند الأمهات والأخوات والبنات ويلتمسها عند النساء الأخريات الغريبات؟ السبب في ذلك أنه لا يفكر في الأوليات، لأن سلطان العرف يصرفه عن هذا التفكير – ولا نقول إن الذي يصرفه

عن ذلك هو التحريم أو الشرائع الدينية – لأن التشريع والتحريم لم يكونا في يوم من الأيام ما نعين من غشيان المحرمات. ولولا هذا العرف وهذا الصرف – أي لو أنه وجد مجالاً للتفكير – لما وجد فرقاً بين الأم والبنت والأخت وبين سواهن. فإن هذا الفرق ليس طبيعياً. ولو قدمت إلى رجل أخته أو أمه أو بنته بدون أن يعلم ذلك لينظر إليها نظرة إلى الغريبات الأجنبيات، ولو قدمت إليه الغريبات الأجنبيات على إعتبار أنهن إخواته أو بناته أو أمه فخسب ذلك صدقاً لنظر إليهن كما ينظر إلى الأخوات والبنات والأمهات الحقيقيات. فالمسألة إذن ليست طبيعية وإنما هي وليدة العرف والإعتياد. فعلينا إذن أن نجهد جهدنا على إبعاد هذا التفكير وعلى تناسيه. وهذا إنما يكون بمحو الفروق المتكلفة المكذوبة، وعلينا أن تقضي على فكرة الحيلولة بين الجنسين من أجل خيرهما معاً وخير الإنسانية أجمع.

قالوا: وإننا لسنا ممن يحاولون أن يحجبوا ضوء النهار بأكفهم، إذ لا ندعي أن الإختلاط مبرأ من العيوب والذنوب، ولا أنه ليست له عواقب قد تكون أليمة، كلا، فإن كل شيء في هذا الوجود – مهما كان حسناً جميلاً – لا بد أن توجد أحياناً في أعقابه وثناياه أضرار وشرور. وما من شيء يمكن أن يكون خالصاً وخيراً محضاً في أوله وآخره، ووسيلته ونتيجته، وبدايته ونهايته. وأعظم وأجمل ما في هذه الحياة – كالصحة والجمال والشباب والعلم والقوة والشجاعة – لم يخلص الخلاص كله، ولم يبرأ كل البراءة من الذنوب والعيوب والعواقب المؤسفة. فطلب هذا الخير المحض هو من طلب المحال، ومن ظن أن كل ما قد يحمل في طواياه ما ليس بالحسن وجب رفضه وإعتباره قبيحاً محرماً لزمه ألا يرى في الدنيا حسناً ولا جميلاً ولا مباحاً... أو ليس التلاقح نفسه – الذي هو أصل وجود الحياة ووجود الإنسان – قد يجلب شروراً وآلاماً ومفاسد ومظالم؟ بل إن كل ما في هذا الوجود من الجرائم البشرية إنما تسبب عن هذا التلاقح والتزاوج. فالخير إذن ليس هو الذي لا شر فيه، وكذلك الشر ليس هو الذي لا خير فيه. إذ هذا النوع من الخير والشر لا وجود له في عالم الواقع. وفعل الحكيم القادر المنزه عن كل نقص وعيب قد ترتب عليه وجود الأشقياء والسعداء، والمؤمنين والكافرين، والخير والشر، والجنة والنار، وكل ما نراه من المتضادات. ولكن يراد بالخير أو بالحسن ما غلب خيره شره، وحسنه قبحه، أو

ما غلب حسنه وخيره خير ضده وحسنه. ويراد بالشر ما غلب شره خيره وقبحه حسنه، أو ما غلب شره وقبحه قبح ضده وشره... فكل الأمور مأخوذة بالموازنة والمقارنة: فإذا وجدنا أمراً له وجهان وإحتمالان أو نتيجتان أحدهما ما يسمى خيراً وثانيهما ما يدعى شراً، وجب علينا أن ننظر أي الإحتمالين أو الوجهين أو النتيجتين أعظم، فإذا وجدنا الخير هو الأعظم قلنا إن هذا الأمر حسن وجميل، وإن وجدنا العكس قلنا بالعكس، وهكذا. والوجود كله قائم على هذه الحقيقة والإعتبار. وإذن فهذه المسألة التي هي إختلاط النساء بالرجال يجب أن يشملها هذا القانون. ومن غير المستطاع أن يقال إنها خير صرف أو شر صرف. بل فيها خير وفيها شر كما سبق. ومن شرها أنها قد توقع في الفساد الخلقي - ولا سيما في أول تجاربها وبداية الأخذ بها. وهذا ما لا ينكر. ولكن الخطر لا يتقي بالأبعاد والفرار منه، وإنما يتقي بالتعلم كيف يتقي وكيف يراض ويوجه إلى الخير والفائدة. وإلا فإن هذا العلاج يشبه الفرار من الطبيعة ومن ظواهرها ومن الوجود كله خيفة ضرره وأذاه. ومن حاول أن ينجو من خطر الفيضان الذي ترمي به الأنهار، ومن خطر الأمطار التي تجود بها السماء بالهرب والبعد عن المنطقة كان ممعناً في الجهل والغباء، وكان كمن حاول أن ينجو من مخازن البارود والقنابل وسائر المتفجرات بالفرار من المدن التي توجد فيها هذي المخازن، وكمن حاول النجاة من الفساد المرتقب من إجتماع الرجل والمرأة بالحيلولة والتفريق بينهما... والشعوب والأفراد البدائية الجاهلة لا تجد وسيلة للنجاة مما تخاف وترهب إلا بالهرب: فهي تولي مذعورة جافلة من كل ظاهرة من ظواهر هذا الكون: من البروق والرعود والعواصف والقواصف والسيول والنيران والأمراض والوحوش والأعداء المغيرين، ومن اللصوص وغيرهم، ومن إختلاط النساء بالرجال، لا تجد حيلة سوى هذا. أما الشعوب والأفراد المتعلمون فإنهم لا يفرون أمام شيء من هذا، بل يقفون له ويروضونه ويصرفونه وفق المصلحة والفائدة كما تراض الوحوش العاتية. وهكذا يجب أن يكون علاج هذي القضية. ولا شك في أن محاولة حبس المرأة في دارها كل حياتها خشية الفساد تشبه شبهاً كبيراً أن يلزم الغلمان منازلهم، وأن يمنعوا الذهاب إلى المدارس، والإجتماع بالرجال وغشيان الأماكن العامة بحجة أن خروجهم ودخولهم المدارس ووجودهم في المواضع العامة قد يحدث منه أحياناً ضرر

خلقي! !بل إن إجتماع الرجال بالرجال والنساء بالنساء قد يحدث منه المؤامرات والغيبة والنميمة والإغراء والإغواء والتضليل وغير ذلك من أنواع الفساد الذي يتعلمه الناس بعضهم من بعض. فهل يمنع هذا الاختلاط بين الجنس وجنسه خيفة العاقبة المكروهة المرقوبة؟ وقد مر بالإنسانية زمان كانت تلجأ فيه إلى فعل أشياء تعد اليوم من أشنع ضروب الوحشية والهمجية. وكانت تفعل هذي الأشياء بسبب الحرص على الفضيلة وحراسة الأخلاق ودافع الغيرة على حسب ما ظنت وقالت... من ذلك عملية الخصاء التي كانت إلى عهد قريب جداً شائعة ومستحسنة. ولعل إلزام المرأة البيت للأسباب المذكورة لا يقل جهالة وسخفاً عن هذه العملية الوحشية الشنيعة للأسباب المذكورة أيضاً. والإسراف في التخوف من عواقب الأشياء المحتملة يوقع لا محالة في أشد ضروب الحرج والضيق، ويحمل على الحذر والإحجام عن كل شيء أو عن أشياء كثيرة لا ريب في فائدتها وحسنها ولزومها. فإن جميع الأمور - كما سبق - قد تحمل في طواياها وعواقبها بعض ما يكره، فهل يجتنب كل شيء من أجل هذا؟

هذا بعض ما لقناه ونقلناه عن الآخذين بالإختلاط، الذين يقولون إنهم وجدوا نفعه. وعلينا نحن أن نقرأ ونفكر ونوازن.

وقد جعل الله الإمساك في البيوت عقوبة على الزنا في طور من أطوار التشريع: "واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً."

وهذا يدل على شيئين: أحدهما أنه لم يكن يمسك في البيوت من النساء إلا اللواتي يأتين هذه الفاحشة، وثانيهما أن الإمساك في البيوت ما هو إلا عقوبة على جريمة من الجرائم الكبرى. فمن عاقب هذه العقوبة بدون جريمتها كان من الظالمين في نظر الدين الإسلامي... وقد وصف الله النساء اللواتي سيختارهن أزواجاً لرسوله بالسياحة فقال: "عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات"... وأين السائحات من القاعدات في المنازل؟

وأما قولهم: إن المرأة إذا علمت نظرت إلى الرجل نظرة المساوى فتكبرت وطغت وأن مثل هذا خليق بأن يفسد الوداد والحياة بينهما. فقول لا صحة له أيضاً لأن العلم الصحيح الناضج يهذب الأخلاق ويشذبها ويمنع الغرور

والكبر. لأن الغرور والكبر إنما يصدران في الحقيقة عن الجهل بالنفس وعن الجهل بالعواقب والجهل بالقوانين الإجتماعية والخلقية والنفسية. لأن التكبر حينما تكبر إنما أراد بكبره أن يرفع من نفسه وقيمته وحقيقته ولم يرد أن يضعها. ولو كان عالماً متعلماً لعلم أن التكبر على الناس يصيبه بعكس ما أراد لنفسه. فإن من طلب من الناس أن يرفعوه خفضوه لا محالة! ومن حاول أن يفرض على الآخرين إحترامهم له لم ينل منهم إلا الإحتقال والإشمئزاز - ولو في الباطن - إن كانوا عاجزين عن أن يظهروا إحتقارهم وإشمئزازهم. وأما من تواضع وتودد إلى الناس وتجنب ما استطاع لمس شعورهم وإحساسهم بما يؤذي ولم يقابلهم إلا بما يرضون ويحبون فإنهم يحترمونه ويوقرونه في مشهده ومغيبه ظاهراً وباطناً... هذه مسألة نفسية خلقية إجتماعية لا شك فيها.

فالعلم إذن يهدي إلى التواضع وحسن الأدب، والجهل يهدي إلى الغرور وسوء الخلق. فالواقع خلاف ما ذكروا.

على أن هذا الإحتجاج إذا كان لدى هؤلاء القوم صحيحاً لزم أن يحرم التعليم على الرجل أيضاً لأنه من المستطاع أن يقال: إن الرجل إذا تعلم تكبر وشاه خلقه وأدبه وساءت معاملته ولقاؤه للناس مثل ما قالوا في المرأة المتعلمة. ولكن هذه كلها أوهام لا يسوغ أن تلقى في طريق الحقائق لو كانوا يعلمون.

* * *

وليعلم أنه لا يوجد حرف واحد صحيح في الدين ينهي عن تعليم المرأة ويأمر بتركها فريسة للجهل والغباء. بل الأوامر الدينية - روحها ونصوصها - كلها قواطع في وجوب تعليم الناس جميعاً رجالاً ونساء، وكلها قواطع في ذم الجهالة والغباوة سواء أكانتا صفتين في الرجل أم صفتين في المرأة.

وكلنا نعلم أن الدين بجملته بل الأديان كلها عبارة عن تعاليم وإرشادات وأوامر ونواه، وكلنا نعلم أن الدين موجه إلى الرجال والنساء وإلى الناس جميعاً. فالفريقان ملزمان مكلفان بعلمه وتعلمه. فهما ملزمان مكلفان بالتعلم وبتحصيل العلوم التي جاءت بها الأديان، وهي أنواع بل وهي تتناول إجمالاً كل علوم الإنسان. وقد كان الناس في زمن الرسول وزمن خلفائه متساوين رجالاً ونساء في طلب العلم وفي العلوم التي تطلب ويؤمر بطلبها. فما كان هناك علوم يعلمها الرجل دون المرأة، ولا كانت المرأة تؤمر بجهل شيء كان الرجل يؤمر بتعلمه، فلا

فرق من هذه الناحية. وكانوا - الرجال والنساء - يشتركون ويجتمعون في تلقي هذه العلوم وتعلمها من الرسول ومن غيره من الواعظين والمعلمين. وقد شكت النساء مرة إلى النبي الكريم وقلن: إن الرجال غلبونا عليك وزاحمونا فزحمونا فاجعل لنا من نفسك يا رسول الله أياماً معلومة فأجابهن إلى ذلك. وقد كان من نساء الرسول عالمات معلمات، ومن أشهرهن عائشة، وكذلك كان غيرهن من نساء المهاجرين والأنصار.

بل إننا نضع أمام القارىء البرهان الديني على وجوب أن تكون المرأة معلمة لا متعلمة فقط، أي على وجوب أن تعلم المرأة نفسها ثم على وجوب أن تعلم سواها من الرجال والنساء. وذلك قوله تعالى من سورة الأحزاب موجهاً الخطاب إلى أزواج الرسول: "وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله. إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة. إن الله كان لطيفاً خبيراً." فهذا أمر القرآن لزوجات الرسول بأن يذكرن الناس - أي يعلمنهم - ما يتلى في بيوت الرسول من الآيات ومن الأحاديث ومن الحكمة. وكم تحت لفظ الحكمة من المعاني والعلوم. فقد أمرن أمراً صريحاً ملزماً بأن يعلمن الناس كل المعارف الموجودة في بيوت النبوة - القرآن والحديث والأخلاق والآداب والتربية والسياسة والإجتماع وكل العلوم الإسلامية والعلوم التي جاء بها الرسول. وقد عملت هذه الزوجات وغيرهن من النساء المسلمات بهذا الأمر والإلزام، فكن معلمات مهذبات ومربيات وواعظات، وكان منهن خطيبات وأديبات ومؤرخات... فالمحرمون للتعليم عليهن محرومون لشيء ألزم به القرآن وكلف به تكليفاً.

لا ندري. كيف نقول ولا كيف نصرف الدلائل على وجوب التعليم والتعلم. وإننا نعلم أن الدين الإسلامي لن يهجى ولن ينال منه بأبلغ وأنكى من إتهامه بأنه ينهي عن تعليم المرأة ويأمر بإبقائها - وهي نصف الأمة الإسلامية أو أكثر - غبية جاهلة. وأي دين هذا الذي يمكن أن يجيء بمثل هذا؟

إن الإنسان - وسواء في ذلك الرجل والمرأة - ابن هذا الوجود، وأحد أجزائه ولبناته - وهو مضطر لأن يعيش فيه ويعايشه. وليس من الممكن أن يعيش فيه ومعه عيشة صحيحة مقبولة معقولة إلا إذا كان موضوعاً فيه وضعاً سليماً، وكان مؤتلفاً، وكان موجداً في مكانه اللائق به المناسب له، وكان آخذاً ومعطياً على

مقتضى الحكمة والصواب، وكان عارفاً بطباع وخصائص ما هو جزء ولبنة منه وابن له، وعارفاً كيف يأخذه وكيف يتناوله وكيف يتصل به وكيف يباشره ويعاشره... وهذا كله لن يكون ممكناً إلا لمن تعلم وعلم خصائص هذا الوجود وقوانين هذه الحياة بمن فيها وما فيها، عالماً قوانينها الطبيعية والأدبية والخلقية. ومعنى هذا تحصيل كل العلوم البشرية، وإلا فإن من حاول أن يتصل بشيء وأن يعاشره وهو لا يدري طبيعته ولا حقيقته ولا ما هو ولا كيف يؤخذ ولا كيف يترك هلك لا محالة. فالمرء الذي يوجد في هذا الوجود وهو جاهل به هالك وقاتل نفسه وهو يظن أنه يحييها، ومفسد لها ولغيرها وهو يظن أنه يصلح، مثله كمثل من يضع النفط على النار حاسباً أنه يطفئها بذلك كالماء، وكمثل من يتناول المركبات السامة ظاناً أنه يتناول أدوية... وهكذا. فالمرأة الجاهلة جهلاً مطلقاً بجميع المعارف العامة لا تصلح لشيء. ومن أراد منها أن ترعى له بيته وتربي أولاده تربية مرضية، وأن تؤلف بين نزعاتهم وأغراضهم وغرائزهم المختلفة المتباينة وبين حاجات أجسامهم وحاجات أرواحهم، وأن تؤلف لهم الأغذية النافعة وأن تفعل سوى ذلك، كان مثله كرجل طلب من هذه المرأة الجاهلة نفسها أن تؤلف كتاباً قيماً في الطبيعة أو في الكيمياء أو في الرياضة أو الفلك أو في الفلسفة أو في الشعر أو في الأدب أو الفنون الجميلة أو في الدين أو في أحد العلوم العليا... ومن تمنى هذه الأمنية كان مثله كمثل من طلب هذه الأغراض من الحيوانات والعجماوات! ومن صار هذا المصير كان خليقاً بالمرحمة والرثاء.

* * *

ليفكر هؤلاء المناصرون للجهالة، ولجهالة المرأة خاصة، في هذه الشعوب والأمم التي غلبتنا واغتصبت منا كل شيء، وفي مكان المرأة منها وفي المناصب التي تشغلها والأعمال التي تؤديها في الحرب وغيرها وفي كل الميادين - ليفكروا في إحدى هذه الأمم كالأمة البريطانية مثلاً، هل كان من الممكن أن تبلغ في تأدية هذه الحرب وسواها هذا المكان الذي بلغته، وأن تظفر بما به ظفرت لو أنها فقدت هذا العنصر العجيب وفقدت وجوده في الميدان العام لجهله، ولأنه كان لا يستطيع أن يخرج من ظلمات البيت لأنه غير لائق به الخروج، لأنه غير متعلم، وغير صالح للعمل في الخارج - وهل كان من الممكن أن تجد هذه الأمة حينئذ من يسد سداد هذا الجنس، ومن يقوم بالأعمال التي قام بها، ومن ينفث الروح التي نفثها، ومن

يشيع الحماسة والقوى المعنوية التي أشاعها، ومن يمنح الثقة والإطمئنان اللذين منحهما - وهل كان من المستطاع أن يصنع هذا أو شيئاً منه لو لم يكن قد أخذ النصيب الأوفر من الثقافة التعليمية؟ ثم هل كان في الإمكان أن يفعل الشعب العجائب والمعجزات، وأن يجعل العالم كله يرنو إليه ببصره إعجاباً وإكباراً لما يأتيه من ضروب البطولة لو كانت الزوجات والأمهات والأخوات والبنات جاهلات؟ إنهن حينئذ يكن بلا شك معاول هدامة يهدمن الرجال: الأزواج والأبناء والآباء والأخوة، ويهدمن فيهم كل بطولة، ويملأن نفوسهم جبناً وضعفاً وهلعاً ونقصاً دون أن يضعن فيها شيئاً من البطولة والشجاعة والقوة والكمال.

إنه لا خلاف بين طوائف الباحثين في أن الرجال إنما يلهمون أرواحهم ويوهبونها - أو كثيراً منها - في البيوت: أمام الزوجات والأمهات والأخوات والبنات ويصنعون هنالك. فإن كانت هؤلاء الملهمات لا يجدن في أرواحهن ولا في أنفسهن سوى الجهالة وما تولده الجهالة من خور العزيمة وسقوط الهمة وقصر النظر والخوف من كل مجد فلن يلهمن سوى ذلك، وسيأخذ رجالهن عنهن هذا كله أو جله... وإن كن متعلمات ممتلئات همماً وعزائم وآمالاً وحياة كان إلهامهن من هذا النوع، فكان صنعهن لرجالهن صنعاً عجيباً! فأي الإلهامين والصنعين يريد هؤلاء لأنفسهم ولأمتهم؟

إن كثيرين من أبطال التاريخ السياسيين والعسكريين وغيرهم إنما أوجدتهم نساؤهم، وإن كثيرين من أقطاب هذا العصر في أوروبا وأمريكا وغيرهما - ساسة وقواداً - إنما بلغوا ما بلغوا من ضخامة المجد وذهاب الصيت بتوجيه نسائهم وإرشادهن وتشجيعهن وعونهن، وإنهم ليعترفون بذلك بل يفاخرون به.

والأمم الراقية في هذا العصر تشترط في زوجات بعض رجالها الرسميين أن يكن بصفات معينة معلومة من الثقافة وسمو المدارك والأفكار.

ولو أن هؤلاء الرجال الذين فرضوا مجدهم وسلطانهم على الزمن، والذين قيل وقالوا: إن الفضل يرجع في كثير من ذلك إلى زوجاتهم لو يوفقوا إلى هذه النساء المثقفات المستنيرات، وسقطوا على نساء جاهلات غبيات، لما كان من المنتظر أن يصيروا إلى ما صاروا إليه، وأن ينالوا من الزمان ما نالوا! بل أليس من المنظور أو المقطوع به أن يغيرن مجرى تاريخهم وأن يوجدن منهم رجالاً آخرين؟

ومن المستحسن أن يقال لهؤلاء - ولا سيما المتدينين منهم أو من يزعمون متدينين: - إذا لم تعلم المرأة تعليماً كافياً لأن يوجد عندها ملكة علمية حقيقية تفهم بها حقائق الأمور فهماً عالياً صحيحاً، فهل من الممكن أن تصل إلى فهم حقائق الدين وفهم مراميه وأغراضه وأصوله العالية، وأن تبلغ منه الغاية المنشودة، وأن تعصم من الوقوع تحت سلطان المخرفين والخرافات، وتعصم من الدينونة للأوهام الدينية والبدع المنبوذة النكراء؟

إن الإنسانية تحمل في جوانبها وفي طيات وجودها جميع الخرافات والسخافات التي مرت بها في تاريخها الطويل، وفي تعاقب أجيالها الجاهلة... وإن سلطان هذه الخرافات والسخافات متمكن راسخ، وإن كل مولود يولد وهو يحمل معه جذورها وبذورها بين لفائفه ليستنبتها في بيئته... ولا يوجد شيء على إبادة هذه الجذور ويمنع نباتها وإستنباتها سوى التعليم العالي، وسوى العقل الذي يصنعه العلم.

لقد جرب التلقين اللفظي لمن لم يوهبوا الملكة العلمية - أي لمن لم يتعلموا حتى يملكوا هذه الملكة - فوجد غير مجد ولا نافع... إن كل تلقين - إن لم يكن للملقن ملكة ناضجة - لقليل الجدوى بل قد يكون ضاراً. أي إنه يشترط أولاً وجود المحل، والمحل هنا هو النضج الفكري والملكة الفكرية التي تكتسب بالتعليم.

حاول أن تشرح لإنسان غير متعلم نظرية فلسفية عالية، أو فكرة إجتماعية أو إقتصادية، أو مسألة علمية تحتاج في فهمها إلى مقدمات وإلى مبادىء أولية - أو حتى مسألة نحوية أو صرفية... وانظر هل يستطيع هذا الإنسان الذي لم يتعلم أن يفهم عنك وأن يدرك حقيقة الموضوع إدراكاً صحيحاً! وكذلك حاول أن تفهم إنساناً غير متعلم وغير مالك الملكة العلمية أصلاً من أصول الدين العليا كمسألة التوحيد مثلاً - أعني به التوحيد المبرأ من كل شائبة - وأسمعه ما شئت من النصوص القواطع والبراهين العقلية المقنعة! ثم انظر بعد هل يستطيع هذا الإنسان أن يدرك التوحيد وأن يؤمن به كما تريد وكما تحب، وهل يقدر أن يهضمه الهضم النافع، وأن يتكيف به التكيف المطلوب، وهل يصل إلى الحقيقة التوحيدية المطلقة المجردة؟ من المشاهد الواقع أن يقبل هذا التوحيد مبدئياً وأن يطيب به وأن يتخلص من بعض مظاهر الشرك وأن يأخذ بعض مظاهر التوحيد، بل كثيراً منها. ولكنه يبقى بعد ذلك يحمل جراثيم الشرك، ويحمل جذوره

وبذوره، بل يحمل كثيراً من صوره. وقد ينتقل من مظهر إلى مظهر ويترك صورة لصورة أخرى لأنه عاجز عن أن يخرج من جميع صوره ومظاهره لفقده الملكة الناضجة... وكذلك البدع، فإن من لم يتعلم تعلماً كافياً فلن يخلص منها مهما بذلت المحاولات والجهود، ومهما بولغ في التلقين والتحفيظ. وهذا كله مشاهد مجرب معلوم.

وكما أن الإنسان عند ملاحظته مشهداً كونياً أو ظاهرة طبيعية لا يبلغ من فهمه أو فهمها إلا بقدر ملكته العلمية والعقلية، فكذلك هو عند سماعه كلاماً ما في مسألة ما - أي إنه لا يأخذ مما يسمع ومما يرى إلا بقدر إستعداده وقد كنت أتعجب دائماً من قول المتنبي:

ولكن تأخذ الآذان منه

على قدر القرائح والعلوم

يعني أن الآذان إنما تأخذ وتستفيد مما تسمع على قدر إستعداد عقلها وعلمها وعلى قدر ما بلغناه من نضج... ومن المستحيل أن تتخلص امرأة من جميع صور الشرك وضروبه، ومن جميع البدع والخرافات إذا كانت غير متعلمة. وقد لوحظ أن بعض النساء الجاهلات أو المتعلمات تعليماً ناقصاً قد تقبل ما يطلب إليها من توحيد ومن هجر للأوهام والخرافات، ولكنها تبقى مستعدة للرجوع ولمعاودة شركها القديم وأوهامها الأولى لأهون سبب وأضعف مناسبة.

كل هذا صحيح والسبب فيه - أو من الأسباب فيه - أن الخرافات والجهالات قديمة عريقة في الإنسان. وقد ورث من أجداده وآبائه في دمائه فهم كل شيء على غير وجهه وصوابه، فجاء الخطأ والضلال فيه موروثاً بل شبه طبيعي... وكما ورث عن أسلافه القدماء الأخلاق والطباع الوحشية المعتدية - كما يلاحظ على الأطفال وعلى الشعوب الهمجية، فإنه لا حد لظلمها وعدوانها ولا قانون له، كما ترى هذا في الأطفال إذا أعطوا حرية التصرف، فإنهم حينئذ يأتون بأقبح وأشنع أنواع الظلم والعدوان: يفعلون ذلك في الإنسان والحيوان وفي كل ما يقع في أيديهم - كذلك ورث أيضاً منهم الوهم في كل شيء والضلال في كل أمر: ورث الشرك وعبادة غير الله، وورث الأوهام في كل صلاته وإتصالاته بالله وبغيره. ولا علاج لنبذ هذه المواريث الثقيلة وللخلاص منها غير التعليم والتهذيب والتربية...

ومن أراد أن يخلص من الأوهام وأن يدرك الأمور على وجهها بدون تعليم وبدون ملكة عقلية تعليمية كان كمن أراد أن يكون رساماً أو خطاطاً من غير أن يكون له يد! ولقد أحسن الشاعر جداً في قوله:

فقر الجهول بلا عقل إلى أدب

فقر الحمار بلا رأس إلى رسن

يريد أن غير العاقل لا يمكن أن يكون أديباً ولا مؤدباً ولا فاهماً ولا مميزاً بين الحسن وغيره ولا مدركاً للحقائق كما هي، كما أن الحمار من غير رأس لا يمكن أن يكون له رسن ولا أن يقاد برسن.

فالشرط الأول لنجاة الأمم من خرافاتها هو التعليم العالي وإلا فإن الأمة ستظل ضحية للدجل والدجالين، وستبقى تحت دينونتها لكل ما هي فيه اليوم من هذه المفاسد الإعتقادية المخزية، وستبقى سوقاً عظيمة لصنوف المحتالين والمضللين... وما استطاعت أمة من الأمم أن تنجو من ذلك إلا بعد أن عظم نصيبها من المعارف.

ومن أجل هذا فلا ريب في وجوب تعلم الشعب كله رجاله ونسائه وجوباً دينياً، لأن أكبر أغراض الدين تخليص أهله من الجهالات الإعتقادية - من الشرك وأعراضه ومن فهم الحياة فهماً باطلاً، وقد علم أنه لا يستطاع الحصول على هذا الغرض الأعظم إلا بالعلم فكان العلم واجباً بحكم الدين.

والعلم في الحقيقة هو مانع السقوط ومانع الفساد الديني وغير الديني! إن كان في الإمكان منع هذا. وليسمع هؤلاء مثلاً واحداً: ماتا رجلان كانا يكسبان القوت يوماً فيوماً، فترك أحدهما وراءه جمعاً من النساء والبنات المتعلمات، وترك الآخر جمعاً منهن جاهلات لا يدرين شيئاً في الحياة. وليس لإحدى المجموعتين كاسب ولا مورد للرزق بعد وفاة الرجلين. فما الذي حصل، أو ما الذي يمكن أن يحصل؟ أما المجموعة الأولى المتعلمة فإن تعليمها مكنها من أن تجد مكانها في الحياة، وأن ترى طريقها في النور. أما المجموعة الجاهلة فما الذي يمكن أن تصنع إذا لم ترزق أزواجاً صالحين؟ وهذا بعيد. ليفكر لهن أنصار الجهل وأعداء العلم وليقولوا بعد هذا إن شاؤوا: إن الدين يحرم التعليم على المرأة وينهي عن تعلمها الكتابة.

إن هنالك فرقاً عظيماً بين المتعلمة والجاهلة في كل شيء حتى في السقوط

الأدبي وفي الزلل الخلقي إذا قدر. فالمتعلمة إذا سقطت وزلت قدمها سقطت سقوطاً محتشماً محترماً - إن كان في هذا ما هو محترم محتشم - وزلت زللاً نصفياً أو جزئياً يرجى بعده القيام والنهوض والحياة. أما الجاهلة فإن سقوطها يكون سقوطاً جاهلاً، أي مدمراً مخرباً لا ينتظر بعده حياة ولا وجود ولا علاج.

* * *

من المحقق الذي لا خلاف فيه بين علماء النفس أن الجاهلة السانجة التي فرغ رأسها من المعارف ومن التفكير الجدي، وفرغت أوقاتها من الأعمال الجسيمة المجدية، أقرب جداً من المتعلمة المثقفة ذات الأفكار والآمال إلى الركوع أمام سلطان الشهوات والغرائز الصغيرة. فالشهوات الجنسية تستبد جداً بالجاهلين الفارغين المنطوين على أنفسهم لجهلهم وضآلة تفكيرهم، وتنأى بقدر ما عن المتعلمين المفكرين، ذوي الطموح الإصلاحي الإنساني البعيد، وذوي الآمال العظيمة الجليلة التي يولدها العلم الواسع ويخلقها الخيال الممتاز الوثاب.

وذلك أن لكل إنسان قدراً معلوماً معيناً من القوى المادية والقوة الذهنية. وهذه القوى يتوزعها ويتنازعها فيه ميول وطبائع مختلفة كثيرة، كل من هذه الميول والطبائع يريد أن ينفق كل هذه القوى على حسابه وفي مصلحته. فمن الجائز أن تذهب القوى كلها في إرضاء غريزة واحدة كالغريزة الجنسية، ومن الجائز أن تذهب في غريزة حب الإطلاع فيكون المرء حينئذ بحاثة عالماً مشغولاً بالإستزادة من العلم والعرفان، ومن الجائز أن تنفق في غريزة الطموح. ومظاهر الطموح كثيرة متعددة، فقد يكون طموحاً إلى جمع المال والثراء الكثير، وقد يكون طموحاً إلى المجد السياسي أو المجد العسكري أو المجد الصناعي أو غيره من ضروب الأمجاد. وقد تبذل هذه القوى كلها أو جلها في ميول رياضية أو ميول إلى المغامرة والمخاطرة أو ميول أخرى، أحياناً تكون طيبة في نتيجتها، وأحياناً تكون غير ذلك... إلى غير هذا من الإتجاهات الإنسانية التي تصرف فيها قوى الإنسان الذهنية والجسدية كلها أو بعضها. ومن هنا اختلفت وتعددت وجوه الناس ومذاهبهم في الحياة على حسب هذا التوزع بين هذه الغرائز والميول. ومن المعلوم قطعاً أن للتوزع بين هذه الأشياء المسيطرة على الإنسان أسباباً وعوامل تكسب

وتدرك بالإجتهاد والتوجيه. فالإنسان - وكذا الإنسانة - الجاهل من المعروف أن مذاهب الطموح تضيق به وتسمو على تفكيره وتشرد عن خياله، ويعلم أنه أقل وأعجز عن أن ينصرف إليها وأن يرصد نفسه وقواه في سبيلها، فيتضاءل في نفسه وينطوي على قدره الصغير، أو ينطوي عليه قدره. فتبرز فيه حينئذ الغرائز والميول التافهة الضارة إذا تركت وطريقها - كالمسألة الجنسية - وتعصف به الأحقاد وعوامل الحسد الخبيثة والغيرة القاتلة من الآخرين، ويسيطر عليه التشاؤم والكآبة والكراهة والبغضاء، ويصبح ويمسي تتقسمه هذه الآفات النفسية، فينفق كل قواه البدنية والفكرية في الإتصال الجنسي خيالاً وعملاً، وفي الحقد والحسد والبغض والكره والتشاؤم والكآبة. فيقضي حياته كلها، ويبذل ما وهبه الخلاق في المعاصي والجرائم الدينية والقانونية والخلقية. فيكون نكبة على نفسه وعلى الأمة التي هو أحد أبنائها. والأمة التي يكثر فيها هذا النوع من الناس أمة مقضي عليها بالخيبة والهلاك وضآلة الشأن - وهي أمة متخاذلة متنابذة لا يرضى فيها أحد عن أحد مهما أحسن وأفاد ونفع.

أما المتعلم المثقف فإن آفاقه تتسع وآماله تتعاظم ويبصر سبيل المجد والطموح تتراءى له ممهودة مفتوحة، فينطلق فيها، فيشيد لنفسه ولقومه وللإنسانية قاطبة المجد الضخم، ويشغل بذلك عن تلك المعاني الأخرى الصغيرة، بل لا يجد لها وقتاً ولا مكاناً عنده. فينصرف عنها وتنصرف عنه. ويندر جداً خروج مثل هذا الإنسان عن القانون الطبيعي أو الإجتماعي أو الشرعي. وقد فهم أحد الشعراء - وهو الأخطل - هذه النظرية قديماً فقال يمدح أحد الخلفاء المشغولين بجسيمات الأمور هو وقومه:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم

دون النساء ولو باتت بأطهار

وفي أوصاف الرسول الكريم أنه كان إذا دخلت العشر الأواخر من شهر رمضان شغل بالعبادة وانصرف إليها وشد المئزر - كناية عن مجانبة النساء وإعتزال المسألة الجنسية.

ومن المعلوم أن عظماء الأمم الذين توكل إليهم الأمور الجسيمة ينصرفون البتة - أو بعض الإنصراف - عن هذه المسألة، وقد ينسونها بحيث لا تخطر على بال أحدهم. وقد تمر أمام أحدهم أجمل مخلوقة تشيع الفتنة وتثير الخيال كما

يمر أمامه أحد الأشياء العادية.

ولا يلتفت إلى هذه المسألة إلا إهتمام المرضى والفارغين المعرضين عن رسالة الحياة. ومن هنا كان مسيئاً إلى مصلح الإنسانية عليه السلام من ذهبوا - وقائدهم الغباء - يجمعون الروايات المزعوم فيها أنه عليه السلام كان يعطي هذه المسألة - أي مسألة الوصال الجنسي - جانباً كبيراً من نفسه ووقته بل أعظم جانب، حتى إنهم ادعوا أنه كان يجامع في ليلة واحدة إحدى عشرة امرأة ثم يغتسل لذلك كله غسلاً واحداً بدون فاصل! وقد وهموا جداً في فهم حديث الطواف على نسائه، فالطواف غير الإتصال الذي يذهبون إليه.(١)

والذين وصفوا الرسول الكريم بهذا، وظنوا أنهم يمتدحونه به ويبالغون في وصف قواه البدنية بما قالوا، قوم كانت المسألة الجنسية أكبر شيء عندهم، وأكبر ما يشغل خيالهم لفراغهم وضآلة رسالتهم في الوجود وقلة طموحهم وإهتمامهم بمسائل الإنسان الكبرى. ومن ثم حاولوا وصف الرسول بما أحبوا أن يوصفوا به وبما به اهتموا وله عظموا. ولو أن أحد الرجال - أرباب الرسالات الكبرى والآمال الجسيمة - أراد أن يصف النبي الكريم المبعوث لهداية الناس ولبعث العرب ولإيجاد دولتهم الفتية الغالبة لما خطر على باله أن يصفه بالإنصراف إلى هذه المسألة، ولما قبل ذلك البتة، لأنه هو غير منصرف إليها ولا معني بها. والعادة أن الواصفين يحاولون أبداً أن يصفوا من يحبون ومن يريدون إظهار مزاياهم بما حسبوه مدحاً وثناء وإن كان في الواقع غير ذلك، وقد يصفونهم بما يحبون أن يوصفوا هم به.

ولكن الرسول الكريم أعظم جداً وأسمى مما توهموا وظنوا ومدحوا. ولن يستطيع وصفه إلا من قرب منه ومن سمت نفسه ومعانيه بحيث صار ببصره عليه السلام متألقاً في سماواته، مجللاً بكمالاته.

وليس هذا الذي نقوله شعراً ولا خيالاً وإنما هو حقيقة يقررها علم النفس

(١) ومن خطرات الهوس الجنسي ما زعمه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري مستدلاً بروايات لفقها من أنه عليه السلام قد أعطى في الجماع وفي شهوة الجماع قوة أربعة آلاف رجل! ويروي ابن سعد في الطبقات وغير ابن سعد أن جبريل نزل على الرسول بقدر فيها طعام فأكل منه فأعطي هذه المقدرة على الجماع. ويشير كلام ابن حجر إلى أن قوة الأربعة الآلاف التي أعطيها ليست في الجماع فقط بل فيه وفي الأكل والشرب والشهوة! ويراجع كتاب الغسل في فتح الباري شرح صحيح البخاري

ويضمن صحتها الواقع والمشاهدة الأولية البسيطة. وعلم النفس يسمي هذا التوزيع بين الغرائز بالطريقة التي ذكرناها (التصعيد.)

أن مقداراً معيناً من الفحم مثلاً تكمن فيه طاقة معينة أيضاً، يمكن أن تكون حرارة، وأن تكون ضوءاً، وأن تكون حركة، وأن تحرق وتدفىء وتهدي، ويمكن غير ذلك، وكذلك القوة البدنية والعقلية الموجودة في الإنسان يمكن أن تصرف في الفساد والدمار، ويمكن أن توجه إلى الإصلاح والتعمير والبناء - وهكذا كل قوة في الحياة وهكذا كل قوة مادية. ولا سبيل إلى هذا غير التسامي، ولا تسامي حقيقي عند الجاهلين. وعلى هذا فلن ينتظر من المرأة الجاهلة - وكذا الرجل الجاهل - سوى الإستغراق في الخيالات الجنسية، وسوى التطلع الملهوف إليها، وسوى الإنصراف إلى الأحقاد والحسد والغيرة المشقية وكل تلك المعاني الحقيرة الذميمة التي تملأ أوقات الجاهلين وأفكارهم - وسوى الإنقطاع إلى فن الدسائس للأزواج والأقارب والآخرين أيضاً - وسوى الذهاب مع الخيالات والخرافات بلا رجعة.

فإذا أردنا أن نعمل على تجنيب المرأة هذه المهاوي إلى حد ما وبقدر ما وجب علينا تمكينها من الأخذ بأوفر نصيب من المعرفة بل وجب علينا دفعها إلى ذلك دفعاً... فتعليمها إذن يقربها من الله ويجنبها معاصيه، وجهلها ينأى بها ويطوح بها مع الهالكين في كل واد من أودية الهلاك.

والمسألة الجنسية هي كسواها من المسائل التي يأتيها الإنسان والتي تتصل به، يصلحها العلم ويفسدها الجهل. فما من غريزة ولا طبيعة ولا عمل يعمله المرء إلا وهو محتاج إلى العلم وإلى هيمنته عليه ليقيه التخبط والزلل والخروج عن الطريق. وما من شيء من ذلك ترك لطبيعته بدون أن يرعاه العلم وتحرسه المعرفة إلا كان مبيداً مدمراً، وما من شيء قام عليه هذا الحارس الأمين وخفره خفارة صحيحة إلا جاء أدنى إلى الإستقامة والكمال وأبعد عن التهور والتهوك والضلال.

والناس كلهم - حتى العوام والهمج - إنما يتعايشون بالمعرفة والعلم والآداب التي يتوارثونها جيلاً بعد جيل والتي يتلقونها بطرق التلقين المعروفة. أما لو تركوا ونزعاتهم دون أن يأخذوا عن البيئة وعن البيت وعن المدرسة علومها وأخلاقها وتقاليدها وتربيتها وقوانينها القائمة على التعليم - سواء أكانت

تعاليم صحيحة أم كانت باطلة – لكانوا وحوشاً ضارية بل لكانوا شراً من الوحوش بأعمالهم وأحقادهم وغرائزهم المتفجرة بالجبروت، ولما أمكن أن يتعايشوا تعايشاً يبقي على العمران ويرعى القوانين، ولظلوا كذلك إلى أن تنهض العقول من جديد فتضع التعاليم والقوانين والأخلاق والآداب والتقاليد... ولا ريب في أن الإنسانية لو تخلت عن هذا كله لكانت مضحكة في كل أعمالها ولكان إملاء الغريزة الجنسية عليها متحللاً من كل قيد أدبي أو خلقي، ولارتفع هذا البرقع الشفاف الذي يجلل هذه الميول والنزعات بشيء من الحياة والإعتدال والقصد.

فالعلم إذن هو المهذب المنظم لأعمال الإنسان وغرائزه، وكلما عظم سلطان هذا المهذب المنظم عظم التهذيب والتنظيم، وكلما ضعف هذا ضعف ذاك. فالمرأة والرجل محتاجان إلى العلم بكل ألوانه وضروبه لئلا يضلا في متاهات الغرائز إحتياجاً يجب ألا يكون فيه خلاف إلا إذا صح أن يزعم أن هناك عملاً من أعمال الإنسان يصلح بدون العلم ويستغني عنه.

والغرائز البشرية لا يصلحها الردع والكبت وإنما يصلحها التصريف والتنفيس. وكل شيء يكون منطلقاً مندفعاً أمام طبيعته يراد وقفه بالضبط والردع دون التصريف والتنفيس يحدث ضرراً محققاً. قف في وجه قذيفة منطلقة وانظر ماذا يكون! أو حاول أن تقيم حاجزاً في طريق ماء جار جارف لا ينقطع بدون أن توجد له منصرفاً آخر وانظر ماذا يكون! اقصد إلى غريزة جنسية ملتهبة مندفعة إلى غايتها واعمل على منعها بالضغط لا بالتوجيه والتوزيع والعلاج ثم اسأل علماء النفس ما الذي يمكن أن يكون! إنهم ينبئونك أنه لا بد أن يحدث حينئذ إما أمراض جسيمة أو أمراض عصبية أو نفسية أو خلقية خبيثة، أو غير ذلك من الأضرار المحققة... فإذا كان الذين يأبون تعليم المرأة إنما حملهم على هذا الإباء هو خشيتهم غوايتها وإنطلاقها مع داعي الغرائز وتصريفها إياها تصريفاً ضاراً سيئاً فليعلموا أنهم واهمون أكبر وهم، وليعلموا ثانياً أن الخوف يجب أن يكون من الجهل والغباء اللذين يقضيان على المرء بأن ينطوي على نفسه وأن يعجز عن السير في غير سبيل النزعات البدائية الأولية المدمرة. فالعلم وإتساع أفق المعرفة هو الكفيل بتنظيم هذه النزعات وتوجيهها الجهات الحسنة النافعة على حسب إرشاد علم النفس. وهو الكفيل

بالتسامي بها وإستخدامها في أحاسن الأشياء وأجداها على الهيئة الإجتماعية.

* * *

من الضروري أن نسأل هؤلاء: ما هي وظيفة المرأة وما مكانها الطبيعي الذي يجب أن يضعها فيه إستعدادها وأعمالها المطلوبة منها والذي تضعها فيه الشرائع؟ أهي لا تعدو أن تكون أرض إخصاب وموضع بذر ثم لا شيء بعد ذلك؟ أم إنها يجب أن تكون مخلوقاً مفكراً عاقلاً فاعلاً بالإرادة والإختيار؟ أما الإحتمال الأول فلا يمكن القول به ولا الذهاب إليه. وأما الثاني فهو الذي لا بد من المصير إليه. وإذا كان ذلك كذلك فهل من المستطاع أن تؤدي هذه الوظيفة وهي جاهلة؟ قد يقال إن من الممكن أن يعهد إلى جاهل جهلاً مطلقاً بكل شيء بإستنبات نباتات غريبة ويعهد إليه بزراعتها واختيار الأرض لها وحمايتها من جميع الآفات، ومقاومة هذه الآفات إذا نزلت بها، والعلم بها إذا حدثت، وتقديم ما يلزم لها من الماء ومن المقويات المخصبات، وبالقيام عليها قياماً صحيحاً كفيلاً بإستنباتها على أحسن وجه وأكمله - نعم قد يقول جاهل بإمكان هذا ولكن هذا الجاهل لا يمكنه أن يدعي أن من المستطاع أن تقوم امرأة جاهلة على تكوين أولادها قياماً صحيحاً كفيلاً بأن يكونوا كما يجب أو قريباً مما يجب. وذلك أن النبات إذا كان محتاجاً إلى رعاية شيء واحد فيه، وهو الجانب المادي، فإن الأطفال محتاجون إلى رعاية جوانب كثيرة فيهم أحدها الجانب المادي، وهو أبدانهم وبناؤها بناء قوياً وتكوينها تكويناً سليماً. وأبدان الأطفال تحتاج في بنائها وتكوينها إلى أكثر جداً مما يحتاجه النبات لأنها معقدة أكثر منه، ولأن هندستها أدق من هندسته، ولأن فيها من العدد والآلات أعظم مما فيه. والفرق بينهما ليس أقل من الفرق بين بارجة حديثة وسفينة شراعية بدائية. هذا من الناحية المادية فقط وهي الأجسام - دع الأرواح والأخلاق والتقاليد والنزعات والعقول وكل ما يمتاز به الإنسان عن النباتات. فهل يقول إنسان إن المرأة الجاهلة تستطيع أن ترعى جانباً واحداً من هذه الجوانب رعاية صحيحة وأن تقوم عليه قياماً صحيحاً يقربه من النجاح وهل هناك جناية إجتماعية قانونية أكبر من أن يترك الأطفال ضحايا بريئة في أيدي الجاهلات؟ الأميات: يدمرن أجسامهم وأخلاقهم وعقولهم وكل شيء فيهم، وينمين فيهم الميول الأولية والخرافات الموروثة عن عصور الإنسان الأولى الجاهلة، ويبعثن فيهم الضعف

والخور والأوهام والفساد الإعتقادي والعقلي العام، ويصنفهم بقوالبهن المعنوية والمادية الملتوية المشوشة ويخلقن في خيالاتهم العوالم والأشباح والأرواح التي لا وجود لها!؟

ماذا تصنع هذه الجاهلة في حالة واحدة من حالات الحياة تواجهها وتفرض عليها حلها ومواجهتها فرضاً! ليفكر هؤلاء في هذا تفكيراً عميقاً ولينظروا كيف يكون الجواب!

إننا نعتقد بحق أن الإسلام دين خالد عام، فهل من الممكن أن يكون كذلك إذا كان يحرم تعليم المرأة ويقضي عليها بالجهالة الأبدية.

ونحن حينما نذكر العلم نريد العلم الناضج لا الناقص، فإن هذا العلم النصفي أو الجزئي قد يكون عاجزاً عن أن يوصل إلى الأغراض المنشودة من التعليم، بل قد يكون صاحبه شراً من الجاهل أحياناً.

ولسنا بعد هذا في حاجة إلى التوكيد بأن كل الروايات الذامة لنوع من أنواع العلم أو الناهية عند روايات باطلة مكذوبة. فجميع الروايات الواردة في أول هذا البحث كذب، ورواية النهي عن إنزال النساء الغرف وعن تعليمهن الكتابة هي رواية – على رغم تصحيح بعض الرواة لها – منكرة. وكذلك الرواية التي فيها إنكار علي بن أبي طالب تعليمها الكتابة، وكذلك جميع الروايات السابقة.

ولهؤلاء الناس الذين فرضوا علينا وفرضت علينا إمامتهم آراء عجيبة، وفروق لا يؤيدها شيء من مراجع الحقيقة يذكرونها بين الرجل والمرأة: في التعليم وفي الكتابة وفي غيرهما، مثل ما ذكروه في البخل والشجاعة والعي والفصاحة. فقد زعموا أن الفصاحة والشجاعة والكرم صفات محمودة في الرجل مذمومة في المرأة، وزعموا أن نقائضها محمودة في المرأة مذمومة في الرجل! وهذا هراء كله. فإن المحمود في الرجل محمود في المرأة، والمذموم فيها مذموم فيه. فهذه الأمور المذكورة هي محمودة في الرجل والمرأة معاً، ونقائضها مذمومة فيهما.

وقد تصاغ هذه الحجة بالأسلوب الآتي: هل العلم خير وفضيلة، أم شر ورذيلة، فإن كان الحق هو الأول فلماذا يحرم على المرأة، وإن كان الحق هو الثاني فلماذا يباح للرجل؟ ولا جواب عن هذا.

وليس من شك في أن من يقدمون لأمتهم نساء جاهلات: بنات وأخوات

وقريبات ليسوا بأقل إثماً ممن يقدمون إليها الشرور والمفاسد الخلقية والجرائم الشرعية - كلا بل إن الشرور والمفاسد والآثام هي بعض أفعال النساء الجاهلات.

وإننا نعلم أن الأجيال ستتعجب وتسخر منا إن قدر لها أن تقرأ أو تعلم خلافنا في هذه المسألة ومحاولتنا التدليل على جواز أحد الجانبين منها، والتدليل على بيان فضيلة العلم وبيان جواز أخذه والإتصاف به، ونقول: أفي مثل هذا يختلف المختلفون ويتنازع المتنازعون، ويحتاجون إلى حشد الحجج والبراهين! !ولكن لا عتب ولا لوم! فلولا سير الماضين في طرقهم المظلمة أكثر الأحيان المضيئة أقلها - ولولا تعثرهم - ولولا تنازعهم وخلافهم في ما هو من الضرورات المسلمة اليوم - بل ردهم وإنكارهم لذلك - لما استطاع إنسان هذا العصر أن يسير في طريقه التي يسير فيها.

كراهة الحياة الدنيا: إمتداح الجوع والفقر والمرض

الدعاية الواسعة للزهد المخدر، هل جاء الدين لمحاربة العمران؟

اللهم من آمن بي وصدقني وعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأقلل ماله وولده وحبب إليه لقاءك وعجل له القضاء، ومن لم يؤمن بي ولم يصدقني ولم يعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأكثر ماله وولده وأطل عمره.

«زعموه حديثاً نبوياً صحيحاً»

نزل على جبريل بأحسن ما كان يأتيني صورة فقال إن السلام يقرئك السلام يا محمد ويقول إني أوحيت إلى الدنيا أن تمرري وتنكدي وتضيقي وتشددي على أوليائي حتى يحبوا لقائي... وتوسعي وتسهلي وتطيبي لأعدائي حتى يكرهوا لقائي فإني جعلتها سجناً لأوليائي وجنة لأعدائي.

«زعموه أيضاً حديثاً نبوياً»

جاء رجل فقال يا رسول الله إني لأحبك، فقال انظر ما تقول! فقال والله إني لأحبك ثلاث مرات، فقال إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافاً فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه. وعن أنس قال جاء رجل إلى النبي فقال إني أحبك فقال استعد للفاقة. وفي حديث آخر: اصبر أبا سعيد فإن الفقر إلى من يحبني منكم أسرع من السيل من أعلى الوادي ومن أعلى الجبل إلى أسفله.

«زعموا أحاديث نبوية»

* * *

كانت العرب في جاهليتهم - ولا سيما قريش - تنظر إلى الحياة الدنيا بعين المتشوق المتيم، وكانوا يحبون المال حباً جماً ويأكلون التراث أكلاً لماً، كما أخبر القرآن عنهم، وكانوا يحبون الطيبات ويستمتعون بكل ما استطاعوا الإستمتاع به منها، وكانوا يفاخرون ويكاثرون بذلك، كما كانوا يمقتون الفقر والفاقة وكل ألوان الشقاء، والعوز ويرونها من النقائص والعيوب والعجز كالبخل والجبن وفقدان المروؤة. ومن أمثالهم السائرة في هذا (القبر ولا الفقر.) وكانوا من أجل هذه الروح المالية الدنيوية الإستمتاعية تجاراً كلهم، ولا سيما أشرافهم

وساداتهم. وكانوا يعظمون من شأن التجارة كل التعظيم ويرون المهارة فيها والحذق والقدرة برهان الرجولة ودليل الشرف وعنوان السيادة. وفي دلائل النبوة: (كانت قريش قوماً تجاراً ومن لم يكن تاجراً فليس عندهم بشيء)، حتى لقد قيل إن كلمة قريش معناها التاجر.

ومن أعظم الدلائل على شأن التجارة عند قريش وشأن المال في أنفسهم أن أم المؤمنين خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله – وهي في مكان عظيم من المجد وشرف البيت والأرومة في قومها – كانت في حياة أبيها خويلد تتاجر وتستأجر الرجال من قومها ليقوموا على تجارتها في الشام وغيرها. وكان قومها ينظرون إليها من أجل هذا نظرات الإعجاب والإجلال، ويتمنى كثيرون من ساداتهم أن يظفروا بها زوجاً. وقد استأجرت محمداً عليه السلام وعمره خمس وعشرون سنة للخروج بتجاراتها قبل زواجه بها. فلما رأت من نجاحه عليه السلام، ورأت تضاعف أرباحه وأرباحها أحبته حباً شديداً ثم رغبت في الزواج منه. وقد سافر به عليه السلام – وهو غلام صغير – عمه أبو طالب إلى الشام ليروضه على أساليب التجارة، وليحبب إليه الرحلات والأسفار في سبيلها، وليمرنه على الكسب وعلى الإتجاه نحو الثراء.

ومن الدلائل على تمكن هذه الروح فيهم – أي روح الإحتيال على الكسب والمال – أنه عليه السلام في طفولته قد أجر نفسه لقريش ليرعى لهم أغنامهم. حدث بهذا عن نفسه الزكية وقال: (ما من نبي إلا رعى الغنم) قالوا له وأنت يا رسول الله قال: (وأنا، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة.)

وقد كان لأهل مكة رحلات سنوية إلى الشام واليمن وإلى جهات أخرى متاجرين مصدرين وموردين: كانوا يجمعون حاصلات بلاد العرب وتجاراتها فيحملونها إلى الشام والبلاد الأخرى فيبيعونها هناك، رابحين أرباحاً طائلة مغرية، ثم يرجعون بحاصلات الشام وبما في الشام من ألوان التجارات وألوان العروض المطلوبة في الحجار وفي أنحاء البلاد العربية فيبيعونها على أهل الحجاز وعلى غيرهم من أهل الجزيرة، ويخرجون بالأثمان الطيبة الكثيرة... فكانت مكة بذلك محطة تجارية هائلة بالنسبة لذلك العهد، وكانت ملتقى الصادرات والواردات من بلاد العرب وإليها. وكان لهذه الرحلات ولهذا التصدير والتوريد ولهذا الوضع شأن عظيم في نفوس القرشيين ونفوس العرب

أجمعين... وكانت قريش ترى أن هذه الحالة إحدى فضائلها وخصائصها التي امتازت بها وفضلت بها من أجل البيت ومن أجل سدانتها له.

ولا أدل على منزلة هذه الرحلات التجارية من أن الله أنزل في شأنها سورة كاملة تدعى سورة قريش وهي قوله تعالى "لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" أي إن هذه الرحلات في الشتاء وفي الصيف من النعم العظمى التي تستوجب الشكر وتستوجب عبادة من وفق إليها ومن هيأ الأسباب لها وهو رب هذا البيت الذي كان لوجوده في هذه البطحاء وفي هذا الوادي الأجرد الضيق فضل كبير، بل الفضل كله في إنماء هذه التجارات وتنظيم تلك الرحلات. وقد أطعمهم بها من الجوع، فكان الناس من حولهم يجوعون وهم آمنون من هذا المرض الإجتماعي المخيف لمكانتهم التجارية الممتازة، وآمنهم من خوف الكساد وخوف الفقر والفاقة وسائر ألوان الخوف لأنهم كانوا أقوياء وأغنياء، والأقوياء والأغنياء يكونون دائماً مرهوبين محروسين لأنهم يستطيعون بقوتهم المالية – والمال مصدر القوات – أن ينالوا ممن يحاولون الإعتداء والبغي عليهم. فكانوا في ضمان وأمان من هذه الناحية... بل كان الناس في الجزيرة وغيرها ينظرون إليهم بأبصار ملأى بالإحترام والحب والغبطة الظاهرة، وقد يشوب هذا شيء كثير من الحسد الذي ينشأ عادة من وجود الإمتياز والتفوق في أحد الأمور. وقد عرضت هذه الحالة التي كان أهل مكة بها يتمتعون في قوله: "ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون."

ومما يشهد شهادة ظاهرة لحب القوم التجارة ما حكاه الله عنهم قاصاً موقفاً من مواقفهم الدالة على أنهم يذهبون كل مذهب في هذا الحب، وذلك قوله تعالى من سورة الجمعة: "وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً" وذلك أن الرسول عليه السلام كان يخطب أصحابه يوماً خطبة الجمعة فقدمت إلى المدينة قافلة تحمل تجارات مختلفة فعلموا بها فخرجوا إليها وتركوا الرسول يخطب ولم يبق معه إلا القليل، وجاء في الرواية أن الذين بقوا معه كانوا اثني عشر رجلاً.

ولما أثنى الله في الكتاب على جماعة من المؤمنين أثنى عليهم بأن التجارة

والبيع لم يلهياهم عن الله وعن الصلاة فقال "رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله." ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من الدلائل على حبهم البيع والتجارة والمال.

وقد كانوا يعتقدون – وهكذا يعتقد كل جماعة صبغت بالروح التجارية – أن الكسب والقدرة عليه والحذق فيه برهان النبوغ والعبقرية والذكاء والسيادة. وكانوا يرون ما حكى الله في كتابه عنهم "ولئن أذقناه رحمة من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي" وقال "ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم"... إلى آيات أخرى في هذا المعنى... يريدون بهذا أن الغنى إنما ينال الغنى بعلمه وذكائه واستحقاقه لصفاته الذاتية. وهذا غير ما يراه الكسالى والعاجزون من أن المسألة لا تعدو أن تكون حظوظاً عمياء. وما من عبارة تبلغ مبلغ هذه الآيات في مدح القادرين على الكسب وذم العاجزين عنه: "ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً. هل يستوون؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون. وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم." والله إنما يخاطب القوم ويحتج عليهم ويضرب لهم الأمثال بما استقر في نفوسهم وبما عرفوه وصدقوه.

وقد أراد الله أن يعدد مننا امتن بها على رسوله فعد منها منة الغنى بعد الفقر كما عد منة الهداية بعد الضلالة ومنة الإيواء بعد اليتم والشتات فقال: "ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى." فالإمتنان بالغنى قرن بالإمتنان بالهدى. وأي برهان يساوي هذا في أن العرب كانوا ينظرون إلى الغنى وتحصيل المال مثل ما ينظرون إلى سائر الكمالات كالصحة والكرم والشجاعة والنبل والمروءة والعلم وغيرها، وأنهم كانوا ينظرون إلى الفقر مثل نظرهم إلى سائر العيوب والنقائص كالمرض والعجز والضعف والجبن والبخل والدناءة والجهالة والضلالة وسواها! ولا ريب في صدق هذه النظرات، فإن الغنى المكسوب يدل على صدق الذكاء وصدق الإرادة وصدق التصرف في الحياة وعلى النشاط والدأب وعلى حب الجمال. وهذه كلها كمالات إنسانية... أما الفقر فإنه يدل على نقيض هذه الشمائل: على الغباء وضعف الإرادة والعجز عن التصرف وعلى الكسل والهوان والرضا بالقبح... وهذه جمعاء من شر الخلال. والثراء

المكسوب مما يدخل تحت الطاقة الإنسانية بدليل أن من يعملون له بقوة وصدق وذكاء ينالونه. فمن عجز عنه ورضي بالفاقة واستسلم لها كان معنى هذا أنه قد فرط في إستخدام قواه القادرة رغبة منه في الكسل وركوناً إلى الضعف. ومن كان كذلك كان حرياً بالملامة.

وقد كانوا يرون أن من الدلائل على قرب الإنسان من الله وجدارته بحمل رسالته أن يكون غنياً مفرط الغنى، وأن تكون له كنوز وجنات تجري من تحتها الأنهار وتتفجر خلالها الينابيع كما كانوا يرون من جهة أخرى أن الفقير السيء الحال ليس خليقاً بأن يكون نبياً ولا أن يؤمن به الناس ويتبعوه... وقد حكى الله عنهم قولهم: "وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها"... "وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً - إلى قوله - أو يكون لك بيت من زخرف..."... وهذا خلاف رأي الزاهدين القانعين... ولا غرو أن يقتحم شعب - هذا رأيه وقوله - سدود الحياة، وأن يلبي من دعاه إليها بذلك العزم الذي تناثرت أمام وثباته العروش... وحب الحياة وحب طيباتها أساس كل نشاط وإبداع ونبوغ... وقد كانت قريش - من أجل هذا وغيره - في مدينتها المقدسة، في تلك الأيام الجاهلية - يوم أن كانت ترى في الحياة هذي الآراء - منعمة متفضلة على زوار مدينتها، لقدرتها المالية ونشاطها الإقتصادي، فكانت تطعم الحجيج وتسقيهم وتؤويهم بدون أن تتقاضى منهم أجراً، بل كان أشرافها يتنافسون على ذلك، وكان الفائز بإطعامهم يعد فائزاً بسنام المجد وضئضيء الشرف.

ومن المصائب أن الناس هنالك لما أن تغيرت أفكارهم ونظراتهم إلى الحياة وآمنوا بالزهد والقناعة صاروا هم ينتظرون حياتهم من الحجاج، وأصبحوا في مكان المنعم المتفضل عليه بعد أن كانوا في مقام المنعمين المتفضلين! فلننظر كيف تهبط الأفكار بالأمم وكيف تصعد بها!

ومن براهين منزلة المال في نفوسهم أيضاً أنهم كانوا يتعجبون - بل ينكرون - أن يهتدي الفقراء ويضل الأغنياء لأنهم كانوا يعتقدون أن الغنى لا بد أن يكون ألمع ذهناً وأقدر على معرفة الحق وأعظم كرامة على الله من الفقير بدليل نجاحه في الدنيا. فلو كان عقله وتفكيره دون عقل الفقير ودون تفكيره - ولو كانت أيضاً

منزلته عند الله دون منزلته لما امكن أن يخص بالثراء، لأن الثراء إما أن يكون بالحيلة أو بالفضيلة، وعلى الإحتمالين معاً فالغني الوجيه أولى بمعرفة الهدى! ومن قولهم – كما حكى القرآن: "لو كان خيراً ما سبقونا إليه."...

ومن حديث القرآن عنهم أن التكاثر بالأموال والأولاد قد ألهاهم وشغلهم حتى زاروا المقابر، أي حتى ماتوا كما في قوله: "ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر."

وكما في آيات أخرى معروفة. ومعنى هذا أن الحياة قد شغلت وجودهم كله وملأته بأسباب طلبها.

وقد كان حب الجمال دائماً هو مبدأ حب الحياة – ومن الممكن أن يقال على نحو آخر إن حب الحياة بداية حب الجمال – فأنت صادق إن قلت: أحب الجمال فأحب الحياة أو قلت: أحب الحياة فأحب الجمال... وقد بلغ العرب – أيام الجاهلية – في حب الجمال مبلغاً جعلهم يكادون يصيرونه – أي الجمال – ويصيرون التغني به موضوع شعرهم وأدبهم وخيالهم المشبوب ومنطقهم الدفاق... ونحن لو جمعنا كل ما خلفوه من شعر وأدب وقصص ثم قسمناه أقساماً لوجدنا أن ما قالوه في الجمال وحده وفي أوصاف الجميل الجسدية والروحية أضعاف ما قالوه في كل مواضيع الحياة الأخرى... وقد كانت المرأة عندهم – وهي كذلك عند الأمم كلها – مجلى هذا الجمال ورمزه ومبعثه وصورته البارعة الفاتنة، فأكثروا من القول فيها وفي أوصافها وأوصاف أجزائها، ولم يجدوا غضاضة – لا سوقتهم ولا أشرافهم – في ذلك، بل لم يجدوا غضاضة في أن يتقدم أحدهم ليمدح ملكاً من الملوك فيبدأ مديحه بالمرأة وبجمالها ومحاسنها الظاهرة والباطنة، بل اتفقوا – المادح والممدوح – على أن ذلك هو ما يجب أن يصنع حتى قالوا في هذا: "إذا كان مدح فالنسيب مقدم." وقد أبدعوا كل الإبداع – أو أغرقوا أجمل الإغراق – في تحديد صفات الجميل المادية والمعنوية، وأنجدهم في إبداعهم وإغراقهم خيال وثاب، فسموا بالحب والمحبوب بل والمحب سمواً لا يزال حتى اليوم – وقد يبقى الأبد كله كذلك – فوق المتناول. فألهبوا خيال أمتهم، وحلقوا بها فوق كل سماء وكل وجود، وطافوا بها في عوالم كلها النور والبهجة والسرور. فكان هذا كله إعداداً لها لأن تثب وثبتها التاريخية الكبرى، يدفعها ذلك الخيال المشبوب المرهف، وذلك التصور للجمال الذي أبدعوه وابتدعوه. وشعر العرب خليق من أجل ما ذكر بأن يسمى شعر

الجمال... وقد ثبت في تاريخ كل الأمم التي أوجدت التاريخ أنها كانت تذهب هذا المذهب في حب الجمال وتصوره - على درجات متفاوتة - فالمصريون والهنود والإغريق والرومان والعرب - وكذلك الغربيون اليوم - كانوا هكذا. وقد يدلنا على هذي الحقيقة ما تركته لنا هذه الأمم من آثار وبنايات ورسوم وتماثيل وأشعار وآداب - كما ثبت من جهة أخرى أن الأمم التي لا تكون كذلك تعجز عن أن تبدع في الحياة وعن أن توجد لها بين سطور التاريخ حديثاً يقرأ فيشوق. ومن الواجب أن نعتقد أن الأمم أجمع إنما هي صنع خيالها، وأن خيالها إنما هو هبة رجالها الذين استطاعوا أن يسبقوها في التصور والتصوير وأن يحدوا لها على أنغام المثل العليا. فإن الأمة تتخيل فتفكر ثم تعمل.

ولكن كل أسلوب وكل كلام في محاولة التدليل على فضل المال وفضل القدرة على كسبه عند العرب لا يبلغ مبلغ هذين المثلين اللذين تثبتهما هنا: أحدهما ما جاء في حديث بدء الوحي، وذلك أن الرسول عليه السلام لما أن تجلى له الملك أول ما تجلى وأمره بالقراءة ونزل عليه ببعض القرآن رجع إلى زوجه خديجة مذعوراً وهو يقول (زملوني زملوني) ثم قص عليها الخبر وقال لها (لقد خشيت على نفسي) فقالت له خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً - وفي رواية لا يحزنك الله أبداً - إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. والمثل الثاني أن أذى المشركين حينما ألح على المسلمين خرج أبو بكر قاصداً الهجرة كما خرج غيره فلقيه أحد أشراف قريش وهو في طريقه مهاجراً، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. فقال له ذلك الشريف المشترك: إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج. إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. فأنا لك جار.

والشاهد في الروايتين قوله (تكسب المعدوم) أي تكسب الشيء الذي لا يستطيع سواك أن يكسبه لبعد مناله، ولأن كسبه يحتاج إلى وسائل قوية وأعمال بارعة حاذقة وأساليب هي القوة والمهارة، وإلى نفس متوثبة طموح... وهذا يساوي أن يقال (كلا والله لا يخزيك الله، إنك لرجل تاجر ماهر)، وأن يقال (إن مثلك لا يخرج ولا يخرجه الناس لأنك رجل تفوق الرجال جميعاً في القدرة على كسب المال وعلى النجاح في التجارات) وهذا آية في أن قريشاً كانت ترى القدرة

على كسب المال وعلى الثراء الممتاز من فضائل الرجال النادرة المعدودة.

وقد الهمت هذه الروح عمرو بن العاص قولته المشهورة: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) ذكرها عنه الجاحظ في كتاب البخلاء - وقد رويت حديثاً أيضاً. ويعني بذلك أن الواجب على العاقل أن يدأب في طلب الدنيا دأب من يظن أنه لن يموت وأن حاجاته ومآربه لن تموت ولن تنتهي. ومعنى هذا بذل كل ما في طوق القوة العقلية والبدنية رجاء الظفر بأثمن ما في هذا الوجود من جمال. ومثل هذا القول لن يوجد إلا لدى أمة استطاعت أن تفهم الحياة وأن تستمتع بها إستمتاعاً بريئاً من العقد النفسية ومن العلل الإجتماعية، ومن العقائد الصوفية الزهدية...

وقد تلفتت المنافسة اليهودية العنيفة إلى هذا المجتمع الإقتصادي، فلم تر لأقدامها هناك موضعاً، فرجعت مشيحة بوجهها تتلمس الأماكن الضعيفة في الجبهة التجارية العالمية، فوثبت على المدينة المنورة وعلى ما حولها من القرى والواحات، فأنشأت لها ثمة مراكز عديدة حصينة لأن أهل المدينة كان وجههم وإهتمامهم إلى الزراعة دون التجارة. أما مكة، وقد كانت أعظم سوق تجارية في البلاد العربية كلها، فقد كانت بمنجاة من هذا الخصم الشديد المنافسة القوي الضغط على من يحاول مجاراته ومناوأته. وهذا لأن القرشيين كانت لديهم حينذاك مناعة إقتصادية تفوقت على البراعة اليهودية. ومثل هذا يقل أن يوجد في شعب من الشعوب مهما علا شأنه وسمت روحه المالية، لأن اليهودي قد استطاع بمهارته وبأساليبه التجارية الرائعة الخفية المدارك والمسالك أن يهاجم المعاقل الأوروبية والأمريكية وأن ينال منها ما يريد - هجوماً ودفاعاً - وحسبك بالأوروبي والأمريكي منافساً.

وقد يطيب للقارىء هنا أن يسأل: ما السر في تمتع قريش ومن معهم بهذه الروح الإقتصادية القوية، وما العوامل الحقيقية العاملة على تنميتها وعلى حفظها من الإنهيار والدمار وقد يطيب لنا نحن أن نحاول الجواب على هذا السؤال فنقول:

إن الشعوب والأمم لها دائماً حالتان: حالة طبيعية سليمة، وحالة أخرى تتواثب وتتوافر عليها الأمراض الإجتماعية والنفسية والإعتقادية... أما الشعوب والأمم التي تكون في الحالة الأولى، أي الحالة الطبيعية فإنها تنظر إلى الحياة نظرات صحيحة سليمة وتتناولها تناولاً صحيحاً سليماً، وتأخذ بها

أخذاً صحيحاً سليماً... وهذه النظرات والتناول والإستمتاع توجب أن تتناول الحياة بأجمل وأحسن صورها وبأبرع وأقوى احتمالاتها وتقلباتها. لأن الحياة لها جوانب مريضة وجوانب أخرى سليمة – أي جوانب عادية طبيعية وجوانب أخرى تكيفها الأمراض والأسقام. والشعوب السليمة أو القريبة من السلامة إنما تقبل من الحياة جانبها السليم ووجهها المشرق الباسم. أما المريض فإنها ترفضه وتنكره بقوة مزاجها وتفكيرها وصحتها لأنه غريب عن طبيعتها... وأما الشعوب التي تكون في الحالة الثانية – أي حالة الإعتلال والإنحلال – فإنها تحرم هذه النظرات الصحيحة للحياة وهذا التناول والإستمتاع الصحيحين السليمين... وحينئذ تصوغ فلسفتها النظرية والعملية أيضاً صياغة فاسدة، فتهب تنشد الفقر والمرض والجوع والذل والموت الإجتماعي وكل ضروب الشقاء بكلامها وأعمالها، كالذي حدث عند كثير من الأمم الشرقية وعند المسلمين في عصور إنحلالهم.

وقد كان العرب – ولا سيما قريش – متمتعين بالحالة الأولى أو القريب منها – وهذا مقصود به جانب التفكير والفهم للحياة لأن الجوانب الأخرى كانوا فيها كغيرهم مرضى. والسبب في نجاة العرب في هذا الوجه من وجوه الحياة أن أسباب فساد النظر إلى الوجود تتلخص في أمور: منها الحرمان والفاقة الناشئة من فساد الحكم وظلمه وطغيانه. ومنها الظلم الأدبي الذي ينصب على الشعوب بغزارة باسم الدين أو على حساب النظم الإجتماعية أو التقاليد البالية الجائرة. ومنها الإضطرابات التصورية التي تتولد في العادة عن حالات خاصة تصيب المجتمع المضطرب وتصيب أهله بألوان كثيرة من الشذوذ. ومنها شيوع المذاهب الفلسفية والدينية المختلة. ومنها جور الطبيعة الجغرافية – أي بأن تكون طبيعة البلاد غير مستقرة ولا ثابتة ولا مأمونة المفاجآت. فإن مثل هذه الطبيعة توحي إلى أهلها بالكثير من الأفكار التي لا تكون في العادة عادية ولا سليمة من ناحية التصور والتصوير إلا إذا كان أهل مثل هذه الطبيعة قد اجتازوا جميع مراحل الطفولة الإنسانية وبلغوا سن النضج والإستواء... والكائنات الحية بل والجامدة هي بلا ريب أبناء طبيعتها والأبناء على رغم كل خلاف في سنن الوراثة وقانونها لا بد من أن يأخذوا من آبائهم شيئاً بل أشياء. ومنها غير ذلك مما يمليه الظلم أو فقد العلم، مما يجعل النظر إلى الحياة نظراً غير صحيح وغير سليم.

والعرب كانوا في جاهليتهم وفي جزيرتهم بعيدين عن جميع هذه الأسباب، فكانوا ينظرون إلى الأشياء بعين الصحيح السوي في تفكيره وعقيدته وغريزته، فكانوا يستمتعون بها بكل الأساليب إستمتاع من عداه المرض بكل أشكاله وصوره: بحياته وقواه.

هكذا كان العرب في جزيرتهم وجاهليتهم بينما كان العالم كله شرقيه وغربيه تنوء كواهله الواهنة المحطمة بالمذاهب الصوفية، وبالآراء الباطلة الفلسفية، وبالتقاليد والقوانين المستبدة وبكل ما يوهي ويوهن... حالة لو أن أحد علماء النفس والإجتماع التفت إليها بعين علمه لرأى العرب في جزيرتهم بين الأمم يشبهون واحة خصبة خضراء، وسط صحارى لا حدود لها جدباء. وهذا كما لا يخفى إذا استطاع ألا تخدعه المظاهر المزيفة، ولا السمعة القديمة المكذوبة، ولا السلطان الواسع المهلهل، ولا الضعف المجلل بالدعايات، ولا غير ذلك مما يصرف عن الحقائق.

مما يجب أن يلاحظ هنا – ولا أدري ألاحظه أحد أم لا – أن الأمم حول جزيرة العرب كانت إذ ذاك تتلوى تحت أعباء الملكية المستبدة الطاغية التي كانت تأخذ كل شيء من الشعب ثم لا تعطيه شيئاً. ولكن العرب قد استطاعوا بأخلاقهم العجيبة الأبية وبتربيتهم التي لم يمسها الذل المميت أن يرتفعوا فوق هذا النظام وأن ينجوا منه ويأبوه. فلم تستطع الملكية – وكل الملكيات في تلك العهود ملكيات طغيان واستبداد – أن تجد لها بينهم مكاناً. وقد عد المؤرخون الجاهلون الذين تولوا الكتابة والتأليف عن العرب وأحوال العرب هذا من دلائل إنحطاطهم وطبعهم على الفوضى وبغض النظام. غير أن علماء النفس والإجتماع لا يشكون اليوم – لو سئلوا – في أنه من براهين سموهم وسمو تربيتهم وتحليقهم فوق ما يجلب الهون والإستعباد. وقد رأينا الأمم في العصر الحديث لما أن بلغت الرشد الخلقي والقانوني والإجتماعي – أو كادت – تعصف بتلك الملكيات الجائرة، وتنطلق بسرعة وشغف إلى النظام الجمهوري. ولم تبق من الملكيات إلا ما كان إسمياً فقط، وما يجرد الملوك من الملك، وما يسلبهم كل سلطة سوى سلطة الموافقة والتوقيع. وقد عد هذا من حسنات العصر الحديث وفضائله وتسامي عقله. وقد أبى الرسول الكريم وخلفاؤه الأولون أن يكونوا ملوكاً، وما استطاع العرب أن يصبحوا ملوكاً حقيقيين إلا في دمشق وبغداد والقاهرة وغيرها من

العواصم خارج بلاد العرب. وقد أشار الله إلى هذه الفكرة بقوله: "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة. وكذلك يفعلون" فالملوك إذن كانوا يفسدون، وكانوا يذلون الأعزاء. وهذا ما يأباه العرب وما يرفضونه. ومن هنا جانبوا النظام الملكي.

ومن رأى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية، ورأى ترفعه على أخلاق الملوك وعلى كبريائهم، وشاهد تواضعه وقربه من الشعب وقرب الشعب منه علم كيف تنأى أخلاق العرب - جبلة وطبعاً - عن جبروت الملوك وعن مراسيمهم التقليدية المعقدة التي تزرع الأحقاد والعداوات في الصدور - وعلم أنها عند العرب إمامة أصدق منها ملكية. وقد قيل إن بين العرب وبين الإنجليز توافقاً في الأخلاق، ولو قيل إن أظهر دليل على هذا هو نظام الملكية عند الأمتين وتجردها من الطغيان والإستبداد وإختصاصها بالحب المشترك المتبادل بين الشعب والملك ورفع التكلف، لكان قولاً صادقاً. ومن حضر مجلساً من مجالس جلالة الملك عبد العزيز آل سعود آمن بصدق هذا كله.

وليس بعث محمد صلى الله عليه وسلم في الجزيرة العربية لمجرد الصدفة أو لمجرد الإختصاص أو حب الإختصاص الذي لا سبب له، أو بمجرد القضاء والقدر اللذين يتصورهما العامة وأشباههم من الخاصة، أو لنسب وانسجام بين القدرة الإلهية وبين هذه الجزيرة وأهلها. كلا لا شيء من ذلك. ولكنها الشمس إنما تشرق في مكانها وأوانها، والنجوم إنما تدور في مداراتها وتطلع في أوقاتها. الله أعلم حيث يجعل رسالته. وهذه قضية في حكم البدهيات عند علماء الإجتماع لا يختلفون فيها وإنما يختلفون في أسبابها وعللها. ولو أن العرب لم يكونوا كذلك لما استطاعوا أن يحملوا هذه الرسالة ولا أن يقوموا بحقها لو أنها فرضت عليهم فرضاً.

والنهضات والقيادات الدينية تشبه من وجوه كثيرة النهضات والقيادات السياسية من حيث وجوب التهيؤ والإستعداد والصلاحية لها. ولن يبعث الله رسالته إلى أمة فاقدة لعناصر النهوض والإستعداد للنهوض بها، كما أنه لن يسود شعباً على الشعوب وهو أقل منها علماً وعقلاً وأخلاقاً وصفات بل ولا وهو مثلها. بل لا بد من الإمتياز ليكون سبباً للسيادة ومقتضياً للتفوق... بل القيادة الدينية بمعناها الصحيح العام تلزمها القيادة السياسية والإدارة العامة وكل

ما هنالك... وهذه الكفايات لا يمكن أن تهبط على الشعوب من السماء: فالسماء كما أنها لا تمطر ذهباً ولا فضة فإنها لا تمطر أيضاً سيادة ولا مجداً... ولا يمكن أن توجد فيهم طفرة بدون أسباب وعلل... كل هذا صحيح ولكن ما الذي حدث؟

حدث أن أرسل الله إلى عبده ورسوله محمد عليه السلام في الأوان المهيأ المعلوم وعند استجماع الشروط، يأمره بأن يبعث قومه العرب ويبعث العالم معهم بعد أن علم أنهم قد تهيأوا لهذا البعث والإنبعاث. فوثبوا وثبتهم فدخلت الأمم والشعوب برمتها في دينهم ودولتهم... ولكن من سوء حظ الإنسانية - والحظ مهما نطلقه نقصد به غير الحظ عند العوام ونظرائهم - أن كل حادث مهما كان سعيداً لا بد أن يحمل معه نتائجه... هذه الحضارة والكشوف العلمية الحديثة وفوائدها تجل عن الإحصاء قد جرت معها نتائجها - أو على الأصح ما عد نتائج لها - حملت معها هذا التدمير المروع وهذه الحروب العلمية المهلكة، وكذلك هذان البعث والإنبعاث العربيان قد حملا معهما نتائجهما وذلك أن الشرق كان - وهو لا يزال كما كان - يتثاقل تحت هياكل الأديان والمذاهب وتحت بقاياها المحطمة - والأديان كلها كما هو معلوم كان مهبطها الشرق وحده. فهناك أديان الهند والصين وسائر أجزاء الشرق الأقصى. وهذه الأديان والمذاهب كلها تقدس الألم والعذاب والحرمان والتجرد من اللذائذ المادية، وتقدس الإستسلام والمسكنة والهوان والذل وسائر هاتيك المعاني، ذاكرة أن العناية بالروح والروحانيات هي السبيل إلى الكمال وإلى السعادة الأبدية. وما فتئت الهند وسواها حتى اليوم تتمزق تحت سياط هذه المذاهب وتئن تحت أثقالها... وهناك بقايا الديانة المسيحية المحرفة الملفقة وما تدعو إليه من الرهبانية ومن الإنقطاع والإنفصال عن الدنيا ومن الحث لأتباعها وللمؤمنين بها على أن يعملوا لأن تكون أموالهم وتجاراتهم ومنازلهم وأجران قمحهم وكل ما يطلبون في السماء، حيث لا سوس ولا لصوص، على تعبير الإنجيل، وحيث لا فساد ولا كساد - ثم ما تنادي به من الخضوع للظالمين المعتدين وإعطائهم ما يريدون من ضرب الحدود والجلود وأخذ الأردية والأزر، وغير ذلك من فروض السخرة، حتى إن من سخر للسير ميلاً وجب عليه أن يسير ميلين - كما تقول نصوص هذه الديانة.

ومن المعقول المفروض أن يكون كل هذا مما يدعو إليه هذا الدين، لأنه نشأ في

كنف قسوة أعدائه الأقوياء على أيدي أهله وحوارييه الضعفاء. ولا بد من إستسلام الضعيف الآتي بالمبادىء الجديدة لمن يسوده ويحكمه، ولا بد أن يحض الرؤساء من أهل هذه المبادىء أتباعهم على الخنوع وأن يكون شعارهم: "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" أي اعطوا إله الأرض كل ما يطلبه منكم كما تعطون إله السماء ذلك. ولو لم يدعوا إلى ذلك لدمروا.

وهنالك الديانة اليهودية والمجوسية وسواها من الديانات الفارسية - وهناك ديانة الصابئة... إلى أديان أخرى كثيرة يموج بها الشرق إذ ذاك موجاً وينوء بأعبائها نوءاً.

وكانت هذه الديانات والمذاهب تكاليف باهظة تدفع ثمنها رجولة هذا الشرق وسعادته وقوته وحياته. وكانت الحالة الإجتماعية والقوانين الإجتماعية تعمل بدأب وإخلاص على تنمية هذه الآراء والتعاليم عملاً حثيثاً متواصلاً. فالحكومات ورجال الدين وغيرهم وما فرضوه وخلفوه ونشروه من يأس وقنوط وحرمان وإذلال وجهل وظلم وأشياء أخرى كانت إحدى نتائجها فساد التصور وفساد الذوق وفساد الحكم على الأشياء. بل كان إحدى نمتائجها المرض الأدبي العام... وكان ما يرى ويعلم هناك حينئذاك يوحي لهذا الفساد بالبقاء والإستمرار.

ولكن بينما كان كل شيء في هذا الشرق، بل وفي الغرب، كما ذكرنا وفوق ما صورنا إذ بالخيول العربية تنساب في سهول هذا الشرق إنسياب النور بعد ليل اشتد ظلامه وطال مقامه. وإذا بهذه الشعوب والأمم تتفلت من تلك الأصفاد والأغلال أو على الأصح تحاول أن تتفلت. ثم تعلم مختارة راضية دينونتها لدين العرب ودخولها في دولتهم. ولكن كان ما ذا؟ دخلت هذه الشعوب والأمم في الدولة العربية والديانة العربية والثقافة العربية تحمل معها بقايا أصفادها وأغلالها وتصوفها ودهدها ورهبانيتها وإستسلامها وكل ما كانت فيه. فوجدت العرب الأحرار - أبناء الحرية وأبناء الصحراء الحرة، الحر ما فيها - لا يعرفون سوى التساهل والإخلاص وسلامة الضمائر وحسن الظن والسرور بكل من يفد عليهم معلناً قبوله ما جاءوا به... وهنالك في تلك البيئة العربية الحرة المتساهلة راح أبناء هذه الشعوب والأمم ينفثون تلك الآراء والعقائد والجراثيم الإعتقادية على حساب الإسلام وعلى أنها لباب الديانة الإسلامية - وراحوا يؤلفون

ويقصون ويعظون ويرشدون ويفسرون ويحدثون ويتصوفون ويزهدون... فامتلأ الجو بالدخان وغامت السماء الصافية الصحراوية، واحتجبت بالغيم الذي يمطر الشقاء والعذاب، وأخذ يتلاشى ذلك النور المشرق من فوق جبال مكة وأخذ يخالطه الظلام ويطغى عليه... فتمت المصيبة وأطبق الظلام ثم رجعت هذه الشعوب إلى ما كانت عليه تتخبط في دياجيرها وتتهاوى في عذابها، ولكنها هذه المرة راحت تتخبط ومعها قسم كبير من العرب أنفسهم الذين رفعوا المشاعل، فكان الخطب أفدح.

احترف هؤلاء الأبناء صناعة الدين والعلم، وصار أكثر من يدعون العلماء والشيوخ منهم. وأسباب هذا معقولة طبيعية. فعمدوا إلى القرآن والسنة وإلى مبادىء الإسلام يحاولون فهمها أو يحاولون الكلام فيها، وراحوا يفسرونها بالروح التي دخلوا بها. وكانوا عاجزين عن أن يدركوا إدراكاً صحيحاً شرائع الإسلام وأوامره ونواهيه ونصوصه وأهدافه لأمور: منها أنهم كانوا لا يعرفون اللغة العربية معرفة صحيحة كاملة لأنهم غرباء عنها، ومن تعلمها منهم لم يستطع النفوذ إلى أسرارها نفوذ الخبير. ومن جهل اللغة جهل ما أنزل فيها بلا شك. ومنها أنهم دخلوا يحملون في نفوسهم وعقائدهم جراثيم ذلك المجتمع الفاسد الذي خرجوا منه: يحملون مبادىء خبيثة ورثوها عن عهود الإستبداد والحرمان والظلم، وعن العبودية لغير الله، وعن تلك السياط التي كانت تتلهب على ظهورهم، وتنتزع جلودهم، وتعلو وجوههم، وعن ذلك الكذب والدجل الكهنوتي، وعن تلك العقد والعلل النفسية التي ولدها ذلك الشر الشامل المستطير في تلك العهود وعن تلط النزعات الصوفية الزهدية المخدرة... فكان من العسير أن يتخلصوا منها لمجرد أن أعلنوا الدخول في الديانة الجديدة، وكان من العسير ألا تكون تلك البقايا والمخلفات مسيطرة على ما يكتبون ويقولون. بل كانوا يلفظونها زاعمين أنها الإسلام حاملين عليها مؤولين ما لا يمكن حمله عليها من نصوصه، مختلقين الروايات والأحاديث والأقاصيص ليؤيدوا بها ذلك الباطل.

وقد حاول هؤلاء أن يتقربوا إلى أصحاب الدين الجديد وأن ينالوا رضاهم والحظوة لديهم، فوجدوا بدون عناء كبير من التفكير أن أعظم وأضمن وسيلة إلى ذلك هو التدين والتظاهر بالدين والعكوف على التأليف والكتابة وعلى نشر

الغرائب ونشر ما لم يسمع به أهل هذا الدين من أعاجيب الكلام في الزهد والرقائق وإمتداح الآلام وصنوف العذاب بل وامتداح الذل والمهانة وضآلة القدر وخمول الشأن، بل وامتداح الأمراض والأسقام بل وامتداح الجهل والغباء، بل وامتداح الجنون والعته والخبل!!

وقد يذهب بعض الباحثين المفكرين إلى أن طوائف من أولئك الأبناء إنما حملهم على ما فعلوا وكتبوا وقالوا هو سوء القصد وإرادة الكيد لهذا الدين وأهله المنتصرين... من الممكن أن يكون هذا المذهب والإحتمال صحيحاً في نفسه وأن يكون غير ذلك، فهذا محل للخلاف. ولكن الذي لا خلاف فيه هو أنهم أغرقوا العالم الإسلامي بطوفان من الكتب والمقالات المخدرة المدمرة التي تدعو بلا حياء إلى كل هذه الآفات والتي تمتدحها وتدعوها أسمى ما في الأديان من مبادئ.

وإني أستطيع أن أقول هنا - ولست أشك في صدق ما أريد أن أقول - إننا لو حشدنا جميع المؤلفات التي تركها هؤلاء لنا ثم جهدنا على أن نخرج منها كتاباً واحداً أو رسالة واحدة لا تمدح الفقر والشقاء ولا تذم الحياة والجمال لأعوزنا هذا الكتاب، ولما وجدنا تلك الرسالة.

وقد أطالوا الكلام جداً ولونوا الحجج والأساليب في الثناء على هذه الآفة ومشتقاتها - أعني الفقر - وقد ذكروا أن أعمال الخير كلها تنطوي تحت هذه اللفظة، وأنه أي الفقر هو كل شيء! فحكوا عن البسطامي - أحد شيوخهم المعبودين - قال أوقفني الله بين يديه وقال لي: بم جئت يا أبا يزيد؟ فقلت يا رب جئتك بما ليس في خزائنك منه شيء! فقال وما هو يا أبا يزيد؟ قلت: الفقر والإفلاس! فقال جئتني بكل شيء! !وقد زوروا هنا روايات لا يحصيها المحصون. والروايات التي ذكرت في بداءة هذا الفصل هي نموذج صغير لما زوروا في هذه المسألة. ومما ذكروا أن الرسول قال لبلال: (الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً وإلا فالنار.) وقيل يا رسول الله أي أمتك شر؟ قال: (الأغنياء.) وقال (لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا.) وحكوا أنه عليه السلام دعي مرة للصلاة على رجل من أصحابه فقال (انظروا هل ترك وراءه شيئاً) فقالوا نعم ترك دينارين أو درهمين فقال عليه السلام (كيتان في النار أو جمرتان.) وقيل له في رجل آخر إنه ترك ثلاثة دنانير فقال عليه السلام (ثلاث كيات) وأنه قال (من ترك ديناراً فهو له كية.) وحكوا أن رجلاً من أهل الصفة توفى فوجد في مئزره دينار فقال عليه

السلام (كية) ثم توفى آخر فوجد أيضاً في مئزره دينار فقال (كية) كما حكوا أنه عليه السلام أبى أن يصلي على من ترك شيئاً. ورووا أنه قال: (إن الله إذا أحب عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء.) ورووا أنه قال (الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له) وأنه قال (اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين.) والمساكين هم الفقراء البائسون اليائسون، كما دلت موارد هذه الكلمة كلها في القرآن. وأنه قال (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها) وقال (الدنيا جيفة وطلابها كلاب)، (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقي الكافر منها جرعة ماء) وأنه قال مرة لأحد أصحابه (أما ترضى أن تكون لهم - يعني الكفار - الدنيا ولنا الآخرة) فقال الصحابي بلى، فقال (فإنه كذلك) (ما ذئبان جائعان ضاريان أرسلا في غنم بأسرع فساداً فيها من امرىء في دينه يحب الشرف والمال.) بل رووا أنه عليه السلام قال (المؤمن لا يخلو من ذلة وقلة وعلة -) ذكره العجلوني وابن علان حديثاً، وذكره الغزالي في الإحياء على أنه من كلامه.

والروايات في مدح الفقر والفاقة وذم الدنيا والغنى كثيرة جداً لا يخلو منها كتاب! بل ادعى جماعات من هؤلاء أن غاية الدين وجملته أربع كلمات: إحداها كلمة: (ازهد في الدنيا يحبك الله) ونظموا ذلك شعراً قائلين:

غاية الدين عندنا كلمات

مسندات من قول خير البرية

ثم عدوا الكلمات الأربع وذكروا منها الزهد. ولهذا قال الشيخ الغزالي في كتابه مكاشفة القلوب وفي غيره من كتبه: إن الأنبياء ما جاءوا إلا لذود الناس عن الدنيا! ومثل قوله هذا قال سائرهم.

ومن السهل أن يأخذ القارىء ما شاء من الكتب ثم يفتحه ثم يقرأ الأبواب فسيجد في كل كتاب من هذه الكتب قولهم مثلاً: (باب مدح الفقر)، (باب مدح الفقراء)، (باب مدح الزهد)، (باب مدح الزاهدين)، (باب ذم الدنيا)، (باب ذم أهل الدنيا)، (باب ذم الغنى)، (باب ذم الأغنياء)، (باب الترغيب في ترك الدنيا)، (باب الترهيب من الدنيا)، (باب فضل الخاملين والساقطين...) وحتى كتب الحديث الصحيحة تجد فيها هذه الأبواب ولا تجد ما يخالفها. وهذا أمر قد وقع عليه إجماعهم.

وهذا الشيخ النووي ألف كتابه (رياض الصالحين) لهذا الغرض - أي غرض الذود عن الدنيا والتنفير منها - وقد صدر الكتاب بأبيات من الشعر الميت جاء فيه:

إن لله رجالاً فطناً
طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا إليها فلما علموا
أنها ليست لحى سكناً
جعلوها لجة واتخذوا
صالح الأعمال فيها سفناً

ولا يخفى على القارىء ما يرمي إليه هذا الشعر الذي بقي منذ قيل إلى اليوم أنشودة المنشدين، وترنيمة الواعظين، وخمرة الشاربين ولا يدري هؤلاء القائلون لمثل هذا أن الرجال الفطناء إذا طلقوا الدنيا تزوجها بعدهم الأشرار والأغبياء فحكموا بها عليهم وعلى فطانتهم وقادوا العالم - وفيه هؤلاء الفطناء - إلى ما يريدون ويحبون، وأنهم إذا ما طلقوها فقد هلكوا ولا بد.

وقد وجدنا كتباً كاملة قد وضعت لهذه الأغراض، فوجدنا ابن أبي الدنيا - وهو أحد الحانين بالفقراء - يؤلف كتاباً يسميه - من غير أن يشعر أنه أخطأ أو أنه يمكن أن يعد مخطئاً - (ذم الدنيا) ووجدنا كتباً كثيرة تسمى كتب الزهد. وهذا كله معلوم لا فائدة من الإطناب فيه.

ومما لا نزال نذكره بكثير من الألم والأسف أننا قرأنا في كتاب قيم لإمام من أئمة الإسلام الأعلام أجللناه عن ذكر اسمه في هذا المقام قال فيه: سئل أحد أئمة التابعين - وهو الحسن البصري - عن رجلين: أحدهما عمل في الدنيا بقصد أن يصيب منها ليصرف ما يصيب في مصارف البر ووجوه الخير وفي الطاعات وضروب الإحسان... فأصاب منها ما أصاب فوضع كل ما أصاب كما أمر الله أن يوضع بإخلاص وصدق نية... هذا رجل، ورجل آخر أعرض عن الدنيا إعراضاً كاملاً، فلم يعمل فيها شيئاً وأصبح كلاً على المجتمع... أي الرجلين أفضل! فقال: بعيد والله ما بينهما، بينهما كما بين المشرق والمغرب - الذي ترك الدنيا أفضل! وقد نقل هذه الرواية والحكاية والفتوى الغزالي في إحيائه مسروراً بها.

ولما أن كان رأي هؤلاء الشيوخ هو ذم الدنيا بكل وجوهها وفروضها، وذم كل الأغنياء: من كانوا وكيف كانوا فقد ارتكبوا إثماً عظيماً هنا لما قيل لهم: إن كثيرين من الصحابة كانوا أغنياء وأنهم لم يحاولوا أن يطلقوا الدنيا – أمثال عبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة بن عبيد الله وآخرين كثيرين – فقد ذهبوا يخلقون روايات في ذم هؤلاء الصحابة الأغنياء وثلبهم، وقد ذكر بعض هذه الروايات الحارث بن أسد المحاسبي والشيخ الغزالي وصاحب مجمع الزوائد وسواهم.

* * *

ولقد تطورت هذه الأغراض الجنونية عند هؤلاء تطوراً مخيفاً، فذهبوا – مدفوعين أمام هذه الأعراض والأمراض – كل مذهب في طرق السخف والعماية: فلم يقفوا عند مدح الفقر والفاقة بل تجاوزوا ذلك وقاموا يمدحون الأمراض والأسقامة (وقد جدوا أبلغ الجد في خلق الروايات ونسبتها إلى من جاء لشفاء الإنسانية من جميع أمراضها) ومن أقبح ما رووا هنا ما نقله الغزالي في الإحياء وما نقله غيره أيضاً، قال: جاءت امرأة إلى الرسول فقالت: يا رسول الله إن عندي فتاة جميلة أحببت أن أهديها لك زوجة، فقال (قبلتها) ثم قالت يا رسول الله إلا أنها لم تمرض فقال عليه السلام (إذن لا حاجة لي بها) وذكر أيضاً أن رجلاً بايع رسول الله على الإسلام ثم قال إني لم أشك ولم أدر ما الشكو فأشار إليه رسول الله قائلاً: (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا)! وحكى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها، وذكر الروايتين الأوليين صاحب (مجمع الزوائد) في كتاب الجنائز... وذكروا روايات كثيرة جاء فيها أن الرسول دعا الله بأن يخص أصحابه والمؤمنين به بالحمى وسائر العلل وأن يهلكهم بالطعن والطاعون (وأنه سأل الله أن ينقل الحمى من أماكنها البعيدة والقريبة وأن يجمعها على أصحابه المخلصين في المدينة... وروايات أخرى في إمساك الحمى في المدينة وإرسال الطاعون إلى الشام! ومن المصائب أنهم صححوا هذه الروايات ولم يشكوا في أنها من كلام محمد عليه السلام.

ولكن كل هذا لا يبلغ في الشناعة مبلغ ما رواه الطبراني عن أنس بن مالك قال لقد رأيت أصحاب النبي عليه السلام حوله يتباكون يريدون أن تذهب أبصارهم وأن يصبحوا عمياناً! وأي قوم هؤلاء الذين يبكون لأن الله خلقهم مبصرين ولم

يخلقهم عمياناً...! وقد ساقوا أكانيب متعددة جاء فيها أن الطاعون لما وقع في الشام أخذ كبار أصحاب الرسول يسألون الله أن يصيبهم به وأن من أصيب به منهم خفق قلبه سروراً.

وإن أعظم برهان نضعه في يد القارىء على أن الجنون قد بلغ بهؤلاء الشيوخ كل مبلغ أن نذكر أن الشيخ الأسيوطي ألف كتاباً عنوانه هكذا (كشف المعمي في فضائل الحمى) وأن الشيخ ابن حجر العسقلاني - وهو من الحفاظ المشهورين - وضع كتاباً أسماه (بذل الماعون في فضل الطاعون)، وللسيوطي كتاب آخر اسمه (الخبر المبثوث في فضل البرغوث) ولمؤلف آخر كتاب اسمه (الطرثوث في فضل البرغوث.) وقد أكثروا جداً من الروايات التي قيل فيها إن المؤمنين والأتقياء الصالحين يخصهم الله بالأمراض والمصائب وأنه على قدر إيمان المرء ودينه يكون بلاؤه وعذابه، وأن من يرد الله به خيراً يصبه ويصب منه، والروايات في هذا مشهورة يلوكها كل لسان وتكذب فوق جميع المنابر.

وهذه الروايات على قسمين: قسم صحيح ولكن معناه غير ما ذهبوا إليه، بل المراد منه أن الذين يقومون بوظيفة الإصلاح الكبرى محاولين هداية الناس وإنقاذهم من الفساد والجهل والظلم والضلال الذي لا يخلو منه جيل من الأجيال لا بد أن يشقوا وأن ينصبوا وأن يبتلوا... لأن الهمم الكبيرة والنفوس التواقة إلى الإصلاح تشقى، ولأن الناس يتألبون عادة على من يريدون إخراجهم مما ألفوا واعتقدوا... وقسم آخر منها غير صحيح.

وعند هؤلاء القتلة أن الفقر الذي مدحوه هو الفقر في كل شيء. ومن ثمة جاءوا بأحاديث وروايات تنهي نهياً عاماً شاملاً عن العمران وعن البناء وتأمر بهدم كل ما بني مهما كانت الأغراض والمقاصد، وقد سددوا إلى الإسلام وإلى نبي الإسلام طعنة نجلاء يوم نقلوا أن رسول الله خرج ذات يوم فرأى بناء مشرفاً فقال: ما هذا؟ فقيل هذا بناء لرجل من الأنصار، فسكت وحملها في نفسه حتى جاء صاحب البناء فسلم عليه فأعرض عنه ولم يرد عليه السلام، صنع ذلك مراراً حتى عرف الغضب في وجهه والإعراض عنه فشكا ذلك إلى أصحابه فقالوا له إن رسول الله خرج فرأى بناءك... فرجع الرجل إلى بنائه فهدمه وسواه بالأرض ثم خرج رسول الله فلم ير البناء فسأل عنه فأخبر أن صاحبه هدمه فقال: إن كل بناء وبال على صاحبه. ورووا أن رسول الله رأى عبد الله بن عمرو

يصلح كوخاً قد وهي فقال: إن الأمر أسرع من ذلك – يعني بهذا أن الدنيا أقصر عمراً وأقل شأناً من أن يحاول العاقل إصلاح شيء فيها... ورووا أنه عليه السلام قال: يؤجر الرجل في نفقته كلها إلا التراب والبناء فلا خير فيه. وأنه قال: إذا أراد الله بعبد شراً حسن له البناء، وفي حديث آخر: إذا أراد الله بعبد سوءاً أنفق ماله في البنيان ونقلوا أنه عليه السلام قال: من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة على عنقه. ورووا أن العباس بن عبد المطلب بنى غرفة فقال له النبي: اهدمها! فقال العباس أهدمها أو أبيعها وأتصدق بثمنها؟ فقال: بل اهدمها. وأنه عليه السلام نهى إطلاقاً عن البناء. ورووا أنه قال: إذا بنى الرجل المسلم سبعة أنرع ناداه مناد من السماء: أين تذهب يا أفسق الفاسقين. ورووا في روايات كثيرة أن البناء إحدى إمارات الفساد والفسوق والهلاك.

وحكوا عند تفسير قول الله "أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون"أن أبا الدرداء لما رأى ما أحدث المسلمون في غوطة دمشق من البنيان ونصب الأشجار قام في مسجدهم خطيباً ونادى: يا أهل دمشق فاجتمعوا إليه! فحمد الله ثم قال: ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبتون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطلبون... فأصبح أملهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين. ورووا عن عبد الله بن عمر أنه قال – شاكراً الله على ما فعل: – والله ما وضعت لبنة على لبنة ولا غرست نخلة منذ قبض النبي.

ثم لم يقصروا عند هذا بل ذهبوا بعيداً فادعوا أنه عليه السلام قال – وهذه إحدى الطامات: – إنما بعثت بخراب العالم ولم أبعث بعمارته. نقله صاحب مجمع الزوائد من رواية الطبراني... هذا بعض ما رووا من الأحاديث والروايات في النهي عن العمران والبناء.

ثم حاولوا أن يتناولوا جانباً آخر من جوانب الحياة بالتدمير والهدم، فراحوا كالمجانين ينقلون روايات في النهي عن الزراعة وفي نم الزارعين: فنقلوا أنه عليه السلام قال: ما من أهل بيت يغدو عليهم فدان – أي ثور الزراعة أو آلة الزراعة – إلا ذلوا. وأنه رأى يوماً آلة الزراعة أمام بيت رجل من الأنصار فأشار إليها

وقال: إن هذه لا تدخل بيتاً إلا أدخل الله فيه الذل إلى يوم القيامة، كما ذكروا أنه عليه السلام نهى عن المزارعة وعن كراء الأرض، وأن جماعة من الصحابة كانوا يكرون أرضهم فتركوا إكراءها من أجل هذا الحديث تاركيها بوراً - إلى روايات كثيرة.

* * *

ثم أخذت هذه الأمراض أشكالاً أخرى حينما قاموا ينقلون لنا روايات وأخباراً وآراء في مدح القذارة ووساخة المظهر وفي ذم النظافة ومحبي النظافة، من ذلك أنهم نقلوا في شمائل مصلح الإنسانية الأكبر عليه السلام أن ثوبه كان كأنه ثوب زيات، وأنه قال: (إن العي والبذاذة من الإيمان) والبذاذة هي قذارة المظهر وسوء الحال. ونقلوا أنه عليه السلام علم أصحابه أن يبصقوا وأن يخرجوا ما في أنوفهم وأن يضعوه في أكمامهم وأرديتهم. وحكى الغزالي في إحيائه - أو على الأصح في إماتته - أن المسلم إذا كان ممن يميلون إلى النظافة في البدن والثوب رباه شيخه، وأن أحسن ضروب التربية لمثل هذا أن يلزم بكسح المجاري والإتصال بالقانورات ليعتاد إتساخ المظهر فلا يعنى بنظافة بدنه وثوبه... وما من شيء يذكر في هذا يمكن أن يكون برهاناً على عظم إساءة هؤلاء إلى الإسلام مثل ما نقلوا عن الحسن بن علي أنه أصاب لقمة في مجرى الغائط والبول فأخذها وغسلها ثم دفعها إلى غلامه فلما توضأ قال للغلام: ناولني اللقمة، فقال الغلام أكلتها، فقال اذهب فأنت حر لوجه الله. فقال الغلام يا مولاي لأي شيء أعتقتني؟ قال لأني سمعت فاطمة بنت رسول الله تذكر عن أبيها أنه قال: (من أخذ لقمة أو كسرة من مجرى الغائط والبول فغسلها ثم أكلها لم تستقر في بطنه حتى يغفر له) فما كنت لأستخدم رجلاً من أهل الجنة. قال الحافظ الهيثمي: رواه أبو يعلي ورجاله ثقات... وذكروا أنه عليه السلام ذكر مرة حوضه ومن يرده عليه أول الناس فقام عمر بن الخطاب وقال يا رسول الله من هم؟ قال: هم الشعث الرؤوس، الدنس الثياب، الذين لا ينكحون المنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد، قال فقال عمر بن عبد العزيز أنا والله قد نكحت المتنعمة فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لي السدد، لا جرم والله لا أدهن رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي الذي يلي جلدي حتى يتسخ.

ومما يقرب من هذا، وإن كان ليس منه، ما ذكره فقهاء الشافعية قالوا: إذا وجد جماعة من المسلمين ماء لا يكفيهم للوضوء لزمهم أن يبولوا فيه ثم يتوضأوا منه، وذكر صاحب القاموس في مادة (قمل) قال: خذ قملة راس ثم ضعها في ثقبة فولة ثم أعطها المريض يشف. جُرِّب هذا. ويذكر داود الأنطاكي في تذكرته الشهيرة أشياء كثيرة من هذا، وكثيراً ما يوصي بأكل القمل والحشرات وهي حية.

* * *

هذه نماذج قليلة صغيرة لما يرويه هؤلاء ولما يرونه من سوء الحال ومن الشقاء الذي كان عليه رسول الله وأصحابه على حسب زعمهم، مما يجب أن يدعى إليه المؤمنون بالرسالة المحمدية، وأن يلزموه وأن يأخذوا به ليكونوا مؤمنين حقاً.

وجملة هذه الآراء أن المطلوب من المسلم أن يموت أنواع الموت كلها بكل معانيه ومظاهره وغرائزه ولذاته ليحيا في الآخرة وأنه بقدر موته في الحياة تكون حياته في الآخرة، وبقدر حياته في الدنيا يكون موته في الأخرى وقد صرخوا بهذا تصريحاً ونظموه شعراً فقالوا – ولهم الويل:-

موت النفوس حياتها

من شاء أن يحيا يموت

فالواجب على المسلم عند هؤلاء الهدامين المخربين أن يموت في مظهره وفي ملبسه وفي بطنه وفي صحته وفي ماله وفي صناعته وزراعته وتجارته وفي كل أعماله وأموره وإلا فلن يكون مسلماً حقاً ولا مقتدياً بالرسول وبالسلف الصالحين الأولين الزاهدين. وقد بالغوا جداً في وصف الرسول ومن معه بالفاقة والشقاء وبالفقر وبموت الشهوات والغرائز الدافعة إلى العمل، المتدفقة بالإبتكار، المنشطة المبدعة وبالجوع وبسوء المظهر والحال وشظف العيش. وبالغوا في وصف تطلبهم هذه الأشياء قصداً وعملهم على أن يتصفوا بها عمداً، حتى صار فقر الرسول ومن معه مضرب الأمثال على كل لسان. فالخطباء والواعظون والصوفية وسائر أصناف المتكلمين والمؤلفين بل والعامة والشعراء يضربون الأمثال إذا شاءوا أن يجيئوا بأبلغها وأعظمها بفقر محمد عليه السلام وبفقر من معه من الصحابة وفقر من كان قبله من الأنبياء والمرسلين، حتى جرى على ألسنة العامة والنساء: الفقر على باب النبي، وراح أحد الشعراء وهو البحتري

يصف فقر نفسه وشقاءها ذاهباً كل مذهب في المبالغة فقال:

فقر كفقر الأنبياء وغربة

وصبابة؛ ليس البلاء بواحد

وليس القارىء في حاجة إلى أن نؤكد له بأن هذا كله كذب وجهل وخلاف للواقع، وأنه من الهون والهوان بالإسلام والمسلمين أن يحكي هذا على أنه من الشريعة المحمدية... ولسنا هنا بصدد من هذا وإنما غرضنا أن نذكر الأسباب والعوامل الهدامة الحقيقية التي تألبت على هذه الديانة وعلى الدائنين بها كل هذه الأحقاب الطوال فأورثتهم هذا الجمود الذي تحتاج إزالته عنهم أو - إزالتهم هم عنه - إلى زلازل عنيفة وهزات متوالية متواصلة، بل إلى من ينفخ في الصور حتى يزلزل مضاجعهم.

* * *

إن الفقر والمرض والجهل هي أعداء الإنسان منذ وجد، وستبقى كذلك ما بقي. وقد وجد هذا المثلث مع وجوده، وحبا معه في جميع مراحل تاريخه ولم يفارقه في طور واحد من أطوار حياته. فقد لزمه حينما كان يهيم في الغابات ويأوى إلى المغارات قبل أن يعرف المساكن والبيوت، وحينما ترقى إلى سكني النقر في الصخور ثم بعد أن عرف الأكواخ، ثم لزمه بعد أن سكن القصور وشاد العمارات وناطحات السحاب... وقد عرف الإنسان منذ عرف الحياة هذا المثلث، وعرف شدة فتكه وما يصبه عليه من الخراب والشقاء والدمار. وقد علم وهو في بداية تاريخه أن من الواجب عليه أن يقاوم هذا العدو وأن يواثبه، وعلم أن مقاومته مما يقع في الإمكان وحدود القدرة. فهب لهذه المقاومة منذ عشرات الآلاف من السنين التي لا يدري عددها على وجه الضبط اليوم أحد من البشر فبذل من المقاومة والمناهضة ما لا تتصوره عقولنا. وإن كل ما نتمتع به في عصرنا هذا من ثمرات الحضارة وخيرات المدنية إنما هو نهاية كل تلك الجهود التي بذلت وانتفقت لمحاربة هذا العدو اللدود... وإن تلك الجهود لتسر وإنها لتحزن! أما أنها تسر فلأنها قد توجت بنصر الإنسان أو بما يقرب من النصر، إذ قفزت به إلى هذه المدينة وإلى هذه الحياة الصحيحة أو التي تقرب من الصحة، ومكنت من إجتناء هذه الثمرات. ولولاها لما فعل ولما كاد... وأما أنها تحزن فلأن الإنسان قد لقي في هذا الجهاد من الآلام والعذاب ما لم يلقه وما لا يمكن أن يلقاه

في شيء آخر.

ولولا محاولات الإنسان المتواصلة الهرب من الفقر ومن جميع أعراضه ونتائجه لما استطاع أن يحسن الصناعة والزراعة حتى تصبحا بهذا الشكل الرائع المبدع الذي نشهده - بل لما عرفهما ولما فكر فيهما، ولما وجد ما يدفعه إلى هذه المعرفة وإلى هذا التفكير... ولولا محاولاته الفرار من الأمراض ومن بلاياها ورزاياها لما اهتدى إلى هذه الكشوف والمخترعات الطبية التي تعد من أكبر النعم التي أفيضت على الإنسانية... ولولا هذا وهذا لما استطاع أن يرتفع على الجهالة التي كانت تغمره من كل جانب، والتي كانت تقف له في كل مرصد، والتي كانت تملأ عليه الفجاج بالظلام وتسد كل طرقه بالآلام.

ولو أننا فكرنا في كل حادثة من حوادث هذا الوجود الصغيرة والكبيرة، وفكرنا في أسبابها وعللها القريبة والبعيدة، الظاهرة والباطنة، لما أمكن أن تخرج عن أن تكون أحد هؤلاء الثلاثة أو أن تكونها جميعاً.

إن أعظم حادث يشغل الإنسان اليوم، وشغله قبل اليوم، وسوف يشغله ما بعد اليوم وسوف يبقى مالئاً لجوانحه بالرعب والفزع والإشمئزاز هو الحرب ولو أننا تلمسنا أسبابها من قرب ومن بعد، وعملنا على حصرها وإحصائها، وحرصنا على أن نجد هذه الأسباب أو بعض هذه الأسباب في غير الفقر والمرض والجهل لما وجدناها ولما أمكن أن نجدها... ولو أنا بحثنا كل مشكلة من مشاكل هذه الحياة ومشاكل هذا الإنسان وجهدنا أن نعرف كيف نشأت وكيف يمكن أن تعالج وأن تحل لعاد بنا البحث إلى هذا المثلث ولقال لنا: هنا الداء، وهنا يجب أن تلتمس أسباب الشفاء.

لنسأل الآحاد والجماعات والأمم والأفراد: ما الذي تشكون، وما الذي تريدون، أو ماذا ينقصكم وماذا تحبون أن يرد إليكم؟ إنهم حينئذ لن يذكروا لنا إذ حاولوا أن يجيبوا عن أسئلتنا هذه سوى المرض والفقر والجهل - إما بالنص وإما بالمعنى.

إن أصوات البشر المتحضرين لتنطلق اليوم من كل مكان وبكل لسان، منادية مبشرة بأن مواهبهم كلها وأعمالهم أجمع ستعبأ وستحشد للقضاء على هذه الشرور الثلاثة، وأنهم سيقضون عليها أو يخففون من فعلاتها وويلاتها ما أمكن التخفيف. وقد علقوا سعادة الإنسان كلها - كما تعلق الإنسان - بهذا

الفوز... وهم لا يرون أن هنالك خيراً يمكن أن يفعل، ولا شراً يمكن أن يقاوم أفضل من إعلان الحرب الشعواء العامة الحاشدة المطلقة على هذا المثلث... وقد بشروا بعد الحرب الماضية، وهم يبشرون اليوم بعد هذه الحرب بما سيقومون به في هذا السبيل وبما سيلقون من النجاح والظفر.

هذه كلها حقائق لا يسمو إلى جوها غبار من الشك، بل هي حقائق عرفها الإنسان يوم أن كانت معارفه ضئيلة تافهة، وعمل على قدر تلك المعارف التافهة الضئيلة. بل هذه المعارف هي الإنسان، أو هي الفارق بينه وبين ما دونه من الكائنات الحية الأخرى. على أن هذا ليس على إطلاقه، فإن أحياء أخرى هي دون الإنسان ومع هذا أدركت بمداركها الصغيرة أو بغرائزها الفطرية أن هذه الأعداء الثلاثة - التي هي أعداء الإنسان حقاً - هي أعداؤها أيضاً الفاتكة بها المعذبة لها. فراحت بمقدرتها القليلة وإستعدادها النزر تحاول الخلاص والفرار منها. وإن فصائل كثيرة من فصائل الحيوان لتعلم أو لتدرك أو لتشعر ما في المرض والفقر والجهل من عذاب وما في الخلاص منهما من سعادة وإن تصرفها كله وحياتها كلها المقودة بالغرائز أو بالإلهام قائمة على مكافحتها لها ومجانبتها إياها، بل إن الكائنات الميكروسكوبية لتدرك ذلك - أو على الأصح تتصرف وتحيا تصرف وحياة من يدركه.

وإذن فهؤلاء الذين نشروا في العالم الإسلامي، والذين ما زالوا ينشرون، أن الفقر والمرض - بل والجهل كما سبق - فضيلة من الفضائل وعبادة يطلب رضا الله بها قوم أقل ما يجب أن يقال، فيهم أنهم أعظم من قطعوا الطريق على الإنسانية وأنهم أفتك أعدائها وخصومها وجلاديها. وإن الواجب أن ننظر إليهم على هذا الإعتبار وأن نحاسبهم على أنهم كذلك.

إن الحضارة التي يفخر بها الإنسان، والتراث الذي ورثه عن أسلافه منذ الإنسان الأول حتى الإنسان الآخر لا تخرج في مجموعها عن هذا النضال الطويل القاسي الذي صرف في مكافحة هذا المثلث ومكافحة هذه الويلات والشرور التي قام هؤلاء الناس يؤلفون الكتب والمقالات، ويزورون الخطب في إمتداحها ونشر فضائلها وتبيان ما فيها من القربى إلى الله والإزلاف لديه... فما أعظم خطرهم وأقبح أثرهم.

* * *

لما أراد القدماء من الفلاسفة أن يعرفوا كيف نشأ هذا العالم بنظامه العجيب المبدع استلهموا خيالهم وعقولهم وذكاءهم ومعارفهم طويلاً جداً ثم خرجوا بنتيجة رأوها صحيحة قيمة - هذه النتيجة هي أنهم زعموا أن العالم إنما نشأ وإنما ينشأ بدافع من العشق والغرام، فقد اعتقدوا أن كل حركة في هذا الوجود سببها العشق: فالأفلاك السيارة إنما تسير بعامل من هذا العشق - وهكذا كل تحرك وكل سير وكل تفاعل... وقد قسموا الوجود إلى عاشق ومعشوق، فالعاشق إنما يتحرك ويسير ويتفاعل تشبهاً بالمعشوق وشوقاً إليه - إلى فلسفة لهم طويلة لا طائل اليوم تحتها.

ولكن غرضهم من هذا هو تعليل حدوث الحوادث ووجود الأشياء بعضها من بعض وتوالدها. وهذا لأنهم يعلمون - كما يعلم جميع العقلاء - أن كل حادث أو كل حدوث أو كل فعل وحركة لا بد له من هدف ومن دافع، وإلا فإن الأشياء لا تحدث بدون أهداف وغايات... لماذا تتحرك الشمس والقمر والنجوم وكل ما يرى متحركاً - ولماذا لا تبقى ساكنة بدون سير وحركة ودوران إذا لم يكن لها غاية وفائدة في سيرها وحركتها ودورانها، فإن السير والحركة والدوران أعمال تنفق وطاقات تصرف وأعمال تؤدى وهل يمكن أن تبذل الجهود وتؤدى الأعمال وتبدد الطاقات بدون ثمن وبدون ربح يفيده الباذل المؤدي؟ وهذا كله على حسب رأي القدماء.

والذي نريد أن نستفيده من هذه الفلسفة القديمة هو الإشارة إلى أن من الثابت المركوز في جميع الأذهان والعقول أن الأهداف والغايات والآمال هي التي تحمل على العمل وعلى السير والحركة والدوران في هذه الحياة. ومن فقدوا هذه الأهداف والآمال والغايات فليس من الممكن أن يكون لهم في وجودهم إضطراب ولا حركة ولا عمل يمكن أن يحدث في الحياة حدثاً باقياً او حدثاً جليلاً - وكذلك من صغرت وضؤلت آمالهم وغاياتهم... والذين ينتظر منهم ولهم أن يؤدوا الأعمال الكبيرة الخالدة وأن يبتكروا ويبتدعوا، وأن يتقدموا بالحياة وأهلها وبالوجود ومن فيه، وأن يحرصوا على السير والدوران هم أصحاب الغايات والأهداف السامية العظيمة التي لا تعترف بالحدود ولا بالقيود - هم أولئك الذين ينشدون دائماً الكمال ويرون أن الكمال أمر يطلب ولكنه لا يبلغ، إذ يعلمون أنه ما من كمال إلا وبعده كمال. فهم يطلبون أبداً الكمال في كل شيء؛ في الثراء وفي

الجاه، في العلم، في الصناعة، في الزراعة، في التجارة، في الصحة، في الجمال، في الحب، في القوة، في كل شيء يتناولونه.

وليس من الممكن أن يكون إنسان أكبر من أهدافه وآماله ولا أن تكون أمة من الأمم فوق أهدافها وآمالها. فإن من غير المعقول أن تكون أهداف المرء صغيرة ثم هو يكون كبيراً عظيماً، أو أن تكون أهداف الأمة صغيرة تافهة ثم تصبح هذه الأمة كبيرة عظيمة، بل لا بد أن يكون الإنسان - فرداً أو جماعة أو شعباً - إما دون أمله وغايته، وإما أن يكون مثلها وعلى قدرها... وهذا يكاد يكون نادراً أو مستحيلاً.

والأمم التي تنهض إنما تنهض لأن آمالها نهضت، والتي تهبط وتبقى في الرغام والتراب إنما كانت كذلك لأن آمالها لم تسم على التراب والرغام... فالذين يدخلون في هذه الحياة وهم لا يقبلون لهم أهدافاً سوى الثراء المطلق أو الكمال المطلق أو الجمال المطلق، قد يبلغون يوماً ما أهدافهم لأنهم يعملون لها لا محالة إن لم يقف في طريق العمل ما لا يمكن غلبه، ولا شيء يغلب التصميم غلباً مطلقاً.

أما أولئك الذين لا يريدون من الحياة سوى الفقر والبؤس والضراعة والجوع والمرض وكل هاتيك النقائص فلن يرتجى لهم سواها لأنهم لن يطلبوا سواها.

ونحن لو نظرنا إلى الأفراد والجماعات وجدنا الفرق بين فرد وفرد، وبين جماعة وجماعة هو الفرق بين هدف هذا وهدف هذا، وبين أهداف هذه وأهداف تلك، ووجدنا أن الأفراد الذين يسمون وينبغون. والأمم التي تسمو وتنبغ وتسودهم أفراد وأمم عظمت آمالهم وغاياتهم، وأن الأفراد والأمم التي تذل وتهون هم أفراد وأمم لا غايات ولا آمال لهم. فالآمال الكبيرة هي التي تقتحم بأصحابها الأهوال وتهون عليهم أشق الأعمال، بل تهبهم اللذة والسرور في تناولهم الأعمال الشاقة وفي إقتحامهم المخاطر، لأن الأمل الباسم الحار ينسي كل ألم وكل تعب... أما الآمال الصغيرة الفقيرة فإنه ليس فيها القوة الدافعة ولا الروح الملهمة، ولا الحرارة الملهبة، ولا الإشعاع المضيء للطريق، ولا الوقود اللازم للطيران أو الدوران أو للإستمرار في العمل الكبير.

فالذين يرون أن أقصى ما يبغون هو الفقر والجوع والمرض والعري والزهد وإجتناب كل طيب وكل عظيم والإزورار عن كل جمال وجميل - الذين يبغون القناعة المطلقة - الشقاء المادي العام المطلق - الذين يبغون ما يذكره هؤلاء

الهدامون المدمرون - لا يمكن أن يكونوا أكثر ولا أكبر مما كانوا، ولا يمكن أن يكونوا سوى هذه القطعان الآدمية التي تساس بما زعمت أنه هدفها وغايتها من الحياة - أي تساس بالفقر والجوع والمرض والجهل وكل النقائص الإجتماعية ثم لا تزداد على هذه السياسة إلا تمسكاً بأهدافها ولصوقاً بغاياتها وإيماناً بشعارها، رافعة أيديها وأبصارها إلى السماء قائلة: اللهم زد وبارك، مادة أعناقها النحيلة المعروقة إلى الذين يسوسونها هذه السياسة قائلة: شكراً لكم أيها السادة فإنكم أنتم الذين تبلغوننا درجات القرب والرضوان، لما نلقي لكم من الشقاء والحرمان.

* * *

إن أساس كل كمال ونهوض وخير في هذا الوجود هو حب الجمال - ونعني بالجمال الجمال في كل شيء. فإن الثراء جمال، والقوة جمال، والحب جمال، والصناعة والزراعة والتجارة وإتقان ذلك جمال، وإن حسن المظهر والرواء وفخامة المسكن - وإن الشرق والجاه والعلم والجهارة: كل ذلك جمال، وإن أضداده كلها قبح ودمامة. لأن الجمال - مهما اختلف الناس في تحديده وتعريفه - لا يخرج عن أن يكون تناسق الطبيعة وإنسجامها وتكافؤها - ولأن الدمامة والقباحة لا تخرج عن أن تكون تنافر الطبيعة وتناكرها وتباينها.

فمن الأمور الأساسية لخير الإنسان وسعادته وشحذ مواهبه وبعث إستعداداته، ليأتي بأفضل ما أودع الله فيه من كمال كامل - هو تحبيب الجمال إليه، بل جعل الجمال، جزءاً منه، بل جعله هو الحياة، ثم صياغة التربية في المنزل وفي المدرسة وفي الشارع وفي كل ميادين البيئة بهذا التحبيب وبهذا الجمال... ويجب أن يعلم بأن قبح الفقر أو قبح الضعف أو قبح الخمول لا يقل عن قبح الآفات البدنية المنكرة - بل لا يقل عن قبح الأخلاق الفاسدة المنبوذة في المجتمع، والتي يعاقب عليها القانون، وأن يعلم أن جمال الثراء والسيادة وغيرها لا يقل عن جمال المروءة والشجاعة والصدق وسائر تلك الفضائل - ولا نقول: لا يقل عن جمال الخلق والوجه... وإننا إذا فكرنا جيداً وعلمنا لماذا كانت هذه الأخلاق - كالكذب والجبن والدناءة والسرقة والقحة وسواها - نقائص وجرائم وقبائح، ثم علمنا الأسباب التي كانت بها كذلك علمنا بلا شك أن هذه الدمامات الإجتماعية - نقصد الفقر والجوع والضعف والمرض وكل ما مدح هؤلاء

المادحون – هي كذلك نقائص وجرائم وقبائح، وأن مادحها لا يقل خطأ وفساداً في ذوقه عن مادح هذه الجرائم الإجتماعية والنقائص الخلقية... ويجب ألا نجد فرقاً بين مادح الفقر وبين مادح الكذب – لا، بل يجب أن نجد فرقاً، وهو أن مادح الفقر أشد جرماً وأعظم عماية لأن الكذب أحد نتائج الفقر أحياناً كثيرة.

إن الإنسانية لا تزال مثقلة بكثير من أعباء القرون الماضية وجهالات الوجود القديم الأول، ولا تزال مصفدة مغللة بما صنع الجهل والضلال من أصفاد وأغلال. وإن الواجب علينا بإعتبارنا بعض البشرية أن نتعاون على تحطيم هذه الأصفاد والأغلال.

من الأحاديث الطيبة الجميلة في هذا الباب أن رجلاً سأل النبي الكريم وقال: إن أحدنا يجب أن يكون ثوبه أجمل من ثوب أخيه ونعله أجمل من نعل أخيه هل في هذا بأس أو كبر؟ فقال عليه السلام: إن الله جميل يحب الجمال. كلمة تقوم على معناها الحضارة الإنسانية كلها، بل التاريخ الإنساني أجمع، بل الوجود كله... إن جميع ما كتبه علماء الإجتماع والفلسفة وغيرهم في تجميل الحياة وتجميل العمل وتجميل كل ما يتناوله الإنسان لا يبلغ مبلغ هذا الحديث في القوة وفي الحث والتحريض... لماذا خلق الله الشمس والقمر والنجوم وسائر المجموعات الشمسية، ما يرى منها بالعين المجردة وما لا يرى منها بالآلات الدقيقة المقربة، وما لا يرى منها البتة – لماذا خلق الله هذه كلها جميلة بارعة الجمال – ولماذا خلق الليل الجميل، والنهار الجميل، والألوان الجميلة، والأصوات الجميلة، والمناظر الجميلة، والإنسان الجميل، والحيوان الجميل، وكل هذا الوجود الجميل؟ خلقه كذلك لأنه يحب الجمال. ولماذا يحب الجمال؟ يحبه لأنه تعالى جميل والجميل يحب أن يكون كل شيء جميلاً – لأنه تعالى جميل في حكمته وفي حكمه وفي تدبيره وفي قضائه وقدره وفي ذاته وفي كل صفاته... فهذا الكون الجميل له مصدران في وجوده وفي وجوبه جميلاً. أحدهما كون خالقه جميلاً، وثانيهما أنه يجب الجمال لكونه جميلاً. فالذي يحب الجمال جميل، والجميل يحب الجمال – كلمتان وجملتان صحيحتان. ثم حذار من الإعتراض بأن تقول: إن القبيح قد يحب الجمال كما أن الجميل قد يكره الجمال... فإن هذا الإعتراض غير وارد. وذلك أن القبيح الذي يحب الجمال هو جميل في ناحية ذوقه التي بها أدرك الجمال والتي بها أحب الجمال. والجميل الذي يكره الجمال هو

قبيح في ذوقه الذي لم يدرك الجمال ولم يحبه. لأن نواحي الحسن والجمال ونواحي القبح متعددة كثيرة. فالذي يكون جميلاً في جميع نواحيه لا بد أن يحب الجمال، والذي يكره الجمال لا يمكن أن يكون جميلاً في كل معانيه. فالقضية صحيحة صادقة. فالجمال والحب هما مصدر كل خير وكل فضيلة وكل نبوغ وعبقرية، وكل هناءة في الحياة... فأساس النهضات كلها، وأساس التقدم كله، وأساس المدنية بكل صورها وحقائقها، وأساس الكشوف والمخترعات هو جمال الأهداف والأغراض ثم حب هذه الأهداف والأغراض الجميلة حباً دفع إلى الإقدام والتضحية بل إلى الشعور باللذة والسرور في هذا الإقدام وهذي التضحية.

وليعلم أن الجمال المذكور هنا هو الجمال المادي. وذلك لأنه ذكر في جواب السؤال عن جمال النعل والثوب. فالله يحب جمال الثراء وجمال البيت وجمال الملبس وجمال الظاهر والباطن وجمال الصناعة والزراعة وجمال الحياة وجمال كل شيء... والله يحب من عبيده أن يحبوا هذا الجمال الذي يحب وأن يكرهوا ضده، وهو القبح في كل لون من ألوان حياتهم ووجودهم.

ولهذا الحديث رواية أخرى ولفظها! إن الله كريم يحب الكرم، جميل يحب الجمال، نظيف يحب النظافة. وكلمة النظافة تحمل كل معاني الرخاء وهناءة العيش، فليس الفقر نظيفاً ولا نظافة، وليس الجوع ولا الجائع نظيفاً ولا نظافة، وليس شيء من صور الشقاء وعلامات الفاقة بالنظيف ولا بالنظافة... فالنظافة التي يحبها الله كما أخبر على لسان نبيه لا تخرج بكل تفاسيرها عن الكمال المطلق – أي الكمال في الماديات وفي المعنويات – والكمال هو بلوغ ذروة الشيء أو مقاربتها أو الحصول على أحسن فروضه ومعانيه. فلا تعد الحياة الإنسانية نظيفة وهي تتلوى تحت ضربات الفقر والجوع والمسكنة والعوز والمرض والإرتباكات المادية... ولا تعد نظيفة وهي عاجزة عن بلوغ حاجاتها الضرورية – بله الكمالية. فتكاد كلمة النظافة تكون مرادفة من حيث المعنى العام لكلمة الجمال وإن كان يبدو في الظاهر أن بينهما فرقاً كبيراً.

ومن الروايات الجميلة أيضاً الدالة على مقدار فهم نبي الإنسانية الأكبر للحياة ولقيمة الحياة، وعلى ذهابه فيها مذهب السمو والتسامي الذي لا حد له ولا غاية ينتهي عندها قوله عليه السلام: (إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها،

ويكره سفسافها...) ولو أن أمة من الأمم التي تعبد الحياة والتي تريد أن تنتزع منها أفضل ما في طاقتها وأجمل ما في إمكانها من عهدت إلى جميع فلاسفتها وشعرائها بأن يضعوا لها أجمل العبارات وأقواها على ازغيب افرادها وجماعاتها في الحياة وحثهم على أن يخرجوا منها بأكبر نصيب ويأخذوا منها أعظم مقدار ممكن لما استطاعوا أن يجيئوا بأعظم ولا أجمل من هذه الألفاظ الصغيرة الكبيرة.

وفي حديث آخر: (إن الله يكره البؤس والتباؤس.) والبؤس والتباؤس معروفان. أعاذنا الله منهما وممن دعوا إليهما... فالبؤس إذن مكروه، والتباؤس - وهو إظهار البؤس والتخلق به وتكلفه - مكروه أيضاً، فالمظهر والحقيقة مكروهان. فقد يكون الرجل بائساً في نفس الأمر ثم قد يتظاهر ببؤسه وقد يخفيه، وقد يكون متبائساً وهو في نفس الأمر بائس أو وهو غير بائس. والرجلان يكرههما الله ويمقتهما.

وإن من استطاع أن يدرس سيرة النبي الكريم وحياته وشريعته دراسة نافذة ليستطيع أن يدرك بسهولة ويسر أنه كان قد بلغ في إدراك الجمال وتصوره - أي جمال الحياة كلها - وفي الإيمان به مبلغاً قد يكون هو آخر ما تصل إليه الإنسانية يوم تبلغ رشدها ويوم تنجاب عنها كل هذه الغوايات والعمايات التي تنقلت معها منذ وجودها حتى يومنا هذا. وقد كان عليه السلام مثالاً أعلى لجمال الرجولة. فكان قوياً جداً حتى إن أعظم وأقوى رجل عرفته العرب - ويسمى ركانة - صارعه فصرعه النبي مرات فتعجب الناس بل تعجب ركانة نفسه، ثم آمن به خضوعاً لقواه الجسدية والعلمية... وقد عرضت لأصحابه يوم الخندق صخرة كبيرة شديدة فعجزوا عن زحزحتها وعن تحطيمها فشكوها إليه عليه السلام فأخذ المعول فضربها به فعادت كثيباً مهيلاً.

وكل الذين وصفوه وصفوه بالقوة وسلامة التكوين. والرسالة التي أداها، والأعمال التي نهض بها وأنجزها دالة قطعاً على ذلك. فإن الإعمال الجسيمة لا يستطيع أن ينهض بها نهوضاً كافياً إلا من كمل خلقه واشتد بناؤه وعظمت قوته.

وكان رائع النظر جميل الطلعة، وكان كل عضو من أعضائه قد سوى تسوية لا يقال معها: ليته كان كذا أو كذا. وما من إنسان وقع بصره عليه إلا هابه

وأعظمه وراعه خلقه. وكان منظره من الشفعاء وله وللإيمان به. ومن النادر جداً - ويمكن أن يقال: ومن المستحيل جداً - أن تؤمن الأمم والجماهير لزعامة من نقص خلقه أو شاء تركيبه... ولو لم يأتنا نقل واحد في أوصافه لما كان لنا بد من الحكم له عليه السلام بالقوة والجمال والكمال، لعلمنا أنه قد قام بهذه الرسالة وقاد تلك القيادة - لعلمنا بأن مثل هذه الرسالة وتلك القيادة لا يمكن أن يقدر على حملهما إلا من كان قد أخذ من الأوصاف الكاملة من الناحيتين المادية والمعنوية ما شاء. فلسنا محتاجين لمعرفة ما قلنا عنه وعن حقيقته إلى الأخبار التي يختلف الرواة في نقلها وفي ألفاظها وصحتها.

وكان أيضاً لا يحب من الحياة إلا الجميل ولا يقبل إلا الجميل: فكان يحب الأصوات المنغمة الملحنة الجميلة ويمقت ما عداها، فكان يحب التغني بالقرآن ويأمر به أمراً شديداً ملزماً ويقول (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) ويقول: (ما سمع الله لشيء مثل سماعه لنبي يتغنى بالقرآن) ويقول: (زينوا أصواتكم بالقرآن)، وسمع أحد أصحابه يقرأ بصوت جميل فوقف يستمع إليه. وقد أثنى عليه.

وكان يستحسن الإسم الحسن وينكر الإسم المنكر ويغيره ويحب أن يسمع الكلمة الجميلة المتفائلة المشجعة والحاملة على التفاؤل. وقد أنزل الله عليه الأمر بغض الصوت وبإنكار الصوت الأجش القبيح الذي لا فن فيه ولا تزيين ولا مقاطع مخبراً أن أنكر الأصوات هي أصوات الحمير.

وكان يرضى جداً الطيب ويحبه أشد الحب وينفق عليه الشيء الكثير ويأمر الناس به وبأن يحبوه ويقبلوه، بل لقد أوجبه عليهم إيجاباً أسبوعياً وأمرهم أن يصيبوا منه كل يوم جمعة. وكان لا يمر بمكان إلا عرف أنه مر لما ينفح منه من الطيب.

وكان يحب المنظر الحسن ويستعيذ من كآبة المنظر كما يستعيذ من الكفر والضلال والشرور.

ومن قدر له أن يطلع على أوصافه لنعيم الجنة وعلى ما فيها من جمال لم تره العيون ولم تسمع به الآذان ولم يخطر على القلوب ثم استمع إلى هذه الأوصاف التي أنزلها الله عليه في كتابه علم حقاً كيف كان يسمو في فهم الجمال سمواً يعجز عنه وعن لحاقه أبرع خيال وأجمل تصور... وقد رووا عنه هنا أنه عليه

السلام قال (التمسوا الخير عند صباح الوجوه - أو عند حسان الوجوه.) وهذا الحديث روي من طرق كثيرة عن جماعة ذوي عدد من الصحابة. وقد تكلم الرواة فيه كلاماً كثيراً وصححه بعضهم وألف أحدهم فيه رسالة سماها (تحسين الطرق والوجوه، في قوله اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه.)

وكان أيضاً يحب من المطعومات ما مذاقه حسن وما عاقبته كذلك. فيحب اللحم واللبن والعسل والحلوى والطيور والفاكهة والبر والماء البارد النقي - أي يحب أطيب الطيبات - ويبغض ما خلا ذلك مما لا يحسن عاقبة أو مذاقاً أو قيمة.

وكان يحب الملمس الناعم فيثني على حرير الجنة وعلى لينه وحسنه. فكان لا يقبل لحاسة من حواسه إلا الجميل الحسن، إذن لأنه كان سليم الحواس قويها صحيحها.

ومن أوصافه التي حكاها القرآن قوله "ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والإغلال التي كانت عليهم." والطيبات لا تخرج عن أن تكون كل ما طاب مذاقاً وعاقبة من المأكولات والمشروبات والمسموعات وجميع المحسوسات على إختلاف ألوانها... والخبائث هي المستكرهات من ذلك. أما الإصر والأغلال التي كان عليه السلام يضعها عن أتباعه والمؤمنين به فهي تلك القيود الجهنمية التي تفرض الحرمان الأدبي والمادي على الرقاب والألباب! ولا يمكن أن يتصور الإنسان اليوم إنسانية أرقى وأفضل من هذه الإنسانية التي وضع محمد عليه السلام حدودها وأساسها وفتح لها طريقها.

وهذا كله - وسواه كثير - يدل دلالة قاطعة على أنه قد سما في إدراك الجمال وتصوره سمواً هو آخر ما ستبلغه الإنسانية.

ويشهد لذهابه في حب الجمال مذهب الكمال أنه كان دائماً يحتضن الطبيعة ويحنو عليها ويعمل على إجتلائها وعلى الخلوة بها! ها، إنني أراه الآن عليه السلام متسللاً من خدعة نصف الليل أو بعده قليلاً أو قبله بعد أن عقد الكرى على الأجفان... وها هو ذا خارج من حجرته برفق وهون خشية أن يوقظ أهله. وها هو ذا مسرع إلى الخروج من المدينة تاركاً وراءه المباني والبيوت، ميمم البقيع أو غيره... ثم ها هو ذا شاخص ببصره النافذ إلى السماء الصافية وإلى ما انتظم على صفحتها من نجوم متلألئة تبعث الهدوء والإشراق إلى العقل وإلى القلب... إنه واقف في الظلام الرائع. إن النسيم اللطيف الخفيف ليمر على وجهه المشرق

بالأمل والجمال فيلامسه ملامسة خفيفة فيخفق قلبه بالسرور والرضا وبالأمل الوضاء... إنه في الصحراء... إنه يناجي السكون والظلام والنسيم والسماء... إنه يخاطب ما حوله بلغة هي فوق الحروف والألفاظ. إنها لغة تموت عندها الألفاظ والحروف. إنه يرى كل شيء جميلاً لأنه هو جميل. إنه يدرك من جمال ذلك بقدر جمال نفسه ومزاجه. إنه لا يرى هناك قبيحاً لأن نفسه ليس فيها قبيح، والمرء إنما يرى الأشياء بنفسه وطبعه، فكن جميلاً تر الوجود جميلاً. إنه يرى في الكواكب فوقه الإشراق والإرتفاع والنظام والدوام فتمتلىء نفسه الكبيرة بهذه المعاني ويذهب تصوره لها إلى أن رسالته يجب أن تشرق إشراقها وترتفع إرتفاعها وتدوم دوامها وتنتظم إنتظامها! إنه يغمره من هذا الإشراق والإرتفاع والإنتظام والدوام ما يرفع عن نفسه الحدود والقيود والعوائق والموانع... إنه يقفل من هذا المشهد الرائع معتقداً أنه لا شيء يستطيع أن يقف في طريق الجمال الذي تزود به مما شهد ورأى والذي قفل به عن أن يتم وعن أن يأخذ طريقه إلى الوجود... إنه رأى قمراً واحداً وسع نوره الكون وشهد سماءً واحدة قد أظلت الوجود وإنه الآن ليرى قلباً واحداً يستطيع أن يتسع للوجود وأن يملأه ضياء وحرارة. إنه يشاهد إنساناً واحداً يقدر أن يحمل هذا القلب.

ها هو ذا قافل، وها هو ذا يدخل المدينة يشرق عليها لتشرق هي على الدنيا... إنه لا يستطيع فراق الطبيعة لأنه لا يستطيع فراق الجمال... إن كل شيء فيها يروعه جمالاً، إن الليل والنهار والظلام والضياء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والكسوف والخسوف والرعد والبرق والغيم والصحو والرياح والنسائم والجبال والسهول والأنهار والغدران وكل النباتات والحيوانات وكل ساكن ومتحرك؛ إن كل شيء من هذا ليأخذ بلبه وببصره ويلهمه الجمال... لقد وسعت روحه الوجود كله، وإن دعوته ستتسع للإنسانية كلها لأنها جمعت فضائل الإنسانية كلها.

لقد بدأ رسالته بالخلوة بالطبيعة وبمناجاتها فوق غار حراء، وختمها بمناجاتها أيضاً وهو في حجر عائشة بينما كان يجود بأنفاسه! فلقد كان في تلك الساعة شاخصاً ببصره إلى السماء لا يحوله عنها هول ولا أهل ويقول: (اللهم في الرفيق الأعلى.) إنه لم ير في الموت ذلك الشيء المرعب المفرق بين الأحباب الهادم للذات! وإنما رآه رحلة سماوية ينتهي منها إلى عالم كله النور والجمال.

إنه كما كان إمام النبيين فلقد كان أيضاً إمام الدالين على جمال الطبيعة المستمتعين به، وإنه كما كان أعظم من نبهوا إلى جمال ما هو فوق المادة ووراء المادة فلقد كان أيضاً أعظم من نبهوا إلى جمال المادة وعظمة المادة... ولا بد أن يكون القرآن النازل عليه عليه السلام في تسبيح الجمادات والأشياء كلها وفي سجودها وعبادتها لله دالاً على بلوغه الغاية في تصور جمال هذا الوجود وحب هذه الطبيعة وإدراك ما فيها من محاسن ووجوه مشرقة باسمة.

إن القلب والعقل أبداً متصاحبان متلازمان: فصاحب العقل الكبير لا بد أن يكون قلبه كبيراً، وذو القلب الصغير لا محالة من أن يكون عقله كذلك صغيراً... لقد ثبت أن عظماء الرجال قاطبة كانوا يمتازون أبداً بحواس صادقة قوية وعواطف نادرة تدرك من الجمال ما لا يدركه الآخرون العاديون، وتذوق في إدراكها ما لا يذوقون. وثبت أنهم كانوا جميعاً فوق الناس في عواطفهم كما كانوا فوقهم فيما فاقوهم به. إن رسالة كل إنسان مقدرة ومقدر ما ينتظرها من النجاح بما يحمل ذلك الإنسان من حب للجمال ومن شعور به. والإنسانية كلها رهينة بما تتصوره من أهداف وأماني: فإن كانت تلك الأهداف والأماني قد صورها الخيال المبدع على أبدع وأروع ما يمكن من صور الجمال جاءت تلك الإنسانية عظيمة مبدعة، وإن كانت أهدافاً سخيفة مظلمة قد ولدها وشوهها الخيال المظلم المضطرب فلن تكون تلك الإنسانية شيئاً... إن إنساناً واحداً أو شعباً واحداً لو فقد هذا الإحساس بالجمال فقداً تاماً لوقف مكانه، ولما استطاع أن يعمل شيئاً وأن يؤدي رسالة، وإنه لن يعمل ولن ينتج إلا بمقدار ما يتصور ويتخيل من الجمال وبمقدار ما يتملكه من حب الجمال... إن الفرق بين الأمم ليكاد يكون هو الفرق بينها في شعورها بالجمال وفي مذاهبها فيه. إن ذلك الإنسان التافه القانع بالعيش التافه وبالوجود التافه لإنسان قد برىء قلبه وتصوره من حب الجمال، ولو أنه تزود بشيء منه لدفعه ذلك إلى الأمام وإلى الوجود بقدر ما فيه من طاقة وحرارة.

ولقد كان عليه السلام يعمل على تبسيط معاني الإنسانية وعلى إعطائها أعظم ما يمكن من رغبات مباحة أملاً في أن يجد كل إنسان في كل زمان في إنسانيته الجامعة الجميلة ما يرضي كل جانب إنساني فيه وما يشبعه وما يقنع ميوله الصالحة السليمة، لأنه عليه السلام كان يعلم - وطرق علمه غير طرق علم

العاديين من أمثالنا – أنه إذا ضيق على الإنسان رحاب حياته ونزعاته ووقف في سبيلها أو في سبيل شيء منها لم يكن إنساناً عاماً، ولم يكن صالحاً لقيادة الإنسانية كلها في جميع مراحل وجودها المتطورة المتقدمة... هذا من ناحية، وناحية أخرى أن الإنسانية إذا انتقصت وضيقت وحرم عليها معنى من معانيها وحقيقة من حقائقها جاءت إنسانية ناقصة مسروقة المدلول والمفهوم! وإذا كانت كذلك كانت عاجزة عن القيام بوظيفتها الكبرى قياماً صحيحاً سوياً. وقد لوحظ – ولا يزال يلاحظ – وعلم النفس يقرر بمباحثه صدق هذه الملاحظة – أن الجماعات التي تضيق عليها رغباتها وتحرم من ميولها الطبيعية حرماناً هو العنت والإرهاق تجيء أبداً عاجزة في عقولها وقلوبها وعواطفها ومشاعرها عن اللحاق بالجماعات الأخرى التي أطلقت ميولها من الأغلال والحرمان. هذه حقيقة يقررها علم النفس والإستقراء والتاريخ.

ومن إرشاداته عليه السلام الرامية إلى وضع الإنسانية في قالبها العام الجامع غير مضيق عليها ولا محرومة الحرمان الذي يبعث اليأس والقنوط والضعف، لأنه يهدم القوى ويقف في سبيل النمو – أن عائشة زفت فتاة إلى رجل من الأنصار فقال عليه السلام: (لو بعثتم معها لهواً فإن الإنصار يعجبهم اللهو – وفي رواية – هل أرسلتم معها من يغني؟ إن الأنصار قوم فيهم غزل) ودخل مرة على عائشة وعندها فتيات يغنين فجلس وهن يغنين فدخل أبو بكر فزجرهن فقال رسول الله (دعهن فإن لكل قوم عيداً.) ودخل يوماً آخر على امرأة فجلس وبين يديها جوار يضربن بالدف وينشدون قصائد فطفق يستمع لهن. ولما قدم المدينة قام جماعة من الأحباش يلعبون ألعاباً حبشية فأنكر عليهم عمر فنهى عمر وأقرهم على لعبهم وأشرك زوجه عائشة في النظر إليهم وإلى ألعابهم. وقدم ذات مرة من سفرة فجاءته امرأة وقالت لقد نذرت إن ردك الله صالحاً لأضربن بين يديك بالدف فقال: (إن كنت نذرت فاضربي.) وقد كان فتيات الأنصار يتلقينه بالأناشيد مثل نشيد (طلع البدر علينا) فيسر بذلك ويقره. وكان إذا كان في سفر أمر منشداً ينشد بين يديه... وأعجب من ذلك كله أنه سابق زوجه عائشة مرات، ولا يدري أين تكون حلبة السباق! إذ ليس من المعقول ولا الممكن أن تكون في حجرتها.

ومن السهل أن نفهم أنه كان كذلك وإلا لما كانت شريعته وأوامره ونواهيه

وحياته كما نعلم، ولما أمكن أن ينجح ذلك النجاح المنقطع النظير...

فهؤلاء الذين وقفوا حياتهم على إمتداح الشقاء والفاقة والبؤس والبذاذة والجوع وسوء المنظر وكآبته، وعلى إمتداح الأمراض والعيوب البدنية والذهنية، وعلى إمتداح كل نقص وفساد، وعلى إمتداح الحرمان والتحريم - هم عاجزون عن فهم الإسلام وعن فهم نبي الإسلام، وهم مناقضون لكل ما جاء به بعيدون عنه. وإن بعدهم عن ذلك لا يقل عن بعد شرك الجاهلية عن توحيد الدعوة المحمدية، وإن التباين والمناقضة في هذا ليسا دون التباين والمناقضة في ذاك. والأمر يرجع في المسألتين إلى أن دمامة تنازع جمالاً، وإنحرافاً يقاوم إعتدالاً، وشراً يريد أن يطغي على خير.

* * *

شاعت هذه الأقاويل المحطمة بين المسلمين، وامتلأت بها الكتب والمعتقدات والقلوب، وفاضت على كل الألسنة وطعم بها كل تعليم، وصارت ركناً من أراكين الديانة الإسلامية، بل عدت أعظم أراكينها كما يزعم الجاهلون، فأصبح لها من النتائج ما يفوت الإحصاء وإن كان يجمع هذه النتائج كلها شيء واحد، هو هذا الإندحار العام الذي أصابهم في سائر أقطارهم. وكان أعظم هذه النتائج شيئان: أحدهما أن الهمم قد أصيبت بالفتور الشديد أو بالخدر العام أو بالشلل الفتاك، فصارت غير قادرة على أن تعمل شيئاً كبيراً له قيمة أو شيئاً يحتاج إلى القوة المبتكرة والنشاط المبدع... وأما الشيء الآخر فهو أن هؤلاء الذين ابتلوا بهذه التعاليم قد جاعوا كما فرض عليهم أن يجوعوا، وكما حُدّثوا أن الجوع هو الإسلام، وهو سنة الأنبياء والصالحين. ولأنهم عجزوا عن أن يكونوا غير جائعين لأنهم كانوا غير مستطيعين أن يكسبوا الثراء للشلل الذي أرهق هممهم وقواهم - وهو أيضاً أنهم قد مرضوا كما طلب إليهم أن يمرضوا وكما حُدّثوا أن المرض من النعم وأن الصحة من النقم - ثم هو أنهم قد أهملوا أبدانهم، أو حاربوها وحاربوا رغباتها وحاجاتها، فصار عاقبة هذا كله أن جاءوا خلقاً هزيلاً غير تام التكوين ولا صحيح التركيب ولا سليم البناء، فأصبحوا عاجزين عن مساواة الإنسان القوي السوي وعن مباراته. فغلبوا على أمرهم هذا الغلب الشنيع.

أما الأول فإن الطفل يقع أول ما يقع في بيئة كلها السخط على المال وعلى الحياة

وعلى النشاط في الحياة من أجل الحياة وعلى الترف والسعادة... وكلها الذم لأصحاب المال والدنيا، ولمن يحيون حياة صحيحة سعيدة، ولمن ينشطون للعمل، ولمن يصيبون الترف والعيش الهنيء... وكلها الثناء والمديح للفقر والإفلاس والشقاء والفاقة والكسل والعجز، أو لما سموه في لغتهم الزهد أو القناعة، وللفقراء والمفلسين والكسالى القانعين العاجزين الزاهدين - يعزز هذا كله تلك الحياة التافهة القذرة التي يحياها بين والديه الفقيرين التافهين، وذلك الشقاء المضروب على كل لون من ألوان الحياة.

يلقن هذا كله في المدرسة، ويلقنه في البيت، ويسمعه في المجتمعات والنوادي والأسواق، ويقرأه في الكتب، ويحيط به من كل جهاته... فهو إذن لن ينجو من هذا التلقين وهذه التعاليم كيفما كان وكيفما ذهب، لأنه إن كان ممن دخلوا المدرسة وممن يقرأون الكتب فسوف تعترضه وتقف في طريقه في كل الجهات التي ذكرناها: المدرسة والبيت والمجتمعات والجمعيات والنوادي والأسواق وحيث ذهب، وفي الكتب وفي المساجد من أفواه الخطباء - وهذا أكثرها وأخطرها، فهي لن يفلت منها إنسان ولا إنسانة. لأنها من الثقافات العامة - أي إنها ثقافة شعبية بلغت كل فرد وولجت كل بيت وخالطت كل إعتقاد... فما كتبه الشيخ الغزالي مثلاً في كتاب الإحياء قد وصل كله أو جله إلى كل مسلم على وجه الأرض، إما مباشرة بقراءة الكتاب، وإما بواسطة أو بوسائط كثيرة متعددة، إما سماعاً من خطيب أو واعظ أو متكلم كائناً ما كان - وإما بقراءة كتاب نقل عن الإحياء. والإحياء أردنا به هنا المثل وإلا فإن كل كتاب من هذه الكتب هو عندنا كالإحياء، ومؤلفه كالشيخ الغزالي.

وقد لوحظ أن الذين يتلقون علومهم كلها في كل مراحل التعليم في المعاهد الأجنبية التي لا تؤمن بهذه التعاليم، بل التي تنكرها وتشيد تعليمها وتربيتها على مخالفتها: لوحظ أن هؤلاء أيضاً لا يسلمون من هذه التعاليم الوبيلة، وأنهم لا يستطيعون أن يبرأوا منها برءاً صحيحاً وأن يخلصوا وأن يتخلصوا من جميع آثارها ويتطهروا من جميع أعراضها وأمراضها. وذلك لشيئين:

أحدهما أنهم قبل أن يدخلوا المعهد الأجنبي الذي دخلوه قد لقنوا في البيت وفي البيئة كلها وفي كل ما يحيط بهم تلك المبادىء الحرمانية تلقيناً قد يكون غير مقصود ولا ملتفت إليه، ولكنه قد يكون أيضاً بمثابة الغرس في التربة المهيأة

للإنبات، أو بمثابة النقش على الحجر الذي يبقى ما بقي الحجر. وقد قيل إن تلك السن - وهي ما بعد الولادة إلى بلوغ السنة العاشرة - هي أخطر مرحلة في حياة الطفل، إذ يكون حينذاك متيقظ الحس، شديد التكيف والإنطباع بما يدور حوله وبما يراه ويسمعه ويلقنه، حتى ليصبح ذلك كله حقائق عنده أو طبائع يعسر إنفلاته وخلاصه منها. وملكة التقليد في تلك السن قوية جداً مسيطرة عليه سيطرة كاملة، بل إن كل أموره قائمة إذ ذاك على التقليد صادرة عنه مقصودة به. فكل ما يراه وما يسمعه وما يعمل حوله يؤثر فيه تأثيراً لا يمكن المماراة فيه ولا يمكن إغفاله - بل تأثيراً لا يقل عن تأثير العوامل الطبيعية في جسمه الرخص وتكوينه اللدن وبنائه الهش.

ثم إن جميع ما يمثل حوله ينتقل إلى خزانة العقل الباطن وينطبع فيها إنطباعاً شديداً جداً ليظل كل الحياة مهيمناً عليه في كل تصرف يأتيه وعمل يعمله. والعقل الباطن شديد الإحساس، قوي الأخذ عما أمامه، محافظ على خزائنه محافظة صادقة ليرجع إليها وقت الحاجة، فينفقها على الأعمال والأزمان المقبلة إنفاقاً منظماً. فيكون لها دخل في كل عمل وفي كل فكرة وفي كل إتجاه. بل يكاد الإنسان بمشاعره وأعماله يكون مقوداً بها قيادة لا يفلت من سلطانها ورقابتها في حالة من حالاته... ومن أجل هذا كله - ومن أجل غيره أيضاً - أكثر علماء النفس والتربية من النصائح والإرشادات الموضوعة لخفارة حس الأطفال وملكة التقليد فيهم، وخفارة عقولهم الباطنة من التلوث والفساد بما يمكن أن يصنع على مرأى منهم، وبما يمكن أن يسمعوا أو يلقنوا أو يعلموا... وقد وضعوا في هذا كتباً كثيرة جداً أقامت فناً وعلماً خاصاً واسع الأرجاء متعدد المباحث والنظريات... وقد علم أن كل التقاليد الصحيحة والباطلة التي تصبح لدى الفرد ولدى الجماعة قوة غالبة لا تقاوم ولا تناقش، مهما كان نصيبها من الضعف والخطل، إنما تنشأ وتخلق في تلك السن أو ما يقرب منها، متركزة تركزاً عجيباً في العقل الباطن، هازمة في المستقبل كل برهان شعوري، قاهرة كل حجة تقوم على بطلان تلك التقاليد وضررها وفسادها، حتى إن أعظم عبقري يجتاح المجتمعات والتقاليد ببراهينه وأفكاره الحرة الصارمة التي يضعها في كتبه ومقالاته ومحاضراته وكل مباحثه، يكون في حياته العامة وفي إتجاهاته الخاصة العملية خاضعاً خضوعاً غريباً لتلك التقاليد والعادات التي ورثها من

الصغر واختزنها في منطقة اللاشعور عنده، بحيث يصير مثل أجهل إنسان وأضعفه في العجز عن التخلص منها، بل قد يكون أمامها أضعف من الجاهلين. وهذا هو سر قوة التقاليد وسر ركوع الخاصة والعامة لها... ولهذا فإننا نجد إختلافاً كثيراً جداً في هذه التقاليد والعادات بين شعوب وأمم لا تختلف في علومها وعقولها وبراهينها، ولا في الكتب التي تدرسها وتدرسها. فالشعوب تتفق في العلوم والنظريات وتختلف في التقاليد والعادات. والوجه في هذا هو ما ذكرنا. هذا هو أحد الشيئين اللذين يجعلان من يأخذون علومهم وثقافتهم عن المعاهد الأجنبية غير خالصين من هذه الآراء الهدامة التي تركها لنا هؤلاء الشيوخ الهدامون.

وأما الشيء الآخر فهو أن هؤلاء الأطفال الذين يوضعون الوضع المذكور أثناء الدراسة لا ينفصلون إنفصالاً تاماً عن بيئتهم المسممة الملوثة، فيظلون بين عاملين مختلفين يتنازعانهم: عامل البيئة الموبوءة، وعامل المدرسة السليم أو القريب من السلامة. فيأخذون من هذا ومن هذا، ويخضعون تارة لحكم هذا العامل وتارة لحكم العامل الآخر، فيكونون أحياناً أقرب إلى الصحة والسلامة، وأحياناً أقرب إلى المرض والإعتلال. وربما كانوا أدنى إلى الإعتدال من الآخرين الذين لم يعلموا تعليمهم، وربما كانوا متناقضين مضطربين مشوشين، مثلهم في هذا مثل من وقع بين عاملين مختلفين متنازعين قواه وتفكيره، فيذهب بعضه - أو تارة - مع أحد العاملين بدون أن يصل إلى غرضه، ويذهب بعضه الآخر - أو تارة - مع العامل الآخر بدون أن يصل أيضاً إلى غرضه، لأنه لن يصل إلا إذا استخدم قوته كلها وعمله كله في إتجاه واحد وعمل واحد. وقد يظهر بوضع آخر بحيث يتمانع العاملان، فإذا شاء الإتجاه مع أحدهما قام الإتجاه الآخر ممانعاً معارضاً، وهكذا، فيبقى المرء بينهما معلقاً متردداً حائراً، مثله مثل ذلك المصاب الحزين الواقف بين عامل التجمل والتجلد، وعامل الأسى والمصيبة، الذي قيل في تصوير حاله أجمل تصوير وأبرعه:

الحزن يقلق والتجمل يردع
والدمع بينهما عصي طيع
يتنازعان دموع عين مسهد
هذا يجيء بها وهذا يرجع

وقد شاهدنا أقواماً كثيرين من هذا النوع. ومصير هؤلاء الفشل المحتوم. وإن حالتهم هذه تشبه حالة من يريد أن يذهب إلى جهة معينة، ولكنه بدل أن يسير قصداً في الطريق الذي يوصل إلى الجهة التي يريدها يسير كل يوم عدة أميال في جهات مختلفة ثم يرجع إلى المكان الذي بدأ منه السير قبل أن يصل ودون أن يبقى في إتجاه واحد! ومثل هذا تضيع قواه ثم لا يحصل على شيء. وهذه شر حالة يبتلي بها الإنسان.

ومن الملاحظات الصادقة في هذا الموضوع أن قوماً يولدون وينشأون في هذه البيئة التي تتوارث أقاويل هؤلاء الشيوخ، تصادفهم ظروف غير عادية، فيلحدون إلحاداً نظرياً صريحاً، بحيث لا يكتفون بإنكار الأفكار الزهدية الحرمانية، بل ينكرون فكرة الأديان جملة، ويجاهرون بهذا الإنكار ويعتقدونه، ولكنهم - وهذا عجيب في الظاهر - يبقون متعلقين متأثرين بالشيء الكثير من هذه الخرافات في كراهة الدنيا وغيرها، دائنين لها، عاجزين عن الخروج من ربقتها خروجاً شاملاً! ومن ثم يصبحون غير لاحقين ولا مسايرين من هم في الجانب الآخر من الركب الإنساني المهطع إلى غايته الكبرى.

وتعليل هذه الحالة سهل يسير. وذلك أن هؤلاء إنما ألحدوا وكفروا بهذه الخرافات نظرياً فقط، أما الأعمال والتقاليد فإنها تظل خاضعة لما ورثت ولما تكيفت به في حالة الصغر والطفولة، يمدها العقل الباطن بالمدد تلو المدد، مما اختزن وحفظ. فيصبحون في عقولهم وتفكيرهم غيرهم في أعمالهم وإتجاهاتهم وتقاليدهم وعاداتهم، وقد يسمون ما لقنوه في حالة الطفولة - على إعتباره مبادىء دينية بعد كفرهم - نظريات أو علميات أو مبادىء إجتماعية أو غير ذلك! كما أن الإنسان الذي يعتقد أن النجاح والفشل إنما هما بالقضاء والقدر لا بالأعمال والإجتهاد، قد يكفر بالقضاء والقدر كفراً تاماً، ولكنه قد يبقى مؤمناً بهما معنى، مثل أن يبقى معتقداً بأن النجاح والسقوط إنما هما بالحظوظ والجدود والمصادفات لا بالأعمال ولا بالإجتهاد. فيصبح التغيير عنده في الأسماء دون الحقائق... وقد يرث إنسان عبادة القبور والأموات ثم يكفر بها لظروف ما، ولكنه قد يبقى مؤمناً بها على إعتبار آخر ونحو آخر، كأن يتعلق بمناجاة الأرواح وبقوة الأرواح، معتقداً أن التجربة والبحث العلمي هما اللذان هدياه إلى ذلك. فيصير من إسم، إلى إسم، أما الحقيقة فباقية كما هي! وقد يكفر إنسان بالدنيا وبالعمل

الجاد لها، مسمياً كفره زهداً وورعاً، ثم قد يلقى أموراً تجعله يكفر بهذا الزهد وبهذا الكفر، ولكنه قد يبقى تاركاً الدنيا أيضاً عاجزاً عن العمل فيها ولها، غير راغب فيه ولا فيها، مسمياً عمله هذا قناعة وسمواً على المادة وسمواً في الروح وإرتفاعاً على الأغراض الدنيا الصغيرة الحقيرة. وهكذا يفعلون في كل شيء: يتركون الأسماء ويتمسكون بالمسميات! وهذا من أغرب ما يصاب به الإنسان في حياته وتصرفه.

* * *

أوجدت هذه الأقاويل بين المسلمين وبين الدنيا هوة عميقة ونفوراً عاماً، فصاروا لا يعملون لها وفيها بإخلاص وإجتهاد وإقبال، وصاروا يتناولونها إذا تناولوها ببعض أيديهم، وبعض قلوبهم، وبعض عقولهم، وبعض حبهم، وبعض أعمالهم... فصاروا لا يدركون منها إذا أدركوا إلا أتفه ما فيها وأحقره وأصغره، على قدر ما وهبوها من الإخلاص والحب والعمل والعناية... وهكذا كل شيء في هذا الوجود إنما يعطي بقدر ما أخذ.

إن الإنسان العاقل لن يقبل على الشيء ولن يمنحه جده وقلبه وعمله بشغف ودأب ومثابرة ومصابرة إلا بشروط واضحة: أن يعلم أن الإقبال على هذا الشيء حسن في رأيه هو، وحسن له، ثم حسن في رأي المجتمع الذي هو فيه، وفضيلة من فضائله؛ ثم أن يعلم أن عاقبة ذلك سليمة طيبة لا لوم فيها ولا عقاب بل ولا عتاب، ثم أن يعلم بعد هذا كله أن ترك هذا الشيء وترك العمل له ذنب من ذنوب المجتمع ونقيصة من نقائصه وجريرة من جرائره... إن الإنسان إذا علم هذا كله أصبح من الممكن، بل أصبح مما هو في حكم المؤكد أن يمنح ذلك الشيء عنايته التامة، وأن يستجمع له جميع الأسباب والوسائل وأن يعطيه من نفسه كلّ ما فيها وكل ما عندها من استعداد ومن قوى ظاهرة أو باطنة، وأن يدأب له الدأب الواجب الناصب حتى يظفر به أجمع أو يظفر بأحسنه وأفضله، أو حتى يتعذر فيه الإعذار الصحيح.

والمسلمون الذين اعتقدوا أقاويل هؤلاء الشيوخ يرون أن العمل للدنيا بكل إخلاص وإجتهاد ليس فضيلة ولا حسناً، لا في رأيهم ولا في رأي المجتمع الذي يعيشون فيه، ويرون أن عاقبة هذا العمل وهذه الدنيا ليست مأمونة ولا حميدة، لأن الله سيؤاخذهم عليه وعليها، بل سيحاسبهم الحساب الشديد ثم يعاقبهم

على قدر ما كسبوا منها وما عملوا لها. وهم يعتقدون أن ما ينالونه منها ما هو إلا حسناتهم تعجل لهم، ولأن الدنيا في رأيهم وظنهم تجر إلى الشقاء والعذاب، لأنها تطغي، ولأنها تدفع من ظفر بها إلى الفسوق والمروق... فعاقبتها وعاقبة العمل لها وعاقبة الحرص عليها ليست بحميدة ولا مأمونة إذن... ثم إنهم لا يرون أن هجر الدنيا وهجر العمل لها جريمة من الجرائم أو رذيلة من الرذائل التي ينكرها المجتمع والتي يعاقب الله ويحاسب عليها. بل هم يرون أن هذا الهجر والإزورار عنها والكراهة لها والتقلل منها إحدى الحسنات الإجتماعية والدينية التي يشكرها الناس والتي يجازي الله عليها... بل هم يرون ذلك إحدى الفضائل الإنسانية التي تدل على السمو الإنساني... فكيف إذن يمكن أن يعملوا لها بكل قواهم وأن يبرعوا وينبغوا في طلبها وتحصيلها؟

إن من أقبل عليها منهم ودأب في تحصيلها، فنجح النجاح كله أو بعضه، صار الناس ينظرون إليه نظرات السخط والإشمئزاز والإنكار واللوم، متهمين له بالشراهة وبالحرص الذميم وبعبادة الدنيا وعبادة المادة والشهوات، زاعمين أنه إنسان مغضوب عليه، وأنه ملون معاقب محاسب حساباً وبيلاً لحرصه على ما يفنى وإعراضه عما يبقى، ولإهتمامه بالدنيا الملعونة الملعون ما فيها التي لا ينظر الله إليها، ولا ينظر إليها عباده الصالحون الأبرار! بل إن مثل هذا الإنسان قد يرى في نفسه هذا الرأي ويعتقد أنه مخطىء ملوم، لأنه ترك الزهد الذي هو حلية الأنبياء والأولياء، ولأنه شغل بالحياة الدنيا، معبودة الكافرين والآثمين الذين لا خلاق لهم... وقد يحاول التبرؤ من فعله هذا ويسأل الله أن يمن عليه بالتوبة والهداية، لينفض يديه مما لوثهما به من الإشتغال بالحطام.

كان المفروض أن يترك المسلمون الدنيا ويتركوا العمل لها البتة، ما دام هذا هو رأيهم فيها ونظرهم إليها، ولكن قاوم هذا الفرض شيء آخر - هذا الشيء هو أنهم وجدوا أن ضرورة الحياة والبقاء وغريزة حبهما تدفعهم إلى العمل، إذ وجدوا بالمشاهدة والإستقراء أن من لم يعمل فلن يعيش، وهم يريدون ويحبون بالغريزة أن يعيشوا، فوقعوا بين عاملين مختلفين: عامل الزهد والإعتقاد أن الحرص على الدنيا جريمة وذنب وشره ممقوت، وعامل الضرورة - ضرورة الحياة والبقاء. فحاولوا بغير شعور - أو بغير شعور كامل - أن يرضوا العاملين، وأن يوفقوا بينهما وأن يجمعوا بين إعطاء كل منهما طلبه وحكمه.

فأخذوا للحياة وللبقاء بقدر الضرورة – أي إنهم قاموا بأعمال صغيرة وحقيرة، تكفي لوجودهم ولوجود الحياة فيهم، ولتمسكهم بها أو تمسكها هي بهم، ثم أعطوا باقيهم الزهد والإعراض عن الدنيا، فبقوا أحياء، وبقوا فقراء. ولم يستطيعوا بضرورة وقوعهم بين العاملين أن يميلوا إلى أحد الجانبين ويتركوا الجانب الآخر: فلم يستطيعوا أن يكونوا زهاداً فقط وأن ينفضوا أيديهم من الحياة والمادة جملة واحدة ولم يستطيعوا أن يكونوا أهل دنيا وأعمال كبيرة بارعة، وأن يتبرأوا من الزهد ومن كراهة الحياة الدنيا – أي إنهم لم يستطيعوا أن يتغلبوا على أحد العاملين ويهبوا أنفسهم عاملاً واحداً، فصاروا مقسمين بينهما، وصاروا من أجل ذلك بهذه المكانة الوضيعة من المجتمع العالمي والهيئة العالمية.

فإذا حاول معترض أن يعترض وأن يقول: إنه – وإن كان رأيهم وقولهم في الحياة وفي طلب المادة والمال كما ذكر – إلا أن هذه الآراء والأقوال لا تأثير لها في إنحطاطهم وعجزهم وضعفهم، لأنه لا يوجد منهم إنسان واحد يترك الدنيا ويأبى المال رغبة في أن يكون زاهداً وعملاً بأقاويل هؤلاء الشيوخ الغابرين، بل إنهم كلهم كما شاهدنا ليعبدون المال والمادة، ويحاولون كسبهما بكل الطرق حتى الطرق المحرمة كالغش والتزوير والسرقة وبكل الوسائل... فلا تأثير لهذه الأفكار والآراء الميتة الموجودة في تلك الكتب الميتة: كتب أولئك الميتين في حالة المسلمين الواهنة الواهية الفقيرة: إذ قال قائل هذا واعترض هذا الإعتراض، قيل في الجواب: ليس هناك شك في أن المسلمين، جماهيرهم وخواصهم، يحبون المال والدنيا، ويحاولون ويتمنون كسبها ونيلها والإستزادة منها بكل الطرق حتى المحرمة منها، ولكن يجب تدبر المسألة جيداً وفهمها من كل وجوهها: ذلك أنهم يحبون الدنيا والمال بغرائزهم وشهواتهم، ولكنهم يكرهونهما ويذمونهما بأفكارهم وآرائهم وعقولهم وعقائدهم وأديانهم وأقوالهم ودعاواهم. فبالشهوات والغرائز يريدون ذلك ويطلبونه، وبالإعتقاد والدين والعقل والرأي يرفضونه وينكرونه، فتتعارض القوى والعوامل فيهم؛ فإذا وجدوا الدنيا والمادة سهلة قريبة لا تحتاج إلى عناء ولا عمل أخذوها واحتاشوها بسلطان الشهوات والغرائز والطباع بالطرق كلها والوسائل أجمع حتى المحرمة، وهذا في الأغلب كما لا يخفى. وإذا وجدوها بعيدة المنال، محوجة إلى الجد والدأب – وهي كذلك

في كل الأوقات والحالات ما خلا النادر الشاذ - تعلقوا بإعتقادهم ورأيهم وقولهم وبمذهبهم القائل: إن الحرص على المادة والدنيا جريمة وغواية، والقائل لهم أيضاً: إن الزهد والفقر والقناعة فضيلة وهداية؛ فيكسلون ويكلون ويعجزون عن الطلب وعن الجهاد في سبيل ذلك، فيخرج من هذا أن يكونوا حريصين على الدنيا التي تؤخذ بالوسائل المحرمة، لأنها حينئذ تكون في الغالب سهلة قليلة الإعنات والعناء، بعيدين عنها زاهدين فيها إذا كانت تطلب وتنال بالجلاد والجلادة! وهذا أعجب شيء على أنه هو الواقع الحاصل المشهود.

وقد شاهدنا الأقوام الذين يقومون بوظيفة الإرشاد وبوظيفة ذم الدنيا والتزهيد فيها يحرصون عليها كل الحرص من الطرق الملتوية القريبة الذميمة، ولكنهم ينأون عنها كل النأي إذا كانت تحوج إلى العمل الشاق المرير على من لم يرضوا أنفسهم وأخلاقهم على الأعمال وحبها.

والإنسان مركب من طباع غريبة متباينة؛ فمن طباعه التي قد تكون أصيلة فيه، وقد تكون عارضة متولدة من ظروف وأحوال نكراء مرت به في تاريخه الطويل الحافل بالعجائب والمتناقضات، محاولته الفرار أبداً من الأعمال التي تلقى عليه تبعة والتي تلزمه الكد والنصب... فإذا لم تحط به ظروف ومبادىء وقوانين وتقاليد وأشياء أخرى تدفعه دفعاً إلى إلتزام التبعات، وتحكم عليه حكماً إضطرارياً بالأخذ بالأعمال الشاقة، وتلجئه إليها إلجاء فإنه حينئذ ينكل عن النهوض، ويعجز عن القيام، ويفر من التبعات، ويجد في الكسل والإستسلام اللذة والبغية والحياة الهانئة الهادية... فهؤلاء الذين يعيشون في بيئة كلها الدعوة إلى ترك العمل والدعوة إلى الفرار من الحياة ومن التبعات ومن الجهود المضنية، مزعوماً لهم أن في هذا الترك وفي هذا الفرار الأجر والثواب والحمد والشكر من الله ومن الناس، ثم مزعوماً لهم أن في هذه الأعمال التي كلها تبعات ومشقات حساباً وعقاباً عند الله ولوماً وإنتقاداً عند الناس، كيف يمكن أن يتغلبوا على هذا كله، وعلى طباعهم الراكنة إلى الخلاص من المشقة والنصب، وأن يثبوا وثبات تلقي تحت أقدامهم الثراء والسعادة والحياة القوية الراضية؟

إن الشعب الذي نتصوره واثباً إلى الحياة بكل قواه هو الشعب الذي تتضافر كل آدابه: دينه وعقله ورأيه وتقاليده وتعاليمه وفلسفته على إستحسان هذا الوثوب وعلى الإشمئزاز من كل عاجز ناكل وزاهد قانع، وعلى إعتبار هذا النوع

من الناس آثماً ومقصراً ومجرماً، وعلى أنه لا يقل في إجرامه وتقصيره وإثمه عن سائر أولئك الأقوام الذين يعملون ما تحرمه القوانين وما تأباه الشرائع، والذين يجرون إلى قومهم ووطنهم وإلى الإنسانية أجمع الشقاء والدمار... بل يجب أن ينظر إلى هؤلاء - من حيث الإجرام والتقصير والجريرة والخيانة - محسوبين شراً من أولئك الذين يتركون مواضعهم في خطوط القتال المشبوب دفاعاً عن الحق وعن الخير والحرية وحرمات الوطن. فإن القتال في سبيل كسب الحياة الجميلة هو أفضل قتال يتصوره العقل. فمن أهمل واجبه في هذا القتال كان أشد الناس إثماً وأعظمهم جريرة.

ليس مما يدخل في الإمكان أن يعتقد شعب من الشعوب إعتقاداً دينياً وفلسفياً وأدبياً - يعلمه في المدارس وفي المساجد وسائر المعابد وفي البيوت والجمعيات وفي كل مكان - بأن العمل للدنيا وللحياة بقوة وشغف أحد الآثام التي يؤاخذ الله عليها بل التي يعاقب بسببها، ثم يعمل هذا الشعب للدنيا بهذه القوة وبهذا الشغف، غير متأثر بإعتقاداته وفلسفاته، وغير مبال بما يعلم علم اليقين بأن الله يأخذ به ويلوم عليه، إلا إذا كان من الممكن الزعم بأن المعتقدات والتعاليم والتقاليد ليس لها تأثير البتة على الأعمال وعلى الإتجاه في الحياة... ولكن الناس يعلمون جميعاً أن مبدأ الأعمال كلها الإعتقادات، وأن العامل إنما يتجه ويسير ويعمل على مقتضى ما يوجبه له معتقده - غير أن هذا المعتقد الذي يرسم طريق العمل يجب أن يفهم أوسع وأشمل من المعتقد الديني، فليس المعتقد الديني وحده هو الذي يدفع الإنسان أمامه ويهديه ويقوده ويوجهه، بل كل المعتقدات هكذا، سواء أكانت دينية أم وطنية أم إجتماعية أم علمية أم فلسفية أم إنسانية... وإذا علم هذا - وهو معلوم بلا شك - وجب علينا أن نحارب بكل سلاح من أسلحة الحرب هذه الدعايات المدمرة لقوى الشعوب ولروح الأفراد والجماعات، وهي دعايات الزهد وتفضيل الفقر والمرض والفاقة والحرمان وكل تلك السخافات والأباطيل التي بقيت مضللة ومخدرة الإنسانية ومعطلة مواهبها أحقاباً وقروناً يعجز المحصون عن إحصائها... وعلينا نحن معشر المسلمين المغلوبين على أمرنا أن ننظر إلى هذه الدعايات والتعاليم على أنها أصفاد وأغلال قد مكن الجهل والغباء أعناقنا وأيدينا منها! فليس لنا مفر من العمل على تحطيمها وتحطيم من صنعوها بلا رحمة ولا شفقة، كما نهض محمد عليه

السلام وكما نهض قبله إخوانه من الأنبياء والمرسلين، محطمين وواضعين جميع الأغلال والأصفاد والآصار التي لقوها في طريقهم وفي طريق الإنسانية التي جاءوا لهدايتها وإنقاذها من جميع ما صنعه الشر والجهل.

أما النتيجة الأخرى لشيوع هذه الأقاويل المثنية على المتربة بكل معانيها، وعلى الشقاء بكل ألوانه حتى الجوع والمسغبة، فإن المكسلمين أهملوا أبدانهم من هذه الناحية إهمالاً عجيباً، ولا يزالون يفعلون ذلك أو يرون حسنه. وصاروا لا يرون أن للأبدان حقوقاً يجب أن تؤدى ووقوداً يجب أن يقدم. فجاءت عاجزة عن القيام بوظائفها، عليلة هزيلة لا تدفع شراً ولا تكسب خيراً كبيراً.

وقد وضع هؤلاء الشيوخ فلسفة للجوع ولحرمان الجسد من حاجاته ما أعجبها وما أكذبها! فأحد هؤلاء يقول في كتاب له معدود من خيرة الكتب ما معناه: إن الإنسان إذا أجاع بدنه وضربه بالحرمان العام: فمنعه النوم والراحة ضمر وضؤل وخف وزنه فاستطاعت الروح حينئذ أن تتغلب عليه وعلى ثقله... فحلقت إلى السماء وذهبت تطوف حول العرش وحول سدرة المنتهي! فكرعت هناك في المعارف والعلوم والكشوف وكيف شاءت! وصارت شفافة هفهافة، لا تحجبها الكثافة، ولا يعوقها عن الوصول غلظ المادة ولا بعد المسافة... فأصبحت عليمة بطبعها، غير محتاجة إلى التعليم وإلى التلقين. أما إذا أشبع جسمه وأراحه فإنه يربو ويزكو فيثقل بالروح ويقعد بها عن الطيران والتحليق، فتضحي ترابية عاجزة عن مفارقة التراب والمادة عاجزة عن التخلّص من قوانينها... فتصبح جاهلة بطبعها لأن مكانها التراب والمادة، وهما مكان الجهل... هذا نموذج من فلسفة الجوع والعذاب، عند هؤلاء الأوشاب.

وقال أحدهم في كتاب معروف مقروء: (إنما القصد من الجوع كسر النفس وتقوية القلب وتبييضه. فإن الجوع يذيب شحم القلب ويقلل دمه، فيبيض ويرق ويصفو فيستعد بصفائه لقبول نور الذكر وأنوار المعاملات الشرعية، والواردات الغيبية، ثم تنعكس الأنوار من مرآة القلب إلى أرض النفس.)...

وقالوا أيضاً: (إن أصول التصوف تدور على أربعة أشياء: قلة الطعام، وقلة الكلام، وقلة المنام، وإعتزال الأنام.)

وقالوا: (جعل الخير كله في بيت ومفتاحه الجوع، وجعل الشر كله في بيت ومفتاحه الشبع.)

وقال يحيى بن معاذ: (لو كان الجوع يباع في السوق لما كان لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره)! وقال سهل - وهو أحد أصنامهم: - ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال: إخماص البطون والسهر والصمت والإعتزال!

وكلامهم في الجوع وفي فلسفته كثير جداً. وقد دأب جماعات لا تحصى منهم على رياضة الجوع والسهر والعذاب الجثماني، محاولين بذلك أن يبلغوا درجات العارفين الواصلين الذين يلقون العلم بلا تعلم ولا أداة، والذين ترفع عن أبصارهم وبصائرهم الحجب فيشاهدون الحقيقة عارية مجردة من كل حجاب ومن كل لبس وإلتباس! فصارت النتيجة أن أصيبوا بالتخليط وبالفساد العقلي، وبالخيالات والأوهام التي تعلق بمن ضعفت قواهم العقلية والعصبية، نتيجة الإجهاد والإرهاق، أو نتيجة أشياء أخرى معروفة... ومن المصائب أنهم كانوا إذا وصلوا إلى هذا الفساد التصوري وتراءت لهم أشباح الأوهام والخيالات حسبوها حقائق وكشوفاً ومعارف عليا، وحسبها لهم الآخرون كذلك، فراحوا - رغبة في المزيد - يزيدون قواهم البدنية جلداً وإنهاكاً وسهراً وتعباً وجوعاً، فيزدادون بذلك تخيلاً وتوهماً، أي مرضاً وضعفاً، ويتتابع الوحي الذي ينزل عليهم! ثم لا يقفون عند هذه النهاية من الإضرار بأنفسهم وبمن حولهم وبالأمة التي آمنت بإمامتهم أو التي ستؤمن، بل يذهبون يكتبون هذه الخيالات والأوهام في كتب ورسائل لنقرأها نحن، ويقرأها من قبلنا ومن بعدنا! وليس من شك في أن كثيراً من هذه الأفكار والفلسفات التي نواجهها في كتابنا هذا هي إحدى ثمرات هذه الرياضات والفلسفات. فإن هؤلاء القوم ألحوا على أبدانهم بالعذاب الملون من الجوع والسهر والأعمال الشاقة العنيفة، ومنعوها حاجاتها وشهواتها الضرورية الطبيعية، فأصيبت أعصابهم بالإرهاق والإجهاد ثم بالمرض والانحراف فراحوا يتحيلون ويخالون حتى ظن كثيرون منهم أنهم صاروا يوحى إليهم، وأنهم يرون الملائكة عياناً ويسمعون الوحي جهاراً، وأنهم يشاهدون اللوح المحفوظ ويأخذون منه بلا وسيط! بل وأنهم يرون الله ويخاطبونه ويناجونه، وأن نواميس المادة وقوى الطبيعة قد تعطلت أمامهم وأمام كشوفهم ومعارفهم اللدنية!

وقد وقع في هذا كثيرون جداً من هؤلاء البائسين الهائمين، وعلى رأسهم ابن

عربي الطائي وأبو حامد الغزالي والشعراني وغيرهم. ولهذا فإن القارىء لكتبهم يجد فيها من الدعاوي المفزعة الباطلة ما يقف إزاءه حائراً، كدعاواهم أنهم اتصلوا بالملائكة والجان والأنبياء والخضر وإلياس والمعروفين عندهم برجال الغيب، وأنهم جالسوهم وصاحبوهم وصادقوهم وتلقوا عنهم العرفان، وأنهم رأوا اللوح والقلم جهرة!

وقد يسرع القارىء إلى رميهم بتعمد الكذب. ولكن هذا ليس بلازم. نعم هو ممكن. ولكن الأقرب منه أن يقال: إنهم قوم مرضى، وإن هذه خيالات تطل عليهم من النوافذ التي فتحوها في عقولهم، فيحسبونها أشياء حقيقية، فيأخذون يتحدثون عنها ويكتبونها ويعتمدون عليها! وأظهر الأسباب في مرض هؤلاء الشيوخ هو الشقاء المادي الطويل الذي تحدوا به أجسادهم وساسوها به شر سياسة، حاسبين أنهم بذلك يخدمون الروح ويتسامون بها عن أحكام المادة ودركاتها إلى عوالم الأرواح ومنازل الملائكة! ونحن إذا عرفنا هذه الحقيقة - أعني حقيقة مرض القوم وسبب مرضهم - هان علينا أن نفهم كيف كتبوا ما كتبوا، وكيف ادعوا ما ادعوا! أمن الممكن أن يكتب عاقل مهما كان جاهلاً أو ضالاً أمثال ما كتبه الشعراني في كتابه (الطبقات الكبرى) وغيره من كتبه، وأمثال ما كتبه آلاف من الشيوخ في ما تركوه لنا وراءهم من المؤلفات؟ ليس من الممكن أن يكونوا مؤمنين بما كتبوه إن كانوا عاقلين، وليس من الممكن أيضاً أن يكونوا إنما كتبوه مخادعين ومضللين، فإن من كان يحمل معه عقلاً سليماً لا يمكن أن يحاول التضليل والإغواء بأمثال هذه الأساليب الصريحة في الجنون والخبل! فلا بد إذن أن نذهب في تعليل هذا إلى أن القوم كانوا مرضى، ولا بد أن ننظر إليهم بالعين التي ننظر بها إلى محموم يهذي، وأن نسمع كلامهم وما فيه من الإدعاء والشطح ونقرأه كما نسمع من نزلاء المصحات العقلية والعصبية، لا أن نجعلهم أئمتنا المختارين، ننزلهم منزلة الملهمين المعصومين... وبهذا نرحمهم لأننا نراهم على حقيقتهم، ونرحم أنفسنا وأمتنا لأننا ننجو بها من الإنحدار في هذه الدركات.

* * *

وجه الخطأ في هـذه الفلسفة أنهم اعتقدوا أن الروح والجسد عالمان

مستقلان متعاديان، وأن كلاً منهما حرب للآخر، وأن كلاً منهما أيضاً إنما ينمو ويزكو على حساب الآخر: فإذا أهين أحدهما وعذب نما الآخر وترعرع وقام بوظيفته خير قيام، وإذا أكرم وأريح وأجم أصاب الآخر العكس... وهذه فلسفة عقيمة لا تقف أمام الحقائق. فإن الروح – مهما اختلف في حقيقتها وفي تفسيرها – تزكو وتقوى وتقدر على أداء وظيفتها إذا صح الجسم وقوي واستراح، وتضعف وتخبو وتعجز عن القيام بعملها إذا مرض الجسم أو تعب أو عجز... وهذه حقيقة هي اليوم فوق مذاهب الشك. وفي إستطاعة الرجل العادي أن يعلم صدق هذا بالملاحظة والإستقراء، فإنه يرى أن الجسم إذا ما أنهك وأنصب بعمل شاق أو بسهر أو مرض أو بجوع أو بشيء آخر، مما يضرب الجسم بالإعياء، كانت الروح أو ما يسمى بالروح أو مصدر الفهم في الإنسان، وصار صاحب ذلك الجسم عاجزاً عن الفهم أو كالاً فيه أو ناقصاً. فإذا ما راجعت ذلك الجسم راحته وزايله تعبه ثاب إليه فهمه أو حدة فهمه، ورجع قادراً على تناول الأمور وعلى فهمها تناولاً وفهماً صحيحين... ويرى أيضاً أن الإنسان إذا ما كبر وتقدمت به السنون ووهنت قواه المادية ضعفت روحه، أو ما يسمى بالروح وانطفأ ذكاؤه وخبا ذهنه، وقد يصبح في النهاية خرفاً لا يعي شيئاً كما قال القرآن: "لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً." وهذا في الشيخ الهرم... وكذلك هو في حالة الطفولة قبل تمام الجسم لا تكون روحه – أو مكان الإدراك فيه – كاملة ولا تامة ولا صحيحة... ثم يرى أيضاً أن الروح أو ما يدعى بالروح يتبع البدن في كل شيء ويتأثر بما يتأثر به: فإذا نام البدن أو خدر أو أغمي عليه أو سكر أو إنتابه مرض فتاك وصل به إلى حد الهذيان، أصيبت الروح بما أصاب الجسم: بالنوم وبالخدر وبالإغماء وبالسكر وبالهذيان وبكل ما عرا البدن... وبهذه الملاحظة الأولية البسيطة يستطيع ان يعلم أن الروح تابعة للجسم في مرضه وصحته وفي قوته وضعفه وفي إفاقته وسكره وفي نومه ويقظته وفي كل حالاته. بل وفي الجنون أيضاً، فإن الجنون خلل مادي يصيب منطقة التفكير وهو المخ فيصير المرء مجنوناً. أما الروح فإنها عندهم لا تجن. ومع هذا فإن كل شيء في الإنسان يكون مجنوناً إذا تلف مركز الفهم فيه.

* * *

لما حاقت بفرنسا الهزيمة في هذه الحرب وسلمت للفاتحين الألمان، وفرض

عليها نظام البطاقات، وكانت الأغذية التي تقدم للشعب الفرنسي بمقتضى هذه البطاقات دون ما يلزم ودون ما يكفي حاجة البدن، قام رجال الصحة ينادون ويقولون: إن الآثار التي سيخلفها ويوجدها نقص التغذية في قوى الشعب وفي مقدرة الأجيال المقبلة على مجابهة الحياة والنهوض بأعبائها، ستفوق كل آثار الهزائم العسكرية التي أصابت فرنسا، والتي قد تصيبها... وقد قيل مثل هذا القول في سائر أنحاء أوروبا لما ضرب عليها الجوع والحرمان والشقاء المادي طوال سني الحرب الست. وقيل إن الأجيال القادمة ستكون عاجزة ضعيفة واهنة لحرمانها من الغذاء الكافي. وقيل إن هذا العجز والضعف والوهن سيتناسل وسينتقل لأجيال أخرى قادمة، لأن الجيل الضعيف يخلف أيضاً جيلاً ضعيفاً مثله.

ذلك أن من المعلوم أن كل عمل، حتى أقل حركة، إنما يصدر عن القوة، والقوة إنما تولدها الطاقة، والطاقة إنما هي إحدى خصائص المادة. فكل عمل يصدر منا أو مما حولنا لا يصدر عن غير المادة. فالمادة إذن هي الأعمال، وهي القوى، وهي الشعوب والأمم. وكل شعب يفوق الشعوب الأخرى إنما يفوقها بما عنده من المادة وبما أحسن وانتفع من إستخدامها، لا شيء غير ذلك، حتى النبوغ والذكاء والعلوم والأخلاق والآداب، ليست سوى مظاهر للمادة المنظمة المرتبة التي سيطر عليها الإنسجام والإعتدال وجمال الوضع؛ ما هي الكهرباء، وما هو النور، وما المغناطيسية والجاذبية، وما هذه الألوان الزاهية التي تجلل الأزهار وغيرها والتي تروع منظراً، وما هي الأصوات ذات الأنغام، بل ما هو الجمال الإنساني الذي عجز كل ما عند الناس من ألفاظ وعبارات عن نعت ما فيه من قوة وتأثير وسحر؟ ما هذا كله؟ أليس هو المادة المنسقة المحكمة وأوصافها ومعانيها وقواها؟ وما هو النبوغ والعبقرية اللذان يوجدان الشعوب ويصنعان الحضارات؟ هل هما غير ذلك الرأس الممتاز المستدير على تلك المادة النفيسة؟ إن أجمل شيء من هذه الحياة وأروعه ليفقد جماله وروعته وسحره وقوته إذا غير وضعه المادي بلون من ألوان التغيير، بالزيادة أو النقصان، بالكيف أو بالهيئة... وإن أفراد هذا الوجود - سواء في ذلك الحيوان والنبات والجماد الأصم - لكل واحد منها حد مادي معين ومقدار معلوم إذ بلغه جاء سليم التكوين، تام التركيب، صالحاً لبلوغ غايته وللقيام بوظيفته، وإذا لم يبلغه جاء

فاسداً وعقيماً وغير صالح لشيء كما يجب... فالحيوان والنبات - بل والصناعات الصماء الجامدة - إن لم تأخذ وحدها الأعلى المناسب المقدور لها كانت غير تامة، وغير مستطيعة أن تعطي ثمرتها. والإنسان إن لم يبن جسمه بناء سوياً قوياً - ولا سيما في أعوام تكوّنه، منذ الولادة إلى أن يتم بناؤه العام - فأنه يجيء خلقاً ضعيفاً عاجزاً عن كسب معركة الوجود، هجوماً ودفاعاً، عاجزاً عن أن يبلغ ما يبلغه الإنسان القوي السوي، لا مقلداً ولا مبتكراً، محكوماً عليه بسنة الحياة العادلة بأن يظل تحت سلطان من هو أقوى منه وأسلم تكويناً، وأن يتمزق إن حاول أن يصطدم به، كما هو الشأن في كل قوي وضعيف يتصادمان.

ثم إن الإنسان أيضاً عامل متحرك حي، والعمل والحركة يحدثان إحترافاً في المتحرك العامل ويأخذان من قواه، فلا بد من التعويض وإلا هلك وبطلت حركاته وأعماله. وما من شيء يأتي بأبسط حركة وأضعف عمل إلا ولا بد له من الوقود، فإن الشيء لا يوجد من لا شيء، والموجود لا يولده المعدوم. ولن تدور أو تسير أو تتحرك آلة من الآلات وصناعة من الصناعات بدون الوقود، وهي محتاجة إليه ما ظلت دائرة سائرة متحركة. فإذا نفد وقودها بطل عملها وحركتها... وكذلك الإنسان محتاج إلى الوقود اللازم الكافي ما ظل حياً عاملاً متحركاً، ولا يستغني عنه إلا إذا مات وأصبح غير صالح لأن يأتي بشيء. والوقود الذي يقدم إليه - وهو الغذاء - إن كان غير جيد أو غير طيب فإن عمله وحركته تجيء كذلك، وقد يصاب بالعطب كالآلة تماماً إذا نقص وقودها أو كان غير جيد... وليعلم أن التفكير حركة وعمل أيضاً، ولكنه حركة وعمل جباران مرهقان. فلن يستطيع التفكير الجبار القوي المبتكر المبدع المنتج من لم تكمل آلته، ومن لم يتحصل على ما يكفيه ويلزم له من الغذاء. فالشعب لا يمكن أن يكون له قيمة في هذه الحياة، ولا شأن مذكور مرهوب، ولا قوة عملية أو ذهنية عقلية إلا إذا كان تكوينه الجسماني تاماً سليماً، وكان غذاؤه متوفراً. فمثل هذا الشعب هو الذي قد يصلح للحياة وقد تصلح له.

أما الشعب المريض الهزيل الجائع فإنه لن يكون شيئاً كبيراً ولن يصنع شيئاً كبيراً. وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً أن الشعوب القوية الأبدان، التي نجت من الجوع والشقاء والحرمان أقرب إلى الكمال الإنساني من الشعوب المحرومة الضعيفة الشقية: فهي أشجع وأصبر وأصدق وأعظم مروءة ونخوة وحمية وإباء

وتواضعاً، وأذكى وأفهم للحقائق وللحياة، وأبعد عن الخرافات والسخافات وعن الإضطرابات العصبية والعقلية وعن العادات السقيمة المخزية... وأنها على وجه العموم أسلم تفكيراً ونظراً، وأصدق عملاً، وأضخم إنتاجاً. ولهذا كان الرياضيون أقوى الناس أخلاقاً وأفضلهم شمائل.

نعم، الروح حق وهي من أمر الله، ولكن الفلسفة التي إنتحلها هؤلاء في صلتها بالبدن ومقامها منه فلسفة ليست لها قيمة برهانية، بل البراهين متظاهرة على بطلانها. وذلك أن إتصالها بالجسد إن كان إتصال الصفة بالموصوف فليس هناك ريب في أن الصفة تعظم بعظمة صاحبها وتخس وتضؤل بخسته وضآلته، بل ليس هنالك قيام للصفة ولا وجود إلا بموصوفها وبوجوده. فالصفات إنما تستمد وجودها وقيامها وحياتها وقوتها من موصوفاتها. فكيف يصح الزعم بأن هنالك عداء بين الصفة والموصوف، وأنه كلما نقص الموصوف وضعف وأشقى وحرم - والموصوف هنا الجسد كما هو المفروض - عظمت الصفة وعظم فعلها وعملها - والصفة هنا هي الروح على ما هو الفرض.

وأما إن كان إتصالهما من إتصال الحال بالمحل والنزيل بالمنزل، فلا شك أيضاً في أن النازل الحال يكرم ويشرف بكرم محله وبشرفه، ويستفيد من جماله وحسنه وسعته وقوته وسمو قيمته. ولا يمكن أن يدعي أن رداءة المنزل وصغره وضآلته وتهدمه وسوء تركيبه وإهماله وضعف بنائه مما يشرف صاحبه ويرفع من قدره ومما يهبه القدرة والكمال.

وأما إن زعم أن هذا الإتصال بينهما هو كإتصال اللابس بالملبوس، فالقول فيه كالقول أيضاً في صلة الحال بالمحل والنازل بالمنزل... وعلى الإحتمالات الثلاثة ليس مما يقرب من الصواب ولا مما يحتمله الإدعاء أن بين الروح والجسد عداوة وتنافراً بالشكل الذي ذكروا.

ولا يدري ما هي نقطة الإرتكاز لهذه الأوهام التي استطاعت الإستقرار في الأذهان كل هذه العصور والأجيال.

وقد وضع ابن سينا قصيدة شهيرة، عرفت بالعينية، أودعها آراء غريبة في إجتماع الروح بالجسد وهبوطها من المحل الأرفع عليه. جاء في مطلعها:

هبطت عليك من المحل الأرفع

ورقاء ذات تحجب وتمنع

محجوبة عن كل مقلة ناظر

وهي التي سفرت ولم تتبرقع

هبطت على كره إليك وربما

قبلت فراقك وهي ذات توجع

أنفت وما ألفت فلما جاورت

ألفت مجاورة الخراب البلقع

يريد بهذا أن الروح لم تقبل الحلول في البدن ولا الهبوط عليه من سمائها إلا مكرهة، لأنهات هي سماوية وهو أرضي ترابي، وأليم وجيع بسكان السماء أن يقبلوا النزول في الأرض وسكناها. ولكنها بنزولها إلى الأرض ومجاورتها لها ولأهلها، وبحلولها ببدنها المدد الطويلة تكيفت بالمادة وبالتراب والحضيض، فألفت ذلك بعد أن أنفت منه، فصارت به آنسة وإليه مستريحة وبه قريرة، فأضحت كارهة لفراقه بعد أن كانت كارهة للإجتماع به والنزول إليه... وهذا هو سر ألم الموت وشدة خروج الروح من الجسد حين الوفاة.

وسواء أصح هذا الذي ذكره ابن سينا أم لم يصح، فإن الشيء الذي لا ريب في صحته هو أن الجسد المادي هو الوسيلة التي لا وسيلة سواها للقيام بالأعمال وبوظائف الحياة وبالخير والشر، وللإستمتاع بالسعادة أو بالشقاء، بالنعيم أو بالجحيم. ولهذا فإن الأرواح لم توجد في الدنيا مجردة من المادة ومن أبدانها، ولم تحضر في الآخرة للقاء الجزاء مجردة كذلك، بل أحضرت بالأجسام الجميلة الكاملة... والذين يدعون الآن أنهم يحضرون الأرواح وأنهم يستخدمونها في بعض الأغراض والأعمال يدعون أن ذلك غير ممكن إلا بواسطة المادة وبواسطة الوسطاء.

أفليس معنى هذا كله أنه سبيل إلى عمل شيء ما ولا إلى الإستمتاع بشيء ما إلا بواسطة الماديات، فالذين يدعون أنه تجب محاربة المادة ومحاربة الأبدان وتعذيبها وإهمالها من أجل الوصول إلى الكمال وإلى الخير المطلق ومن أجل الظفر بالقوى الروحية كاملة مجتمعة، قوم لم يوفقوا فيما قالوا وفيما ادعوا.

وإذا كان واجباً علينا أن نعنى بخدمة أرضنا ومزروعاتنا - لأننا نرغب في ثمر طيب وخيرات كثيرة - فإنه كذلك واجب علينا أن نعنى بخدمة أجسامنا وبتكوينها وبنائها، إذا كنا راغبين حقاً في الحصول على عقول ممتازة وعلى

أعمال جبارة كبيرة، وعلى شعب يسود ولا يساد، وعلى رجال يسابقون الإنسانية أو يسيرون مع طليعتها في الإختراعات وإيجاد الحضارات... ولننبذ من اليوم بلا تردد هذه الأفكار العقيمة والآراء المميتة، ولنرفعها من قواميسنا ولغاتنا ثم لا نرجعها مرة أخرى، ولنزهد في الزهد إن كان لا بد من الزهد. ويجب أن يعلم أن كلمة الزهد لم ترد في القرآن إلا في موضع واحد وهو قوله في قصة يوسف: "وكانوا فيه من الزاهدين" ولا شك أن المقام هنا مقام ذم. وكذلك لم ترد في الأحاديث الصحيحة هذه اللفظة.

* * *

ولنورد في آخر هذا البحث ما يعد مقارنة صغيرة يسيرة بين هذه الأقاويل التي زعمت لباب الإسلام، وبين عبارات جاءت في التوراة حاثة على العمل من أجل الحياة وعلى الترغيب في الغنى وفي ذم الفقر والفقراء.

فجاء في سفر الأمثال: العامل بيد رخوة يفتقر. أما يد المجتهد فتغني. من يجمع في الصيف فهو ابن عاقل، ومن ينام في الحصاد فهو ابن مخز... ثروة الغني مدينته الحصينة. هلاك المساكين فقرهم. عمل الصديقين للحياة. ربح الشرير للخطيئة... الأشداء يحصلون غنى... من يشتغل بحقله يشبع خبزاً. أما تابع البطالين فهو عديم الفهم. يد المجتهدين تسود. أما الرخوة فإنها تكون تحت الجزية. الرخاوة لا تمسك صيداً. أما ثروة الإنسان الكريمة فهي الإجتهاد... نفس الكسلان تشتهي ولا شيء لها، ونفس المجتهدين تسمن. فدية نفس رجل غناه. حيث لا بقر فالمعلف فارغ، وكثرة الغلة بقوة الثور. في كل تعب منفعة. وكلام الشفتين إنما هو إلى الفقر. تاج الحكماء غناهم. لا تحب النوم لئلا تفتقر. افتح عينيك تشبع خبزاً... نوم قليل، نعاس قليل، وطي اليدين قليلاً للرقاد يأتيك بفقرك عداء وبعوزك غارياً.

هذه نقول قليلة من عبارات كثيرة جداً تفيض بها صفحات التوراة... ويلاحظ في هذه الكلمات التي نقلناها أنها تعلق الثراء والفوز بطيبات الحياة بأسبابها الصحيحة، كما تعلق الفقر والإفلاس والشقاء بأسبابها الصحيحة أيضاً: فالمجتهد العامل القوي الجاد المكافح ينال الثراء والمجد ويدرك أغراضه كاملة، والكسلان الضعيف القاعد ليس له سوى الفقر والجوع والهوان الإجتماعي، وهذا جزاء حقيقي عادل وهذا خلاف ما عهد وعرف في الكتب

الدينية، فإنها تعلق كل فلاح - حتى الفوز بالدنيا وبالخيرات المادية - على الصلاح والعبادة والتقوى، وتعلق كل شر وخيبة في الدنيا وفي الآخرة على الفسوق والعصيان - أي إنها تعلل كل شيء تعليلاً دينياً لا تعليلاً طبيعياً، بل إنها تنكر هذا التعليل وتراه زيغاً ومروقاً. أما هذه الأقاويل التي جاءت في التوراة فهي - كما رأى القارىء - تعلل كل شيء بسببه الصحيح الطبيعي: فلا تقول: إن الصلاة والذكر وخوف الله تجيء بالمال، ولا إنها تزيد في إنبات الأرض وإخصاب الزرع، ولا إن ترك الصلاة والعبادة يمنع مجيء المال ويمنع نبات الأرض وإخصابها إذا ما جمعت أسباب ذلك، بل كل شيء وسببه! وهذا لون غريب وتعليل عجيب في كتب الدين.

أما مدح الثراء والدنيا، ومدح العمل لها وذم التهاون فواضح جداً مما نقلنا وذكرنا... وقد بالغت كثيراً هذه الآيات - إن كانت آيات - في تحجيب المال إلى النفوس وفي الرفع من قيمته، وفي تبغيض العوز إلى البشر، متحدثة بالويل والثبور والهلاك لكل من لا يكون غنياً، وبالسعادة والهناءة لكل من كان غنياً... ولا يوجد أشد مبالغة في الحض على حب الحياة من قوله (عمل الصديقين للحياة) ومن قوله (من يجمع في الصيف فهو ابن عاقل.) وهذا الضرب من التعليم غريب أيضاً في الكتب الدينية. فالغرابة في هذه الأقوال من ناحيتين: الأولى: تعليل النجاح في الدنيا بالعمل لها لا بالتقوى كما يقول رجال الدين، وتعليل السقوط بترك العمل. والثانية: المبالغة في تزيين الحياة الدنيا وتزيين العمل لها والحكم بأن من يفعل ذلك فهو العاقل الراشد المرضي عنه، ومن لا يفعله فهو الأحمق الجاهل المغضوب عليه.

ولسنا نستطيع أن نشك في أن هذه التعاليم قد كان لها تأثير حافز للطوائف اليهودية البارعة والمشهود لها لدى الجميع بالبراعة في كسب المال وفي السيطرة على الموارد الإقتصادية أين وجدوا وكيف وجدوا، حتى صار معلوماً في كل زمان ومكان بأن من يحاول منافستهم ومقاواتهم محكوم عليه بالهزيمة - كما أن تلك التعاليم التي نقلناها عن أولئك المشايخ الهدامين قد كان لها التأثير الحاسم في قتل همم من ابتلوا بقراءتها من المسلمين حتى أضحوا مضرب الأمثال في العجز الإقتصادي وفي غيره من ميادين الحياة... فاليهود ما زالوا يقرأون هذه العبارات والترغيبات في التوراة على أنها وحي نزل إليهم من الله على أنبيائهم،

فتحدث في نفوسهم وطباعهم حب المال وحب العمل وحب الحياة على مر القرون إلى أن صاروا بهذه المكانة المالية المرموقة، وإلى أن سلمت لهم الإمامة والتبريز في هذا الشأن.

ثم هذه الأقاويل إن كانت من الوحي النازل على الأنبياء فهي حجة دينية على فضل العمل من أجل الدنيا وفضل حب المال، وإن كانت مما وضعوه وزادوه فهي برهان على تمكن النزعة الإقتصادية من نفوسهم وطباعهم بحيث حملتهم هذه النزعة الغالبة على أن يضعوا أقوالاً وآيات في تفضيل ما يحبون ويشتهون ليدسوها في كتبهم المقدسة، ولينحلوها الله وأنبياءه، وليتعبدوا بها وبتلاوتها! وسواء أصح هذا أم ذاك فالذي لا ريب فيه أن لهذه الآيات فضلاً عظيماً كبيراً في تاريخهم المالي الطويل القوي.

* * *

إن ذكرى تفيض بالمرارة والحسرة تعاودني كلما مر بخاطري عصر مشؤوم قضيته مسحوراً بهذه الآراء: كنت أفر من الحياة ومما يعلي من قيمة الحياة: لقد كنت لا أجد ما يحملني على أن أرفع قدمي لو علمت أني إذا رفعتهما تكشف ما تحتهما عن أعز ما عليه يتقاتل الأحياء! وقد ضاعت عليّ من أجل ذلك فرص، كان يمكن الإفادة منها، لا يمكن إسترجاعها! كان الغرور الديني قد أفسد على كل شعور بالوجود وبجماله. وكنت مؤمناً بأن من في المجتمع لو كانوا يرون رأيي ويزهدون زهدي لوقفت الأعمال كلها، ولما وجد العالم بدأ من أن يخرب! كنت أنظر إلى من يهتمون بالحياة وبمن فيها ومن يعملون لها ويجاملون ويخالقون من أجلها بعين أقل ما فيها الإحتقار والإستصغار! وكنت لا أبالي بأحد مهما كان عظيماً ومهما كان قادراً على النفع والضر. وما كنت أفكر في أن أجد فرصة للقائه أو للقرب منه أو للإتصال به! وكنت لا أخالق إنساناً رغبة فيما يتخالق الآخرون من أجله. وكان شعاري في تلك الفترة قول ذلك المغرور والمخدوع مثلي:

إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذي فوق التراب تراب
فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر

وبيني وبين العالمين خراب

نعم كنت أعتقد أن الكل هين، وأن جميع ما فوق التراب وما في العالم من جمال وطيبات وحاجات، ومن أقوام وأمم وشعوب، تراب! وكنت لا أبالي أن يحلو لي شيء من ذلك أو يمر، ولا أن يرضى أو يغضب، ولا أن يعمر أو يخرب، كما يقول هذا الشاعر المسكين! وكنت أرى أني بذلك أرضي الله، وأني إذا أرضيته فلن يضيرني شيء[1] وكانت الدنيا كلها تدور من حولي من غير أن أدور معها أو أحس دورانها! وكان يخيل إليّ وإلى غروري الديني الأعمى أنه لا قوة كقوتي، لأن الله معي – واهب القوى! فليقو العالم كما يشاء، وليجمع من الأسباب ما طاب له، وليحاول من أجل نفسه ما يحاول، فإن ذلك كله لا قيمة له ولا خطر بالنسبة إلى قوة من استقوى بطاعة الله ومن ترك الأسباب جملة مستمسكاً بأسباب الله وحدها، وكان يبدو لي أنه بقدر إيمان الإنسان بذلك، وبقدر كراهته العالم والوجود والدنيا والإنسانية كلها، وبقدر إستصغاره لها وإحتقاره إياها وكفره بها ومغاضبتها ومجانبتها – بل سبها ولعنها – يكون قربه من الله ورضاه عنه ودلاله عليه... وكانت هذه الإعتقادات أو الخيالات تهبط بي وتعلو، وتجعل لي وجوداً خاصاً وعالماً خاصاً ودنيا خاصة، تدور من أجل واحد وتوجد لأجل واحد أيضاً – واحد أرضى الله ووهب له كل معانيه فوهب الله له على حسب ما يظن كل ما يريد ولو كان في جملة ما يريد إعزاز الأمم وإذلالها.

وكانت الخطب الأسبوعية التي أسمعها، والعظات الأخرى المتجددة المتكررة المستمرة، والكتب التي أقرأها، لا تدع فرصة لي لتنبعث غريزة أو تنطلق طبيعة من الغرائز والطبائع الكامنة في أعماق النفس الإنسانية وفي ثنايا الوجود الإنساني التي تدفع إلى العمل وإلى حب الحياة! وكانت كل تلك الغرائز والطبائع والمعاني الإنسانية عندي معلّقة، لا تستطيع الإنبعاث ولا الإنطلاق ولا العمل... كانت الخطب أيام الجمعات إحدى النكبات. وذلك أنها لتكررها كل أسبوع

---

(١) يبدو على كثير من المتدينين قسوة وخشونة في معاملة الناس ومخاطبتهم! والسر النفسي في هذا أنهم يعتقدون أن الإتصال بالله وبالإيمان بعظمته وكامل قوته يستلزم الإستهانة بخلقه الضعفاء فليشتموا وليهانوا إذن فإن ذلك لن يضر شيئاً، بل إنه ينفع، لأنه كالبرهنة على الثقة بالله وعلى أن الضر والنفع منه وحده.

استطاعت أن تجعل تخديرها مستمراً مضموناً متجدداً... فالطبيعة الإنسانية تأبى الإستمرار في الشقاء والبؤس، وتأبى أن تبقى مستذلة راضية مستسلمة لذلك إلا إذا أمكن أن تقعد وأن تمنع القيام بوظيفتها بأن تعمل لها عملية تخدير أو تنويم صناعي أو شيء آخر من تلك العمليات المبيدة. وكانت خطبة يوم الجمعة من أعظم وأقوى ما يقوم بهذه العملية، لأنها لتكررها لا تترك فرصة لإنطلاق معنى طيب من معاني الإنسان.

ومن العجيب - بل من غير العجيب - أن البائسين الذين يخدرون بهذه الخطب كل أسبوع وتقيد بها غرائزهم وطباعهم وتمنع العمل والإحساس بالحياة يجدون لذة مسكرة في سماع هذه الخطب وترديدها! وليس هناك شك في أن شعورهم بهذه اللذة يشبه شعور مدمن المخدرات عندما يتناول منها شيئاً بعد حرمان طال أو قصر! وذلك أن هذا التناول للمخدر، وهذا السماع للخطبة المخدرة يؤديان عملية التسكين في الحالتين فحرمان الإنسان من الحياة الصحيحة الجميلة يؤلمه ويؤنيه لو ترك سليماً معافى، ولن يستطيب ذلك إلا إذا خدر، فالخطب تقوم بهذا التخدير، فيجد البائس المسكين فيها تسكيناً لآلامه، ويجد فيها عزاءه، ويجد فيها آماله الضائعة المشتتة المحرومة! فيظل مستكيناً راضياً، وينعم عيناً بكل ألوان الشقاء، ويظل يتدلى ويهوى في دركاته حتى يصل إلى حالة يتعجب السليم المعافى من رضاه بها وسكوته عليها وحياته معها! وكما أن مدمني المخدرات يبلغون حالة من الإنهيار المادي والمعنوي لا يتصورها العقل - مع رضاهم بها - فكذلك الذين يخدرون بهذه المواعظ المتكررة يبلغون هذه الحالة من الإنهيار مع رضاهم بها ولذتهم بإعطائهم هذه النوبة الأسبوعية المخدرة.

إن القوانين تعاقب من تناول المخدرات مرة في خفية وعلى حذر، ولكنها تبيح تخدير الآلاف! بل مئات الآلاف، بل مئات الملايين في المساجد والجمعيات كل أسبوع بل كل يوم أحياناً، ثم تحث هؤلاء المخدرين على أن يخدروا، بل وتجازيهم وتوظفهم وتقتطع لهم من أموال الدولة المكافآت الشهرية! وهذا بلا ريب من أعجب مناقضات القوانين وغرائبها.

لقد أريد أن تؤدي المنابر والمساجد أعظم المنافع للإنسانية فأدت شر ما يؤدي: أريد منها أن تحيي فأماتت، وأن تعز فأذلت، وأن تهدي فأضلت، وأن

تبعث على العمل فبعثت على الكسل، وأن تمتدح الحياة فامتدحت الموت، وأن ترفع من شأن الجمال وتحببه إلى النفوس فرفعت من شأن الدمامة وحببها إليها، وأم تملأ الرؤوس بالحقائق فملأتها بالأوهام، وأن تخلق شعوباً متوثبة فخلقت شعوباً خاملة عاجزة - تنتظر وجودها وحياتها وحاجاتها من خارجها لا من أنفسها، معلقة أبصاوها دائماً بالسماء، منتظرة أن تمطر عليها الذهب والفضة والسيادة والوجود والعز وكل ما يؤمل، ولا تنظر إلى نفسها وطبيعتها... فأقبح بها من منابر أشاعت الموت والدمار والظلام والجهل!!

كم أرثى لهؤلاء البائسين المساكين الجائعين العارين حينما أراهم يوم الجمعة، وآذانهم مرهفة، وأعينهم مشدودة بذلك الخطيب الذي عبث بجسده الناحل المشوه الجهل والشقاء وكل ضروب الحرمان، ينتظرون منه أن يطعمهم وأن يكسوهم وأن يهبهم الصحة والعافية، وأن يبني لهم المنازل الجميلة، وأن يقضي لهم كل حاجة ورغبة، وأن يقدم إليهم الإستقلال والسيادة كهدية خالصة رخيصة، وأن يدخلهم أخيراً الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء في صنوف الأبرار المقربين... والثمن لذلك كله لا يعدو كليمات خفيفات مهمات مجهولات يتمتمون بها، وبعض حركات يمثلونها، أو تمثل بهم كما هو الصحيح، بدون أن يفقهوا لها معنى أو يدروا لها غرضاً وغاية.

وكم أرثى لهم - بل وأبكي - وهم يتمايلون تحت ذلك الخطيب، ويهزون رؤوسهم الفارغة، ويترنحون بأعطافهم المحطمة تحت تلك الأسمال البالية الممزقة، كلما سمعوا وعداً أو وعيداً، وكلما سمعوا الآمال الضخمة الرخيصة تزجى إليهم، والأهوال الراعبة المذهلة تصب عليهم، وكلما سمعوا أن إنساناً ارتفع من حضيض الفاقة والذل إلى أوج الثراء والعز - وأن آخر توقفت أمام إراداته قوانين الطبيعة ونواميس الوجود أو بطلت - وأن آخر أهبطت له الملائكة المقربون من سماواتها لتكون في خدمته وتحت مشيئته - وأن آخر زف إلى الجنة زفاً وبين يديه الملائكة والنبيون يحملون المشاعل والبخور ويفتحون له الطريق - بل وأن أمة استولت على الأمم وأملت على الزمان والمكان - لا لشيء سوى أنهم أرادوا ذلك وطلبوه، وأنهم تحركوا حركات، سموها عبادات: نعم كم أرثي وأبكي لهؤلاء البائسين وهم يهتزون تحت هذه الوعود والبشارات ويتلمظون شوقاً ورغبة، ثم يخرجون وهم يندبون أنفسهم، ثم يقضون أيامهم ويودون بآمالهم إلى

نهاية الأجل القريب، مخمورين بهذه الخمرة التي لا يفيق شاربها.

لقد كان من الممكن أن تنطلق شرارة، أو تنبعث عاصفة من الطاقة الإنسانية الأبدية الكامنة في أعماقهم، فتضيء لهم الطريق أو ترتفع بهم عن هذه الوهدة وتنقلهم عن هذا المكان الذليل، لو تيسر أن ينقذوا من براثن هؤلاء المخدرين. ولكن هذا الإجتماع الأسبوعي مفروض فرضاً، وهذه الخطب مفروضة على هذا الإجتماع فرضاً أيضاً، فأين النجاة وكيف الفرار!

قد يجوز أن يختلف المصلحون في كثير من طرق إصلاحهم، ولكن ليس مما يجوز الإختلاف فيه أن الواجب الديني والوطني والإنساني يلزم إما بإصلاح هؤلاء الخطباء وهذه الخطب، وإما بالحيلولة بينهم وبين ضحاياهم وضحاياها. وإما بشيء آخر...

وقد أراد جماعات من المتأخرين أن يجددوا في معنى الزهد وأن يجعلوه عصرياً، فقالوا: إن الزهد محله القلب لا اليد - يعنون أن القلب هو الذي يجب أن يزهد في الدنيا وأن يكرهها ويعرض عنها، أما اليد فلا بأس بأن تجمع وأن تعمل. وقد ظنوا أنهم بذلك قد وفقوا بين أقوال هؤلاء الشيوخ وبين ما تتطلبه الحياة من عمل ونشاط.. وفات هؤلاء أن هذي الفكرة مستحيلة متناقضة. وذلك أنه من غير الممكن أن يكره المرء الدنيا بقلبه - أو ألا يحبها بقلبه - ثم يعمل لها بإهتمام، صابراً على مشقات الطلب والعمل، لأن الذي يبعث الإنسان على ذلك هو حب النتيجة التي يرجو تحصيلها وإلا لما قام بعمل شاق إلا أن يكره إكراهاً، بل الذي يمكن في هذه المسألة هو العكس - أي إنه من الممكن أن يحب قلبه وتزهد يده. فمن الواقع المشاهد أن تكون محباً للدنيا وللمال جداً بدون أن يمنعك هذا الحب من الإنفاق وصرف ما في اليد رجاء المثوبة أو رجاء أمر آخر أو طاعة لعاطفة نبيلة. وكل الذين يجودون بأموالهم هم من هذا النوع. وقد أشار القرآن إلى هذا في قوله "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" وقوله "ولكن البر من آمن بالله - إلى قوله - وآتى المال على حبه ذوي القربى..." وقوله "... ويطعمون الطعام على حبه." وهذه الآيات صريحة في أن المؤمنين الذين يحبهم الله ويشيد بهم وبأوصافهم كتابه هم الذين يحبون المال. أما هؤلاء المحرومون الحارمون فيزعمون أن حب الدنيا والمال رأس كل خطيئة! فالمرء إذن قد يحب المال ثم ينفقه، ولكنه لن يكرهه ثم يعمل له. فهذا الرأي الجديد في الزهد يدل على أن أصحابه لا

يصدرون في ما يقولون عن نظر وتفكير.

* * *

غير أن هذه المسألة قد تدرس على وجه آخر فيبدو من دراستها على هذا الوجه أن لما يقوله الزهديون وجهاً، أو أنه هو الوجه الصحيح. ذلك أن من القضايا المتفق عليها أن الإختلاف بين الناس في وضعهم الإجتماعي وفي تفاوت درجاتهم من حيث الغنى والفقر، والصحة والمرض، والقوة والضعف، والعز والذل، وغير هذي الأمور، لا يمكن أن يقضي عليه، بل يوجد إلى جانب الغني الواحد عشرات الفقراء – أو مئاتهم أو آلافهم – ولو فقراً نسبياً – كما يوجد تحت أقدام السيد الأعلى عشرات الملايين أو مئاتهم، يهتفون بحياته وبإسمه إذا بدا، ويخضعون لأوامره إذا غاب – وهكذا القول في كل ناحية من نواحي هذه الحياة المحكمة التعقيد.

وحينئذ فالمسألة ذات فرضين: أحدهما أن الحياة يجب أن تقوم على التنافس الحر المطلق الذي لا حدود له ولا قيود، وأن من عجز عن منافسة الآخرين ومغالبتهم في غرض من أغراضه أو شهوة من شهواته لزمه أن يعد نفسه مغبوناً محروماً، ووجب عليه ألا يقر له قرار ولا تهدأ له نفس ولا يبطل له مسعى حتى يوفي على كل شهواته وأغراضه وحتى يرد المنهل الذي ورده الآخرون السابقون... وأسلحته في ذلك إتلاف جسمه وإرهاق نفسه.

وثاني الفرضين أن يرى أن الأمر دون ذلك كله، وأن الدنيا ما هي إلا حاجة قليلة، يكفي منها ما أمسك الحياة، وأن التفاوت في مظهرها هو مثل التفاوت في مظهر الموت: يحمل عليها وليس منها، ويلون بها ولكن لا يكونها، وأن القميص الحريري يلبسه الحي بالنسبة للقميص القطني أو لما دونه، هو ككفن الحرير يلف به الميت بالنسبة لكفن القطن أو لما دونه، وأن المرء ليس إلى عقله وفكره وأخلاقه – أي ليس إلا ذاته المعنوية، وليس هو ما يتصل به إتصالاً مما ليس فيه ذاتياً.

أما الفرض الأول فهو ما لا شك في عنفه على البشرية وقسوته عليها. فإن البشر لا يستغنون في حال من الأحوال عن القرار والرضا – كله أو بعضه – بما هم فيه وإلا لهلكوا وعصفت بهم الحسرات... وما الرضا والقرار في هذه الحياة إلا كالظل والماء والخصب بالنسبة للصحراء المجدبة المشبوبة عليها الشمس

المحرقة. وإن البقاء في هذه الحياة بدون هذين الأمرين - الرضا والقرار - مستحيل إستحالة الحياة في هذي الصحراء بدون الماء والظل والخصب... ولا شك أن هذا الفرض في الحياة ينتزع منها أسبابها، ولن يوجد شيء إذا لم توجد أسبابه.

فإذا ما قامت الفكرة الإنسانية العامة على أن وجودها لا يعدو أن يكون ملحمة مادية قاسية متواصلة، وأن حظ كل فرد منها هو ما يغتصبه تحت غبار هذه الملحمة، وأن سعادته وشقاءه منوطان بها، فلا شك في أنها - الانسانية - ستحرم حينئذ حرماناً باتاً من السعادة ومن الهدوء والإستقرار. فإن كل إنسان - بالغاً ما بلغ - سيجد أمام عينيه من هو فوقه في شيء أو في أشياء كثيرة، وسيجد مجال التطلع والتشوف شاسعاً واسعاً دائماً، وسيشقيه هذا الفرق أو هذه الفروق، وسيمر عليه أحلى ما في حياته من طيبات، وسيبقى من هذه الناحية ولأجل هذا الوجه - وإن نال أقصى ما تتطلع إليه أكثر النفوس - مثل من حرم الحرمان كله، لأن كلاً منهما يرى من هو فوقه ومن ميز عليه في أمر من الأمور، ويبصر ما قعدت به عنه قواه ويداه. وسوف يظل هذا الشعور والإعتبار مبعث آلام لا تنتهي ومصدر إعتداءات لا ضابط لها. فإن أكثر العدوان الذي يقع بين البشر دائماً إنما يقع للإيمان العميق بالمادية. ولا شيء يستطيع القضاء على هذا العدوان المنتشر في كل زمان ومكان ما لم يتغير النظر إلى الحياة وإلى حقيقة الإنسان، وما لم تهذب هذه النظرة المادية الجشعة الطاغية...

وعلى هذا فلا مفر من إقرار مبدأ القناعة والزهد، ولا بد من الإيمان بالإفتراض الثاني، وفيه وحده شفاء الإنسانية المضمون من داء الجشع الذي أشقاها وأشقى معها الوجود كله. ولا ريب أن من أعظم أسباب هذه الحروب الشاملة هو هذا الإيمان بالمادية والإنقياد لنزعاتها ونزواتها وشهواتها. ولو أنها نهنهت من هذا الإيمان وكفكفت من غلوائه لكان في ذلك بعض النجاة أو كلها. ولهذا فقد قامت الأديان والفلسفات القديمة على هذا الإفتراض وأمعنت في تجميله وتحسينه والدعوة الصادقة إليه. وجاء في الحديث النهي عن أن ينظر المرء إلى من فضل عليه في الدنيا، وأمر بأن ينظر إلى من هو دونه لهذا الغرض نفسه. وفي الكتاب "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا."

هما رجلان: أحدهما طلعة طمعة، ممدودة عيناه وقلبه وآماله إلى أبعد الآمال والآماد وإلى ما لا تستطيع قواه البشرية أن توصله إليه: يريد كل ما يرى، بل وما لا يرى مما قد يخطر بباله، ويحسد كل مجدود، ويتأوه غيظاً وحسرة، ويفور حقداً وألماً، كلما أبصر نعمة نالها إنسان، وكلما أبصر من هو فوقه في شيء من الأشياء... ويبقى هكذا حياته جميعها، لا قرار ولا رضا ولا سرور ولا سعادة ولا غبطة ولا إلتذاذ بشيء مما يلتذ به الناس! فأي إنسان هذا! وأية حياة هذه التي يحياها؟؟ هذا رجل، ورجل آخر يعيش بجسمه لا بآماله، ويعمل لحياته لا لأطماعه: فلا يطلب إلا ما طلبته الحياة، ولا يحتاج إلى غير ما يمنحه البقاء والوجود. مثله كمثل الأزهار والأطيار وهذه المخلوقات اللطيفة الجميلة المبرأة من كل حقد وحسد وطمع وأمل يغصها بالآلام ويقض مضاجعها بالحسرات والآهات، ويجلد أعصابها جلداً متواصلاً حتى تصاب بما يعز الشفاء منه، ويقضي عليها بأن تشب كل هذي الحروب الجهنمية بلا رحمة ولا إنسانية، إجابة لآمالها وأطماعها... فيسعد كما تسعد هذي الأزهار والأطيار والمخلوقات الأخرى الجميلة، ويقر قرارها ويهدأ هدوءها، ويتناول الحياة مثل ما تتناولها هي - أي يتناولها بقدر ما يقول له وجوده وبقاؤه: تناول، لا بقدر ما تقول له أطماعه ذلك - فيعيش هو ومن حوله في سلام أبدي ونعمة مطلقة شاملة ورضا لا ينتهي...

وهؤلاء الذين مدحوا الفقر والقناعة، وذموا الحرص والجشع والتهالك إنما قصدوا هذه المعاني الطاهرة الخيرة. وقد أرادوا أن يسموا بالإنسانية على أطماعها المادية وأن يقربوها في معانيها وأخلاقها من الملائكة، وأن يغسلوا من قلوبها الغل والحسد والبغضاء التي يسببها حب المادة والإسراف في طلب المال وما يتصل به. وأرادوا أيضاً أن يعزوها. والإنسانية قد تستغني عن أشياء كثيرة ولكن شيئاً واحداً لن تجد ما يغنيها عنه: هذا الشيء هو العزاء الذي يخلق لها الرضا.

وقد وجد إناس كثيرون في ثنايا التاريخ المختلفة استطاعوا أن يحيوا بهذه المعاني وأن يجدوا فيها لذتهم وحاجتهم، متأثرين بهذه الدعوة الطيبة، متقمصين هذه الروح الخيرة. فكانوا ملائكة إنسانيين، وكانوا مناراً يأوي إليه كل من ضلت به سفينته الخلقية في خضم المطامع والأهواء المفسدة، وكانوا هدى

يجتذب كل من جارت به ضلالاته فعمي عن الطريق.

* * *

كل هذا يمكن أن يقال، وكثير منه صحيح، ولكن لن تكون نتيجته إثبات فضيلة الفقر والقناعة، ولن يدل بمجموعه على ذلك. وما تقدم في هذا الفصل يكفي قضاء في هذه القضية.

أما إن الإنسان لن يستغني في حياته عن العزاء الذي يهبه الرضا فمسألة تجل على الخلاف. ولو أن إنساناً ما فقد هذا العنصر النفسي فقداً تاماً بحيث لم يبق أمامه جانب واحد يرضيه ويعزيه، أو جانب واحد يحدث له بعض الرضا وقليلاً من العزاء لهلك لا محالة، إما إنتحاراً وإما أسى وحسرة. وكل إنسان إنما يعيش بقدر ما له في وجوده من آمال صادقة، أو كاذبة، تفيض على نفسه المتلهفة ألواناً مختلفة من هذين العنصرين الضروريين للحياة الإنسانية... ولكن ليس طريق ذلك هو الفقر والبؤس والشقاء، وإنما طريقه أشياء أخرى: منها رياضة المرء عاطفياً وعقلياً على الشعور بالسعادة وعلى الإحتمال الجميل وتلقي المكروه بالصبر والإبتسام، ومحاولة الخروج منه بالنصر والظفر دون الإستسلام، وأن يكون مثله مثل الجندي المغوار، يخوض ثبج الموت، ويدفعه باليمين وبالشمال وهو يهزج أهازيج الحياة – أو مثل الأمة الفتية المتوزثبة، تتلقى الهزيمة الصارمة رافعة رأسها معتقدة أنها فترة إنتقال وتجربة قاسية لا بد أن تمر بها وأن تعبرها إلى ما هو أفضل وأعظم – وأن يعلم القدرة على الإستمتاع بكل ما يدرك من آماله وإن قل، وأن يكون كالحي النامي الصحيح، ينتفع بكل ما يقدم إليه من غذاء وشراء وهواء قابلاً غيره أيضاً.

ومنها إعطاؤه الصحة الكاملة والجسم القوي السوي. فإن الإكتئاب واليأس إنحراف في الطبع، وإنحراف الطبع نتيجة طبيعية لإنحراف الصحة. ولا تستبد الكآبة واليأس المقيم إلا بضعاف الأبدان، أولئك الذين لم يوهبوا أجساماً طبيعية قادرة على مواجهة الحياة العارمة بمزاج سليم وقوة فعالة. ولن يخر فريسة لهذه الإنفعالات السخيفة إلا أحد أولئك الذين جاءت أحد أجهزة أجسامهم وأجهزة الحياة فيهم ناقصة عليلة.

وإذا كان هذا حقاً – وهو حق لا ريب فيه – فإن الذي يهب الصحة والدين السليم القويم هو الغنى لا الفقر، وهو السعادة المادية لا الحرمان المادي. والفقر

والحرمان هما بلا شك أحد ما يعطي الأبدان العليلة العاجزة. وهذا الرضا الذي قلنا إنه لا بد منه للحي المريد المنفعل لا يمكن أن يحظى به الفقراء المحرومون، بل هو أبعد الأشياء عنهم. والفقر والحرمان يلازمهما – غالباً – السخط والحقد والشذوذ والإنفعالات الرديئة. وإذا وقع غير هذا فمن الأمور الشاذة التي لا يصح أن تكون قاعدة من القواعد.

ومحاولة نيل الرضا والقرار والهدوء بالإستسلام للفاقة تشبه محاولة الإستسلام للجهل والمرض وللعار الإجتماعي للإعتقاد أن التطلع إلى العلم والصحة والإرتفاع فوق العار مما يحرم الرضا والإستقرار والهدوء.

ثم إن الحياة وأهلها ليست وليسوا طوع أهوائنا، بل هي سائرة وهم سائرون في الطريق، شئنا ذلك أم أبيناه. فإذا نحن رضينا لأنفسنا القناعة واخترناها نصيباً فإن الآخرين لن يرضوا لأنفسهم هذا الذي رضينا، بل سيسيرون في الطريق الآخر، وحينئذ لن يدعونا في هدوئنا وسعادتنا النفسية الخيالية، بل سيزحموننا ويضغطوننا ويجلوننا عن أماكننا، كما حدث لنا ولأمثالنا من الواهنين العاجزين الراضين بكنز القناعة الذي لا يفنى، كما نقول في حكمنا التقليدية المخربة.

وأما القول بأن الجشع المادي هو الذي يوقع الحروب والشرور والعداوات بين الناس فهو قول فيه كثير من سمات الحق والصدق، غير أنه لا مراء في أن الفقر أو خوف الفقر، وأن الحاجة أو خوف الحاجة هما اللذان يوقعان بين الخلق أكثر هذه العداوات والإعتداءات، وأن اللصوص وأضرابهم من العادين على الأمن العام أكثرهم – ومن الممكن أن يقال بصدق كلهم – من المفلسين المفلوكين، وأن الحروب تقع بين الفقراء كما تقع بين الأغنياء، بل وأن وقوعها بسبب الفقر أكثر من وقوعها بسبب الغنى، وأن عهد الفاقة الإنسانية العامة لم يستطع أن يمنع هذي الحروب، بل وأن عهد القناعة والزهادة الدينية كان يشب الحروب على نطاق أوسع وأفظع مما تشبها عهود المادية المالية الجشعة. كل هذا صحيح لا ريب في صحته. فالدعوة إلى القناعة والزهادة لا تعطي الخير المرجو منها، ولكنها تجلب الشر المخشي منها فقط. فإن الإنسان مدفوع مسير بغرائز معينة أصيلة فيه. فإذا صادف دعوات دينية أو غير دينية تكافح في ظاهرها هذي الغرائز الطبيعية، كانت النتيجة أن تختفي هذي الغرائز عينها تحت مظاهر

أخرى قد تكون أعظم فتكاً وإيقاعاً بالإنسانية وبأصحابها. فتحسين الفقر والزهد والإرتفاع على حاجات الجسم وضرورات الحياة لن يستطيع أن يسلب الإنسان غرائزه هذه، ولن يستطيع أن يجعله كما يريد الداعي المزهد المحسن للزهد. بل ستكمن هذه المعاني لتبرز تحت قيادة مزاعم أخرى لتؤدي فتكها وفعلها في ضراوة وفظاعة أشد مما يتصور. فأنت إذا دعوت إنساناً إلى هذا الكنز الروحي المزعوم وأقنعته بأنه يجب عليه أن يزهد وأن يخلي الدنيا وأربابها وأحبابها وراءه، وألا تخطر أو يخطروا له على بال، وأن يعيش بروحه ومعناه، وأن يرفض بدنه وغرائزه، فلا تظن أن ذلك الإنسان قد أصبح كما تريد. إنك إذا ظننت هذا فقد بالغت في الظن. وإذن فلن يتنازل المرء عما جبل عليه من شهوات وطباع ومطامع تصدر عنها الشرور والعداوات والإعتداءات ما دام محتفظاً بطبيعته ولم يخلص منها ويصر شيئاً غير الإنسان.

وليس هناك شك في أن إفهام كل إنسان بأن الواجب عليه أن يبلغ الغاية في طلبه الدنيا وطلبه النجاح فيها، ثم إفهامه أن فيه القدرة الذاتية على ذلك إذا أحسن المسعى والجهاد، وأن كل نجاح وفوز في الحياة إنما يرجع إلى هذا – ثم بلوغه جميع ذلك أو كثيراً أو قليلاً منه – أقول لا شك أن الإنسان الذي يفهم هذي الأمور كلها ثم يفهمها يقل جداً إشتغاله بمعاداة الآخرين وحسدهم والحقد عليهم، ثم يقل جداً من العمل بمقتضى هذه المعاداة وهذا الحقد والحسد. فالمكبون على طلب الدنيا بمساع صحيحة جيدة هم أبعد من الكيد للآخرين والإشتغال بعدائهم من أولئك الضامرين المشتملين على الفقر والبؤس والحرمان، لأن هؤلاء سيلتهبون عداوة وضراوة على كل ساع ناجح، وسيوقعون به إذا استطاعوا ولو بإسم الدين أو بإسم العدالة الإجتماعية أو بإسم مقاومة الظلم والظالمين أو بإسم المساواة. ولهذا فإن الغوغى من المحرومين والبائسين هم في العادة الذين يقومون بالإنقلابات الدامية المرهبة. كل هذه حقائق ترتفع على الجدال والخلاف... على أن الفقر نفسه شر من جميع الحروب، بل هو حرب تفوق في أثرها كل حرب. فإذا خففنا من المادية ومن الإيمان بالمادية خشية أن توقعنا في الحرب الممقوتة كنا مخطئين حقاً، لأن ما خفنا وفررنا منه أسهل وأخف جداً مما فررنا إليه ووقعنا فيه. فالحروب مع الغنى والثراء خير من السلم الدائم مع البؤس والشقاء...

وأما الحديث القائل: (انظروا إلى من دونكم ولا تنظروا إلى من فوقكم) فهو حديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية. ذلك أن الإنسان مجبول على الغيرة من الآخرين وعلى الحسد للمتفوقين الناجحين. والغيرة والحسد قد يجلبان الشر الكثير: بأن يتألم ويشقى الحاسد الغائر، ويؤذي ويظلم المحسود المنفوس عليه. وقد يترتب على هذين الأمرين شرور كثيرة وآفات إجتماعية شاملة... ويمكن تصور هذه الإحتمالات حتى فكرنا في شعب أو مجتمع كل فرد فيه يغلي غيظاً على من هو أرفع منه من شأن من الشؤون، ثم فكرنا أن هذا الغيظ قد يتطور إلى محاولة الكيد والإيقاع ما أمكن. وأقل ما لهذه الحالة من إحتمال أن يفقد الإخلاص والتعاون والحب والإنسجام بين أفراد هذا الشعب. وعاقبة هذه الآفات لن تكون سوى الإنحلال العام الذي لا ريب فيه. فكان لا بد من وضع علاج لهذا، وكان من المعلوم أن البشر كما يتحاسدون ويتغايرون فإنهم يتأسى بعضهم ببعض ويخفف آلام فريق منهم آلام الآخرين على حد قولهم المشهور: (إذا عمت المصيبة هانت.) أما الإنفراد بالألم وبالظلم الإجتماعي وبالمصيبة فهذا ما لا يطيقه الإنسان. فكان من الصواب إذا أن يلفت المصاب إلى المصابين، ويدل المتألم على مكان المتألمين ليهون هذا من شعوره بالرزء ومن إحساسه بالبلوى. فأرشد إلى أن ينظر من هم أشد منه هولاً وخطباً ورزءاً. ولكن ليس معنى هذا الرضا والإستسلام لتلك الحالة، كلا، وإنما معناه التعزية مع التحريض على الخروج من المصيبة بالسرعة والقوة كلها... وكأنه في معنى أن يقال: لا تهلك أسى وجزعاً، فإن أمامك من هم أفدح خطباً، ومع هذا لم يهلكوا ولم يحاولوا أن يهلكوا، بل حاولوا النجاة فنجوا، وطلبوا الصعود فصعدوا، فليكن لك فيهم الأسوة والإقتداء...

وأما قوله تعالى: "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا" فهو في موضع النهي عن الحسد وعن التطلع إلى ما في حوزة الآخرين، فإن هذا هو صنيع الأطفال والنساء العاجزات. وهو صنيع لا يوصل إلى غير الألم والغيظ والحقد. ولكن العاقل اللبيب يجب عليه أن يطلب لنفسه وأن يسعى لها وأن يبلغها كل آمالها إن استطاع من زهرة الحياة الدنيا وغيرها بدون أن يأكل أنامله ونفسه تشوفاً إلى ما متع به غيره من عبادة الله. فالآية في معنى غير معنى الزهد والقناعة الهابطة بالهمم وبالجهود والأعمال والإنتاج الإنساني.

فالواجب علينا أن نشيد ثقافتنا وتربيتنا على تحبيب الحياة وتحبيب العمل من أجلها، وأن نمقت بكل قوانا أمثال حكمة ذلك السفيه القائل: (زيادة المرء في دنياه نقصان) وأن نؤمن بذلك القول الجديد الجميل في تعريف معنى السعادة: (إنها هي القدرة على العمل.) نعم، إن السعادة هي القدرة على العمل، وليست هي العمل بدون القدرة عليه، وليست أيضاً هي البطالة والكسل ذهاباً وراء ذلك المخدر القديم الشنيع: الزهادة أو القناعة.

كان الرسول عليه السلام يتعوذ ويقول في تعوذه: (اللهم إني أعوذ بك من الفقر والكفر) فقالوا له يا رسول الله: وهل يكون الفقر عدل الكفر – أي مثله –؟ فقال: (نعم هما عدلان) حديث صحيح.

أجل إن الفقر والكفر عدلان، لأن الكفر إنفصال عن السماء والفقر إنفصال عن الأرض، فالكافر لا مكان له هناك، والفقير لا مكان له هنا: فهما إنفصالان عن جانبي العالم... وهما عدلان أيضاً، لأن الكفر جحود القلب والفقر جحود الجوارح والأعضاء... وهما عدلان أيضاً، لأن الكفر كثيراً ما يكون مصدراً للشر والعدوان ونشر الفوضى الإجتماعية المجنونة، وكذلك الفقر يؤدي هذه الرسالة الخبيثة نفسها. وهما عدلان أيضاً لأن الكفر يجرد من العاطفة الدينية المحسنة أحياناً، والفقر يجرد من العاطفة الإنسانية. وهاتان العاطفتان هما الدائنتان لهذا العالم بكل ما فيه من خير وفضيلة وإحسان... وهما عدلان أيضاً، لأن أحدهما عذاب في أول الوجود والآخر عذاب في آخره، ولأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ولأن أحدهما عجز في العاطفة والآخر عجز في الوسيلة والحيلة... وهما عدلان أيضاً، لأن الإيمان يقع هكذا: يتصل الإنسان بالوجود فيحسه فيدرك جماله فيؤمن بمصدر هذا الجمال الذي هو الله. والفقير عاجز عن ذلك كله، لأنه لا يتصل بالوجود إذ هو مفصول عنه بحرمانه، فلا يحسه، فلا يدرك جماله، فلا يؤمن بسبب الأسباب... ولأن حواسه مغلقة أيضاً فلا تحس ما يقع حولها.

ثم إن هذي السلسلة المؤدية إلى الإيمان إنما تدرك بآلتها، وآلة هذا الإدراك إنما هو الخيال والقلب والعقل والحواس القوية المفتحة... وجميع هذي القوى الإنسانية معطلة في الفقير، لأنها فيه مشغولة بجراح الفاقة وتباريح الفقر... وإننا لن نرجو من إنسان يكابد أشد الآلام الجسدية والنفسية أن يستمتع

بخيال مشبوب، أو قلب فياض بالعواطف النافعة، أو بحواس ملهمة موحية، أو يشعر بالجمال الذي يحيط به.

ثم إنه - أي الفقير - لا يرى شيئاً من جمال هذا الوجود لأن كل ما هو فيه وما حوله من أولاد وأهل ومأوى ومطعم ومشرب وملبس قبح ودمامة، فلن يؤمن إذن بمبدأ الجمال، ثم لن يؤمن بمبدأ العدالة والحكمة، إذ لا توجد العدالة والحكمة حيث لا يوجد الجمال لأنهما من أقسامه ووجوهه، ثم لن يؤمن بوجود القدرة المختارة المنظمة المهيمنة، إذ لن تؤمن بالحكيم المنظم المهيمن القادر إلا إذ شاهدت آثاره ودلائله...

ثم هو إذا آمن إنما يؤمن إيماناً تقليدياً أو إضطرارياً لا خير فه ولا جمال ولا روح ولا برهان... فيكون إيماناً كله الجفوة والقسوة والضعف والعنف... والإيمان الذي يكون بهذه الصورة ما مثله إلا كمثل المرأة الفاقدة لكل معاني الأنثى من الجمال والجسم والروح والخلق - أو كمثل الأرض التي لا خصب ولا ماء ولا معدن فيها.

وإذن اللهم إنا نعوذ بك، كما عاذ رسولك، من الفقر ومن الكفر.

هل في سنن الله محاباة

الجهل بنواميس الحياة مانع من التقدم

كيف يجب أن تفهم قوانين الطبيعة

ينشيء رجل مسلم متجراً أو مصنعاً في مكان ما، يعرض فيه نوزعاً من أنواع المصنوعات أو غير المصنوعات، فيقضي له سوء تفكيره وتقديره بالكساد، فيظل يموت جزءاً جزءاً حتى يودع أنفاسه، أو يبقى عاجزاً عن الموت وعن الحياة، بدون أن يحاول في الأكثر الغالب العلاج أو الخلاص، فإذا ما زرته – أو عدته – قبل نهايته وفطنت لحالته وقلت له: لماذا أنت هكذا، ولماذا خصصت بالكساد دون الآخرين، ولماذا تصبر على هذا الموت البطيء المحقق، ولماذا لا تحاول الخروج من هذا المأزق، ولماذا لا تغير المكان أو النوع أو طريقة العرض – ومن المعلوم أن الأسباب الطبيعية للكساد الصناعي أو التجاري ثلاثة أمور: مكان العرض، فقد يكون إختيار المكان خطأ، ونوع المعروض: فقد يكون النوع المعروض غير مطلوب، وطريقة العرض والمعاملة وتقدير القيم والأسعار: فقد تكون الطريقة سقيمة منفرة – إذا ما وجهت هذه الأسئلة أو بعضها إلى ذلك الجاهل بسنن الحياة ونظام الكون، الجاهل بالله، قال لك – وكله ثقة وإيمان بما قال: إن الرزق والنجاح ليسا (بالشطارة) ولا بالجدارة، ولا بالبراعة ولا بالمكان ولا بالأسلوب ولا بالمعروض والعرض... وإنما ذلك كله بالحظ وبالقضاء والقدر – والمقضي المكتوب لك سيأتيك ولو اشتددت هرباً منه بل ولو حاولت بكل الوسائل رده وإقصاءه... فلا معنى إذن للتغيير والتبديل ولا معنى للنقلة والإرتحال... ثم يستسلم لسنة الحياة الصارمة الباطشة، مغمضاً عينيه عما حوله وعن الوجود السائر الدائر، فتطويه كما طوت الملايين قبله وكما ستطوي الملايين بعده.

ومن الطرائف المخزية في هذا الموضوع أني عاملت مرة إنساناً من هؤلاء فوجدت معاملته للناس شاذة قاسية، فقلت له كأنك لست حريصاً على أن يعاملوك، وكأنك لا تريد النجاح ولا الفوز، فإن هذه المعاملة مما يبعد الذين

ذاقوها ورأوها وشهدوها عنك... فتعجب من قولي وراه جد باطل، بل رأني بهذا قد كفرت أو كدت، لأني اعتقدت أن الأرزاق والنجاح بالأسباب والمعاملات لا بالأقدار والأقضية... وأخذ يسرد عليّ روايات وفصولاً يزعم أنه فعلها بالناس. وذكر لي فيما ذكر أنه مرة ضرب إنساناً كبيراً جداً عامله وطرده من حانوته وسبه أقذع السب، ووجه إليه ضروب الإهانات على مسمع من الجماهير وعلى قارعة الطريق! ثم قال لي! ما تظن هذا الإنسان الكبير قد صنع بعد هذا الهون المرير؟ قلت: أظنه ذهب ثم لم يرجع! قال إنه بعد هذه الحادثة بثلاثة أيام جاء إليّ متلطفاً متخضعاً طالباً الغفران والنسيان، كأنه المجرم الآثم، وكأني المظلوم المغبون... ثم أردف معلقاً: أرأيت أن الرزق ليس بالمعاملة ولا بالحسنى ولا بالأسباب ولا بشيء مما تدعي وتحكي... فغمرني بجهله العميم، وأفحمني بسخفه فقطعت عليه الحديث وخرجت من عنده مفكراً في عاقبة الجهل والضلال، ومتعجباً من إستعداد الإنسان لأن يكون أضل من الأنعام... وليست هذه الحكاية فريدة في الموضوع، بل سمعنا وسمع القراء المئات بل الألوف من أمثالها! ونحن نسمع هذا أينما ذهبنا وتوجهنا! بل أكاد أقول إن كل الناس عندنا يقولون كما يقول هذا الرجل، ويرون كما يرى، ويفكرون مثل ما فكر، ويعاملون معاملته... هذا رأي الرجل الجاهل بالحياة وهذا عمله.

أما الرجل الآخر الذي عرف سنن الحياة فإنه إذا ما أنشأ مصنعاً أو متجراً أو قام بعمل من الأعمال، فلم يجر أمره على ما يريد ويؤمل، فإنه يعلم كيف يتلافى أمره وكيف يتقي الخطر قبل وقوعه. ولا يمكن أن يستسلم للدمار والضياع قائلاً. إن المسألة مسألة حظ وقضاء وقدر... ثم لا يلبث أن يخرج منتصراً وأن ينجو مما ظن خطراً مبيداً محيطاً... وإذا ما تصورنا هذا المثل تصوراً صحيحاً وفكرنا فيما يمكن أن تكون نهاية الرجلين اللذين ضربناهما مثلاً، لم يعسر علينا كثيراً أن نفهم لماذا كان الرجل الأول فقيراً متأخراً ضعيفاً صغيراً في كل أمر يتعاطاه، ولا لماذا كان الرجل الآخر غنياً قوياً كبيراً في كل شيء يتناوله.

* * *

قال أحد الشعراء في أحد الجائدين المجانين:

يعطي ويمنع لا عقلاً ولا سفهاً
لكنها خطرات من وساوسه

وقال آخر في آخر:

ما زال يعبث بالمكارم جاهداً

حتى ظننا أنه مجنون

يريد قائل هذا الشعر أن ذلك الإنسان الذي عناه بشعره يتصرف فيما يملك تصرفاً ليس دائناً لقانون، ولا قائماً على حكمة ولا على إستحقاق، فيعطي من يعطي، ويمنع من يمنع، ويعز من يعز، ويذل من يذل، ويكرم من يكرم، ويهين من يهين: يفعل ذلك لا لأن أحداً من هؤلاء خليق بما صنع، ولا لأنه أتى من الأعمال أو الأسباب ما يستحق عليه ما ناله... ولكن لأن مشيئته العمياء المطلقة رأت أن تفعل ذلك، ولأن إرادته المجردة من كل عقل ونظام أحبت أن تصنع ما صنعت، ولأنه قادر وماذا يمنع القادر السفيه من أن يتصرف مثل هذا التصرف الذي قيل فيه: (حتى ظننا أنه مجنون) وقيل: (لكنها خطرات من وساوسه...) وليس من ريب أن نظاماً من النظم يقوم على هذا الأسلوب لا يمكن أن يترعرع في كنفه سوى الجهل والفوضى والإنحطاط والكسل والنفاق والملق الكريه... ولا يمكن أن يكون مثل هذا النظام مشجعاً للعبقرية ولا مساعداً للنبوغ على البروز، ولا شاحذاً للمواهب الإنسانية الكريمة.

وقد مرت عصور طويلة بالبشر كان هذا النظام القبيح المجرم هو حاكمهم وقائدهم، فكان الناس إذ ذاك تحته أمثلة للسوء والجهل وتلاشي الكفايات وإندحار الفضيلة وإختفاء النبوغ... وكل هيئة إجتماعية تسوي في حكمها وتقديرها وجزائها بين المحسن والمسيء وبين فاعل الخير وفاعل الشر، وبين النابغة والجاهل – بله تفضل الأخير – هي هيئة لا يرتجى لها بالضرورة تقدم ولا خير.

وهؤلاء الجاهلون بالله وبحكمته يرون في أفعاله وفي تصرفه في خليقته مثل رأي هؤلاء الشعراء فيمن عنوا بشعرهم: فيرون أنه تعالى لم يضع نظاماً دقيقاً لا فرار منه يلقي كل جزاءه على مقتضاه، ويأخذ كل على حسب ما يعطى، ويحصد كل إنسان على قدر ما زرع، وينجح كل إذا درس وفهم، ويسقط إذا هو لم يفعل ذلك... ويرون أن هذا العالم في يد الله كلعبة في يد صبي يقذف بها ذات اليمين وذات الشمال بلا تفكير ولا تدبير: فعندهم أن الإنسان قد يستوفي كل شروط الغنى أو شروط الصحة أو الشروط اللازمة لأن يكون إنساناً محترماً ناجحاً في

الحياة، ثم لا يدرك شيئاً منها... بل عندهم ما هو أقبح مما ذكر، وذلك أنهم يرون أن القاعدة العاجز قد يبلغ ما يؤمله من الفوز والنجاح بينما يهوى الجاد الحازم العامل الخليق بكل نجاح في الحضيض كل أيام حياته. ولا مقتضى لهذا سوى مشيئة الله المطلقة وقضائه الغالب. ومن أجل هذا الإعتقاد فإنهم لا يمكن أن يهبوا لأعمالهم كل ما فيهم من إستعداد ولا كل ما وهبوا من حول وقوة: فلا الزارع محتاج إحتياجاً صحيحاً لأن ينفق على مزرعته كل ما يمكن من الخدمة والعناية، ولا الصانع محتاج إلى ذلك لإخراج صناعته كما يجب أن تخرج، ولا الطالب للعلم يعلم علماً صحيحاً بأنه لن يصل إلى ما يشتهي من الدرجات إلا بقدر ما أعطى من الإجتهاد والدرس واليقظة، ولا التاجر يدرك أن نجاحه متوقف على ما فيه من صفات ومن إدراك لأخلاق الجماهير وقدرة على الأخذ بقياد أنفسهم، ولا على ما في تجارته من إغراء وميزة، بل ولا الجيش وقادته - لو كان لنا جيش وقادة - يعرفون أن النصر والهزيمة أمران يتجاذبهما أمران: الكفاية والنقص، وأن مع الكفاية النصر ومع النقص الهزيمة، ولا هيئة من هيئات الأمة تعتقد إعتقاداً لا يمزجه الشك أن نجاحها وفشلها مرتبطان إرتباطاً لا إضطراب ولا فوضى فيه بطريقة سلوكها بحيث تسقط سقوطاً محققاً إذا لم تصنع كل ما يجب صنعه، وتفوز فوزاً محققاً إذا فعلت كل ما يجب مع إستيفاء الأداة وإستجماع الشروط... بل المسائل كلها محكومة بالصدف وبالحظوظ وبالأقدار والأقضية التي يتصورونها تصوراً أملاه الجهل وحده... وكم تسمع من عبارات السخرية والإتهام إذا حاولت أن تقنع من يتصلون بك ومن تلقى أنهم لن يدركوا من هذه الحياة إلا بقدر ما أعطوها من عمل وعقل، وأن قضاءهم وقدرهم وحظوظهم تأتي أبداً صورة صحيحة موافقة لأعمالهم وعقولهم ولون إستعدادهم: فإن كانت الأعمال والعقول مظلمة مشوشة كانت صورتها كذلك وإن كانت مضيئة مشرقة جاءت كذلك أيضاً، جزاء وفاقاً.

ولقد زعم كل هؤلاء حينما توالت إنتصارات ألمانيا في بداءة هذه الحرب أن هذه الإنتصارات إنما حصلت لأن الله يريد أن يهزم أعداء ألمانيا لا لأن لديها من الأسلحة والجنود وخطط الهجوم ما ليس عند أعدائها، ثم لما أن تغير مجرى الحرب وأخذت الهزائم الألمانية تتلاحق ثم هزمت في الخاتمة الهزيمة النهائية

رجعوا يزعمون أن المسألة أيضاً راجعة إلى تغير مجرى القضاء والقدر والمشيئة الإلهية لا إلى تغير الأسباب وإختلافها. وقد ألقيت في هذا الخطب والمحاضرات وكتبت المقالات! وهكذا يحكمون في كل قضية، وبهذه العين يبصرون جميع الأحداث والحوادث.

وهذه المسألة هي الآن حقيقة مدرجة في جداول الحقائق التي انحسر عنها كل ريب وإن كانت لا تزال عند الآخرين الذين لم يستطيعوا أن يرفعوا عن أذهانهم قناع الجهل المنسوج من خيوط التقاليد الجاهلة ضرباً من ضروب الضلال أو الكفر والمروق... ولفهم هذه الحقيقة الأثر البارز الفعال - كما لجهلها ذلك - في تقرير مصاير الجماعات والشعوب وفي توجيهها مختلف الوجوه والجهات.

ولسنا في حاجة إلى التوكيد بعد هذا بأن الأمة التي تضل في فهم هذه الحقائق تضل ولا محالة في سبيلها، وأنها إن لم تعرفها حق معرفتها فلن تعرف طريقها حق معرفته. بل إن هذه الحقيقة بمثابة نقطة من عندها تبتدىء وتختلف جهود الأمم وطرقها إما إلى النجاح والفوز، وإما إلى الفشل والدمار.

ومن اليسير علينا وعلى من يشك من القراء في هذا أن نستملي أنفسنا وأن نتلمس وجه الصواب فيه من أخلاقنا جميعاً. فإن من العسير جداً أن نبذل في طلب أمر من الأمور أقصى الطاقة وأحسن الأعمال، وأن نوجه إليه كل ما فينا من إستعداد وحول، ونحن نعتقد أن إدراك الأمور ليس قائماً على سنة ولا مربوطاً بنظام، وأننا قد نحسن كل الإحسان في تناولنا الأشياء ثم يكون نصيبنا الخيبة، وأننا قد نسيء كل الإساءة ثم يزرع في سبيلنا النجاح والظفر، وأن الإساءة والإحسان هما سواء في العواقب والنتائج، أو أن نتيجتهما ليست مترتبة عليهما كترتب المعلول على علته. فإن الإنسان، من أجل ضمان تنشيط همه وإفراغ كل ما فيها من قوة، محتاج إلى إقناعه بأن مثقال ذرة واحدة من عمله لن يذهب سدى ولن يضيع في مهب الحظوظ والأقدار والفوضى الجارفة، وأن جزاءه وعاقبته محسوبان حساباً دقيقاً بما يؤديه جسمه وعقله من نضال. فقد شوهد أن الجماعات التي يحكمها هذا النظام تفسد أخلاقها وتفتر هممها بل تخمد وتعجز عن الإنتاج والتبريز في ميدان العقل وميدان العمل معاً، بل تنتشر بين أمثال هذه الجماعات أخلاق أخرى مضادة لذلك كالكذب والدجل والغش والتزوير... وقد رأينا أناساً في بيئات معلومة يزورون إزوراراً ممزوجاً

بالكراهة والمقت عن كل ما يسمى علماً وتهذيباً وما يسمى عملاً وخيراً يقدم. لأنهم وجدوا بالتجربة والمشاهدة أن الوصول إلى الغاية المرجوة ليس مشروطاً بشيء من ذلك أو ليس متوقفاً عليه، ووجدوا أن ناساً وصلوا إلى أغراضهم بدون أن يتكلفوا التضحية بمسراتهم العاجلة الصغيرة بمحاولة تحصيل شيء مما نقول نحن ويقول العقلاء جميعاً: إنه شرط للنجاح الصحيح، ومن سنة الحياة التي نفتش عنها أن جعلت تكاليف المجد باهظة، فلا يقدم على تقديم هذه التكاليف من رواد المجد إلا من كان الدافع المغري له قوياً جداً... ومن علم أو ظن أن تضحيته قد تذهب عبثاً أو أنه لا قيمة لها من ناحية الواقع فأنى يجد من نفسه وفي نفسه ما يغريه بهذه التضحية وما يلزمه إياها؟

إن هذه التضحية تحتاج دائماً إلى أمرين لكي تكون خالصة صادقة: أحدهما إزالة الموانع المادية والمعنوية، وثانيهما الإيقان بقيمة النتيجة التي ستؤدي إليها هذه التضحية، مع الإيمان بجسامة الخسارة التي يؤدي إليها إهمالها.

وليس من ريب في أن من ظن أن الجزاء ليس ملازماً للعمل ولا مترتباً عليه وأن النتيجة ليست على قدر الوسيلة وأن الأخذ غير مساو للعطاء، فقد قامت في طريقه الموانع، ولم يوقن بقيمة النتيجة، ولا آمن بجسامة الخسارة التي تلحقه إذا ترك التضحية. فهو إذن فاقد للأمرين معاً. فكيف نرجو له أن يؤدي هذا الثمن الباهظ؟

* * *

ومن الأمثلة السيئة للجهل بسنة الحياة، أو بسنة الله في الحياة، أن الناس يريدون – وهم يعتقدون أنهم سيصلون إلى ما يريدون – أن يبلغوا جميع أغراضهم المادية والمعنوية بغير وسائلها الطبيعية: فهم يريدون أن ينالوا الثراء الوفير والأولاد والصحة والقوة، وأن تخصب أرضهم ويزكو زرعهم وتنمو أنعامهم، وأن يحصلوا المعارف الغزيرة وأن ينجحوا في الإمتحانات، وأن ينصروا على الأعداء وعلى أسلحتهم وجيوشهم وأموالهم وعلومهم، وأن يدركوا كل ما يبغون ويشتهون... بماذا؟ إنهم يريدون أن يدركوا ذلك كله بالدعاء المجرد تارة، وبالبكاء والضراعة تارة، وبالصلاة تارات، وبالصيام أخريات، وبالإيمان حيناً بلا عمل، وبالتقوى أحياناً، وبقراءة القرآن، أو بترتيب الأذكار والأوراد والأحزاب... ثم يزعمون أن القرآن والدين قد دلاهم على هذه الحقيقة – والدين

والقرآن بريئان مما يزعمون.

وإن أوغل من هذا كله في الضلال ما ذكره الغزالي في كتابه (منهاج العابدين) من أن المؤمن المشغول بعبادة الله وذكره غير محتاج إلى الطعام وإلى الشراب من أجل حفظ الحياة، زاعماً أن التسبيح والتهليل يحفظان الحياة ويغنيان عن حاجاته المادية كحال الملائكة، وزاعماً أيضاً أن الطين والتراب يغنيان كذلك عن ذلك، ذاكراً أن جماعات من السلف الأولين المشغولين بالله كانوا يستفون التراب فيصيره الله في بطونهم غذاء، وأن جماعات أخرى كانت لا تأكل شيئاً: لا طعاماً ولا شراباً ولا طيناً ولا تراباً وكانت تعيش بالعبادة وحدها، وأنهم كانوا يطوون الشهور بعد الشهور قال: "والله قادر على ما يشاء."[1] ويقرب من هذا أيضاً إيغالاً في الخطأ وولوغاً في الباطل ما جاء في كتاب (الحاوي للفتاوي) تأليف الشيخ السيوطي أن الصوفية، أصحاب القلوب النقية، يلهمون معرفة الطب الطبيعي إلهاماً من غير تعليم ولا طلب ولا دراسة، وأنهم لا يكادون يخطئون في إلهامهم، وأنه يجوز لهم معالجة المرض بهذا الإلهام، ولا يجوز أن ينكر عليهم

(١) وكتاب (منهاج العابدين) قيل إنه آخر ما ألف الغزالي وقد حكى في أوله من الكتب التي يقع عليها إجماع المسلمين ويعم بها إنتفاعهم. وحكى في هذا الكتاب - وهو في صدد ما يعطاه الولي من السلطان والتصرف - قال: "الخامسة عشرة - يعني من صفات الولي - البركة العامة في كل شيء من كلام أو نفس أو فعل أو ثوب أو مكان، حتى يتبرك بتراب وطئه وبمكان جلس فيه يوماً وبإنسان صحبه ورآه حيناً. السادسة عشرة. تسخير الأرض من البر والبحر حتى إن شاء سار في الهواء أو مشى على الماء أو قطع وجه الأرض بأقل من ساعة. السابعة عشرة: ملك مفاتيح الأرض، فحينما يضرب بيده فله كنز إن أراد، وحينما يضرب برجله فله عين ماء إن احتاج، وأينما نزل فله مائدة تحضره إن قصد. الثامنة عشرة: تسخير الحيوان من السباع والوحوش والهوام وغيرها، فتحبه الوحوش وتبصبص له الأسود. التاسعة عشرة: القيادة والوجاهة على باب رب العزة فيبتغي الخلق الوسيلة إلى الله بخدمته، وتستنجح الحاجات من الله بوجاهته وبركته. العشرون: إجابة الدعوة من الله: فلا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولا يشفع لأحد إلا شفع. ولو اقسم على الله لأبره بما شاء، حتى إن منهم من لو أشار إلى جبل لزال، فلا يحتاج إلى السؤال باللسان، ولو خطر بباله شيء لحضر ولا يحتاج إلى الإشارة باليد."...

وحكى في موضع آخر من هذا الكمتاب وهو يتكلم عنم العزلة: "لا أرى مثل هذا الرجل - يعني المعتزل للناس - إلا ويمكنه الله من حضور الجماعات والجمعات وسائر جموع الإسلام لئلا يفوته الحظ منها، فإن جموع الإسلام من الله بمكان وإن تغير الناس وفسدوا. كذا سمعنا عن الأبدال أنهم يحضرون جموع الإسلام أين كانت، ويسيرون من الأرض حيث شاءوا، وأن الأرض قدم واحدة لهم. وفي الأخبار أن الأرض تطوي وينادون بالتحيات ويتحفون بالبر وأنواع الكرامات."...

هذه ألوان من علم الغزالي الذي أبى غلو الناس فيه إلا أن يدعى حجة الإسلام.

منكر! ومن أشنع ما في هذا الكتاب رسالة (المنجلي في تطور الولي.)

وذكر الشيخ القسطلاني في شرحه على البخاري عن ابن أبي جمرة قال: "قال لي من العارفين عمن لقيهم من السادة المقر لهم: إن صحيح البخاري ما قرئ في شدة إلا فرجت ولا ركب به مركب فغرق." ...

وقد دهم الديار المصرية وباء مزعج منذ سنين فاجتمع العلماء في الجامع الأزهر وقرأوا البخاري لرفع هذا الوباء! وقبل هذا قرأ جيش عرابي باشا البخاري رجاء النصر في معركة المدفع والبارود والرصاص والأسطول! وهذا شيء ما زال الناس يفعلونه منذ مئات السنين، ولا يزالون إلى اليوم يفعلونه.

ومن المشاهد المتكررة المألوفة أن تسمع القرآن يتلى في متجر أو في بيت رجاء زيادة الربح ونفاق السلعة وإقبال الناس، أو رجاء النجاة من اللصوص وسائر الآفات.

ويوجد الآن في المكتبات العامة ألوان مختلفة من الكتب والرسائل التي زعم أن قراءتها كتعاويذ، وأن حملها كتمائم، وأن الإحتفاظ بها ككنوز، يغني من فقر، ويشفي من سقم، ويحمي من عدوان، ويبلغ كل مأمول... حتى المرأة العقيم والرجل العقيم قيل لهما: إن هذه الكتب تهبكما الأولاد - وحتى من يريد الزواج، أو تريده، يلقيان فيها ما يرجوان.

ومن أشنع الأوهام أننا سمعنا - وسمع كثير من القراء بلا شك - خطباً تلقى في المساجد حينما انطلقت الغارات الجوية على مصر منذ سنوات، يندد فيها بجهل من يلجأون حين الغارات إلى المخابئ، مزعوماً فيها أن المخابئ والملاجئ لا تعصم من الموت، وأن الفرار إليها نقص في اليقين وجرح في الإيمان، لأن الذي يعصم من ذلك هو ذكر الله ودعاؤه والتوبة إليه والخلاص من الذنوب... وقد نسي هؤلاء القائلون الناعقون فوق منابرهم سنة الله في خلقه، كما نسوا سنة مصلح الإنسانية الأكبر صلى الله عليه وسلم الذي يخطبون بإسمه؛ فإن من أظهر وأكبر أعماله التاريخية أنه حينما اضطر إلى الخروج بدينه ودعوته من مكة المشركة وخاف مطاردة أعدائه المشركين له لجأ إلى غار ثور التاريخي المشهور هو وصاحبه الصديق. ولم يأخذا بما زعمه هؤلاء الخطباء من الإعتصام بالدعاء والبكاء، بل أخذا بسنة الحياة... وهكذا فعل عليه السلام في كل أفعاله وحياته، وهكذا فعل خلفاؤه الراشدون وأصحابه المهتدون. ولهذا

نجحوا. ولو أنهم كانوا يذهبون مذاهب هؤلاء لأخفقوا ولما بلغوا من أمرهم شيئاً... وقد كان من أعظم الفروق بينه عليه السلام وبين المشركين أنه كان يعلم سنة الله في خلقه ويعمل بها تاركاً الأوهام جانباً. أما هم فقد كانوا غرقى إلى الأذقان في أوهامهم التقليدية البالية. فكان عليه السلام ملتفتاً إلى ما وضعه الله من أسباب وسنن مضبوطة، وكانوا هم معولين على الإستقسام بالأزلام وعلى التشاؤم والتيامن وعلى السوانح والبوارح، وعلى نعيق الغراب وغيره مما يتشاءمون منه أو يتيامنون، وعلى الإحتجاج بالقضاء والقدر والحظوظ، وكل ما هنالك من تقاليد كانت تأخذ بالأكظام وتتحكم في الأحلام: فكان الفرق عظيماً، وكانت العاقبة أعظم.

ومن أخرج الناس على سنة الله وسنة الحياة قوم حاولوا أحقاباً طويلة – ولا يزالون يحاولون اليوم وسيظلون يحاولون بعد اليوم أيضاً – أن يتغلبوا على المادة وعلى خصائصها بالأرواح وعمل الأرواح، وأن يصلوا بقوتها وعونها إلى ما يريدون ويشتهون – سواء أكانت هذه الأرواح هي أرواح الموتى أم الشياطين أم الملائكة... وقد ظلت هذه العقيدة تتطور مسايرة تطور العقل البشري ومسايرة تطور عقل كل شعب. وما فتئت حتى اليوم خاضعة لسنة التطور.

وقد كان الأولون ينسبون إلى الأرواح أغلب حوادث العالم المشهودة المرئية أو كلها: فالأفلاك العلوية عندهم إنما تسير بقوة الأرواح، والأنهار إنما تجربها الأرواح، والسحاب إنما تسوقه الأرواح، والرعد والبرق إنما هما عملان من أعمالها، والرياح لا يزجيها سواها، والنبات إنما ينبت بقوتها وتدبيرها! بل الكلام البليغ الذي يقوله الشاعر أو الخطيب إنما تقوله الأرواح: فزعموا أن لكل شاعر شيطاناً ينطق على لسانه ويفكر بجنانه، حتى الأمراض جعلوها مظهراً من مظاهر الأرواح ومظاهر تصرفها في البشر... فكان للأرواح عند تلك الأمم السلطان الشامل. وقد بقي حتى اليوم شيء كثير من هذه العقيدة عند كثير من الأمم، بل عند الأمم كلها لا يستثني منها أمة واحدة.

وقد كان من أثر هذه العقيدة الروحانية أن أنفقت البشرية جهوداً ما أكثرها وأعظمها في سبيل إرضاء هذه الأرواح وسبيل دفع غضبها وشرها. وقد كانوا أحياناً يلجأون إلى تعذيب المريض بالضرب والكي بالنار والسب والإهانة، حاسبين أنهم بذلك يخرجون منه الأرواح الشريرة النازلة في بدنه الناطقة على

لسانه! ومن الحوادث القريبة المعروفة في هذا الصدد تلك الحادثة التي وقعت منذ شهور في مصر وكتبت عنها الصحف وقدم المتهم فيها إلى القضاء... والحادثة تتلخص في أن جاهلاً من هؤلاء الجاهلين المنتشرين في كل مكان، الذين يعالجون الأرواح ويعرفون الخلاص والتخلص منها، تقدم إلى أهل مريض مدعياً لهم أن روحاً خبيثة تحتل بدن مريضهم، وأنه يستطيع أخراج هذه الروح فسلموا له المريض، فراح يعذبه بالضرب وصنوف العذاب لتتألم الروح فتخرج! ولكن كانت العاقبة أن هلك المريض تحت العذاب، فأخذ هذا الطبيب الروحاني على إعتباره قاتلاً... وهذه الحادثة ما هي إلا واحدة من مئات الحوادث أو ألوفها التي تقع. ولكن الذي يكتب عنه وفيه منها قليل نادر... ولا يزال الملايين اليوم من المسلمين الجاهلين يرون أن كثيراً من الأمراض - ولا سيما الأمراض العقلية والعصبية والصدرية - إنما هي من عمل الشياطين والأرواح المتمردة، ولا يزالون يعالجونها على هذا الزعم والحسبان: يعالجونها بالعزائم والطلاسم والبخور والأمر والنهي والزجر والضرب والإهانة للمريض، على زعم أن هذا كله موجه إلى الروح اللابسة له.

وقد قدم إلى القاهرة منذ سنوات من الريف المصري إنسان مريض بمرض عقلي عصبي، بحيث كان يخيل إليه أن أشياء تحدث في جسمه وهي لا وجود لها... فذهب إلى إحدى الجمعيات الدينية في القاهرة فأفهمه رجالها أن مرضه ما هو إلا مس من الجان وأذى من الأرواح، وأن الوقاية منها تتلخص في أن تكتب آيات من القرآن في إناء بالمداد والزعفران ثم يغسل ذلك الإناء ثم يشرب الغسالة، وأن الشفاء بذلك مضمون!... فصنع هذا كله فلم يشف، ثم حدث عن معالج من الأرواح بالأرواح، وهو محضر لها، فصار إليه فعقد له ذلك المحضر عدة حفلات روحية جاء فيها تشخيص المرض ووصف العلاج اللازم، ثم جاء فيها أن المرض قد زال نهائياً، وأن المريض شفي، وأنه لن يشعر بشيء مرة أخرى، فرجع إلى بلدته مؤمناً بأنه قد عوفي... ولكن ثبت بعد هذا أن الأرواح قد كذبت في علاجها، وكذبت في تشخيصها، وكذبت في حديثها - أو أن محضرها هو الكاذب الآفك. فعاد المرض وعاد المريض يشكو شكايته القديمة، وصارت نهايته إلى اليأس والقنوط.

ولا يزال الناس يحاولون الإتصال بالشياطين، بل ويزعمون أنهم قد اتصلوا

بها، ولا يزالون ينسبون إليها كثيراً من الحوادث اليومية، ولا يزالون يخافون بطشها وإيقاعها بهم، ولا يزالون يزعمون أنهم يستخدمونها أو أنه يمكن إستخدامها، بل وأنها قد قامت بخدمتهم فعلاً...

ومنذ شهور قليلة قام بيني وبين إنسان عالم نزاع في هذا. وقد زعم هو بأن العفاريت يتصرفون في هذا الدنيا، وأنه يعرف إنساناً كانوا يخدمونه ويحضرون له الفاكهة من بلاد أخرى في أوقات تفقد فيها الفواكه، وأنهم – أي العفاريت – نقلوا له البراميل من بلدة إلى بلدة... وهكذا! ولا يزال الجماهير بل وكثيرون من الخاصة يعلقون على هذا المعتقد آمالاً، وتحدث لهم أوجالاً، ولا يزال أغلب المسلمين الجاهلين يرجعون حين رغبتهم ورهبتهم إلى الأموات بل وإلى الجمادات وإلى الأحجار والأشجار، مستغيثين بالأرواح التي لها إتصال بها على حسب ما يتصورون، طالبين منها كل ما يرجعون، ومستدفعين بها كل ما يرهبون، زاعمين أنها تسمع لهم وتقدر على إجابتهم، وأنها تفعل ذلك من أجلهم راضية مسرورة! وقد صرفوا في هذا الغاية نفائس جمة من وقتهم وتفكيرهم وعملهم وعبوديتهم ورجولتهم وذلهم وخضوعهم...! وقد فرضوا على أنفسهم بسبب هذه الخرافة ألواناً عجيبة من العبادات والفروض، وأعداداً عديدة من الأعياد والمواسم الزاخرة بالنذور والقرابين والهدايا والضحايا! وقد أضحت عبادة الموتى وعبادة أرواحهم أعظم وأضخم مظاهر عبادات هؤلاء الجاهلين في مشارق البلاد الإسلامية ومغاربها، حتى استقر في أذهان العامة، بل وأذهان الخاصة، أن هذه العبادة هي أفضل فروض الإسلام وأوجبها وألزمها، وأضحى الخلاص منها محتاجاً إلى جهود الجبارين. والله المستعان على جهل الجاهلين.

وقد تلونت هذه الخرافة في عصرنا هذا ألواناً أخرى غير ألوانها القديمة. وقد حاول العلم هذه المرة أن يتدخل في تلوينها وتحسينها، كدأبه في هذا الزمان إذ يتدخل في كل شيء، لأن الزمان زمانه والميدان ميدانه... وقد تدخلت أوروبا وأمريكا هذه المرة في هذه المسألة وبذلتا عونهما. وإذا تدخلت أوروبا وأمريكا في شيء فقد عز جانبه وعظم شأن أنصاره.

نعني بهذا إستحضار الأرواح والإتصال بالميتين وهم في عالمهم الأخروي. وقد طال الكلام في هذا الموضوع واشتد الجدل وألفت فيه الكتب والرسائل

والمقالات التي تعجز العاد المحصى، وانقسم الناس فيه فريقين متبارزين. ولكن الفريق المنكر النافي هو فريق العلماء المحققين الأكثرين. أما المثبت لهذا الإتصال ولهذا الإستحضار فيكاد يذوب في الخضم، ويكاد يجمع على حسبانه بن فلول الدجالين الجاهلين... وكل هذا لا يعنينا لأنه ليس في صدد من بحثنا، ولكن الذي يعنينا هو أن الكثيرين من صرعى الأوهام عندنا قد صفقوا ورقصوا على أنغام هذه الخرافة الجديدة، وراحوا يشيدون عليها القصور وذهبوا ينبشون جيف الخرافات من مدافنها في أعماق أنفسهم وأعماق الأزمنة القصية ليردوا إليها الحياة بهذا الإكسير الجديد.

وقد راحوا يحتجون بهذا الإستحضار على ما كان يزعم قديماً للأرواح من قدرة وتصرف في الكون والطبيعة بدون حدود ولا قيود، وراحوا يصدقون ويدعون إلى تصدير ما كان ينسب إلى الموتى وإلى المشايخ والأولياء من أعمال لا يستطيعها إلا من استطاع أن يقهر خصائص المادة وقوى الطبيعة الطبيعية، وأن يخرق كل ناموس في الوجود وأن يبطل كل سنة فيه! وراحوا من أجل هذا يحسنون دعوة الأموات وسؤالهم الحاجات بل ويحسنون عبادة المخلوقين والإنقطاع إليهم.

وقد استطاعت هذه الخرافة الجديدة أن تستهوي رجلاً كان في سابق أمره يعد من الفضلاء العلماء، وأن تفسد عليه فضله وعلمه وعقله حتى صار يتكلم في هذا الموضوع كلام من هو خليق بأن يعد في زمرة المرضى لا زمرة الفضلاء المحققين، وراح في كل مجالسه يهذو بروايات وحكايات أقل ما توصف به أنها مما يصم مسامع العلم والعلماء، ومما يخجل منه العقل والعقلاء... من ذلك أنه يحكي - ويقسم على ما يحكي - أنه يعرف رجلاً في الريف المصري كان إذا أراد شيئاً ما - ولك أن تقدر هذا الشيء وأن تتصوره كما تشاء وكما يشاء الغلو والخيال - لم يكن منه إلا أن يضرب على عجيزته بيده وأن يأمرها بأن توجد هذا الشيء المطلوب فيوجد في الوقت نفسه!! وقد سألته مرات عديدة وقلت له: افرض أنه طلب من عجيزته أن تعد جيشاً كاملاً، أيمكن أن يوجد ذلك الجيش! فكان جوابه الإيجاب بلا تردد ولا إستحياء! فسألته وقلت له: أجاد أنت أم هازل، فأقسم أنه جاد، وأقسم ثانية بأن من يشك فيما حكى فهو كمن يشك في المحسوسات.

ومن حكاياته ورواياته أنه ينقل عن شيخ آخر أن جماعة من أصدقاء ذلك الشيخ ذهبوا إليه في بلدته زائرين، وبعد جلسة طويلة عرض عليهم أن يأكلوا فقبلوا، فأحضر لهم مائدة كاملة بأوانيها وكراسيها وأطعمتها ولحومها وبقولها وفواكهها وكل ما يلزم لها... ولعلك تسأل هنا وتقول: من أين أحضرها فأجيبك، كما أجابنا هذا الرجل، بأنه قد أحضرها من الهواء والكون ومن عناصر الطبيعة اللازمة لهذه المائدة من أشتات النباتات والموجودات، فركبها تركيباً صناعياً، فأحضر المائدة المطلوبة كاملة! وبعد الفراغ من الأكل رفعت روحه بقايا الطعام وأدوات المائدة بسرعة وبدون عناء.

ومن حكايته أن شيخاً آخر كان يومىء بيده في الهواء فترجع إليه ملأى بالنقود التي يطلبها أو تطلب منه، بل ذكر هذه الحكاية عن رجل آخر غير مسلم.

ومن حكاياته أن شيخاً آخر كان يقيم في بلدته وكان الناس يأتونه ويعطونه النقود طالبين إليه أن يشتري لهم بها أشياء من القاهرة، فيأخذ نقودهم ويرسلها في الفضاء صوب القاهرة، ثم يرسل يده مرة أخرى ثم يرجعها وفيها الشيء الذي طلب شراؤه.

ومن طرائفه أن شيخاً ذهب إلى أحد المتاجر فاشترى شيئاً، وكان لا يحمل معه عملة فبعث روحه فأحضرت الثمن من البيت في لمح البصر بين دهشة التاجر وإستعظامه!!

وأشنع من هذا كله أنه يذكر في مجالسه عن أحد هؤلاء الروحانيين أنه مرض ذات مرة ولم يكن حوله طبيب يعالجه، فأحضرت له روحه طبيباً صناعياً ألفته من الكون فقام هذا الطبيب الصناعي بالكشف وبتشخيص المرض وبالعلاج، ثم عاد فأعدمه وفرق عناصره وردها إلى ما كانت عليه وإلى أماكنها، ثم أحضر الدواء أيضاً من الهواء ثم عالج نفسه.

وقد قام بيني وبين هذا الإنسان مرات حوار في هذه الحكايات، وقد جادلني مرة زاعماً أن معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء إنما هي من عمل أرواحهم! فقلت له: وإنشقاق القمر! وكان السؤال مفاجئاً! فقال إلا هذه.

وزعم لي مرة أمام الجماهير أن أرواح الميتين تعلم العرائض والشكايات التي تقدم إليها وتعرف ما فيها وتقدر على إعطاء ما يطلب فيها منها مهما كان إسراف الطلبات... قال ولكننا ممنوعون من الطلب منها ومن سؤالها – لأن

الرجل على رغم هذه الخرافات ينكر سؤال الموتى ودعاءهم. وهو يدعي أن الأرواح تعلم الغيب وتعلم كل شيء.

وقد افتتن بهذا الإنسان جماعة من الإخوان الفضلاء كانوا يحضرون مجالسه، فصاروا يؤمنون بكل ما يقول.

ومن العجيب أنه هو وهؤلاء المؤمنين به يعادون من لم يؤمنوا إيمانهم وينسبونهم إلى الضلالة وإلى جحد الروح! بل ربما زعموا أن من لم يؤمن بمثل ما آمنوا به فهو ملحد أو شبيه بالملحد.

ولهذا الرجل أخلاق ما أغربها: فهو يسب الناس الذين يحضرون مجلسه ويجلدهم أحياناً جلداً حقيقياً! فإذا ما خوطب في ذلك قال: أنا أكبر منكم سناً وأكثر علماً! أي إنه يحتج لجواز الضرب والسب والإهانة بكبر السن ووفرة العلم! والغريب في الموضوع وفي النفس البشرية أن هذا الإحتجاج يصيب إستحساناً وموافقة عند بعض هؤلاء المضروبين المجلودين بين يديه! فيرضون ويسلمون له أبشارهم وأعراضهم يسبها ويجرحها.

ولم يدر لا هو ولا هم أن كثرة العلم وتقادم السن لم يكونا قط في نظر العقلاء ولا في نظر الناس العاديين داعيين إلى العدوان وسوء الأدب والصحبة! لأن العلم فضيلة والفضيلة يجب أن تكون سبباً في الفضيلة لا في الرذيلة، ولأن تقادم السن يجب أن يكون مقرباً مكن الأدب لا مبعداً عنه... وقد كلمت مرة أحد هؤلاء المؤمنين له في هذه المسألة - وكان مكلمي هذا يرى أنه لا مانع من هذا الذي يصنعه الشيخ ما دام صادراً من الأعلم إلى الأجهل! فقلت له إذن على هذا يجوز أن يكون كل إنسان، حتى هذا الشيخ نفسه، ضارباً مضروباً ساباً مسبوباً! إذ كل إنسان يوجد من هو أعلم منه ومن هو أجهل منه وكل إنسان يفعل هذا بمن هو أقل منه علماً ويفعله به من هو أكثر منه علماً! فالشيخ المذكور له أن يهين وأن يضرب من هم دونه، ولمن هم فوقه أن يضربوه ويهينوه! وهل يذهل إلى هذا عاقل؟

وقد حاول هذا الشيخ مرات أن يستدل على جواز صنيعه هذا بما جاء عن عمر ابن الخطاب أنه كان يحمل معه درة ويضرب بها من يخالفون الأوامر ومن يخرجون عن الطريق! وهو بهذا الإستدلال يدخل عمله هذا في حدود الشريعة الإسلامية، ويجعل جلده للناس وإهانتهم وسبهم حدوداً شرعية يقوم بها من قبل الإله نائباً عن الرسول وعن الخليفة عمر! ونعوذ بالله من خذلان مثل هذا

ومن كل خذلان. وهذه الأعمال الإجرامية هي إحدى العقوبات التي يفرضها شيوخ الطريق على مريديهم. وقد وضعوا في بيان هذه العقوبات كتباً متداولة. ولا يدري كيف أن تعز أمة تقبل في نفسها طائعة مختارة كل هذا الهوان بإسم الدين وعلى حساب التأنيب والتسليك؟ هذه كلمة معترضة، فلنرجع إلى رأس البحث.

وقد ظهر بهذا أن العقيدة القائمة على الإيمان بقدرة الأرواح وتصرفها قد احتلت عندنا - وما فتئت تحتل - مكاناً واسعاً جداً، وسرقت منا، وما زالت تسرق، أعمالاً وأفكاراً وخيالاً كان الواجب علينا أن ننتفع بها، وأضاعت علينا قوى جسدية وعقلية كان حرياً بنا أن نحتفظ بها وألا نضيع منها شيئاً، وأنها قد أفسدت علينا نظرنا إلى الحياة وحكمنا على الأشياء وسيرنا نحو الطريق.

وكيف يمكن أن يسير في طريقه ثابت الخطوات، رابط الجأش، مطمئن الجنان من يعتقد من أعمال نفسه أن الأرواح المستبدة الظالمة محيطة به من كل جانب، مسددة إليه سهامها، مصوبة أظافرها، فاغرة أفواهها لتبتلعه وتهضمه، قادرة على أن تصنع به ما تشاء من إمراض وقتل وتخبيل وغير ذلك، لا يمنعه منها إلا رحمتها هي إن كان لها رحمة، وإلا إن كانت لا تريد أن تصنع شيئاً، بل كيف يمكن أن يستقيم تفكير مثل هذا الإنسان ويسلم له عقله.

وليعلم بعد هذا أننا ممن يؤمنون بالأرواح وبالجان وبالملائكة وبكل ما جاء عن الله ورسوله. ولكننا ننكر الفوضى، وننكر أن يكون الله قد ترك خلقه بلا نظام وبلا قانون يلزمهم الحدود ويريهم السبيل، أو أن يكون قد تخلى عنهم للفوضى وللطغيان المطلق.

ومما يتصل بمسألة الأرواح المعتدية مسألة الإصابة بالعين أو النظرة أو ما يسمى عند العامة بالحسد، فإن الحاسد عندهم إنما يصيب بروحه الخبيثة. ومسألة الإصابة بالعين مسألة ذات ذيول طويلة وحواش ضافية، ولإعتقادها أثر جسيم في حياة الكثيرين وفي عقولهم وأفكارهم وتصرفهم العام. ولها فعل سحري في قوتهم العصبية والإرادية والعقلية.

وقد تفنن الخاصة والعامة في هذه المسألة، وأكثروا من ذكر أخطارها وشدة فتكها وإتساع نطاق أعمالها، ثم تفننوا في ذكر أساليب الوقاية والعلاج منها وإتقائها، وخلدوا على صفحات الكتب أشياء عجيبة في ذلك. أما فتكها ومجال عملها فقد ذهبوا يزعمون - أو كادوا - أن جميع الأمراض التي يعرفون والتي

يجهلون هي من الإصابة بالعين: فإذا مرض الإنسان أو أصيب بحادثة أو بمصيبة مالية أو مادية أو مات، قالوا إنها العين! بل لم يخصوا الإنسان بهذا، فقد عدوه إلى الحيوان والجماد: فالعين تقتل الحيوان وتهلك الزرع بل وتغرق السفن وتسقط الطيارات! وقد حدثني إنسان يظنه بعض الناس عالماً أن رجلاً يعرفه أغرق بارجة حربية بمجرد أن رآها وقال فيها كلمة! وزعم آخر أن رجلاً آخر أسقط طيارة وأسر رجالها فجزته السلطات العسكرية على عينه وعلى قوة روحه! ولو أنك زرت جماعة من هؤلاء الضعاف الأعصاب والمعرفة والعقول، فرأيت أحد أطفالهم ثم أصيب في ذلك اليوم أو بعده بأيام لزعموا أنك القاتل! ولو أنك دخلت متجراً من متاجر هؤلاء الذين تعرفهم ويعرفونك، ثم حدث لذلك المتجر أو لأصحابه حدث لقالوا إنك صاحب الحدث وصاحب السر المشؤوم! وأنا أعرف إنساناً زعمه فريق من الناس عالماً ذهب مرة هو وابن له صغير في زيارة أحد أصدقائه، فمرض الطفل بعد رجوعه فمات، فزعم هذا الإنسان أن الذي أمرض ولده وقتله هو ذلك الصديق الذي زاره...

والحكايات والروايات في هذا الباب لا يمكن إحصاؤها ولا جمعها. ولا أحسب بيتاً من بيوت هؤلاء يخلو من هذه المبالغات والمعتقدات.

وقد حاولوا أن يسموا خرافاتهم هذه بسمة الدين وأن يضيفوها إلى مصلح الإنسانية الأكبر عليه السلام، فذهبوا ينسبون إليه روايات تصدق ما اعتقدوا! وقد عزوا إليه أنه عليه السلام قال: (أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء الله وقدره بالعين)، (نصف ما يحفر لأمتي من القبور من العين)، (العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر) ورووا أنهم كانوا إذا أصابت إنساناً عين أو شيء بعثوا إلى أم سلمة – إحدى زوجات النبي – طالبين منها أن تبعث إليهم بشعرات كانت لديها من شعر الرسول للإستشفاء بها! وذكروا أنه عليه السلام أمر أن تغسل عورة العائن والمواضع القذرة من بدنه ثم تجمع الغسالة ثم تصب على المعين ويسقاها! وعزوا إليه – وهذا أكبرها – أنه عليه السلام كان أحياناً يخاف نفسه على ما يرى – أي يخاف أن يصيبه بعينه – مع أنهم زعموا أن الإصابة بالعين لا تكون إلا من الأنفس الشريرة الخبيثة...

فكل عين عند هؤلاء عبارة عن موت موجه إليهم وإلى من يحبون وما يحبون! فأين يفرون وكيف يسلمون؟

أما ما قالوا وما ذكروا وما عملوا من أجل الوقاية والعلاج من هذا الخطر المحيط الشامل فهو أخزى وأنكى: فقد أعدوا من الأسلحة الدفاعية لعدوهم هذا أشياء سرية وغير سرية، وأحياناً سحرية! فمن هذه الأسلحة الدفاعية التمائم (أو الأحجبة.) وهذه أنواع لا يعرفها تمام المعرفة إلا الفنيون المختصون بصناعتها وتركيبها ووضع تصميماتها، ومصانعها سرية تحت العقل أو تحت الجهل لا يصل إليها أحد من العقلاء... ومن هذه الأسلحة الطلاسم والألغاز والحروف المقطعة، ومنها حمل النجاسات والقانورات والبعد عن الماء والنظافة. ومنها تعليق الجماد والأخشاب في أعناق من يخشى عليهم... إلى آخر هذه الأمور التي يعرفها الجاهلون.

وقد حاولوا أيضاً أن يعزوا هذه الترهات إلى الدين وإلى أهله من الصالحين: فذكروا أن الرسول عليه السلام أمر بالجماجم أن تنصب في الزرع! فقال الراوي: من أجل ماذا؟ فقيل له من أجل العين. قال في مجمع الزوائد: رواه البزار. وذكروا عن الخليفة عثمان أنه رأى صبياً مليحاً فقال لأهله دسموا ذقنه - وفي رواية أنه رأى صبياً تأخذه العين فقال دسموا نونته... والتدسيم هو التسويد... وفي كتاب (كشف الخفا) للشيخ العجلوني قال: ومما جرب لمنع الإصابة من العين تعليق خشب السبتان! ولذا فقد بلغني عن ولي الله العراقي أنه لم يكن يفارق رأسه، واقتفيت أثره فيه!!

وذعر الناس من العين بالغ، وهوسهم في محاولة العلاج والوقاية أبلغ. ومن أعظم ما في هذا الإعتقاد من الأضرار أن جماعات كثيرة تخاف النجاح البارز الظاهر لأنها تخاف الإصابة بالعين! وأعرف إنساناً رفعته هذه الحرب فنال بعض النجاح، فأخذت تأكله الأوهام والظنون من هذه الناحية، وصار يحسب أن عيون الناس كلهم سهام مصوبة إليه وإلى متجره... وقد راح يتخاذل ويتظاهر بالأمراض والمصائب، آملاً أن يدفع العيون المصيبة المصوبة عنه! وهو يقول إن من ينظر إليه الناس فلن يفلح. وصار إذا ما حدث عنده أصغر حادث يضيفه إلى أعين الناس! ولا شك أن أقل هذه الأوهام كاف لتخذيل صاحبها وللقعود به عن التحليق في سماء النجاح اللامع. ولن يدرك الخير المرجو رجل يرى أن الناس يستطيعون قتله أو إمراضه أو إصابته بداهية إذا ما برز في ناحية من نواحي الحياة... وأضرار هذه الخرافات النفسية والعقلية والعصبية والإجتماعية أكبر

من أن توصف وأظهر من أن تخفى.

نعم جاء في الأحاديث التي رواها المحدثون أن العين حق، وأنه لو كان شيء سابقاً القدر لسبقته العين، ولكن هل هذه الأحاديث في سبيل من جهل هؤلاء الجاهلين وفي صدد مما قالوا واعتقدوا؟ كلا، فإن كلام النبوة أضخم وأسمى معنى وهدفاً وغاية مما يتوهمون.

فالعين حق، فإن الإنسان الشرير يرى بعينه، فيحقد ويحسد بقلبه، ثم يصيب بأعماله وكيده... والعين حق أيضاً، فإن في كثير من العيون قوة آمرة ناهية، بل قاتلة آسرة وإن الرجل الموهوب هذه القوة لينظر أحياناً إلى من حوله فيخضعهم بمجرد النظر، ويسلس لنظرته وعينيه أشمس خلق وأعصى طبع، ويبلغ من أنفسهم أقصى ما يريد وأبعد ما يرجو، فيصبحون طوع مشيئته ورهن إشارته، فيصبح بينهم الآمر الناهي المتصرف، ويصير فيهم الزعيم المعبود أو الشيخ المعبود أو الأستاذ المعبود: القول قوله والتفكير تفكيره والهوى هواه والدنيا دنياه.

إننا أحياناً كثيرة ليأخذنا العجب من إستبعاد شخص لأمة، وعبادة أمة لشخص، فنذهب نتلمس الأسباب والعلل بعيداً وقريباً، مع أن الأسباب قد تكون في عين ذلك الشخص المعبود ونظراته، وقد تكون في مظهره، وقد تكون في صوته ونغمه... إنها فيه على كل حال، وإن سلطانه معه وفي ذاته! فطوبى لمن رزقوا هذه النظرات، وهذه العيون الآسرات القاهرات، وهنيئاً لهم السيادة الظاهرة والباطنة.

وقد كنت أعرف شيخاً يكاد يعد من الناحية العلمية في غمرة الجاهلين، ومن الناحية الذوقية الأدبية السلوكية في زمرة السفهاء المتوقحين، وهكذا هو في كل ناحية من نواحيه وجانب من جوانبه، ولكن كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع أو لا يكاد يستطيع أن ينجو منها ويفلت من عقدها ونفثها إنسان يبتلى بالجلوس بين يديه! إنه يتصرف فيمن حوله من البشر كأنهم القطعان، أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم في القالب الذي يريد، وفي المعنى الذي يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد... إنه فرض عليهم أن يكونوا بين يديه كالأموات بين أيدي الغاسلين، لا يتحرك من أحد منهم عضو حتى يحركهم وحتى يريد منهم هو، وفرض عليهم أن يخشعوا في حضرته خشوع الصالحين العابدين في صلواتهم،

أو ذلك المشركين أمام أصنامهم، وألزمهم أن يدخل بينهم وبين الله في أقرب موقف يقفونه منه تعالى: ألزمهم أن يضعوا خياله وصورته بينهم وبين الله وبين القبلة حين الصلاة، وفرض عليهم أكثر مما فرضه الله على عبيده، ثم كتب لهم هذه الفروض في كتاب من كتبه التي زورتها يداه، ثم أمرهم بأن يتعلموا هذه الفرائض وأن يستذكروها حفظاً من أجل أن يعملوا بها أينما كانوا... وقد امتثلوا هذا كله ثم قالوا: هل من مزيد من هذه العبادات والفروض! فما سر هذه القوة في هذا المخلوق؟ إنها أسرار عديدة، وإن أقواها أو من أقواها ما في نظراته وعينيه من سحر خبيث.

والعين حق أيضاً. فإن الإنسان ينظر بعينيه، فيشتهي بقلبه، فيهلك بعمله وسعيه إن لم يمسك بزمام نفسه إمساك قوي غالب. ولهذا جاء في حديث نبوي: (النظرة بسهم مسموم من سهام إبليس.) وليس هنالك أحق من تلك العيون التي يحمل ضعفها أعظم قوة استبدت بالإنسان وسخرته وأذلت كبرياءه وساقته إلى الخير حيناً وإلى الشر أحياناً، وظلت ذات النفوذ الذي لا يقاوم، والسلطان الذي لا ينازع ولا ينزع، في عصور الإنسانية كلها: في عصور البربرية والوحشية، وعصور المدنية المهذبة الراقية! ولهذا جاء في الأوامر الدينية نهي الجنسين معاً عن الإستسلام لسلطان هذه النظرات والعيون، وأمروا جميعاً بالغض من أبصارهم.

وهنالك أشياء أخرى هي حق أيضاً أشار الكتاب إلى بعضها بقوله "وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر"، وهذه هي نظرات العداء والكره والغيظ.

والعين هي مفتاح شخصية الإنسان، ومفتاح أسراره، ومجتمع قواه ومعانيه المختلفة. ففيها يتجلى الحب والبغض والعداوة والصداقة والرحمة والقسوة والذكاء والغباء والقوة والضعف والحزن والسرور والصحة والمرض والأمر والنهي والهدوء والقلق وكل تلك المعاني التي يشتمل عليها الإنسان والتي تكمن في أعماقه ووراء مظهره الخداع... فكان الحديث عنها من أجل ذلك حديثاً يتسع ويتنوع ويتلون، وكانت من أجل ذلك حقاً ودلالتها حقاً. وما من شيء في الإنسان يصدق في دلالته ويجمع من المعاني فيها مثلها في صدق الدلالة وكثرتها... وقد تتقدم دراستها في المستقبل ودراسة أسرارها حتى يصبح من اليسير الممكن

معرفة كل ما يضمره المرء وما يجول بخاطره من الصدق والكذب ومن التصديق والتكذيب وصحة التهمة الموجهة إليه وبراءته منها، ومن الغدر والخيانة وسلامة الضمير وخبثه ونفاقه وإيمانه، وغير ذلك مما تراد معرفته وعلمه، ويريد المرء إخفاءه وكتمانه يساعده على هذا الكتمان طبعه ولسانه... وحينئذ تتكشف حقائق، كان التحقيق البارع يعجز عن كشفها وينفق ما ينفق في هذا السبيل ثم لا يظفر بشيء. فقول الرسول عليه السلام (العين حق) قول يعبر عن أصدق المعاني وأصدق الحقائق وأصدق الدلائل وأجمعها.

وإن من أعجب الأشياء السر الذي يصر صاحبه على أن يطويه في طواياه، فإنه يكون من أبعد الأشياء بينما هو من أقربها! وقد استطاع العلم الإنساني أن يصعد إلى الشموس وإلى المجرات؛ يعددها ويقدرها ويعلم كل ما هنالك، ولكنه يقف حائراً عاجزاً عن الوصول إلى سر طفل بين يديه يأبى إلا أن يكتمه ويأبى البوح به! فلا بد من وسيلة لمعرفة هذا القريب البعيد... وقد تكون قراءة العيون إحدى الوسائل التي ستحقق هذه الغاية... ولا أجمل من قول الله "يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور"، فجمع بين علم السر الذي في الصدور، وبين علم ما في العيون من خيانة ومن معان أخرى. فكأنه يشير إلى أن هذا هو مفتاح هذا، ويشير إلى الصلة الكبيرة بينهما. فأخبار النبوة الصحيحة حق ومراميها ومعانيها أعلى وأسمى من هذه المعاني الصغيرة المفسدة للهيئة الإجتماعية والتي تنشر الفوضى والخيال المضطرب القاتل.

* * *

وها هنا مسألة كبرى، نشأت أيضاً من الجهل بسنة الله وسنة الحياة ومن الإعتقاد بأن هذا العالم ليس محكوماً بالنواميس والقوانين.

ذلك أن الناس ظلوا مئات السنين يعتقدون أن المسلمين لن يغلبوا، لأن دينهم حق، والحق يجب أن يكون أهله منتصرين أبداً وإن قصروا وأهملوا ونسوا انفسهم، وأن الإسلام لن يهزم أمام الأديان الأخرى، لأنه الدين المرضي لله، والله لن يترك ما يرضاه للخذلان والهزيمة... وقد عملوا على أن يصححوا هذه الأغلوطة بالإستدلال بآيات قرآنية مطلقة مجملة نسوا قيودها وشرائطها، فأمعنوا ضرباً في متاهات الأوهام، وإستمتاعاً بأضغاث الأحلام، وظلوا سادرين حتى فجئهم العالم، فانتبهوا مذعورين لا يدرون من أين ولا كيف،

وقاموا يتلمسون الطريق، وقمنا معهم ومثلهم، نتلمس الطريق أيضاً، ولكننا وجدنا بعد هذه النومة الطويلة والأحلام الثقيلة أن أعلام الطريق قد عفت أو كادت وأن الرقاد الطويل الثقيل الذي هنئنا به قد باعد بيننا وبين الأمم اليقظى التي لم يغمض لها جفن. فكيف ومتى اللحاق؟

إن للوهم الواحد في الحياة ثلاث نتائج: أولاها أنه يعطل عن السير إلى الغاية المطلوبة، وثانيها أنه يوجد جهة أخرى مضادة – وهذا فيه أمران: الإبعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول. وثالثها إفساد العقل، فإن الأوهام تأكل العقول، وكل وهم يأخذ من العقل بقدره. ولا تزال الأوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزاً عن التمييز وحتى يتخلى عن وظيفته، كما شوهد ذلك في الأمم وفي الأفراد التي تكثر أوهامها.

ومن العجيب المؤلم أن أكثر المسلمين لا يزالون يدينون لهذا الوهم القاتل بعد أن فضحه الواقع حتى لم يدع لصدقه وصحته إحتمالاً، ولا يزالون يحاولون تجربته المرات بعد المرات، ولا يزالون يرون أن التجارب الماضية كلها غير كافية ولا مغنية، ولا يزالون مستعدين لأن يقضوا أوقاتاً أخرى، الله أعلم بمقدارها، مطبقين أجفانهم على هذه الأحلام جاعلين أصابعهم في آذانهم حذر أن يسمعوا صور الحقيقة يرن ذلك الإرنان الذي أفزع أهل المشارق والمغارب، فنهضوا منطلقين إلى غاياتهم هذا الإنطلاق الذي لا تستطيع قوة من قوى الأرض أن تقفه.

وقد إنتشرت في الأعوام الأخيرة القليلة جمعيات وهيئات دينية كثيرة، تنادي كلها بلسان هذه الأغلوطة التاريخية الكبرى، وراحت كلها تهيب بالمستمعين إليها وتطعم أعصابهم الجائعة المتعبة وأمانيهم المحرومة بهذه الأماني، معللة نفوسهم الجدباء، بأن تمطر عليهم الغيث بدون سماء، وأن تصلهم بأضخم الآمال، بدون أن يتكلفوا أقل الأعمال... وقد أصابت هذه الجمعيات شباناً ورجالاً طالما أرهقهم الحرمان، وطالما ذهبوا يتلمسون في زوايا حياتهم الضيقة أشياء كان المفروض من الجهة الإنسانية أن يجدوها وأن يتمتعوا بها كبشر، وطالما أحسوا أن أموراً، لا يدرون ما هي، قد حرمت عليهم. فهم ينشدونها وإن كانوا لا يدرون ما هي، ولا يدرون أين هي، فصاروا يتلفتون حيث لا جهة، وينظرون حيث لا منظر، وكانوا في أشد الحاجة إلى من يعقدون عليه أبصارهم ويربطون به آمالهم، وينيخون عنده بحاجهم، فما إن مرت بأسماعهم أصوات

هؤلاء الدعاة، زاعمين لهم أن ما فقدوه موجود لديهم حتى أصاخوا وحتى اندفعوا إليهم كأنما أصابتهم جنة.

إن المشكلة الكبرى أن النفس الإنسانية دائماً يوجد فيها فراغ واسع للآمال، وأن هذه الآمال متجددة أبداً: فهي مهما بلغت من الظفر تشعر أنها محتاجة، وأنها فاقدة، وأنها يجب أن تأخذ وأن تعطي. فكل من يضرب لها على هذا الوتر - وتر الآمال المفقودة المطلوبة - وكل من يغني لها بهذه الأنشودة الخالدة - أنشودة الحاجات التي يجب أن تؤخذ أو تعطى - يجد في جوانب النفس الإنسانية وفي فراغها مجالاً واسعاً للعمل ودولة مستعدة للإستسلام والخضوع والنزول عن الحرية! فلا عجب إذا قامت دولة هؤلاء الناعبين بالآمال، الناعقين للجماهير المضللة، ملوحين لهم بما لن ينالوا. ولا يجب أن نعجب إذا وجدنا مخبولاً يهذو، ويمني بالمستحيلات، قد نجح وأخذ برقاب الآلاف أو مئات الآلاف أو الملايين من هذه القطعان البشرية، يقودها حيث شاء. فإنه قد هاجم أضعف جانب فيهم - وهو جانب الرجاء والأمل - فانتصر عليهم بدون عناء! وعلى هذا فمن البعيد الصعب الوقوف في سبيل هؤلاء المخادعين وفي سبيل إستيلائهم على الجماعات بواسطة التلويح لها بآمالها. وعلى هذا يجب ألا يعد نجاح هؤلاء دليلاً على أن لهم قيمة بل يجب أن يعد دليلاً على ضعف النفس الإنسانية المؤملة المرجية.

قد عرف أن الفقراء والبائسين والمصابين من أسرع الناس سيراً وراء الدعوات والمذاهب والشيع القائمة على إعطاء أسخى الوعود وعلى إشباع جانب الأماني والرغبات في النفس، وأنهم أكثرهم إنخداعاً وحماسة وتضحية في سبيلها... وقد يبدر إلى أذهان كثيرين أن السبب في ذلك أنهم - أي الفقراء والبائسين والمصابين - خيرون دون الأغنياء والكبراء الذين قد يجانبون أمثال هذه الدعوات والشيع وقد يناوئونها... ولكن ليس هذا هو السبب بلا ريب، وإنما السبب أن الأولين أبعد من الأخيرين عن تحقيق الرغبات، وعن الحصول على الحاجات، وأنهم أظمأ وأسغب منهم نفوساً لحرمانها من آمالها ومآربها، وأنهم من أجل ذلك مستعدون للإستباق وراء كل من يومىء لهم بهذه التي حرموا منها دون أن يمكنوا عقولهم من التفكير والنظر في صحة ما يدعون إليه وفي حال الداعين وفيما ينطوون عليه ويرمون إليه، بل وفيما يفعلونه جهاراً نهاراً، وفي

إمكان الحصول على هذا الذي يرجون ويؤملون وعدم إمكانه... بل إنهم يتراكضون وراءهم، وكأنهم آلات صماء فقدت كل تفكير ونظر. ولهذا فإنه يقل جداً أن يسمعوا نقداً أو إعتراضاً أو نصيحة أو توجيهاً، ويقل جداً أن يؤثر في إستسلامهم لهؤلاء الدعاة ما يصنعه الدعاة مما ينافي الحق أو ما يزعمونه حقاً ومما ينافي كل منطق وذوق.

فالحرمان، أو الشعور بالحرمان، من أعظم ما يسرع بالناس إلى أن يكونوا آلات متحركة بلا إرادة في أيدي المخادعين والمحتالين والواعدين بالآمال جزافاً، ومن أعظم ما يحدث الإنقلابات وما يولد النحل والمذاهب، وما يوجد لها الأنصار والمشايعين الذين يجودون بدمائهم أسخياء، من أجلها أو من أجل مبتدعيها.

لماذا نجد شعوباً وأمماً تضع، راضية مختارة، حياتها ومصيرها في يد زعيم واحد – كألمانيا مثلاً – يوجهها حيث شاء ويلقي بها حيث أراد من مواطن الموت أو مواطن الحياة، ونجد شعوباً وأمماً أخرى – كبريطانيا وأمريكا مثلاً – تأبى هذا النوع من القيادة والزعامة ومن الإستسلام والخضوع؟ هل الأمر في هذا راجع إلى إختلاف في طبيعة الفريقين، أم راجع إلى إختلاف في الظروف؟ الرأي أنه ليس أمراً طبيعياً. ولهذا فإن الألماني في أمريكا وسويسرا وغيرهما يأبى هذا الذي يأباه الإنجليزي في أمريكا وفي إنجلترا نفسها. وإنما المسألة أن الألماني محروم أو يشعر أنه محروم من أشياء يراها حقاً له، ويرى نفسه أهلالها، فهو محاول أبداً، ودائب أبداً في نيلها، وهو مسرع منقاد للزعيم الذي يرجيه ويرجوه لتحقيق هذه الحقوق.

أما الإنجليزي والأمريكي فليسا كذلك ولا يشعران هذا الشعور، فهما غير محتاجين للإستسلام والطاعة العمياء. ولو أن الظروف تغيرت وتبدلت فوقع الإنجليزي والأمريكي في ظروف الألماني وشعوره، ورجع الألماني إلى ظروف الأمريكي والإنجليزي وإلى شعورهما، لفعل أحدهما ما فعله الآخر ولتبدل الموقف تبدلاً كاملاً.

والميل إلى الحروب راجع أيضاً إلى هذه الظروف وإلى الشعور بها، لا إلى طبيعة لا تتحول. فلو أن الألمان الذين يميلون إلى إشعال الحروب نالوا ما ناله الآخرون من الملك والسلطان ومن الرخاء والرضا بما فيهم فيه لتحولوا عن هذا الميل الذي قيل إنه فيهم أصيل، ولو أن الآخرين حرموا حرمان الألمان وشعروا

شعورهم وملكوا القوة العسكرية والعلمية التي يملكها الألمان لمالوا إلى الحروب ميلهم... فنجاح هؤلاء الدعاة وهذه الجمعيات هو نجاح طبيعي على حساب ما تقضي به النفس الإنسانية، وإن كان نجاحاً يدعو إلى الأسف العميق عند العقلاء.

أعلن منذ سنة ونصف تقريباً في الصحف عن خطاب سيلقيه أحد الخطباء في إحدى الجمعيات الكبيرة المحترمة، وكان عنوان المحاضرة (الثقة بالله)، فذهبت إلى تلك الجمعية في اليوم الموعود، فوجدت الحشود هائلة، فقام الخطيب يلقي خطابه فكانت خلاصته:

إن في أيدي المسلمين أمراً سهلاً قريباً يستطيعون أن يدركوا به كل ما فاتهم وأن يجدوا به جميع ما فقدوا، وهو أمر لا يكلفهم شيئاً؛ هذا الأمر السهل القريب هو أن يدعوا الله موقنين بالإجابة، فإنهم إذا دعوا الله وأيقنوا أنه مجيبهم لا محالة فسيجيبهم وسيعطيهم ما سألوا بدون عناء وبدون عمل... ثم ألقى على نفسه إعتراضاً مشهوداً مشهوراً وهو أن المسلمين ما زالوا يدعون الله: يسألونه النصر والقوة والإستقلال وإهلاك الأعداء ويسألونه كل خير، ومع هذا كله فإنهم لم يظفروا بواحد من هذه الأمور... فأجاب عن هذا الإعتراض قائلاً: إنهم دعوا الله ولكنهم لم يوقنوا بالإجابة، ومن ثمة منعوا وحرموا!!! فليجمعوا بين الأمرين ثم لينظروا كيف يصنع الله لهم وبهم! إنه حينئذ سيهبهم كل شيء، وسيهلك لهم أعداءهم وسيقدم لهم صك الإستقلال التام ملفوفاً بحرير مصنوع في السماء تحت إشراف الملائكة!! ثم أخذ في تلاوة الآيات والأحاديث التي زعمها مصدقة لظنه... هذا مجمل تلك المحاضرة التي ألقيت في تلك الجمعية المحترمة. وقد كان رئيس الجمعية - وهو إنسان ذكي خير - حاضراً فسمع المحاضرة كلها. وقد لاحظت أن الموجودين كلهم استحسنوا ما سمعوا واستولت على كثير منهم حمى السرور وهزة الإعجاب، وحسبوا أن الخطيب قد ارتفع بهم إلى أحد الكنوز السماوية، فلم يبق إلا أن يأخذوا ما شاءوا.

ولا ينبغي أن يحسب القارئ أن هذا الخطيب بدع بين الخطباء، ولا أن رأيه بدع بين الآراء، ولا أن تلك الجمعية بدعة بين الجمعيات، ولا أن أولئك الحاضرين المستمعين بدع في عديد الآخرين، بل ينبغي أن يعلم أن أكثر الناس اليوم - أو على الأشهر كلهم - يذهبون هذا المذهب ويعدون ضالاً مارقاً من لم

يذهب كما ذهبوا.

كتب أحد أئمة التاريخ والحديث الكبار في القرن الثامن الهجري في تاريخ له مشهور يقول: (وفي سنة ٥٤٣ حاصر الإفرنج - وهم في سبعين ألف مقاتل - ومعهم ملك الألمان دمشق، فخرج إليهم أهلها فاقتتلوا. وأخرج مصحف عثمان إلى صحن الجامع واجتمع الناس حوله يدعون الله، والنساء والأطفال مكشوفو الرؤوس يدعون ويتباكون -... إلى أن قال: - ومدينة دمشق لا سبيل للأعداء من الكفرة عليها لأنها المحلة التي أخبر الرسول عنها أنها معقل الإسلام عند الملاحم والفتن، وبها ينزل عيسى بن مريم.)...

هذا ما قاله في التاريخ، وله رحمه الله كتاب آخر عنوانه (الإجتهاد في طلب الجهاد) ذكر فيه أيضاً أن الكفار لن يدخلوا دمشق أبداً إلا أنه ذكر حجة أخرى غير هذه الحجة وهي أن الرسول عليه السلام قال: (وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده) قال: والقيصر هو من يملك الشام من ملوك النصارى. فهذا الشيخ - وهو محدث جليل - يرى أن الإسلام قد أعطى أهله ضماناً في صك مكتوب بأن النصارى لن يحتلوا مدينة دمشق! ولا نعرف ماذا يقول لو أنه عاش بعد أن كتب هذا فرأى الجيوش الفرنسية ثم الإنجليزية تدخل هذه المدينة الإسلامية الجميلة غازية فاتحة منتصرة؟ أتراه يستطيع أن يقول إن الإسلام أعطى هذا الضمان الجميل، أم تراه يدعي أن ما أورده هنا في كتابيه يصلح أن يكون برهاناً على وجود هذا الصك الإلهي المحمدي المزعوم؟ لا ريب في أن الذي جعل مثل هذا الشيخ الجليل الحافظ يهم هذا الوهم هو الغفلة عن سنن الله الصارمة التي لا محاباة فيها ولا فوضى ولا محسوبية.

قال أحد القواد العبقريين الذين عركتهم الحروب وعركوها: إذا احترب فريقان كان الله مع أقواهما. وهذه قولة قد نظنها كفراً أو فسوقاً أو جهلاً إذا نظرنا إليها بشق واحد من عقولنا، ولكنها في الواقع قولة عميقة منبئة عن حقيقة كبرى في حكمة الله. وإذا استمعنا إلى قول الله في كتابه "إن تنصروا الله ينصركم" إستطعنا أن ندرك ما في قول هذا القائد من حق وصدق. فإن هذه الآية قد جعلت نصر الله لنا إنما يأتي بعد نصرنا له، ونصرنا له تعالى هو نصرنا لأنفسنا، وإذن فالله لا ينصرنا إلا إذا نصرنا أنفسنا. ولا يمكن ان ننصر أنفسنا إلا إذا كنا أقوياء. وإذن فالله مع الناصر لنفسه، والناصر لنفسه هو

الأقوى. وإذن فالله مع أقواهما. وهذا هو القانون العادل الشامل، فمن هلك به فقد هلك بالحق والعدل، ومن هلك بهما فلا ناصر له.

هذا ما كان يقوله المسلمون في العصور الخالية في سيادة النصارى وإنتصارهم عليهم. أما اليوم فقد حل محل هذا الوهم وهم آخر، وصاروا يقولون هذا القول ويهمون مثل هذا الوهم في خطر اليهود وفي ملكهم ومحاولتهم إعادة وطن قومي لهم... فقد أكثروا من الإدعاء بأن اليهود لا خطر ذاتي لهم، وأنه لا يخشى منهم منفردين على المسلمين ولا على الأوطان الإسلامية لا على فلسطين ولا غيرها. ثم زعموا كما زعموا منذ خمسمائة سنة بأن الله قد دفع إليهم بعهد مكتوب بأن اليهود لن يكون لهم ملك، ولن يكون لهم وطن خاص! ثم اتهموا كتاب الله بوجود هذا العهد فيه، وراحوا يتلون الآيات منزليها في غير مواضعها.

والآيات التي استدلوا بها والتي يمكن أن يستدلوا بها هي قوله في سورة البقرة": وضربت عليهم الذلة والمسكنة "ثم قوله من آل عمران: "ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وباءوا بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة" ثم قوله من سورة المائدة: "كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله" ثم قوله في الأعراف: "وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب. إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم. وقطعناهم في الأرض أمماً، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك."

وقد حسبوا أن هذه الآيات قواطع في أن اليهود لن تقوم لهم دولة ولن تكون لهم صولة. ولكن هذا غير صحيح لا بالنظر إلى سنة الله ولا بالنظر إلى كتاب الله؛ أما سنة الله فإنها قد علمتنا بأن من أخذ بأسباب الملك ناله، واليهود من أعمل الناس اليوم لهذا الغرض ومن آخذهم بالأسباب. أما قلتهم فليست بمانعة من ذلك، فإن هنالك شعوباً أقل منهم عديداً ومع قلتهم ملكوا بل واستعمروا شعوباً كبيرة. والمستقبل في هذا العصر ليس للعدد وإنما هو للعلم، فإن الحروب اليوم وغيرها، من الوسائل التي يستولي بها على الحياة، علمية.

وأما كتاب الله فإن هذه الآيات ليست صريحة في صدق هذه الدعوى: أما "ضربت عليهم الذلة" في الآيات كلها فإن الذلة عند أكثر المفسرين هي الجزية، فيكون تفسير هذه اللفظة أن الجزية قد فرضت وقت نزول القرآن على اليهود، وفرضها عليهم في وقت من الأوقات لا يلزمه أن تكون مفروضة عليهم كل

الأوقات بدليل أنها الآن مرفوعة عنهم مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم...

وإذا قدر بأن المراد بالذلة في الآيات هو المعنى الأول السابق إلى الأفهام لم يلزم منه صدق هذا الوهم. وذلك لأن إخبار القرآن بأن اليهود أذلة في وقت نزوله لا يقتضي أن يبقوا أبد الآبدين كذلك. وما من أمة من الأمم إلا وزقد مرت بها عصور ذلة وضعف، مهما كانت اليوم عزيزة منيعة. وفي الكتاب: "ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة." وكل الناس يعلمون اليوم أن الذلة مضروبة على المسلمين على أوسع نطاق وأحكمه، ولكن لا يمكن الزعم بأنهم سيبقون أذلة أبداً.

وأما المسكنة عند أشهر المفسرين فهي الفقر. والمراد هنا الفقر القلبي لشدة حبهم المال. وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله

مخافة فالذي فعل الفقر

وذلك أن الغرض من الغنى هو أن يسعد صاحبه لا أن يشقيه، فإذا لم يسعده كان كالفقر المشقي.

وقيل إن المسكنة هي الجزية، وقيل الخراج... وكل هذه التفسيرات لا تنافي أن يكون لهم ملك وأن يكونوا يوماً ما خطراً مرهوباً.

أما قوله "كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله" فالمراد أن دسائسهم ومكايدهم التي حاكوها بإحكام وإستمرار للقضاء على الرسول وعلى دعوته قد أخذها الفشل من كل جانب، وأنهم هزموا في كل حروبهم التي شبوها مريدين القضاء على الإسلام. وهذا لا ينفي أن يكونوا خطراً في المستقبل.

وأما بعث الله عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة فإنه لا ينافي الملك أيضاً. لأنه إذا كانت لهم دولة وبقيت الحروب بينهم وبين الآخرين مستعرة فإن في هذا أشد أنواع العذاب وأشد سوم لهم بالعذاب. ولا ريب أن المتحاربين كل منهم يسوم الآخر ويصليه العذاب.

وأما تقطيع الله لهم في الأرض أمماً فالمراد أن الله قد شتتهم في الأزمان القصية. وهذا أيضاً لا ينفي أن يكون لهم وطن وأن يجتمعوا وأن يكونوا خطراً على من ربطوا عقولهم بالأوهام، وأطبقوا أجفانهم على الأحلام.

فالقرآن إذن لم يقدم إلينا صكاً فيه الضمان والأمان من خطر هذا الشعب الذكي الغني الماكر، بل قدم إلينا الأوامر الصارمة الصريحة بأن نحذر

ونستيقظ ونقف.

وقد جاءت الأحاديث الصحاح بأن حروباً عظيمة ستضطرم بين المسلمين واليهود. وقد يكون في هذا ما يعطي بأن اليهود قد تكون لهم دولة وجيوش يحاربون بها ودفاعاً عنها.

وإن أشد ما يفزعنا وأشد ما حملنا على أن كتبنا هذا الذي كتبنا في هذه المسألة هو أننا نخاف أن نبقى متوهمين أنفسنا وبلادنا بمنجاة من هذا الخطر المخيف الفاغر فاه اليوم، كما كنا نظن أننا بمنجاة من الخطر المسيحي حتى قضى القضاء... وحينئذ لا يجدي الندم كما لم يجد فيما فرغ منه... وقد لاحظنا أن هذا الغرور - وهو خليق بأن يسمى غروراً - مستول على تفكير إخواننا المقصودين بهذا الخطر، الذين يكاد يحاط بهم. فهم يرون أنه لو خلي بينهم وبين اليهود - جامعة اليهود ما جمعت من الأموال والقوات ومن العلم والمكر والدهاء - لكانت الغلبة لهم، وإن فقدوا هم كل شيء من هذه الأمور التي من ملكها فهو المنتصر ومن فاتته فلا شيء له.

ومما يجب الإلتفات إليه هنا أنه لا يحسن منها أن نحكم بأن القرآن قد جهر بأن اليهود لن يكون لهم ملك في عصر من العصور. فإننا لو حكمنا هذا الحكم ثم أبطلت الأيام حكمنا هذا لخشينا أن يكون في ذلك شيء من توجيه الإتهام إلى القرآن ونصوصه وقضاياه.

وقضية اليهود قضية يجب أن نهبها كل حساب وتقدير. ولعل بوادر خطرهم التي تجلت لنا في هذه الأيام لا تقل عن بوادر الخطر التي كان الغرب يهدد بها الشرق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر. وقد أصبحت تلك البوادر حقائق مرة، لا نزال نعاني كروبها وسنبقى زمناً طويلاً نعانيها.

إن لمستقبل الصهيونية في فلسطين إحتمالين: أحدهما أن نفتح لها الأبواب هناك بعون الغرب، وأن تحتشد فيها وتتجمع وتتكون كيف شاءت - وهذا شر الإحتمالات. وثانيهما أن تقفل في وجهها الأبواب قفلاً محكماً أو بعض القفل. وهذا - كما لا يخفى - أفضل الإحتمالين.

أما الأول فلا شك أنه إذا أبيح للمال والذكاء والعلم اليهودي وللرؤوس اليهودية التي تجمعت فيها خلاصة الثقافات والمعارف والمطامع الغربية والعالمية - إذا أبيح لذلك كله أن يبسط سلطانه وأن يظهر مقدرته وكفايته في تلك

البلاد الضعيفة العاجزة عن المنافسة فإن النتيجة حينئذ تكون معروفة - أو يجب على الأقل أن تكون معروفة. ومن ارتاب فيها فلأمه الهبل... إن النتيجة حينئذ هي تدمير العرب في فلسطين تدميراً كاملاً، وسلبهم كل شيء مما في أيديهم وتحت أيديهم. ولو فرض في مثل هذه الحالة أنه بقي للعرب أجزاء من أراضيهم وأملاكهم، لم يستطع اليهود شراءها بوسيلة ما من وسائلهم الكثيرة، لم يمنع ذلك من أن يكون العرب في تلك الأراضي والأملاك المفروضة أجراء فقط، يعملون وينتجون لسادتهم الحقيقيين، ليس لهم من ملكهم وعملهم فيه سوى العناء المتواصل المبيد! لأن اليهودي يعرف كيف يسلبك ثمرة ما تملك! وكم من الناس الذين يملكون ولكنهم لا يملكون! وضحايا البنوك والمؤسسات الأجنبية يعرفون هذا معرفة مرة المذاق.

ولهذه النتيجة نتيجة أخرى، هي أشد هولاً وأشد إفزاعاً لمن يفكر فيها ويدريها تلك هي الإمتداد العسكري والإقتصادي والثقافي الذي سيكون أثراً محتوماً لإحتشاد هذه القوى اليهودية المخيفة في ساحة ضيقة مثل فلسطين... ومن المعلوم أن هذا الإمتداد لن يكون إلا في بلاد العرب. ومعنى هذا أن الآلة اليهودية لا محالة من أن تتحدى الآلة العربية وتصطدم بها. ولا ندري كيف تتكافأ الآلتان مع ما بينهما من الفروق العظيمة. والقول بأن العزة للكاثر قول كان يصدق أحياناً لما كانت الأمم والجماعات يتنازعون ويتقاتلون بالأكف وبالحجارة والسهام والنبال وأمثال ذلك، ولكنه لا يجب أن يصدق في الزمان الذي يكون العلم فيه هو الفاصل والحكم والعدة.

أما الإحتمال الآخر الذي يرضينا معشر العرب، والذي نعمل له، والذي هو أقصى أمانينا - أعني إيصاد الأبواب كلها في سبيل كل يهودي يريد دخول فلسطين - فهذا الإحتمال - على أنه أفضل إحتمال - ليس في إستطاعته أن يرد عنا الخطر الصهيوني الذي انشب أنيابه حقيقة في جانب من جوانب هذا الوطن العربي. وذلك أن اليهود حينئذ - وهم أهل الذكاء والحيلة والتصميم والتعصب القومي العجيب - سيلجأون إلى وسائل كثيرة هينة عليهم وعلى كل من هم مثلهم ثقافة وعلماً ونشاطاً ومالاً وشأناً دولياً ملحوظاً... من هذه الوسائل تنظيم عمليات التهريب براً وبحراً وجواً، والتحايل على الوصول إلى ما زعموه وطنهم الذي لن تثنيهم عن دخوله قوة من القوى... ومنها محاولة تكثير مواليدهم

وتوالدهم بطرق فنية مبتكرة مفزعة – وهكذا حتى يصيروا عدداً جسيماً في هذي البلاد، وحينئذ ينطلقون في سبيل تحقيق أغراضهم الكبرى التي أرصدوا لها أضخم الذهنيات العالمية – يمدها ذلك الخيال اليهودي الذي ألهبته عبر التاريخ القاسية الطويلة، ومعارف هذا العصر الفذ، ثم تلك الشهية العتيدة التليدة التي شهر بالتمتع بها حفدة شيلوك وقارون إزاء المال والحياة، وإزاء المنافسة في تحصيلهما. وإذن فالخطر اليهودي قد صار حقيقة واقعة على كل الإحتمالات والحالات. فلو ظفرنا بأجمل ما يلعب بآمالنا – وهو وقف الهجرة الصهيونية نهائياً – لما كان في ذلك شيء من الضمان والأمان إلا عند من اعتادوا أن يناموا تحت مطارق الأقدار. فكيف الخلاص إذن؟ كان من الواجب علينا أن نسأل – ولكن هذا أمر قد غاب عنا أجمعين – لماذا يحاول اليهود أن يتركوا أوروبا – مهبط النشاط الإنساني الرائع، ومحلى العبقرية البشرية – وأن يتحدوا كل صعب وذلول، ليتجمعوا في هذا الوطن الشرقي العربي الذي يكاد يكون من الناحية الزراعية والصناعية والعلمية فطرياً بدائياً، والذي لا قيمة لموارده الطبيعية بالنسبة للبلاد التي يفرون منها؟ ليس من الحق أن يكونوا قد خدعوا فاعتقدوا بأن مجال العمل والنشاط والحياة في فلسطين أعظم منه في الأوطان التي تركوها، كما أنه من غير الممكن أن يكون البله الديني قد خالط رؤوسهم فاختاروا هذا المكان من الدنيا، إنقياداً لعاطفة دينية، وطاعة لنص وجدوه في كتبهم المقدسة. كل هذا لا يمكن أن يكون. أجل، قد يوجد بين الجماهير المضللة من يكون هذا هدفه وهواه. ولكن الرؤوس التي نظمت هذا الغزو وأوفت به على الغاية ليس من الممكن أن يكون قد ألم بها هذا الخبال أو الخيال. فالأمر إذن غير ذلك، فما هو؟ لنفترض أن بريطانيا وأمريكا – أقوى قوتين تحكمان العالم اليوم – طلبتا إلى اليهود أن يختاروا لهم أغنى وأفضل منطقة في ألمانيا أو اليابان أو إيطاليا مثلاً ليصيروها لهم وطناً قومياً بقوة السلاح، فهل من الممكن أن يرضى اليهود بهذا الوطن المفروض المعروض، وأن يقدموا على تجربته؟ لا ريب أنهم لن يفعلوا، ولكن لماذا لا يفعلون؟ بالجواب عن هذا نعرف لماذا اختاروا بلداً عربياً، وهان عليهم تحدي أهله وتحدي جيرانهم وإخوانهم! !إنهم لا يقبلون مثل هذا الوطن لأنهم يعلمون أن أهله سيدمرونهم في يوم من الأيام، أو يجلونهم على الأقل لا محالة، هذا من جهة، ولأنهم يعلمون من جهة أخرى أن هذه الشعوب ليست

هينة المنافسة، ولا سهلة القضم والبلع. أما فلسطين وسواها من البلاد العربية فهي عاجزة عن الأمرين معاً: عن تدمير اللصوص الواغلين وإجلائهم، وعن منافستهم تجارياً وصناعياً وزراعياً! فما أطيبهم إذن مغنماً، وما أسعد من ظفروا بهم ودخلوا عليهم الأبواب! من السهل عليك أن تبسط يدك آمناً مطمئناً، فتجتذب الطيور المسالمة الضعيفة من أوكارها، لتقدم لك على مائدتك طعاماً شهياً سائغاً! ولكن من الصعب عليك أن تفعل ذلك بعرين الأسد... ومعنى هذا أن بعض الشعوب فيها مناعة ذاتية، تقيها الفناء والعدوان، وبعضها ليست فيها هذه المناعة، فهي محتاجة إلى حماية خارجية وإلا ذهبت في الهالكين. واليهود يعلمون أننا فاقدون لهذه المناعة، ولهذا فإنهم لا يخشون وغولهم علينا ولا غزوهم إيانا. لن يهاجم اللصوص منزلك وأنت موجود فيه يقظان إلا متى وثقوا من ضعفك وهوانك.

وإذن فالسبيل الوحيد لنجاة فلسطين وغيرها من البلدان العربية، ولنجاتنا من جميع الغزاة والدخلاء أن نتعلم كيف نوجد فينا هذه المناعة الذاتية التي يكون في إستطاعتها تدمير الغازين ومنافستهم منافسة تمنعهم من أن يتلمسوا لأقدامهم بيننا موضعاً. إننا إذا أصبحنا كذلك فسيمتنع الصهيونيون وغيرهم من الدخول علينا، في فلسطين وغيرها، حتى ولو عرضنا عليهم نحن ذلك عرضاً، وطلبناه منهم طلباً، ورجوناهم له رجاء! وسيقولون حينئذ حتى طلب منهم الدخول مثل ما قال أسلافهم وآباؤهم لنبيهم موسى – حينما قال لهم: "يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين...": – "...قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون – إلى قوله – قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فينا. فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون."...

أما ما لم توجد فينا هذه المناعة الذاتية فسنظل عرضة لضروب الغزوات وصنوف الغازين، ولن يمنعنا من ذلك صراخ ولا إحتجاج ولا إجتماع، ولا شيء مما نصنعه من هذا القبيل.

نؤمل اليوم أن تحمينا بريطانيا وأمريكا من هذا الغزو المحيط الماحق، مع أنهما هما الخصمان!! إننا نخدع أنفسنا كثيراً ونضللها حينما نظن أن في حولنا – لو تخلت هاتان الدولتان – أن نحمي أنفسنا بقوانا الخاصة من غزو

الصهيونية وأخطارها! فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلمية والصناعية والمالية والفكرية والدولية. أما نحن فنكاد نكون مجردين من كل ذلك.

هذه حقائق يجب – على الأقل – أن نستذكرها دائماً، ويجب ألا تغيب عنا طرفة عين. وبناء على هذه الحقائق يجب أن يكون من أعظم ما نفعل، وما نتقي به الأخطار الحاضرة والمقبلة أن نعمل على الإتصاف بالمناعة الذاتية الداخلية التي ذكرناها آنفاً، وإلا فلا نجاة ولا حياة.

يحسن أن نستطرد هنا ونتنبأ بما سوف تصنعه وتختاره بريطانيا في هذه القضية – قضية فلسطين والصهيونية: يخيل إليّ أن هذه الدولة لن تسمح بحال من الأحوال بفتح أبواب هذا البلد العربي إطلاقاً لليهود لأمرين إثنين: أحدهما خشيتها من اليهود في المستقبل.

أن الإنجليز يخشون دائماً القوي المتوثب، ويثبتون في سبيله العقبات، ويظلون يرقبونه ويتربصون به الدوائر ما بقي وبقوا. فإذا ما قام نزاع بين هذا القوي المتوثب وبين آخر ضعيف صاروا إلى جانب الضعيف، يؤ يدونه وينصرونه ويسندونه. وهم لا يتخلون عن هذه الخلة إلا إضطراراً أو لعلة – على أن يبقوا مراقبين لذلك القوي بحذر دائب! ولعل كل من كانوا في موقفهم ووضعهم يصنعون صنعهم. واليهود أقوياء متوثبون، ما في ذلك شك. فهل تسمح السياسة البريطانية التقليدية بأن يركزوا كل نشاطهم وقواهم المختلفة الهائلة في فلسطين؟

يبدو لكثيرين من الذين يلمون بدقائق سياسة هذه الدولة ودخائلها إن ذلك لن يكون.

أن الإنجليز يعلمون أنهم إذا فعلوا هذا ومكنوا الآلة اليهودية الضخمة من أن تبدع كل إبداعها وتركز جميع إنتاجها في هذه المملكة الصغيرة فستكون وبالاً جسيماً على الصناعة الإنجليزية في أسواق شرقية كثيرة، هذا أول، ثم وبالاً على السياسة والسيادة الإنجليزية ثانياً: فإن اليهود سينافسونهم منافسة قاصمة في الميدان الإقتصادي من كل وجوهه، بل وفي الميدان الثقافي الأدبي، ثم سينازعونهم في يوم من الأيام القريبة أو البعيدة السيادة والسلطان، وستكون هذه المنافسة وتلك المنازعة فنيتين قويتين بارعتين! فهل يجهل البريطانيون

شيئاً من هذا، أو هل يستطيعون رد هذا الخطر فلا يصنعون؟

نعم قد يقال إن الثروة الطبيعية قليلة تافهة في هذه البلاد بحيث لا يمكن أن توجد قوة صناعية إقتصادية، أو قوة حربية عسكرية تهدد بريطانيا العظمى ذات الثراء المخيف... ولكن هذا القول لن يستطيع أن يغير من هذه الحقيقة شيئاً. وذلك أن الجذور اليهودية ضاربة في كل أنحاء المعمورة، فهي تستمد غذاءها وقواها ووجودها من كل مكان، هذا من جهة، وجهة أخرى، تلك هي أن العلم والبراعة قد يستطيعان غلب العقبات كلها، وجهة ثالثة، هي أن العالم قائم أمره اليوم على التكتل والمحالفات وجمع القوى المفرقة لتصير قوة موحدة، وجهة رابعة، تلك هي أن أعظم أمة في العالم تمر بها أوقات تصبح فيها هدفاً لكل من يريد أن يرميها وأن يصيب منها مقتلاً.

أما الأمر الثاني فهو أن الإنجليزي بتربيته الأصيلة ينظر إلى المستقبل البعيد نظراً كله الحذر واليقظة والإنتباه. وإن تفكيره وحسابه لما قد يحدث بعد مائة عام أو مئات الأعوام لا يقل عن تفكيره وحسابه لما قد يحدث بعد يوم أو بضعة أيام... هذا وجه من وجوه عظمة هذا الشعب التاريخي الذي استطاع أن يستغل أكثر شعوب العالم، وأن يذلها ويسلبها كثيراً مما كان في أيديها بأهون الأسباب وأقربها، وأن يسخر أعظمها وأقواها في مصالحه وأغراضه الخاصة.

والإنجليز يعلمون أن العرب اليوم ضعفاء، لا يخشون بأسهم خشية تلزمهم بأن يدعوا بعض ما يريدون رهبة منهم، ونزولاً عند مشيئتهم. ولكنهم يعلمون من جهة أخرى أن الشعوب لا تبقى على حالة واحدة من القوة والضعف، والإرتفاع والهبوط، فيعلمون أن العرب قد يصبحون بعد عشرات الأعوام أو مئاتها قوة تخشى وترجى، ويحسب لها الحساب الكثير، ويقدرون أن هذا اليوم إذا جاء - ولا شك في أنه سيجيء - فسيذكرون من أساءوا إليهم ومن سلبوهم أحد أوطانهم العزيزة بالقوة والطغيان وقدموه هدية سخية لمستعمري أوروبا وأمريكا الصهيونيين، وسيأخذون بسنة الإنتقام وإسترداد الثأر. وقد ينسى كل شيء ولكن سلب وطن من الأوطان - سيظل ماثلاً قائماً أمام العين والوجدان - ليس من المستطاع نسيانه. وسيظل كل عربي حافظاً لهذا الثأر في أعماق نفسه، مرتقباً فرصة الإنقضاض والإنتقام الذي لا يعرف إعتدالاً ولا هوناً... إن الإنجليز يعلمون هذا كله، فهل من الممكن أن يتغافلوا عنه وأن يتناسوا حسابه؟

هذان أمران من الراجح المعقول أن يحولا بين السياسة البريطانية وبين إهداء فلسطين لليهودية العالمية - يضاف إليهما أمور أخرى مثل الخوف من أن يولي العرب - عند اليأس من الإنجليز - وجوههم صوب منافسيهم، ومثل الخشية بأن يكون نفوذ الصهيونية في فلسطين نفوذاً أمريكياً. وهذا ما لا يسيغه الإنجليز.

غير أنه من الممكن أن يقال إن الشعب البريطاني شعب واقعي، يؤمن بالحقائق ولا يستطيع تجاهلها أو الإغضاء عنها - هذه طبيعة فيه. وهو يرى أن من الحقائق الواقعة أن الشعب اليهودي قد صار قوة عالمية حقيقية، فهل يختار تحديها ومعاندتها وإغضابها جهاراً وعلناً؟ ألا يخشى أن تعبىء اليهودية العالمية قواها الهائلة كلها، وتنصب حبائلها أجمع للإيقاع بالإنجليز وتدمير سلطانهم المديد العتيد؟ أو ليس تماسك بريطانيا وعظمتها ونجاتها ونجاة إمبراطوريتها ممسوكاً بخيط دقيق طويل جداً - وهو عطف العالم - ولا سيما أمريكا - عليها حين محنتها وحين تطبق عليها الأرزاء وتأخذ الهزيمة بمخنقها، ووقوفه في صفها، سافكاً دم أبنائه، منفقاً لأمواله، معرضاً بلاده للأخطار والدمار... ولولا ذلك لهوت هذه الدولة في الحربين الماضيتين، ولأقام المنتصرون على أنقاضها ما يشاؤون من دول؟ أو ليس في إستطاعة اليهود أن يغيروا إتجاه أمريكا وغير أمريكا، وأن يصرفوا الرأي العالمي العام عن الإنجليز، وأن يتركوهم لأعدائهم الأقوياء الباطشين، يزيلونهم، وأن يكيدوا لهم كيداً قد يطيح بأعظم أمة ظفرت بأعظم مجد؟ فهل يغضي مثل هذا الشعب - وهو شيخ السياسة المعلم - عن كل هذه الحقائق؟ أو لا يمكن أن تجثو بريطانيا على ركبتيها من أجل هذا كله أمام مشيئة اليهود الغالبة؟؟ من الممكن أن يكون هذا كله أو جله صحيحاً عند النظرات الأولى، ولكن الإستقرار الطويل قد دل على أن الطبيعة الإنجليزية لا تسلم للقوة التي ترهبهم وتهددهم، وإنما ينشطون للعمل على إزالتها من الطريق، لأنهم يعرفون أنهم إذا سلموا لها لم يكن ذلك مزيلاً لخطرها، وإنما يضاعف له، وأنهم سيكونون بعد التسليم أضعف منهم قبله، وأن كل تسليم قد يعقبه تسليم آخر - وهكذا.

بيد أن هذه المسألة قد ينظر لها نظر آخر، فيقال: قد يرى الإنجليز أن من الصواب إحتضان اليهود وتقويتهم ليكونوا عوناً وردءاً لهم في المستقبل، وحلفاء

مخلصين أيام الشدائد. ومن المعروف أن البريطانيين - عادة - يصطنعون الحلفاء، ويوجدون الضعفاء ليكونوا من ورائهم - بل من أمامهم - يوم تدلهم الخطوب... ولكن يظهر أن هذا الأمل ضعيف، وأن هذه الأمنية بعيدة التحقيق، لأن اليهودي طموح حقود متوثب أناني شديد التعصب لعنصره وقوميته، لا يرعى الصداقة ولا الإحسان القديم حين القدرة، ولهذا أسباب تاريخية ونفسية معروفة.

ومن الممكن أن يقال أيضاً: لعل السياسة البريطانية البعيدة الغور ترى في إقامة دولة صهيونية في قلب البلاد العربية ضماناً لها ولسلطانها من أن يجرفها ويجرفه العرب حينما يصيرون قوة تضر وتنفع، لأن وجود اليهود بينهم يضعف دائماً من شأنهم، ويحد من سلطانهم. غير أن هذا لا يصح لأن العرب يوم يكونون أقوياء، ويوم يعرفون كيف يكونون كذلك سوف يطيحون باليهود، وسوف يعصفون بهم كما يعصف الإعصار المجتاح بما يقف في طريقه من الأشياء الصغيرة.

من أجل ما ذكر - ومن أجل غيره أيضاً - نرجح أن السياسة الإنجليزية ستختار الوقوف من الوطن اليهودي في فلسطين موقف المانع المعارض، على رغم ما يبدو من مناوراتها ومداوراتها. ولكن يجب على كل إنسان منا ألا يثق بالإنجليز ولا بغيرهم، وألا يرجو منهم خيراً، فما يصنعون إلا ما يظنونه مبقياً على إمبراطوريتهم، فما هم إلا حراسها، ويجب ألا نلومهم على ذلك. وهم لن يقدموا لنا خيراً لأنهم يحبوننا، أو لأنهم يحبون الخير للآخرين، أو يحبون الخير لذاته، فما هذا من طبيعة البشر! ويجب ألا نأسى وألا نغضب من هذه الطبيعة القاسية. والدنيا كلها مسوقة بهذا الناموس الصارم - ناموس تنازع المصالح. فلنوطن أنفسنا على تقبل هذه الحقيقة وعلى الرضا بها، وعلى الإنتفاع بنتائجها؛ ثم لنعلم أنه لا خير يمكن أن يصيبنا إلا ما تقدمه لنا أنفسنا وأيدينا وأعمالنا - تدفعنا أنانيتنا الخالصة الخاصة إليه!!

ومن لم ترضه هذه الطبيعة البشرية فليحاول أن يكون مخلوقاً آخر إن استطاع، أو ليحاول الخروج من هذا السيار، ليصعد إلى سيار آخر لعله يجد فيه طبائع أفضل من هذه؟

والذي نريد أن نقوله هنا هو أنه لا محاباة ولا نسب بين الله وبين أحد من

خلقه. وقد وضع نواميس وسنناً وقوانين تحكم هذا العالم على وفق حكمته العليا وعدله الشامل. فمن وفق لإستخدام هذه النواميس والسنن والقوانين، وسار معها بلا إصطدام ولا خروج فقد نال ما يبغي، ومن عائد هذه النواميس والقوانين وعارضها وحاول الخروج منها فقد هلك ولا محالة، ولن ينفعه أن يقول إنه مسلم أو أنه يصلي ويصوم ويكثر من ذكر الله بلسانه، كما أن هذه الأقوال والدعاوى لن تجدي من ذهب يتحدى سنة الله فترك الطعام والشراب والمحافظة على الصحة والحياة، زاعماً أنه مسلم مؤمن، وزاعماً أن المسلم المؤمن معصوم محفوظ منظور من قبل العناية الإلهية.

* * *

اخرج إلى السماء في ليلة صافية، ثم انظر إلى تلك المخلوقات المتلألئة التي تملأ الفضاء والتي تواجهك أينما اتجهت والتي تكاد تتشابك وتتصادم وتتهاوى ولكن شيئاً من ذلك لا يحدث، والتي تكاد تزخرف بساطاً من حبات اللؤلؤ ذات الإشعاع المتوهج المتوقد الدائم الحركة الضوئية؛ ثم استسلم إلى عقلك وعلمك وخيالك قائلاً: كم يمكن أن يكون قد مر بهذه المخلوقات الجميلة من الأحقاب وهي محافظة على نظامها وسيرها ومداراتها بلا إضطراب ولا اختلال ولا فوضى ولا تصادم؛ ثم سل ما الذي يمسكها هكذا كل هذه الدهور – تجب بأن الذي أمسكها ويمسكها هو النظام الإلهي المفروض عليها، ثم سل ثانياً قائلاً: أرأيت لو أن الجن والإنس والملائكة وكل الخلائق – أولين وآخرين – وقفوا في صعيد واحد ثم سألوا الله جاهدين أن يفسد هذا النظام أو أن يغيره أو أن يتخلى عنه، أكان من الممكن أن يجيب الله هؤلاء الداعين أو يقبل هذا الدعاء.

ثم فكر في هذه الشمس التي لم تزل منذ آلاف الدهور تبعث إلى هذه الأرض وإلى أهلها الحياة والضوء والحرارة والقوة، ثابتة على مواعيد مضبوطة في ذهابها وإيابها وفي فلك مضبوط وحركة مضبوطة ونظام مضبوط، لا تبالي بما يريده الناس منها ولا بما لا يريدونه، لا برضاهم ولا بغضبهم، لا حين يحترقون من حرارتها، ولا حين يجمدون من إحتجابها وغيابها، لا يوم يريدونها طالعة ولا يوم يريدونها غائبة، لا ترحم قوماً اشتدت عليهم حتى لفحت أجسامهم وسودت أبشارهم، ولا قوماً هانت عليهم أو هانوا هم عليها حتى قضوا حياتهم كلها مقرورين بين الثلوج وتحت عقاب الزمهرير... ثم سل ما الذي ألزمها هذه الحالة

الثابتة الرتيبة تجب بأنها سنة الخلاق العليم العظيم.

ثم ارجع بفكرك إلى هذا الكوكب الأرضي الذي نعيش عليه وانظر كيف حكم كل شيء فيه بقوانين صارمة لا يستطيع شيء أن يغلبها أو يبدلها أو يحولها، وإنما يستطيع أن يعلم شيئاً منها فيعمل على الإنتفاع والإستخدام خاضعاً هولها محتذياً مقتدياً... ثم صح من أعماق نفسك وصميم إعتقادك قائلاً: اللهم ضع في أعمالي وأفكاري وآرائي النظام الذي وضعته في سماواتك ونجومك وشموسك وأرضك وكل خلائقك المطبوعة - اللهم علمني الدقة والحكمة حين أفكر وأعمل، كما علمت ذرات جسمي وذرات أرضك وذرات شمسك حين تتجمع وتتفرق وحين تحيا وتموت.

* * *

من أروع الآيات القرآنية المنبئة عن هذا النظام قوله تعالى من سورة الحجر: "والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون." وكلمى موزون هنا تفوق كل ما يمكن أن يقوله العلم والفلسفة في هذا الموضوع. ثم قال من هذه السورة: "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم." وقال من سورة القمر: "إنا كل شيء خلقناه بقدر." وفي سورة الطلاق: "قد جعل الله لكل شيء قدراً." والقدر هو النظام كله، صيغ بأجمل وأبلغ وأقل لفظ، وقدم بأبهى وأروع صورة.

ويجب أن يعلم بأن الخلاف الذي قام بين الأنبياء والمصلحين وبين جميع أصناف المخالفين هو في أمر واحد تحته أمور كثيرة، هذا الأمر هو أن الأنبياء والمصلحين كافة إنما جاءوا بالنظام وبالدعوة إلى النظام؛ النظام في كل شيء: في الإتصال بالخالق والإتصال بالمخلوق والإتصال بكل شيء وإلى الإيمان بهذا النظام... فسنن الله وأوامره عامة شاملة، وعدله وقضاؤه وأحكامه عامة شاملة. فالناس كلهم بل الخلائق كلها في حكم هذه السنن والأوامر والأحكام والعدل والقضاء سواء، لا محاباة ولا وساطة ولا شفاعة تنفع لديها، ولا خرافات: فلا أموات ولا أشباح ولا أرواح تدعى أو ترجى أو تخشى أو تتحكم وتتصرف في الناس وفي الطبيعة، ولا أسرار ولا ألغاز ولا طلاسم، فلا بركة عند شيخ أو عند قبر أو عند أثر، ولا تمائم تعلق ولا بخور يحرق، ولا طيور لا سوانح ولا بوارح يتشاءم أو يتيامن بها ومنها، ولا جبر، بل كل مختار مريد، ولا احتجاج بالقضاء

والقدر، ولا مجازفة في الثواب أو في العقاب. بل الجزاء كله بالحساب وبالموازين والقسط ولا أمر بالتخلي عن الدنيا ولا بالفقر أو بالزهد ولا بسائر ما تدعو إليه الصوفية القاتلة، ولا إنتظار للخوارق والمعجزات التي تطلب من وراء الأسباب ومن وراء القوانين الطبيعية... أما أعداء الأنبياء والمصلحين فقد آمنوا بكل هذه الترهات وبسواها من الغوايات، فكان الخلاف بين الفريقين عظيماً.

وقد نص الكتاب على هذه المسألة نصاً قطع كل خلاف حيث قال من سورة فاطر: "فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً." نفى أن تبدل السنة فأمكن أن يقول قائل إنها وإن كانت لا تبدل - والتبديل هو التغيير - إلا أنها تحول عن طريقها - والتحويل هو الصرف عن القصد والجهة - فنفى هذه أيضاً؛ فهي لا تغير بل تجري على وتيرة واحدة أزلاً وأبداً، ولا تصرف عن سبيلها بل تمضي فيها غير مبالية بمن هلك ولا بمن نجا. وهذا هو العدل المطلق الذي لا يقدر على تحقيقه إلا من أوتي الكمال المطلق في جميع صفاته. أما من لم يكملوا هذا الكمال فإنهم يبلغون من هذا العدل بمقدار ما بلغوا من هذا الكمال. ومن هنا جاء التفاوت والإختلاف بين الناس في قوانينهم وفي تنفيذها وفي قضائهم وفي التسوية فيه وفي عدلهم ثم في المحافظة عليه. ولا شك أن التسوية والعدل في القوانين وفي التنفيذ وفي القضاء فضيلة يتصف بها المتصفون فيمدحون على كل لسان، ويحبون في كل مكان وزمان، وأن التفريق في ذلك والمحاباة فيه رذيلة يمقتها الناس قاطبة.

وأعدل الناس هو الذي ينظر في أحكامه من ناحية مكانها من العدل فقط، فيطبقها كذلك ويمضيها، ولا ينظر إلى من تمضي عليهم حين إمضائها وتطبيقها - أي ينظر إلى القضية من حيث كونها عدلاً وكونها جوراً، ولا ينظر إلى من يتناوله هذا الحكم أكان فلاناً أم فلاناً، أكان من أهل هذا الدين أم من أهل ذاك. ومن نظر هذا النظر كان ظالماً. والله أولى من ينزه عن شوائب الجور ومظاهره، فكيف بصرائحه وقبائحه.

ومن المواقف العلمية الخالدة في بيان سنن الله وبيان أنها ثابتة لا تتغير من أجل الأرض وأهلها، موقف النبي عليه السلام يوم أن كسفت الشمس في اليوم الذي مات فيه ابنه إبراهيم فقال الناس إنما كسفت الشمس لموت إبراهيم فقام فيهم خطيباً وقال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد

ولا لحياته.) وهذا رد صريح قوي للقول بأن حوادث هذا الوجود معللة بما يصيب أهل الأرض من خير وشر وبما يحدث لهم وبما يحدثون هم... بل هذه الموجودات لازمة سننها بلا تغيير أو تبديل وإن تغير الناس وتبدلوا وإن صلحوا أو فسدوا وإن عاشوا أو ماتوا.

وقد أذكرني هذا الموقف النبوي الخالد بصديق تقي يحمل شهادة عالية سمعته يزعم أن البراكين والزلازل التي تحدث في بعض البلاد إنما تحدث من فساد الناس وفسقهم - قال هذا بمناسبة زلزال شديد أصاب بعض البلاد الإسلامية. فقلت له: هذا يشبه الزعم أن جدب بعض البلاد وشدة الحر والبرد في جهات أخرى وغير ذلك من الفيضانات والصواعق والأمطار الضارة معللة هذا التعليل ومقصود بها هذا الغرض.

ومن اللفتات اللطيفة الصريحة إلى هذه النواميس قصة تلقيح النخل؛ وذلك أن الرسول لما قدم المدينة ورأى الناس يلقحون النخل قال: (ما أظن ذلك يغني شيئاً) فتركوا التلقيح ففسد التمر فأخبر فأمرهم بالرجوع إلى ما كانوا يفعلون. ولو كان من الممكن الخروج عن السنن لخرج النخل عنها ولو هذه المرة ليكون ظن الرسول صدقاً ولئلا يوجه إليه الخطأ في مسألة كهذه.

أما الآيات التي فيها أن الله يرزق من يشاء بغير حساب وما في معناها فليس المراد أنه تعالى يعطي جزافاً وبلا إستحقاق ولا عدل ولا تسوية. فإن الله قد أثبت الحساب في جملة الكتاب مثل قوله "جزاء من ربك عطاء حساباً." والآيات في هذا لا تحصى وإنما المراد أن الله يعطي بدون أن يحاسبه محاسب أعلى منه وهو في معنى قوله "لا يسأل عما يفعل وهم يسألون -" أو أن المرء قد يعمل عملاً له نتيجة هي من وراء حسابه، فإذا أصاب هذه النتيجة التي هي نتيجة عمله كانت بالنسبة لتفكيره بغير حساب ولكنها بالنسبة إلى جزاء الله وإلى موازينه وقوانينه محكومة بأدق حساب - أو غير ذلك من المعاني الصحيحة التي لا تنافي قضية النظام والعدل ورفع الفوضى والتخبط في العطاء والمنع. ومما يصح أن تفسر به هذه الكلمة أن نتائج كثيرة لأعمال أناس آخرين قد تنفع المرء من غير أن يحتسبها أو يعلمها أو تخطر على باله، كأن يرث إنساناً. ولكن لا ريب أن ما يقع من ذلك لا يعدو أن يكون نتيجة طبيعية أو عادية لأعمال معينة - أو تفسر بما يصنعه الله على مقتضى سننه الثابتة العامة التي لا تفرق بين أناس وأناس.

ولن يتصور حساب أدق ولا أعدل من قوله تعالى "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره."

والفوضى في الجزاء والمكافأة أعظم مخذل لقوى الإنسان وأعظم واقف في سبيله... إننا نلاحظ عجزاً عاماً في قوى الطوائف كلها عندنا وفي أخلاقها، ونجد كلالاً أيضاً قد هبط بكل إنسان عن مستوى من هو مثله من الأمم؛ فزعماؤنا وقوادنا وعلماؤنا وطلبتنا وموظفونا وكل صاحب عمل، عاجزون عن بلوغ الكمال النسبي الذي بلغه أمثالهم من الشعوب الأخرى. وقد نعجب إذا رأينا العالم لدينا يتخرج من المعهد الذي درس فيه ثم يقف عند الحد الأدنى الذي انتهى إليه حينما كان طالباً، يدأب في سبيل نيل الشهادة لا يتجاوزه في دراسة ولا تفكير، بل ثم يأخذ في النقصان والنسيان حتى يصير إنساناً عادياً لا يمتاز عن العاديين إلا بالشهادة التي يحملها إن كان يصح أن يسمي هذا إمتيازاً - وكذلك سائر رجال الأمة.

وليس سبب هذا أن الناس عندنا لا يريدون الخير لأنفسهم، بل لهذا أسباب أخرى من أعظمها أنهم يرون ويعلمون أن الجزاء والمكافأة ليست على قدر الكفاية، بل الكفاية في الغالب لا شأن لها في هذا، وإنما الأمر كله يرجع إلى الوساطات والشفاعات والقرابات وإلى أمور أخرى هي أقل من ذلك... فمن رزق الشفيع القوي المرهوب أو المحبوب فذلك هو المجازى بأعلى المناصب وأقواها وأضخمها وأوفرها رزقاً، وإن كان من ناحيته العلمية والذاتية والخلقية لا يستحق إلا الحرمان والطرد، ومن حرم ذلك الشفيع فهو المنسي المجهول القصي ولم ينفعه علم ولا خلق ولا كفاية ولا عبقرية، بل قد تكون هذه المعاني من أسباب حرمانه وتأخيره وإقصائه لأن النقص يرهب الكمال... ففيم الجهاد والدأب إذن؟ وفيم إتعاب النفس وإرهاقها بدون ثمن؟ فالزعيم والسياسي والقائد والعالم والطالب والموظف وكل أحد عندنا أنهم لا ينالون من الجاه والسلطان والثراء المحبوب بقدر ما قدموا من نفع وخير ونبوغ وعمل مفيد، بل يعرفون أن ما ينالونه من ذلك إنما هو مقدور بأشياء أخرى، فيتوجهون بكل عنايتهم وتفكيرهم إليها. وكل إنسان إنما يسير في السبيل التي يظن أنها توصله إلى غايته.

أما الأمم الأخرى فإنهم يعلمون ويرون - لأن مجتمعهم قد أصبح صالحاً -

أن الإنسان لا يرتفع ولا يبلغ من آماله إلا بقدر أعماله: فقيمته الذاتية هي التي بها يعلو ويهبط، فلا يستطيع إلا أن يعمل، لأنه لا يستطيع إلا أن يحب نفسه ويحب لها الخير. والذين يعتقدون أن الجزاء من الله في الدنيا وفي الآخرة ليس مرتباً على العمل وليست النتيجة مرتبطة بالوسيلة إرتباطاً صحيحاً لا محالة من أن يصيروا هذا المصير الشنيع في عملهم وتفكيرهم وإتجاههم. فالذين يعتقدون أن الأفراد والجماعات لا يبلغون من العز والسيادة والقوة ومن الجاه والمال والمنزلة في القلوب ومن الشهرة والسمعة ومن العلم والصحة والسرور والسعادة بقدر ما بذلوا من إجتهاد وإخلاص ومثابرة وذكاء وحسن تصريف لن يقبلوا على الحياة وعلى العمل إقبالاً صحيحاً ولن يأتوا بعمل جسيم عظيم. فالذين يرون أن القضاء والقدر، أو أن الحظ، أو أن الشفاعة والوساطة، أو أن الإرادة المطلقة، أو أن رضا الله وغضبه وحبه وبغضه: أن شيئاً من هذا القبيل يدخل بين المرء وعمله وبين السبب ومسببه وبين الوسيلة والنتيجة - أي يرون أن هذه الأشياء تدخل في مصير الإنسان وتحول بينه وبين النتيجة التي يجب أن يوصله إليها عمله - هم قوم لن يجدوا في أنفسهم ما يعينهم على الإندفاع إلى الأعمال الصالحة، وعلى الإنطلاق في سبيل الحياة القوية... فالمجتمع الذي يرتجي له التبريز في ميدان الأعمال هو الذي يؤمن بالعدالة المطلقة، في السماء وفي الأرض، وبالجزاء القائم على القوانين العادلة العامة التي لا تعترف بالتفريق ولا بالوساطات ولا بالشفاعات ولا بالإنتقام للحقد، ولا بالإغداق للحب.

مما نشكو منه شكوى عامة مرة أننا نعامل من يسمون أجانب فتسرنا معاملتهم إذ يصدقون القول ويحافظون على الوعد ويحسنون اللقاء ويخلصون لما يوكل إليهم ولما يؤدون من عمل... ثم نعامل من يدعون مسلمين فنساء من معاملتهم، إذ نجدهم على مخالفة لهذه الأخلاق كلها، فما وجه هذا الإختلاف؟ وجهه أن الأجانب يؤمنون بالسنن العامة العادلة وبالسبب والمسبب إيماناً صحيحاً: فيؤمنون بأن هذي المعاملة تصير بهم إلى النجاح لا محالة، وأن الخروج عنها يؤول بهم إلى الفشل المحقق لإرتباط المسببات بأسبابها إرتباطاً طبيعياً... أما المسلمون فلا يؤمنون بهذا الإرتباط، بل يرون أن طريق الفوز والهزيمة هو الفوضى. فقد يكون المرء شر الناس في معاملته وعمله ثم يسير النجاح في ركابه حيث سار، كما قد يكون أحسن خلق الله في ذلك ثم يطبق عليه

الفشل، إذ عندهم أن أسباب السقوط والنهوض ليست من عمل الإنسان ولا في معاملته، وإنما ترجع إلى أشياء عليا لا حيلة فيها كالقضاء والقدر والإرادة والحظ والقسمة... فلا يرون حينئذ ما يلزمهم بأن يروضوا أخلاقهم ونفوسهم على ما يوجب عليهم التضحية بميولهم ومصالحهم الصغيرة العاجلة التافهة، فيسيرون طوع تلك الطباع البدائية المتوحشة التي تهيمن على أنفسهم... والسبيل للإصلاح هو الإيمان بالأسباب والمسببات وبالسنن العادلة الشاملة، وبأن للأخلاق قوانين صارمة كقوانين المادة.

فالحامل للفريقين على هذي الأخلاق المتباينة هو حب الذات، لكن هؤلاء رأوا أن الطريق لخدمة الذات هو الأخلاق الفضلى، والآخرون لم يروا هذا الرأي. فالإختلاف في هذا يرجع إلى الإختلاف في الرأي والفهم. فالغاية متحدة والوسيلة مختلفة!

ونثبت هنا شيئاً يعده الناس مخزاة خلقية ونعده نحن مخزاة اعتقادية فكرية، لأن إثباته هنا مما يتصل بموضوع هذا الكتاب، ولأن شرحه مما يكشف الغرض الذي نرمي إليه.

ذلك أننا تقدمنا أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩٤٥ تقريباً إلى وزارة التموين نطلب إليها أن تبيع لنا ورقاً لطبع هذا الكتاب. وقد ابتدأ هذا الطلب خط سيره هكذا: مر بالسكرتير العام ثم بالوزير ثم بالوكيل ثم ولج غرفة كل موظف له أدنى إختصاص بهذه المسألة – مسألة الورق – ثم بعد أن انتهى إلى آخر مطاف يمكن أن ينتهي إليه كر راجعاً إلى حيث ابتدأ أولاً، متخذاً الطريق نفسه، نازلاً من أعلى إلى أسفل أو صاعداً من أسفل إلى أعلى، سالكاً خطاً وهمياً دائرياً... وقد ضل في هذا الخط وعجز عن أن يجد له نهاية ينتهي عندها أو بداية يصدر عنها... ولقد أعيانا أن نجد لهذه المسألة حلاً بعد أن جربنا كل وسيلة وحيلة ورقيناها بكل رقية، وأعيا رجال وزارة التموين أن يتبينوا وجه الحق فيها فيتبعوه – إما رفضاً وإما إجابة.[1] وقد شبهت الوزارة ورجالها – وهم يدورون ويتحركون في المسألة – بآلة طباعة تدور وتتحرك كما تدور وتتحرك سائر المطابع، ولكنها بدل أن تخرج لنا ورقاً مطبوعاً عليه كلام مفهوم له فائدة ومعنى تخرج ورقاً مخرقاً

---

(١) ويشرح الغرض الذي نرمي إليه أن نقول: إن هذه المسألة التي عيّ حلها على معالي طه السباعي باشا المسلم، قد استطاع ان يحلها حلاً جزئياً معالي سابا حبشي باشا المسيحي حين آلت إليه الوزارة.

ممزقاً، أو مطموساً بالسواد الذي لا يستبان له وجه ولا غرض.

ووجه الشبه أن كلاً من الوزارة وهذه الآلة للطباعة تتحرك ولكنها لا تفعل شيئاً مفيداً، ثم لا تنتهي عند هذا، بل تذهب تضيع الجهود والوقود والأوقات والأوراق والأشياء الأخرى. والشيء الذي يهمنا في هذا الحادث أو هذي المأساة هو أن نتلمس الأسباب والدوافع الحقيقية التي قضت على القوم بأن يصيروا في أمورهم على هذا النحو من الإنحلال والفوضى... وقبل ذكر هذي الأسباب نذكر أن القوم لو كانوا يسيرون على أمر مفهوم معقول لكان أمرهم من هذه المسألة إبتداء أحد الأمرين: إما أن يكون لطلبنا هذا وجه مشروع فينجزوه بلا تأخير، وإما ألا يكون له وجه، فيعرفون ذلك ويعرفوننا إياه، فيريحوننا ويريحون أنفسهم... أجل قد يظن القارىء أن العقدة في المسألة أن الورق كان غير موجود لدى الوزارة، ولكن الموظفين كلهم أفهمونا أنه موجود وأن في الإحتياطي ما يكفي إذ ما نطلبه قليل جداً... وإذن فما هي الأسباب الحقيقية التي ألزمت القوم بأن يكونوا هذي النماذج البشرية المخجلة؟ الناس – عادة – يكتفون في مثل هذا أن يقولوا: إنه الإنحلال الخلقي. ويحسبون أنهم بهذا قد أصابوا لباب الموضوع. ولا ريب أن مثل هذا الجواب لا يشفي ولا يكفي من لا يغنيهم الإلمام بظواهر الأشياء.

ومن المعلوم أن الذي يدفع الإنسان إلى العمل وإلى الترك في هذه الحياة هو حب ذاته وحرصه على مصلحتها الخاصة الخالصة. ومن غير الممكن أن يكون الإنسان عدواً لنفسه، مريداً ضررها بالمعنى المفهوم المتبادر. بل إن أشد الناس إجراماً وفساداً وإضراراً بنفسه وإساءة لها – حتى المنتحر نفسه – إنما يدفعه إلى ذلك حب ذاته، كما أن أشد الناس ورعاً وصلاحاً وفضيلة إنما يدفعه ذلك الدافع ذاته. فالدافع في الحالات كلها هو شيء واحد، حتى إن أشد الناس أثرة هو مثل أشدهم إيثاراً من حيث إن كلاً منهما إنما يفعل ما يفعل من أجل حبه ذاته ونفسه. فحب النفس ومصلحتها هو الأمر الذي تقوم عليه جميع الأفعال والحركات.

وإذن فرجال وزارة التموين حينما فعلوا بمسألتنا هذي الأفاعيل وآذونا كل هذا الأذى ليس معنى هذا أنهم لا يحبون أنفسهم ولا يحبون أن يقال: إنهم قوم منتجون مريحون فضلاء عاملون صادقون – أو لا يحبون لأنفسهم ما قد يترتب

على هذا من المثوبة العاجلة الدنيوية – وليس معناه أيضاً أنهم لا يبالون أن يتهموا وأن يذموا وأن يقال إنهم مقصرون خاملون كاذبون مراوغون مضيعون على الناس مصالحهم وأوقاتهم، متقاضون من الدولة أجوراً بدون أن يصنعوا شيئاً... بل إنهم في هذه المشاعر وهذي المعاني لا يقلون عن أولئك الآخرين المدعوين بالأجانب، الذين يؤدون أعمالهم على أحسن الوجوه وأسرعها وأكملها وأفضلها... فالعقدة ليست هنا، والفرق بين هؤلاء وهؤلاء ليس في هذا. ولكن العقدة أو الفرق العظيم بين الفريقين هو أن قومنا – ومنهم وزارة التموين – بما فيها من رجال وأعمال – لا يؤمنون بأن بين الحوادث تلازماً طبيعياً، وأن بين الوسيلة والنتيجة إرتباطاً حقيقياً، وأن بين الأسباب والمسببات تماسكاً أزلياً أبدياً... فلا يؤمنون بأن عمل السوء سيؤدي لا محالة إلى نتيجة ضارة، وأن عمل الخير سوف يؤدي بلا ريب إلى نتيجة سارة، وأن المراوغة في مثل هذي المسألة والمطاولة والكذب وسلوك غير الطريق سيهبط بهم في النهاية على الفضيحة والخزي والعار والسمعة القاصمة، وأن ذلك كله سيؤدي بهم – بدوره – إلى الخيبة وإلى العقاب الإجتماعي الصارم – وهو حرمانهم من التقدم والنجاح والفوز بالآمال. إنهم لا يؤمنون بهذه النتائج لهذي الأعمال، ولو أنهم آمنوا بذلك لكان فيه أعظم زاجر لهم وأقوى مصلح مؤدب، لأنهم ليسوا فقراء من حب النفس والذات، ولكن فقرهم هو فقر المعرفة بما يجلب الخير وبما يجلب الشر. ولكن لماذا لا يؤمنون هذا الإيمان؟ إنهم لا يؤمنون كذلك لأنهم يؤمنون بأن المشيئة المطلقة العليا أو الأحداث الكونية الغالبة هي المهيمنة على كل شيء، على الوسائل والنتائج وعلى الأسباب والمسببات هيمنة عمياء باطشة، فهي لا تسير سيراً حراً طبيعياً في طريقها ولا تدع تلازمها وتماسكها أمراً مضموناً محققاً. ويرون أن الإيمان بذلك هو من الإيمان بكمال الله وبحرية تصرفه. وقديحتجون لهذا بأمثال قوله تعالى "كل يوم هو في شأن." وكم من قولة حق أريد بها أشنع ضروب الباطل.

وإذن فقد تكون الوسيلة جميلة وشريفة جداً ثم تكون النتيجة عكس ذلك، كما قد تكون الوسيلة قبيحة وآثمة وغير شريفة ثم تجيء نتيجتها باهرة رائعة – وهكذا القول في الأسباب والمسببات وفي كل شيء. وهكذا علموا، وهكذا آمنوا، وهكذا فسدت أعمالهم وأخلاقهم، وهكذا صنعت لنا وزارة التموين... أما أولئك الذين يحسنون القيام بأعمالهم ويهبونها كل إخلاصهم وإهتمامهم وصدقهم

ووجودهم، فقد آمنوا بهذا الذي كفر به هؤلاء؛ آمنوا بأن هنالك إرتباطاً وثيقاً بين العمل ونتيجته وبين البداية والنهاية، فأحسنوا في العمل لأنهم يريدون حسن النتيجة، وأحسنوا في البداية لأنهم ينتظرون النهاية ولا فارق بين هؤلاء وهؤلاء إلا هذا؛ لا فارق بين هؤلاء الأجانب الذين نعاملهم فتروعنا معاملتهم بنظامها وصدقها ودقتها، فنصبح أسرى معاملتهم وأسرى متاجرهم وبنوكهم وشركاتهم - وبين هؤلاء المواطنين أو المسلمين - وعلى رأسهم موظفو وزارة التموين - الذين نلقى من معاملتهم كلما عاملناهم مثل هذا الذي لقينا من هؤلاء الموظفين حينما تقدمنا إليهم بهذا الطلب المشروع لنصدر هذا الكتاب الذي يعالج هذه القضية العامة الكبرى - والذين لا نزال نلقى من معاملتهم كل ضر وشر وكذل ومراوغة وغش فنولي منهم مذعورين، نتمنى لو أن الله منحنا سلطانه وجبروته القاهر ساعة من الزمان لننتقم منهم أو نصلحهم إذا كان في الإمكان إصلاحهم.

لماذا نعامل بعض التجار فيحاول - لو استطاع - أن يبيع لنا شر السلع بأغلى الأثمان كأنه لا ينتظر معاملة أخرى غير هذي، وإنما هي صفقة الدهر أو سرقة الدهر، ثم نعامل تجاراً آخرين فنلفيهم يسيرون في تجارتهم ومعاملتهم على لون واحد صادق حتى لو أنهم استطاعوا أن يبيعوا لك السلعة الرديئة بثمن السلعة الجيدة ورضيت بذلك لما رضوا هم به، كأنهم إنما يريدون أن يكسبوا قلبك لا أن يكسبوا هذي الصفقة الواحدة مهما تعاظم مكسبها؟ لماذا نجد هذا الإختلاف وما سببه؟ إن هذا الإختلاف وسببه يرجع إلى أن الأولين الذين هم لصوص التجار لا يؤمنون بالإرتباط الذي ذكرنا، ولا يؤمنون بأن المستقبل - في النجاح والسقوط، والإرتفاع والهبوط - ما هو إلا وليد الحاضر وزرعه وغرسه وغايته، لا تخلف ولا إضطراب، لأن المستقبل - على رأيهم - بيد الله يصرفه ويضعه ويصوغه كما يشاء لا كما يجب ويحسن، لأنهم لا يعرفون لله حكمة ولا عدلاً وإنما يعرفون له مشيئة وقهراً!! وإذن فالواجب عليهم أن ينتهزوا الفرص العاجلة وأن يعتقدوا أن ما أمكن أخذه فمن الجنون تركه! !وحينئذ فما الذي يضطرهم إلى أن يفيتوا على أنفسهم المكاسب الناجزة، وما الذي يضطرهم إلى أن يروضوا أخلاقهم وأعمالهم على الكمال والصدق والإخلاص - مخالفين بذلك غرائزهم البدائية الهمجية!!

أما أولئك الآخرون فقد آمنوا بهذا الإرتباط أوثق إيمان، فأمعنوا في سبيل النجاح وأصبحوا الأمثال المضروبة للأقوام الناجحين.

إننا نرى الأطفال وأشباههم من حواشي الناس وأوضارهم ونفاياتهم يلقون بالكذب وبكل سوء وقبيح أينما حلوا، لا يحسبون لشيء من ذلك حساباً ولا يرون أن شيئاً منه منكر مذموم... ثم نرى الحكماء وذوي الشأن والخطر يتقون كل هذا ما استطاعوا له إتقاء وإن فعلوا شيئاً منه فعلى حذر شديد وبمقدار؟ فلماذا هذا؟

إن الأطفال وحواشي الناس وأمثالهم - ممن لا يعرفون التبعات وممن لا يحملونها - إنما يقدمون على هذي القبائح بهذه الجرأة التي لا تعترف بالمبالاة لأنهم يجهلون أن لما يقولون ويفعلون عواقب لا بد أن تصيبهم وأن تصيب سمعتهم ومكانتهم، وأن ترميهم في النهاية بالفشل الإجتماعي وبكل الآفات الإجتماعية التي يرهبها الإنسان بطبعه... ولو أنهم علموا ذلك علماً صحيحاً وآمنوا به لكان فيه ما يحول بينهم وبين هذه الشناعات. ولهذا فإن الأطفال، كلما تقدمت بهم السن وعرفوا من سنن الإجتماع وقوانين الحياة، يمسكون - على قدر ذلك - بأعنة غرائزهم ويحكمون القبض على لجم شهواتهم وميولهم الطفلية الأولية، لأنهم ينتبهون إلى عواقب هذه الأمور ويدرون منها ما كانوا يجهلون... فالعلم بالعاقبة هو أعظم ضمان للأخلاق وأقوى حارس لها.

أما الحكماء وأضرابهم فإنهم يحذرون الكذب وكل ما يسوء لأنهم يعرفون من سنن الإجتماع ونواميس الوجود وطبائع النفس البشرية، ومن تلازم الحوادث وإرتباط المسببات بالأسباب ما لا يعرفه الآخرون، فيتقون كل ما قد يودي بسمعتهم ومكانتهم، وكل ما قد يصيبهم بما يكرهون.

وإذن فلن تتخلى وزارة التموين عن خلائقها هذه وعن أمثال هذه المعاملة التي أضاعت علينا الوقت الكثير والجهد الكثير - وعليها أيضاً - وجعلتنا نندب الإنسانية ونشعر بالعار والإشمئزاز كلما رأينا واحداً من رجالها أو كلما دخلناها أو كلما رأينا من يشبهونهم. أجل، لن تتخلى هذي الوزارة عن شيء من هذا، ولن تشعر أنه من الواجب أو من الحسن لها التخلي عنه إلا إذا استطاعت أن ترتفع عن تراب غرائز الطفولة وحواشي الناس وهملهم، هؤلاء الذين لا يعرفون عاقبة ولا يرهبون نتيجة، بل ولا يفكرون فيهما - إلى سماء الرجولة

الكاملة الناضجة وإلى علياء العقل المفكر الذي يؤمن بالعواقب والنتائج وبالتماسك الوثيق بين أحداث الوجود ودنيا الأحداث. ووظيفتنا نحن في هذا الكتاب أن نعرفهم ذلك وأن نقدم لهم هم وسواهم مادة الإيمان به.

وليعلم أننا لا نريد هنا أن نطعن في أحد معين، وإنما أردنا علاج مرض عام وتعليل ظاهرة إجتماعية عامة مخيفة. فلا يجب أن يغضب مما ذكرنا أحد. وما شكوناه من هذه الطائفة تشاركها فيه جميع طوائف الأمة.

كيف فهما وكيف يجب أن يفهما
وكيف قررا مصاير الشعوب

والسعي للرزق والأرزاق قد قسمت
بغى ألا إن بغى المرء يصرعه
«ابن زريق»

جرى قلم القضاء بما يكون
فسيان التحرك والسكون
«أحدهم»

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني
سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
«منسوب لكعب بن زهير»

* * *

هكذا فهموا القضاء والقدر، وهكذا اعتقدوا في انفسهم أنهم لا يعدون أن يكونوا مخلوقات جامدة لا تتحرك وإنما تحرك، ولا تتصرف وإننما يتصرف فيها، ولا تفعل وإنما تنفعل، وليست لها قوة ولكن قوة غيرها تظهر فيها، وليس عليها أن تحاول العمل ولكن عليها أن تنتظر حتى تكون محلاً وظرفاً لأعمال الآخرين... وهكذا فقدوا كل ثقة بأنفسهم وكل أمل بأن يكون لهم حول أو سطوة ذاتية. فانهاروا كما ينهار كل بناء فقد أساسه.

ليس من الممكن أن يقدم الإنسان على العمل إقداماً يمكنه من الأخذ بناصيته ومن قهره لإرادته حتى يعلم علماً ليس بالظن أنه قادر عليه كفوله، وأن له قوة تتركز في ذاته يفعل بها متى شاء ويترك إذا شاء – وحتى يعلم علماً ليس بالظن أيضاً أنه ليس هنالك قوة خفية مسلطة على منعه، مكلفة بأن تضع العقبات في طريقه، متحكمة فيه تحكم القوي الجاهل في الضعيف العاجز، دائبة على معاندته ومعارضته كلما حاول أن يقدم، وكلما هم أن يحجم، منتظرة أحياناً حتى يحرث ويزرع فإذا ما أوشك أن يجني ويحصد عصفت بما حرث وزرع وبما كاد يظفر وتركته محسوراً مثبوراً... وليس من المستطاع الجمع بين إعتقاد المرء في نفسه

أنه عاجز عجزاً ذاتياً لازماً عن العمل وعن إتمام ما يبدأ به من الأعمال، وبين نجاحه في الحياة وإتيانه بأعمال تعد باهرة... وإن الحيوان الأعجم نفسه ليأبى أن يقتحم ما يرى أنه عاجز عن إقتحامه، ولكنه يقتحم بيسر وسهولة ما اعتقد أنه قادر عليه. فإذا ما أردته على أن يجتاز نهراً واسعاً امتنع وحرن مهما عالجته وضربته وكذا إذا حملته على أن يقفز فوق حاجز شديد العلو، ولكنه يجتاز ويقفز المجاري الصغيرة والحواجز المنخفضة بلا معالجة ولا معاناة.

وأصول التربية الحديثة الموضوعة بإرشاد علم النفس والإستقراء التام الطويل قائمة اليوم على تعظيم شأن الإيحاء الذاتي وعلى العمل به - أي على إفهام كل إنسان بأنه قوي قادر على ما يراد منه أن يعمله، وعلى أنه يستطيع أن يأتي من الأعمال بالمعجزات والخوارق، بل على أنه لا معجزات أمام قوته الذاتية وإرادته الإنسانية، وعلى أن معين قدرته لا يمكن أن ينضب، وعلى أن سلطان هذه القدرة لا حدود له، وعلى أن ما يمكن أن يبدعه من الأعمال - إذا أحسن إستخدام مواهبه وأحسن شحذها - لا يقف عند غاية ولا يعجز عن بلوغ نهاية؛ وعلى إفهامه أنه خلق معداً مهيأ لأن يتغلب على كل شيء وأن يصارع كل ما يقف في طريقه وأن يسمو حتى يلاحق الخيال، لا بل حتى يسبق الخيال؛ وعلى إفهامه الإستقلال في العمل وعلى أنه واجب عليه أن يصنع كل ما هو محتاج إليه وحده دون عون ودون رعاية، وأن قدرته صالحة لذلك جديرة به أهل له... وهذا ما يسمونه التربية الإستقلالية. وهذه التربية هي أعظم تربية. والأمة التي تصل إليها وتقدر عليها تضحى أقوى وأعظم أمة.

وقد ثبت أن الشعب الذي يمكن إقناعه وإيمانه - بأسلوب صحيح - بمقدرته وكفايته، لأن يعمل ويبدع ويبتكر ويسود، وأنه يستطيع أن يجد في مواهبه الخاصة وقواه النفسية ما يرد به على كل عدوان وما يكبح به جماح كل متطاول - لقد ثبت أن مثل هذا الشعب من العسير أن يهون وأن يذل وأن يجيء متأخراً في حلبة السباق العالمي أو أن يعجز عن صعود قمة الأهداف الإنسانية العليا، أو يقف دون أمل من آماله الكبرى يرنو إليها بعينيه ويقصر عنها بأعماله وآماله - كما ثبت أن الشعب الذي يمكن إقناعه وإيمانه بعكس ذلك - أي بعجزه وضعفه وهوانه وأنه ليس أهلاً لشيء ولا جديراً بشيء وأنه مجرد من كل القوى التي يمكن إستخدامها في إدراك ما يراد إدراكه، وأنه أينما يوجه لا يأت بخير

من قبل ذاته ومن إستعداد نفسه، وأنه من غير الممكن أن يكون قادراً على شيء من هذه الآمال والحاجات البشرية الضرورية – نعم ثبت أن الشعب الذي يصل في سبيل كفره بنفسه إلى هذه المكانة لا يمكن أن ينتظر له حياة صحيحة، ولا وجود صحيح، ولا وثبة ينتصر بها حق أو ينقمع بها باطل، بل لا ينتظر منه إلا الإستسلام لكل ما يفاجأ به الزمان، ولكل ما تأتيه به الحياة من ألوان الهوان، وأن يكون حملاً على الإنسانية في مراحلها كلها لا تنتفع به ولا هو ينتفع بنفسه.

وهذا كما ثبت صدقه وصدق حكمه في الشعوب ثبت أيضاً صدقه في الأفراد، فالفرد الذي يؤمن بقدرته وقوته وكفايته ليس كالفرد الذي يكفر بذلك، فالأول يكون مقداماً مغواراً ناجحاً في كل ما يتعاطاه، والثاني يأتي عاجزاً رعديداً صغيراً في كل محاولاته إن كانت له محاولات.

ونحن في هذه الحرب نشاهد ساسة المتحاربين يتبارون في تقوية هذا الإتجاه أشد مباراة، ويعمل كل منهم بكل وسائله وأساليبه على إقناع شعبه بقدرته وكفايته وشخصيته التي لا تغلب، وإقناعه على أنه بهذه القدرة والكفاية سينتصر على كل ما يقف في طريقه، ويحطم كل العقبات والمشكلات والأزمات. وقد عد رئيس الحكومة البريطانية في هذه الحرب من أقدر الرجال وأعاظمهم لبراعته العجيبة وقوته السحرية على إقناع نفسه وإقناع الشعوب البريطانية، بل إقناع كل الشعوب المتحالفة بالقدرة على النصر وعلى هزيمة الأعداء...

وقد استطاع هذا الرجل العجيب الجبار بهذا الإيمان وبهذا الإيحاء أن يغير إتجاه الحرب هذا التغيير الذي كان يعسر جداً أن يوجد من ينتظره. وقد كنا نحن معشر الشرقيين ننظر إليه وإلى خطبه وكلامه في سني الحرب الأولى نظرات الإستهزاء أو السخرية أو التعجب أو الإستفهام، لأننا نجهل سر هذه القوة وسر الإيمان بهذا الإيحاء وسر الثقة المطلقة بالنفس... وقد استطاع الإنجليز بذلك أن يفلتوا من الدمار الذي كان محققاً في نظر الناس، ثم استطاعوا بذلك أن يصلوا إلى النصر الذي كان يعد حلماً من الأحلام المشوشة المتعبة.

ولا شك في أن ألمانيا نفسها إنما استعدت لحرب العالم كله وعبأت قواها المحدودة الضئيلة لهذه الحرب بإيمان وشجاعة تملأ النفوس كلها حتى نفوس أعدائها إعجاباً ودهشاً وفرقاً، وأنها إنما وقفت – وقد ضربت عليها الحلقة بإحكام وتضييق من كل جانب تناضل موارد بشرية وغير بشرية تفوق مواردها

البشرية وغيرها عشرات المرات نضالاً هو أعظم من أن يدعى بطولة أو أن يسمى شجاعة أو أن يقال إنه إنتحار الأحرار الأبطال - بهذه الثقة نفسها وبهذا الإيمان نفسه. أما اليابان وما أعدته لمجابهة خصومها الغربيين الأقوياء ومجابهة معظم البشرية، فأمر هو أعظم من أن توجد له الألفاظ والعبارات... وليس هنالك ريب في أن ألمانيا إنما بارزت قوى العالم كله - وكذلك اليابان - لإيمانها وثقتها المطلقة بما يكمن فيها من القوى والكفايات، وأن الإنجليز إنما غيروا مجرى الحرب الهائل الجارف بهذا الإيمان وهذه الثقة أيضاً، وأن أحد الفريقين لو فقد هذا الإيمان وهذه الثقة لما أمكن أن يخوض طوفان هذه الحرب بهذا التصميم وهذا العناد والإباء.

وقد راح العلاج النفساني يستخدم هذا الإيحاء الذاتي وينتفع به أعظم إستخدام وأعظم إنتفاع، وصار على رأس قائمة العقاقير الطبية الطبيعية، وقام البرهان أخيراً كما ذكر العلماء على أن أعظم ما يمكن أن يقدمه التنويم بالإيحاء للبشر من فائدة هو إستخدام هذا الإيحاء في شفاء الأمراض أو تخفيفها، وفي حل العقد النفسية المستعصي على الطب حلها - وثبت عدا ما ذكروا أن لهذا الإيحاء قوة تكاد تكون سحرية في علاج ضروب كثيرة مما تعاني الإنسانية وتشكو.

ولو أن إنساناً راح يوحي إلى نفسه، أو أخذ يوحي إليه من يثق به، أن أحد أعضائه غير صالح للقيام بوظيفته ولا للإنتفاع به فاقتنع بهذا الإيحاء وترك إستعمال هذا العضو مدة طويلة لفسد ولصار غير صالح أو لصار ناقصاً.

فالإيمان بالنفس إذن وبقدرتها هو أصل التربية الصحيحة القويمة، وهو أول السير في الطريق، والكفر إذن بالنفس وبكفايتها وإستعدادها مؤد لا محالة إلى الدمار وإلى التخلف في سبيل القافلة الجادة في سيرها نحو آمالها المختلفة العظمى. فالتعاليم القائمة على أن الإنسان خلق عاجزاً مجرداً من كل قوة وعاجزاً عن أن يعمل شيئاً - وإنما هو ظرف ومحل للأعمال كما يقول هؤلاء الجاهلون على حسب ما فهموا القضاء والقدر - هي تعاليم زائفة خبيثة قاطعة للطريق مهلكة لمن أخذوا بها. وليس من الممكن أن تحيا أمة تدين بهذه التعاليم. ومحاولتنا أن تنهض الأمم الإسلامية من كبوتها وأن تخرج من هذا النطاق المضروب عليها ومن هذا الحصار الذي لزها إلى الذل والمسكنة - وهي مؤمنة

بهذه التعاليم – محاولة غير مجدية ولا ريب.

* * *

ما هو القضاء والقدر عند هؤلاء القوم الذين يلقون بهذه التعاليم والأوهام بين المسلمين، زاعمين لهم أنها مما يوجبه الإيمان بهما؟ يقولون إن معنى القضاء والقدر أشياء:

أولها – أن الله سبحانه قد سجل على الإنسان منذ الأزل كل أعماله وربطه بها ربطاً لا إنفكاك منه، بحيث لا يجدي معه الإرشاد ولا النصح ولا محاولة الخروج.

ثانيها – أن الله أوجد في الإنسان الذي يعمل الشر الإستعداد للشر في أصر خلقته وطبيعته دون الذي يعمل الخير، فإنه تعالى خلق فيه الإستعداد للخير دون الإستعداد للشر، فقد فرق بينهما في أصل الخلقة والطبيعة. فلا يستطيع أحدهما أن يخرج مما خلق مستعداً له، كما لا يستطيع بذر القمح أن يخرج شعيراً أو بذر الشعير أن يخرج قمحاً.

ثالثها – أن الله قد أرصد، بطرق خفية غامضة، في سبيل كل إنسان ما يوجهه بالقوة إلى الأعمال التي يعملها – أو التي تظهر عليه إذا اخترنا التعبير الصحيح – بأسباب خفية وبدون أسباب؛ فالجبان العاجز الضعيف مسوق إلى جبنه وعجزه وضعفه بقوة لا يمكنه الخلاص منها، والشجاع القوي الجريء مسوق أيضاً بنفس هذه الوسيلة والطريقة بحيث يعجز عن المخالفة – وهكذا كل إنسان بل كل مخلوق.

رابعها – أن الإنسان الذي يريد الخير أو الشر لا يريد شيئاً منهما بنفسه، وإنما الله الغلاب هو الذي يخلق إحدى الإرادتين فيه لأسباب غير معلومة، أو لأنه يريد أن يضل بعض الناس ويشقيهم ويدخلهم النار بمجرد أنه قادر خالق! فإذا خلق هذه الإرادة الشريرة في نفس إنسان لم يستطع أن يعمل غير الشر، فيندفع إلى الأعمال الشريرة بهذه الإرادة، فيصير شريراً ولا بد.

خامسها – أن الإنسان ليس عاملاً ولا فاعلاً في الحقيقة، وليست له القدرة على العمل بل على شيء ما! والإنسان عندهم على مقتضى فهمهم القضاء والقدر ليس إلا محلاً لأعمال الخلاق؛ فكل الأعمال الخيرة والشريرة التي يعملها الإنسان في الظاهر أو التي تعمل فيه إنما هي أعمال الله وصنعه وحده، والعبد

ليس له فيها غير المحلية - أي كونه محلاً لها. وقد زعموا أن من اعتقد أن الإنسان فاعل حقيقة أو موجد أعماله حقيقة فهو مشرك لأنه اعتقد أن مع الله موجداً وخالقاً آخر! والإيجاد عندهم هو الخلق. وقد كفر فريق منهم المعتزلة، وقال المتعدلون منهم إنهم ضلال فقط، لذهابهم إلى أن الإنسان موجد أفعاله وأن فيه قدرة على العمل حقيقة لا مجازاً... وهم يسمون من يقول بقدرة الإنسان بالقدرية، أي بالمعطين للإنسان قدرة ذاتية.

ومن رأيهم أن العبد ليس علة لأعماله وليس فيه قدرة عليها. ومن قول إحدى العقائد المنظومة المدروسة في الأزهر الذي يمل عقائده على أربعمائة مليون مسلم - أو الذي يحاول هذا الإملاء ويسلمه له الملايين - من قول إحدى هذه العقائد في تجريد الإنسان من قواه:

ومن يقل بالقوة المودعة

فذاك بدعي فلا تلتفت

أي من يقل بأن في الإنسان قوة على أعماله أودعها الله فيه فهو مبتدع في الإسلام لا يلتفت إليه - هذا هو فهمهم للقضاء والقدر، وهذه هي منزلة الإنسان لديهم.[1]

---

(١) وقد كان الناس فيما مضى يعزون أخطاءهم ونقائصهم إلى الشيطان تارة، وإلى القضاء والقدر تارة أخرى، فزادوا أخيراً ثالثاً هو الإستعمار. فإذا ليموا على خطأ أو ضعف أو إنحطاط وفساد قالوا إننا ملزومون بذلك مجبورين عليه، وإن الذنب إما ذنب القضاء والقدر - أي ذنب الله، وإما ذنب الشيطان، وإما ذنب المستعمر، وإما ذنب أولئك كلهم - يريدون التنصل من التبعة ويرون أنهم مصيبون في هذا التنصل .. فازدادوا بذلك إقامة على الخسف ولصوقاً بالضعف ورضاً بما يصيبهم من عدوان وهوان .. كأن القضاء إنما يقضي عليهم ولا يقضى لهم، أو كأنما يقضي عليهم ويقضي الآخرين لخصومة بينه وبينهم وصداقة بينه وبين الآخرين... وكأنما الشيطان مرسل عليهم وحدهم ليسوقهم إلى ما هم فيه ويلزمهم به، ومرسل إلى الآخرين ليخدمهم ويسعدهم ويهبهم القوة والسلطان.. وكأن المستعمر إنما غلبهم وأخضع ديارهم لا لقوة فيه وضعف فيهم وفضيلة لديه ورذيلة لديهم، بل لا لشيء سوى أنهم مسلمون وهو كافر، وسوى أنهم قريبون من الله وهو بعيد عنه!! وكأنما المستعمر هو الذي أفسد ضمائرهم وقلوبهم وعقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم!! والواقع أن الإستعمال يجب أن يكون حافزاً إلى الحياة والقوة والكمال. وذلك أن للمستعمر جانبين: جانب طغيان يصبه على من ابتلى به، وجانب كمال هو مصدر قوته وسيادته.

أما الجانب الأول فيجب أن يكون مصدر قوة للمغلوب لا ضعف، لأنه يهيج فيه الحمية ويضرمها فتولد القوة الباطشة، وأما الجانب الثاني فيجب أن يستفاد منه على سبيل الإقتداء إذ يجب أن يأخذ الضعيف عن القوي فضائله وحسناته.

فالإنسان ليس فاعلاً وليست له القدرة على الفعل! ثم اختلفوا بعد هذا هل يسمى كاسباً أو يبخل عليه بهذه التسمية وهذا التشريف! قالت طوائف لا يسمى كاسباً وإنما هو الجبر البحت والظرفية البحتة والإضطرار المطلق في الظاهر والباطن.

وقالت الطائفة التي تدرس آراؤها وعقائدها في سائر المعاهد الإسلامية - وهي الطائفة المحسوبة على الأشعري، المنسوبة إليه، المسماة بأهل السنة - قالت هذه الطائفة: بل نسميه كاسباً، ثم عادت وأعملت معاول التفسير والتأويل في معنى الكسب والكاسب فردته إلى الجبر المحض الذي لا غبار عليه؛ فقد قيل لها: هل العبد فاعل حقيقة؟ قالت: لا. فقيل لها: هل هو شريك في الفعل مشاركة حقيقية؟ فقالت: لا. فقيل لها: هل هو سبب حقيقي في وجود الفعل الواقع فيه؟ فقالت: لا. فقيل لها: هل هو موجد له؟ فقالت: لا. فقيل: وهل يستطيع أن يمتنع من فعل ما وقع عليه من الأعمال - أي هل هو مختار في حدوث الأفعال الواقعة فيه وفي عدم حدوثها - فقالت: لا. فقيل لها: إذن ما معنى كونه غير مجبور؟ قالت: هو أنه كاسب. فقيل لها: وما معنى كاسب؟ قالت: هو كونه كاسباً! فقيل لها: هذا له خبيء! قالت: معناه ليست لنا عقول.

فالكسب عند الأشعرية هو الجبر في المعنى عند الجبرية، والتسمية بكاسب وكسب لا معنى لها، بل مذهب الجبرية أوضح من هذا المذهب. وقد عدّ المذهب الأشعري في هذه المسألة من المذاهب التي تقال مع تجردها من الحقيقة والمعنى، فقيل في ذلك:

مما يقال ولا حقيقة تحته
معروفة تدنو إلى الأفهام

ولم يكن وجود الإستعمار يوماً ما مانعاً من الخلاص منه إلا إذا كان وجود الفقر والمرض وغيرهما من الآفات والنقائص مانعاً الخلاص منها.

ويجب أن يعتقد أن فقد أمة لإستقلالها ما هو إلا بمثابة العقوبة الإجتماعية جزاء ترك واجب أو فعل محرم. والعقوبات - من حيث هي - يجب أن تؤدي إلى الإصلاح والتطهير والإقلاع عن سبب العقوبة. وإذا كان السارق إنما تقطع يده أو يسجن من أجل أن ينزع عن هذه الجريمة وأن يكون أكمل منه قبل عقابه، فكذلك الدولة التي تمنى بسلب عزتها وسيادتها - جزاء ضعفها وتقصيرها وتفريطها - يجب أن يؤدي بها ذلك إلى تدارك ما فات وإلى النزوع عن أسباب هذي العقوبة القاسية. ولا تكون العقوبة سبباً في دوام العقوبة أو سبباً في بقاء الجريمة، كما لا يكون الإستعمار مؤدياً إلى دوام أسبابه أو إلى تجددها وتكررها.

الكسب عند الأشعري والحال
عند الهاشمي وطفرة النظام

فأعظم معاني القدر عند هؤلاء وأظهرها أن الإنسان ليس فاعلاً ولا عاملاً وإنما الخالق هو الموجد الفاعل لكل شيء، والإنسان لا يعدو أن يكون محلاً لما يسمى أفعالاً له. والقضاء هو الفراغ من ذلك. فالعبد عندهم مجرد من كل شيء سوى الظرفية. فهو عاجز عجزاً تاماً، والله لم يخلق له قوة يفعل بها! ومن قال بهذا فهو كافر في رأيهم، وعند المعتدلين منهم فاسق فقط. وقد اشتدت المبارزة في العصور الأولى إبان نشوء الفرق والمذاهب وتكونها بين هؤلاء الذين يسمون أهل السنة وبين المعتزلة وتقاتلوا بكل سلاح استطاعوا الحصول عليه، ولكن كانت الغلبة في النهاية لمن يسمون أهل السنة فاندحرت جيوش الإعتزال، بل قضى عليها حتى لم يبق لهم اليوم باقية معروفة، واختفت كتبهم أو انقرضت، وصارت عقائدهم لا تعرف في الغالب إلا من كتب خصومهم عندما يذكرونها لثلبها وثلبهم وللتشهير بها وبهم. فأصبح الناس كلهم إلا من شاء الله من أهل السنة - أي من الأشعرية ومن إخوانهم المشابهين لهم في كل شيء... وقد انتشرت هذه الآراء والمذاهب إنتشاراً عجيباً، فتمكنت من قلوب المسلمين وعقائدهم، وسيطرت على حياتهم وأحاطت بهم بل طوقتهم، وضربت أو فرضت عليهم الحصار. فلم يقدروا على الخروج والإفلات، بل لم يفكروا في ذلك، بل لم يريدوه إذ حسبوا أن محاولة الخروج منه هي محاولة للخروج من الإسلام ومن القضاء والقدر وهما ركنان من أركان الدين. وصارت العاقبة أن رضوا بالإستسلام وراضوا أنفسهم عليه، حتى أصبح طبيعة من طبائعهم وخلقاً من أخلاقهم؛ فإذا أصيبوا بخير - وما أقل ذلك وأندره - استسلموا وجمدوا تحت رحمة الأقدار والأقضية على حسب فهمهم لها إنتظاراً لعملها هي فيهم حتى يسلبوا هذا الخير. وإن أصابهم شر وهوان، وما أكثر ذلك، ضرعوا له واستسلموا وقالوا: إنها الأقدار هي التي فعلت وهي التي يجب أن تفعل - وقالوا إن الله هو الفاعل الضار النافع - وما أكثر كلام الحق الذي يراد به الباطل! وراحوا ينشدون مع المنشدين - وقد أخذتهم غاشية من الجنون الإعتقادي:

جرى قلم القضاء بما يكون
فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق
ويرزق في غشاوته الجنين

وراحوا يقولون كما يقول الشيخ الغزالي في أحد كتبه المشهورة: "والرزق مقسوم لا تتبدل ولا تتغير قسمته! فإذا علمت أنه حق لا يتغير فأية فائدة في الإهتمام والطلب إلا الذل والهوان في الدنيا، والشدة والخسران في الأخرى!! ولذلك قال عليه السلام: (مكتوب على ظهر الحوت والثور: رزق فلان بن فلان، فلا يزداد الحريص إلا جهداً) ولذلك يقول شيخنا: ما قدر لماضغيك أن يمضغاه فلا يمكن أن يمضغه غيرك."

ومن أقبح ما قيل في هذه المسألة إني قرأت في كتاب من كتب هؤلاء ما معناه: أنه يجب علينا أن نعتقد أن حكم الأجانب لنا وإستبدادهم بنا وإغتصابهم إيانا هو أمر من أمر الله، فلا ينبغي لنا أن نغضب منه ولا أن ننكره، بل الواجب علينا أن نرضى ونستسلم.

وقرأت منذ أيام في كتاب محترم عبارة معناها: أن المسلمين يرون أن حكم الأجنبي أهم من حكم الله لقوله تعالى: "وتلك الأيام نداولها بين الناس" فيرضون ويسلمون. ولهذا فإنهم لا يحاولون الثورة بمن يحكمونهم من الأجانب كما يصنع الآخرون من غيرهم، ولا يحدثون القلاقل والفتن!!

وقد تفاعلت هذه الآراء وأخذت أطواراً خطيرة على مر العصور حتى أضحت من الأدواء المتوطنة القديمة في ديار المسلمين، وصارت كلمتا القضاء والقدر هما المدد الذي لا ينقطع لتغذية هذه الأدواء وتغذية جراثيمها حتى أصبحتا من أعظم الحقول التي تزرع فيها هذه الجراثيم والتي تكفل لها الحياة والنمو... وصرت تسمع أينما ذهبت على كل شفة ولكل مناسبة: إنه القضاء والقدر!

ناد في جموع المسلمين منكراً عليهم إختصاصهم بالذل والإستعباد دون العالمين، فإنهم سيجيبونك: إنه القضاء والقدر - قل لتاجر أو صانع أو زارع: لماذا أنت صغير فقير وفلان من الأجانب يملك الضياع والمتاجر والمصانع والأموال العظيمة، فسيجيبك أيضاً: إنه القضاء والقدر - كلم من شئت لما شئت، منكراً أو معاتباً أو مستفهماً، فستسمع الجواب أيضاً: إنه القضاء

والقدر... فالقضاء والقدر هما العذر الواضح المقبول، وهما السبب الظاهر المعقول في كل فشل، وفي كل هوان وعبودية، وفي كل عجز وضعف وفقر وبؤس.

شعوب ظلت مئات السنين تعلم وتراض على أنها ليست لها قدرة، وأنها ليست فاعلة، وأنه ليس في الإمكان أن تكون كذلك، لأن الفعل والقدرة من صفات الله الخاصة التي لا ينازعه فيها إلا الكافرون - وظلت مئات السنين تعتقد أن هذا هو الإيمان، وأن المخالفة فيه مخالفة فيه - وظلت مئات الأعوام تلقن بكل وسيلة هذه التعاليم غير مسمعة سواها - شعوب هذه هي سبيل تربيتها أنى يرجى لها غير ما أصابها! وأنى يرجى منها غير ما هي فيه من القنوط والهبوط.

قد يقول قائلون من المشغوفين بالإعتراض والمشاكسة: إنه لا يصح أن يرفع من شأن عقيدة القضاء والقدر، ولا أن تحمل كل هذه الإعباء، لأننا نرى المسلمين عامة يعملون أو يحاولون أن يعملوا، ولم نرهم تركوا العمل محتجين بالقضاء والقدر، فهذه العقيدة على حسب ما ذكر هنا - هي وإن كانت باطلة - إلا أن المسلمين لم يفهموا منها ترك العمل أو ترك القيام بالواجبات - إذا قيل هذا قيل في الجواب: ما أعظم ما تخفى على الإنسان نفسه وتخفي عليه حقيقته! أجل، إن المسلمين يأتون شيئاً كثيراً من الأعمال الصغيرة، تدفعهم إليها في الغالب الغرائز كما تدفع المخلوقات الأخرى، أو يدفعهم إليها الفكر القلق المشوش، أو يندفعون إليها زاعمين أنهم مأمورون بها تعبداً وتكليفاً فقط كما كلفوا بالصلوات والدعوات، لا لأنها تفيد بذاتها، أو يدفعهم غير ذلك من الأغراض الصغيرة. ولكن هل اعتقدوا أن أعمالهم تسعدهم وتشقيهم، أو تفقرهم وتغنيهم إعتقاداً جاداً، أو اعتقدوا أنهم أحرار مختارون في ما يأتون ويذرون، وأنهم إن شاءوا فعلوا وإلا تركوا، أو اعتقدوا أنهم فاعلون عاملون حقيقة، أو أن فيهم قوة ذاتية، أو أنه ليس هناك عوامل خفية - وهي ما يدعونه بسر القدر - تعمل أبداً على توجيههم غير الجهة التي يقصدون ويريدون، وتعمل على منعهم نيل الثمر الذي بذروه وزرعوه، ثم كادوا أن يجنوه ويحصدونه، بلا سبب غير أنهم ضعاف عاجزون، وأنها هي - أي العوامل - قادرة قوية، أو اعتقدوا أن النتيجة تأتي على قدر الوسيلة دائماً جزاء وفاقاً - هل اعتقدوا شيئاً من هذا أو هذا كله إعتقاداً صحيحاً لا يشوبه الشك ولا يرديه الريب؟ كلا إنهم لم يعتقدوا شيئاً من هذا، فكيف إذن يرجى لهم أن يعملوا أعمالاً تفضي بهم إلى

النجاح والظفر المبين، أو كيف يمكن أن يقوموا بأعمال كبيرة قوية، وكيف إذن لا تترتب كل تلك النتائج التي ذكرناها على عقيدة القضاء والقدر التي فهموها؟؟

إن من أغرب ما جاء في هذه المسألة ما ذكره أحد العلماء في كتاب له مشهور مطبوع - وقد طويت اسمه عن هذا المقام - قال في ذلك الكتاب:

"فصل. من ترك الإختيار والتدبير في رجاء زيادة أو خوف نقص أو طلب صحة أو فرار من سقم، وعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنه المتفرد بالإختيار والتدبير، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وعلم أنه أعلم بمصلحته منه وأقدر على جلبها وأنصح للعبد منه لنفسه وأرحم منه لنفسه وأبر به منه لنفسه، وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة واحدة، ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة: فلا متقدم له بين يدي قضائه وقدره ولا متأخر، فألقى نفسه بين يديه، وسلم الأمر كله إليه وانطرح بين يديه إنطراح عبد ضعيف مملوك بين يدي ملك عزيز قاهر له التصرف بعبده بكل ما يشاء، وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه... فاستراح حينئذ من الهموم والغموم والحسرات، وحمل مصالحه وحوائجه من لا يبالي بحملها ولا يثقله ولا يكترث بها، فتولاها دونه، وأراه لطفه وبره ورحمته فيها من غير تعب من العبد ولا نصب ولا اهتمام منه، لأنه صرف إهتمامه إليه وجعله وحده همه، فصرف إهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه وفراغ قلبه... فما أطيب عيشه وأعظم سروره.

"وإن أبى إلا تدبيره لنفسه وإختياره لها وإهتمامه بحظه خلاه وما اختار وولاه ما تولى، فحضره الهم والغم والحزن والخوف والتعب وكسوف البال وسوء الحال... فلا قلب يصفو ولا عمل يزكو ولا أمل يحصل ولا راحة يفوز بها، بل قد حيل بينه وبين مسرته وقرة عينه، فهو يكدح في الدنيا كدح الوحوش ولا يظفر منها بأمل... والله قد أمر العبد بأمر وضمن له ضماناً، فإن قام بأمره قام الله له بما ضمنه له من الرزق والنصر وقضاء الحوائج... فإنه سبحانه ضمن الرزق لمن عبده والنصر لمن توكل عليه والكفاية لمن كان هو همه، وقضاء الحوائج لمن صدقه ووثق به وقوى رجاؤه وطمعه في فضله وجوده...

... "فالفطن الكيس إنما يهتم بأمره لا بضمانه. فإنه الوفي الصادق. ومن أوفى بعهده من الله. فمن علامات السعادة صرف الإهتمام إلى أمر الله دون ضمانه، ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الإهتمام بأمره وخشيته والإهتمام بضمانه

"...انتهى كلامه.

وهذا كلام صريح في ترك العمل إستسلاماً للقضاء والقدر... وقد قدمنا أن ابن عطاء الله الإسكندري ألف كتاب (التنوير في إسقاط التدبير) وأنه موضوع للدعوة إلى ترك العمل وللإستسلام العام وللسبات الذي لا إفاقة منه - إما توكلاً وإما إنتظاراً لما تفعله الأقضية والمقادير، وإما كفراناً بالأسباب.

* * *

كيف يجب أن يفهم القضاء والقدر؟ إن كل ما ذكر هنا باطل فكيف إذن يجب أن يفهما - والإيمان بهما ركن من أركان الإيمان - وقد جاء ذكرهما في الكتاب والسنة في مواضع كثيرة جداً.

أما القدر فهو في مادته مأخوذ من التقدير، أي جعل الشيء ذا مقادير، أي ذا حدود. يقال: هذا الشيء قدر هذا، أي محدود بحدوده كما قال: «فسالت أودية بقدرها" وقال: "قد جعل الله لكل شيء قدراً"وقال: "ومتعوهن على الموسع قدره على المقتر قدره" وقال: "إنا كل شيء خلقناه بقدر" وقال: "والله يقدر الليل والنهار" وقال: "وكل شيء عنده بمقدار" وقال: "وخلق كل شيء فقدره تقديراً" وقال: "والقمر قدرناه منازل." ويقال: قدرت الثوب أي جعلته على مقاس الجسم، أي مثله، أي محدوداً بحدوده. ويقال: قدر كذا كما قال: "إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر" ويراد التفكير والتروي في الأمر، وهو راجع أيضاً إلى جعل الحدود للشيء، ولكنها قد تكون حدوداً مادية، وقد تكون معنوية - أي قد يكون المراد تقدير الخطة العقلية وتحديدها فكرياً بحيث تجيء وفاق الأمر المادي. وقد يكون المراد تصور الشيء بمقاييسه المادية وجعله مقدوراً ذا مثل وغايات معلومة. وقال: "تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" وقال: "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم" وقال جرير:

جاء الخلافة أو كانت له قدراً

كما أتى ربه موسى على قدر

أي كانت الخلافة له كفواً وكان هو لها كفواً أيضاً، أي إن الأوصاف الموجودة فيه هي الأوصاف التي تشترط في الخليفة وتوجد في الخلافة الحقة، فمن جمع هذه الصفات جاءته الخلافة فهو خليق بها وهي به خليقة، كما قال الآخر في هذا المعنى:

فلم تك تصلح إلا له

ولم يك يصلح إلا لها

وكذلك مجيء موسى ربه أي على مثل ووفاق في المعاني والصفات. وفي هذا المعنى قوله تعالى: "الله أعلم حيث يجعل رسالته." وليس المراد أن الخلافة جاءت الممدوح بمجرد القدر أي بمجرد المشيئة والقدرة من غير إستحقاق ولا أوصاف خاصة، فإنه حينئذ يكون أقرب إلى الذم منه إلى المدح، ولكن المقام هنا مقام مدح.

وقال شاعر آخر:

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها

فمن علا زلقا عن غرّة زلجا

أي هيىء في ذهنك موضعاً محدوداً معلوماً مثل المواضع التي تليق بالأقدام وتناسبها، أو مثل رجلك سواء.

وقال الآخر:

تقفون والفلك المدبر سائر

وتقدرون فتضحك الأقدار

أي تضعون لآمالكم ولما سيحدث حدوداً وأزماناً، ولكن الأقدار المجهولة تبطل عليكم هذه الحدود وتلك الأزمان المعدودة المحدودة، وتقلب عليكم الأمر، لأن الأقدار هي نظام الوجود وهي سر الحياة، وأنتم لا تقدرون أن تتغلبوا على كل الحياة والوجود بتقديراتكم وآمالكم.

فالقدر بجملته وجملة إستعمالاته يراد به التقدير، أي جعل الشيء ذا مقادير معلومة أي يراد به جعل الشيء منظماً في كمه وكيفه... فقدر الله معناه أن الله جلت قدرته قد أوجد هذا الوجود: السماويات منه والأرضيات مقدراً بمقادير محكمة هي أدق في ضبطها ومقاييسها ونسبها من أعظم مركب كيميائي قام بتركيبه وتقدير عناصره وضبط نسبه أبرع الكيميائيين، وأدق من أدق صناعة فيها آلاف الآلات التي يبدع في وضعها أبرع عقل. فما من شيء في هذا الوجود - سواء أكان معنوياً أدبياً أم مادياً - إلا وقد ضبطت مقاديره وأحكمت نسبه. وهذا الضبط في التقدير جاء في الأشياء بالنظر إليها مستقلة وبالنظر إليها متصلة بغيرها - أي إن ضبطها أجرى عليها على إعتبارها وحدة مستقلة، وعلى إعتبارها جزءاً من العالم. فضبطت هي في نفسها، وضبطت مع سواها، أي إنها

مضبوطة مستقلة، ومضبوطة مشتركة مع غيرها. ولهذا جاء هذا العالم منظماً صالحاً للإنتفاع وللحياة وللإستقرار فيه وعليه... ولولا هذه المقادير والنسب لما كان صالحاً لذلك.

وشرح هذا أن العالم مركب من عناصر أحصى منها الآن الشيء الكثير، وكل شيء من هذه الموجودات آخذ من هذه العناصر نسباً ومقادير مخالفة للنسب والمقادير التي أخذها غيره. ومن هنا حصل الإختلاف والتباين المقصود المفيد. وهذه النسب والمقادير التي أخذها أو التي أعطيها روعي فيها الدقة والضبط لتكون صالحة للغرض الذي أريد منها. ثم هذا الشيء في نفسه قد روعي فيه من ناحية الكم مقدار معين ووزن معين لأجل أن يكون إجتماعه مع غيره ممكناً ومفيداً. ولنجعل ثمرة البرتقال مثلاً. فنقول: لهذه الثمرة ناحيتان: ناحية الكيف وناحية الكم. أما ناحية الكيف فقد عينت النسب والمقادير فيها من العناصر تعييناً متقناً. وبهذا كانت برتقالاً، وكانت شهية لذيذة مستساغة وبهذا كانت أيضاً نافعة مغذية. ولو فقدت النسب والمقادير من هذه الثمرة لما أمكن أن تجمع الفوائد التي جمعت. فالقدر هنا هو الذي جعلها بهذا الكيف المحكم.

وأما الكم فإنها لو لم تحدد بكم معين أو قريب من التعيين، وكان من الممكن أن تنمو نمواً مطلقاً بحيث تصبح ضخمة جداً، لكانت غير متناسبة مع شجرتها التي تحملها ولا مقدرة بطاقة عيدانها التي تمسكها، ولكانت النتيجة حينئذ عجز هذه الشجرة وعجز أغصانها عن حمل ثمرتها، فتهوى بها حينئذ إلى الأرض. ولكن شجرة البرتقال إنما خلقت باسقة صاعدة لا متمددة ولا مفروشة على التراب.

أما النخلة فإنها لما أن كانت قوية فإن ثمرها جاء ثقيلاً فكان التناسب صحيحاً والتقدير مضبوطاً. وأما البطيخ فإنه لما خلق متمدداً ملقى كان من التقدير والتناسب المقبول أن يكون ثمره أكبر وأعظم منه لأنه لا يحمله. وهكذا يقال في كل شيء يقع تحت بصرنا وعلمنا.

وقد روعي هذا التقدير البارع في سائر المواليد وسائر أنواعها؛ فالمولود يجيء في كمه مقدراً بالأعضاء التي تحمله، ومقدراً بقدرتها على الحمل. فإن كانت الأوعية والأعضاء واسعة قوية كان المولود مناسباً لذلك، وإن كانت ضعيفة ضيقة جاء المولود على قدرها. إنا كل شيء خلقناه بقدر... ولكن الآية التي هي

نص في هذا قوله تعالى": الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما يفيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار. "وقد اضطرب المفسرون كعادتهم في تفسير الآية، وقالوا وكتبوا كثيراً، ولكنهم لم يأتوا بشيء. والتفسير الصحيح هو أن الأرحام تزيد وتنقص وتكبر وتصغر على قدر ما هيء لها أن تحمل، وما تحمله وتصنعه يزيد أيضاً وينقص ويكبر ويصغر مقدراً بقدرها. فتغيض وتزداد هنا يراد بهما القدر، ولهذا ختمت الآية بقوله: "وكل شيء عنده بمقدار."

وهذا الكوكب الذي نعيش فيه قد حكمه هذا القدر من ناحية الكم وناحية الكيف وناحية إتصاله بالمخلوقات الأخرى؛ فقد قدر من الناحية الأولى بقدر معين، ومن الناحية الثانية – أي ناحية الكيف – قد أجرى فيه هذا القدر أحسن إجراء فجعل قسمين براً وبحراً، وكل منهما بمقدار، وجعل منه الخصب وغير الخصب، وجعل فيه الجبال والسهول والمرتفعات والمنخفضات والجوانب الصلبة القاسية والأخرى اللينة المهيلة والأودية والآكام، وأوجد فيه جميع المعادن الجامدة والسائلة التي يحتاج إليها الإنسان في صناعاته وفي كل شؤونه، وفرقت هذه المعادن تفريقاً عادلاً شاملاً، وضمن ضروب العناصر اللازمة لإنماء النباتات وتغذيتها، ثم طبعت هذه العناصر الأساسية لكل مخلوق وموجود بطبيعة بديعة تجعلها تنتقل وتتطور وتوجد ضروب الصور والألوان، ولكنها لا تتلاشى من أجل أن تبقى أبداً قائمة بحاجة الإنسان كلها، وأودع فيه جميع الجذور والبذور لتخرج كل هذه الأنواع من الحبوب والأشجار والفواكه التي لا يقوم بها التعداد، وشحن بالكثير من فصائل الحيوان والطيور وسائر الكائنات الحية، ثم قدرت فيه القوى المتجددة المتوالدة ثم قدرت هذه الموجودات جميعاً وقدر كل شيء فيها بمقادير هي الإبداع والإحكام، ثم فرض على هذا كله ناموس صارم يكفل له البقاء والإستمرار – إضطراراً وإختياراً – ويكفل له التعاون فيما بين آحاده والتكافل والإنسجام.

وأما من ناحية إتصاله بالموجودات الأخرى فالأمر في ذلك ظاهر. وقد قدر له مدار ليس من الممكن الإنزلاق عنه ولا الإفلات منه، وقدر بمقادير دقيقة من حيث الأبعاد والمسافات، وجعلت هذه الأبعاد والمسافات صالحة لبقائها – أي بقاء الأرض – وثباتها في مدارها ومكانها، ومناسبة لإيجاد المناخات المختلفة فيها، وإيجاد الفصول المختلفة الضرورية لقيام كل شيء بوظيفته، ولإيجاد سائر

المناطق الحارة والباردة والمعتدلة. وكل هذا ضروري لأخذه من الشمس وغيرها ما يحتاجه من النور والحرارة والقوة... ولو أنه لم تقدر له هذه الأبعاد تقديراً قائماً على الحكمة ومراعاة الفائدة لما كان صالحاً لوجود الحياة فيه؛ فلو أنه خرج عن مداره مائلاً إلى الشمس لكانت العاقبة الدمار، ولو أنه أفلت من قبضة الشمس ومن جذبها لكانت العاقبة أيضاً الهلاك. ولكنه القدر البالغ قدر كل شيء فأحكم تقديرهوقد أشار الكتاب إلى هذه المعاني في آيات تحمل الروعة والإعجاز فقال: "قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً. ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها. وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً، ذلك تقدير العزيز العليم..." فقوله "وقدر فيها أقواتها" وقوله "ذلك تقدير العزيز العليم" يراد به القدر الذي ضل فيه الناس وصيروه عامل ركود وإنحطاط، مع أنه هو القوة والوثوب والنشاط. والمراد بتقدير الأقوات جعلها ذات مقادير ونسب كما سبق. وختام الآيات بقوله "العزيز العليم" هو كالتدليل على أن المقصود بالتقدير وضع الأشياء في مواضعها وخلقها متناسبة متكافئة، وإعطاء كل شيء ما يستحقه وما يصلحه ويفيده. فإن العزيز – وهو القوي الغالب – والعليم، هو الذي يفعل ذلك ويقدر عليه، لأن من لا يصنع ذلك فالمانع له إما أن يكون عجزاً وإما أن يكون جهلاً، وهو ليس بعاجز ولا جاهل لأنه العزيز العليم... ولو كان التقدير هو ما يفهمه العامة من القدر لكان المناسب أن يقال في إختتام الآية "ذلك تقدير العزيز السفيه الظالم الشرير –" تعالى الله عن ذلك. وقوله "وبارك فيها" إشارة إلى سر القدر ولبابه وغايته. وقوله "ائتيا طوعاً أو كرهاً " إشارة إلى فائدته وإلى أنه سنة محتومة لا تغير ولا تبدل. وقوله "وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً" إشارة إلى قانون الجاذبية العام فإنه هو الذي يحفظ هذه المخلوقات من الهوى والتصادم. وهذا هو الحفظ والتزيين... والرواسي هي الجبال – يعني أنها ثابتة في أماكنها لا تتمايل ولا تتطاير مع دوران الأرض ودورانها هي معها، وكل هذا راجع إلى قانون الجاذبية والثقل. وأغلب الناس ممن ينظرون في القرآن وفي تفسيره يقولون إن "رواسي" هنا معناها مرسية أي

مثبتة للأرض لا ثابتة هي في نفسها! ويظنون أن الجبال هي التي تمسك الأرض وتمنعها من الميدان. وهذا خطأ في اللغة والعلم والدين: أما اللغة فإن رواسي إسم من رسا، لا من أرسى ورسا لازم. ولو كان المعنى ما ظنوا لقال" مرسيات "أو نحو ذلك وأما العلم فإنه لا يقرر أن الجبال هي التي تمسك الأرض، وإنما يقرر أن الجبال والأرض وكل شيء ممسك بنظام الجاذبية... وأما الدين فإنه يقول: "والجبال أرساها" فجعلها مرساة لا مرسية. ويقول "والجبال أوتاداً" والأوتاد هي المثبتة الثابتة في نفسها. وأما كونها تمسك الأطناب التي تربط بها فهذا ناشىء من ثبوتها هي في ذاتها.

وقوله "وهي دخان" صريح في إثبات نظرية تطور المادة. فإن قوله: "ثم استوى إلى السماء وهي دخان" يدل على أن مادتها كانت موجودة قبل وجودها بهذه الهيئة، وأنها كانت غازية أو سديمية ونحو ذلك. بل القرآن قد أشار إلى تطور الإنسان بقوله: "ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً."

وقوله: "فقضاهن سبع سماوات" القضاء هنا هو القضاء الذي يقرن مع القدر كما سيأتي. فجمع في هذه الآيات بين القضاء والقدر لأنهما شبه متلازمين.

وكما ضبطت الأرض بالمقادير فقد ضبط كل شيء أيضاً بهذه المقادير والنسب. ويكفينا للإيمان بهذه الأقدار وبهذا الضبط أن نلقي نظرة فاحصة على هذه الجموع الهائلة من الكواكب المتلألئة فوق رؤوسنا، المطلة علينا بإشعاعاتها القوية والضعيفة، وأن نسأل أنفسنا: لماذا لا تتصادم هذه الجموع، ولماذا لا تتباعد وتتفرق وتصاب بالفوضى والإضطراب؟ إننا إذا فرضنا ميداناً من أكبر الميادين غاصاً بالسيارات وبالقطارات وبسائر المتحركات الجائية الذاهبة، أو فرضنا سماء مائجة بالطيارات مختلفة الأحجام، متفاوتة في سرعة الطيران وفي بطئه، متوازية ومتراكمة ومتراكبة، ثم فرضنا كلاً من هذه السيارات والطيارات لازماً نظاماً معيناً، ومكاناً معيناً، وطريقاً معيناً، بحيث لا تتصادم ولا تتباعد ولا يمسها شيء من الفوضى وإختلال النظام، مع فرضها خالية من الإنسان الذي يوجهها ويسيرها ويحفظها، بل لما كدنا نصدق ذلك... أما إذا فرضناها منظمة بالإنسان مسيرة به، أخذنا العجب بل لما كدنا نصدق ذلك... أما إذا فرضناها منظمة بالإنسان مسيرة به مضبوطاً سيرها ومرورها وتقدمها وتأخرها

بإرشاداته وتعليماته فإننا حينئذ نعجب من حسن نظامه، ونعلم أن ذلك راجع إلى دقة عظيمة في التقدير وفي إلزام كل مكانه بحساب تام ويقظة مستديمة... أما هذه الحشود الكوكبية الدائرة السائرة فإننا نعلم أن النظام الذي يحكمها والأقدار التي قدرت لأبعادها وللمسافات التي تربط بعضها ببعض، نظام وأقدار لا بد من التسليم بحكمتها وبراعتها.

ماذا يحدث لو تقاربت هي أو تقاربت مداراتها؟ وماذا يكون لو تباعدت هي أو تباعدت مداراتها؟ إن ذلك قد يخفى على غير العلماء، أما العلماء فإنهم يعلمون أنه هو الفناء لا شيء غيره.

إننا إذا دفعنا شيئاً ما إلى جهة العلو فإنه لا يلبث أن يرتد إلينا نازلاً هابطاً لا يقف حتى يقفه شيء. ولكن لماذا لا تهوى هذه الأرض إلى السماء أو إلى جرم آخر؟ أو لماذا لا تهوى الأجرام إلى الأرض كما يهوى الحجر الذي يدفع إلى السماء؟ إنه بلا شك لولا التقدير الذي ذكرناه لكان لا بد من الهوى والتصادم والتقاذف ثم لا بد من الهلاك. إذن فالأقدار هي التي أمسكت كل شيء وألزمته طريقه ومكانه، وإذن فالأقدار هي النظام وإذن فالإيمان بها هو الإيمان بالله والكفر بها هو الكفر الذي لا يغفر.

إن العالم يشبه إلى حد بعيد صناعة كبيرة فيها ملايين الآلات والعدد الدقيقة، وكل هذه العدد والآلات تسير وتدور وتتحرك بدؤوب لا ينقضي لغاية مقصودة ولإيجاد شيء متقن عظيم، بدون أن تقف هذه العدد والآلات، وبدون أن تتصادم أو تتعارض أو يصيبها ما يحدث الخلل... إن هذه الصناعة لا بد أن يكون كل جزء فيها وكل آلة وعدة مقدرة بتقدير حكيم دقيق من ناحية حجمها وناحية موضعها وناحية كيفها. ومن كفر بهذا التقدير في هذه الصناعة الضخمة فقد كفر بعقله. والإيمان بهذا التقدير هو الإيمان بالصناعة المذكورة، والإيمان بها هو الإيمان بصانعها. وكذلك هذا العالم إنما نظمه ونظم وجوده وبقاءه وكل ما فيه الأقدار المودعة في أجزائه الصغيرة والكبيرة. ولا يمكن الإيمان بالله مع الكفر بهذا، كما لا يمكن الكفر بالله مع الإيمان بهذه الأقدار إلا أن ينأى المرء عن عقله بعيداً. ولكن الكفر بهذه الأقدار هو كفر بالإنسانية العاقلة المفكرة. فلا يكفر إذن بالله إلا من كفر بالإنسانية وبمزاياها العقلية والمنطقية.

ويجب أن يعلم أن الأقدار كما نظمت الماديات فقد نظمت المعنويات؛ فمن

الإيمان بالقدر الإيمان بأن لكل عمل جزاء على قدره، لا جزاف ولا ظلم. وما أجمل قوله" جزاء من ربك عطاء حساباً "فالجزاء بالحساب، والحساب هو القدر. وهذا مثل قوله "فسوف يحاسب حساباً يسيراً"، وفي هذا قوله أيضاً: "فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى" غير أنه يلزم أن نفهم كلمات أعطى واتقى والحسنى وبخل واستغنى واليسرى بأوسع مما فهمه المتحكمون في كتاب الله. فإننا حينئذ نهبط على كنوز من المعاني كانت حراماً على من ضاقوا بأفهامهم أو ضافت هي بهم... هذا هو معنى القدر الذي هلك به أغلب الناس.

وقد جاءت أحاديث وآثار عن السلف تدل على أنهم كانوا يفهمون القدر على ما ذكرناه؛ فما جاء في ذلك حديث رجوع عمر بن الخطاب ومن معه من الصحابة والمسلمين عن الشام لما أن قربوا منها وعلموا أن الطاعون قد وفد عليها. وقد استشار عمر الناس في الرجوع، فأشار مشيرون بأن يرجع وآخرون بأن يمضي، فاختار بفطنته الثاقبة وبصيرته النفاذة – الرجوع فقيل له أفراراً من قدر الله؟ فقال – واعجب بما قال – نفر من قدر الله إلى قدر الله! ثم قال للمعترض: أرأيت لو هبطت وادياً فيه مكان مخصب ومكان مجدب، فإن رعيت المخصب رعيته بقدر الله، وإن رعيت المجدب رعيته بقدر الله... ثم حدث بنهي الرسول عن القدوم على الوباء فسر بذلك. وهذا صريح في أنهم فهموا القدر على خلاف ما فهمه المتأخرون، أما قوله نفر من قدر الله إلى قدر الله فإنه يريد أن الله بسننه قد جعل للأمراض وللإصابة بها أسباباً مقدرة – ومقدرة هنا بمعنى منظمة – فالقرب منها والإتصال بالمصابين بها يوجب الإصابة إذا كان في الإنسان إستعداد طبيعي لها وليست لديه مناعة، والبعد عنها يبقي ذلك ويجيء بالسلامة إذا لم تكن هنالك أسباب أخرى للمرض. فمن رجع عن دخول البلد المصاب فقد فر من قدر الله الذي هو الإصابة بالمرض ومن تقديره بأن يكون المرض عدواً للإنسان وأن يكون مصيباً به إذا قارفه – أي فقد فر من العطب ومن وسائله. وهذا الفرار مطلوب عقلاً وشرعاً وغريزة – إلى قدر الله – أي إلى السلامة حيث لا أمراض ولا أسباب أمراض، وهذا يسلم إدا لم تكن هنالك أسباب أخرى غير التي فر منها، كما أن الذي يقدم على رعي الأرض المخصبة يقدم على الشبع والخير، والذي يقدم على المجدبة يقدم على المسغبة والهلاك لأنه

قد وضع نظام لهذا الوجود بأن يكون جانب منه مخصباً وجانب آخر مجدباً.
وقدر الله الذي كان في الشام والذي أبى عمر وصحبه القدوم عليه بل رأوا الهرب منه، هو المرض لأن التقديرات والعوامل الكونية التي تحكم العالم قضت بأن يصاب الشام في وقت معين بالطاعون، وهذا الطاعون من قدر الله، لأن السنن التي جبل عليها الوجود - مقدرة تقديراً محكماً - يلزمها حدوث هذا الوباء لزوماً طبيعياً في الحين المعلوم بلا تخلف في الموعد المهيأ، إن لم يوجد ما يعارض ذلك من العوامل الأخرى الطبيعية التي خلقها البارىء لتحدث معلولاتها.
وحدوث الأمراض والأوبئة هو كسائر حوادث هذا الوجود له أسباب وعوامل، كما أن له موانع ومعارضات، فإذا وجدت الأسباب والعوامل وارتفعت الموانع والمعارضات حدثت الأمراض. أما إذا لم تتهيأ هذه الأسباب، أو تهيأت ولكن عارضتها الموانع، فإنها لا يمكن أن تحدث، كما أنك إذا وضعت البذر الصالح في التربة الصالحة وسقيته نبت ونما إن لم يعارض نباته ونموع معارض. وهكذا يقال في كل شيء من الحوادث المستمرة ومن الحوادث اليومية أو السنوية أو الدهرية أو الشهرية.

أما القدر الذي اختاروا الفرار إليه فهو النجاة، لأن العوامل الكونية قضت إذ ذاك بأن تكون البلاد التي اختاروا الفرار إليها سليمة من الطاعون، وقضت هذه العوامل بأن يسلم من لم يتعرض له ويدخل عليه مكانه. وليس القدر الذي فروا منه ولا الذي فروا إليه هو القدر الذي يفهمه الجماهير، وإلا فإن هذا القدر لا يمكن الفرار منه، ولأجل هذا أوجد شارحو الأحاديث في قول عمر هذا إشكالاً قائلين: إن القدر لا يمكن الفرار منه، وما يمكن الفرار منه ليس قدراً لا حقيقة ولا مجازاً... ثم راحوا يضربون في بيد من الأوهام، ثم تاهوا في تلك البيد إلى اليوم. وكل هذا راجع إلى الوهم في المراد الشرعي منه... ومن ثم أيضاً حاولوا أن يوجدوا رواية يزعمون فيها أن عمر ندم على قوله وعلى رجوعه؛ فذكر ابن حجر العسقلاني في شرح البخاري قال: أخرج الطحاوي بإسناد صحيح أن عمر قال: اللهم إن الناس نحلوني ثلاثاً أنا أبرأ إليك منهم: زعموا أني فررت من الطاعون وأنا أبرأ إليك من ذلك. وساق بقية الثلاثة.

وهذا يجب ألا يكون صحيحاً إذ كيف يبرأ عمر من شيء أمر به الرسول ومن شيء فعله ووافقه الصحابة عليه واحتج له ذلك الإحتجاج المسكت.

وفي الحديث أنهم سألوا الرسول وقالوا يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال (هي من قدر الله.) وقدر الله في الحديث هو ما شرحنا لأنه جعل الأدوية من القدر أي جعلها مقدرة بالأمراض وجعلها كفواً لها، بمعنى أنها تشفي منها وتقاومها إذا وضعت وضعاً صحيحاً كما قال في الحديث الآخر (ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء عرفه من عرفه وجهله من جهله – وفي رواية – فإذا وافق الدواء لداء شفي بإذن الله.) ولو كان القدر في الحديث هو الذي يعرفه الجماهير لما جعلت الأدوية نفسها قدراً لأنها على هذا ليست قدراً بالإجماع. وفي حديث مروي في الصحاح: (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.) وقدر هنا لا يكون صحيحاً إلا إذا ذهب به ما ذهبنا إليه.

وقد احتمل طوفان الأوهام في طريقه الطوائف كلها حتى أولئك الذين ليس لهم إتصال خاص بالقضايا الدينية ولا بعلوم الكلام؛ فهذا البحتري الشاعر يقول:

ألا ليت المقادر لم تقدر
ولم تكن الأحاظي والجدود
فأنظر أينا يضحى ويمسي
له هذي المواكب والعبيد

ويقصد بقوله هذا أن الأقدار هي التي وقفت له بالمرصاد ومنعته أن يملك تلك المواكب وأولئك العبيد لأنها تريد أن تختص بها قوماً هم عاجزون بطبعهم وأعمالهم، وهم دونه في كل شيء – ولو أن هذه الأقدار والحظوظ لم تكن هي المسيطرة على هذا العالم سيطرة قائمة على القوة وحدها – ولو أنها تركت الناس أحراراً موكولين إلى نشاطهم الذهني والبدني، فلم تعط هذا جزافاً عطاء حتماً، ولم تمنع ذاك أيضاً جزافاً وظلماً، لأضحت هذه الأموال وذلك السلطان وأولئك الحشم والخدم لي دون سواي لأني أحق بها... وهو يذهب في هذا إلى أن الأقدار والحظوظ عبارة عن قوى خفية شريرة مصبوبة على هذا الوجود تحكمه حكماً جبرياً عابثاً لا يعرف العدل ولا الرحمة ولا الحق، وتتصرف فيه تصرفاً ليس له مثيل في طغيانه حتى ولا بين الناس الظالمين الباغين... ومن غير المستطاع أن يثمر هذا الإعتقاد لأهله وثوباً أو نهضة، ولن يكون ثمره سوى الكسل والجمود العقلي والبدني.

وقد أخطأ ابن هانىء الأندلسي خطأ مركباً حينما قال في أحد آلهته من البشر:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
واحكم فأنت الواحد القهار

وذلك لأنه ذهب كما ذهب الجميع إلى أن الأقدار هي القوى الخفية الخبيثة الظالمة التي أرسلت على هذا الإنسان تسوسه شر سياسة، وتطارده وتستبد به بدون أن يلقى من أحد غوثاً وتذوده عن الوصول إلى أغراضه وعن الإستمتاع بمواهبه وأعماله - وإلى أن هناك حروباً مستعرة أبداً بين المخلوقين وبين أقدارهم، تغلبهم أكثر الأوقات ويغلبونها أقلها، وإلى أن هذا الممدوح قد غلب أقداره غلباً نهائياً، فأصبح الذي يكون هو الذي يشاؤه، وأصبح الذي لا يكون هو الذي تشاؤه الأقدار، فأصبح هو الواحد القهار ولم يدر هذا الشاعر أن الإنسان لا يحارب أقداره وإنما بها يحارب، وأنه لا يمكن أن يغلبها إلا إذا أمكن أن يخرج من وجوده أو يسبق وجوده أو أن يكون أكبر من قدره وحقيقته... وهذا لا يمكن أن يكون.

ولسنا نحاول هنا إحصاء الأخطاء فإنها لا تحصى، ولكننا نحاول أن ندل دلالات ترشد إلى غيرها ثم تضع الحدود والقيود.

* * *

أما القضاء فإنه لا يخرج في جملة إستعمالاته عن أن يكون بمعنى الفراغ من الشيء. يقال قضيت الشيء فانقضى أي فرغت منه. والإنقضاء هو الإنتهاء. قال الله "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا." وقال: "قضي الأمر الذي فيه تستفتيان" وقال: "فلما قضى موسى الأجل" وقال: "ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك" وقال: "فلما قضى زيد منها وطراً" وقال: "إذا قضوا منهن وطراً." وكلها بمعنى الفراغ وكذلك أمثال قوله "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه" وقوله: "وقضينا إلى بني إسرائيل" أي فرغ ربك من الأمر بألا يعبد سواه وفرغ من إنهاء ذلك إلى بني إسرائيل. وقال الشاعر:

فلما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح

وقال آخر يرثي عمر:

قضيت أموراً ثم غادرت بعدها

بوائق في أكمامها لم تفتق

وفي الكلام السائر على كل لسان: (قضيت أعمالي وقضيت ديني) وهكذا... فالقضاء يعني به الفراغ والإنتهاء. ومن النصوص في هذه الآية السابقة وهي قوله "ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات." فقضاء السماوات معناه الفراغ من خلقهن وتسويتهن، ولهذا جاء في غير هذا الموضع "ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات" وجاء في سائر الآيات لفظ خلق السماوات مكان قضى وسوى. فخلق وسوى وقضى كلها بمعنى واحد؛ كلها بمعنى الفراغ والإنتهاء... فالقضاء إذن المقرون بالقدر يراد به الفراغ والإنتهاء. فالواجب علينا أن نؤمن بأن الله قد خلق الخلق ووضع النواميس والسنن ثم فرغ منها بحيث لا يحتاج إلى تعديل ولا مراجعة ولا تكميل أو إصلاح أو تدارك... بل كان فراغ من يعلم كل شيء وفعل من لا يؤوده شيء ومن لا يخفى عليه شيء... وكل الذين يقومون بتصميم الأشياء وبصنعها ثم يحتاجون إلى التعديل فيها أو النقض أو الرجوع أو الترك، فلا بد أن يكون سبب هذا إما الخطأ أو الجهل في وضع التصميم ورسم الخطة أو العجز عن التنفيذ أو أن يظهر في الآخر أنه لا فائدة من ذلك العمل، أو نحو هذا من الأسباب التي مرجعها النقص في القوى المادية أو في القوى العلمية... أما الكامل في ناحيتيه وقوتيه فإن كل خطة يضعها فلا بد أن ينفذها، ثم لا بد أن يفرغ منها بدون مراجعة. وهذا أعظم فارق بين الكامل والناقص... فإذا آمنا بالقضاء على هذا المعنى كان إيماننا إيماناً بالكمال المطلق لله، وإيماناً بكمال الله لا نستطيع أن ننكره، لأننا لا نستطيع أن ننكر كمال النظام الموضوع في هذا الوجود، لأننا لا نستطيع أن نكرر قوتنا العقلية التي دلتنا على أن التصميم الذي وضع لهذا العالم هو التصميم الذي وضع القوة العقلية في الخليقة العاقلة...

وقد كان شقاء الإنسانية الذي ظل يتنقل معها هو أنها لم تستطع أن تصل إلى طور الكمال في الناحيتين المادية والعلمية - الكمال الذي يجعلها تضع الخطة للشيء، ثم تفعله ثم تفرغ منه، ثم لا تحتاج إلى النقض أو التعديل أو التغيير... بل ظلت أعمالها كلها في أدوار تاريخها الطويل عبارة عن مجموعات تجارب

ناقصة مستمرة: بناء ثم هدم، ومدح ثم ذم، ووضع للأساس ثم إنصراف عن المضي في البناء والإتمام... وهكذا دواليك ومن المظنون أن تبقى تعالج التجارب إلى أزمان قصية، ومن المظنون أيضاً أن يبقى مذاق هذه التجارب مراً أليماً، وأن تتجرع منها أضعاف ما تجرعت... والإنسان اليوم يجني أمر ثمرة زرع شجرتها ورواها حتى تساقطت عليه!

وهو يزعم الآن على ألسنة زعمائه وآلهته أن هذه الحرب هي نتيجة لتلك التجارب الضالة التي وضعت للسلم الماضية... وهم اليوم يملأون مسامع الوجود ومسامع البشرية وآمالها، أماني، واعدين بأن تجارب السلم المقبلة ستكون ناضجة، وأن ما سيضعون من الخطط والتصميمات لمنع الحروب والقضاء عليها سيأتي قضاء مفروغاً منه... ونحن نسأل الله أن يكون ما زعموه صحيحاً، وأن يكونوا مقتنعين بما قالوا.

فالقضاء والقدر معناهما: أن الله قد أوجد هذا العالم مقدراً بمقادير مضبوطة، محكوماً بسنن لا تقبل التغيير، وأنه تعالى قد فرغ من ذلك فراغاً لا يعقبه تبديل ولا تعديل ولا زيادة أو نقصان، لأن ذلك هو شأن الضعفاء أو الجهلاء أو السفهاء - وتعالى الله عن ذلك.

ونتيجة هذا الإيمان بالقضاء والقدر على هذا النحو أن تكون صلات الإنسان بالله وبالإنسان وبنفسه وبالخليقة كلها صلات سليمة مبنية على العقل والفكر الناضج، فإن الصلات بين الإنسان وبين ربه، وبينه وبين الإنسان الآخر، وبينه وبين نفسه إنما تفسد لإنكار القضاء والقدر بالمعنى الذي بيننا؛ فالإنسان إنما يتعلق بالخرافات والعقائد الباطلة ويشرك بالله ويعبد العاجزين ويضل في إتجاهه العام ويذهب إلى غير مذهب ويتمسك بغير سبب، ويريد من الوجود ومن الحياة ومن نفسه أيضاً ما ليس في الإمكان، ويروح يشيد قصوره وآماله الذهبية على الخيال الكاذب وعلى ما هو أوهى من ذلك - إنما يفعل هذا كله ويفعل غيره لأنه لم يؤمن بالقضاء والقدر بمعناهما الصحيح... ولو أنه عقل أن لكل شيء قدراً لا يتعداه، وسنة لا يفلت منها، وناموساً ليس في المستطاع الخروج من قبضته - ثم عقل أن الله قد فرغ من هذه السنن والنواميس والأقدار، وأنه قد طويت الصحف وجفت الأقلام، وأنه ليس من الممكن أن يحابي وأن يمالىء وأن يرشو أو يتملق أو يداهن - لو أنه عقل هذا كله لكان إتجاهه في الحياة وخطواته

في الطريق أقرب إلى الهدى وأبعد عن العثار والزلل.

فالأمم التي لا تؤمن بالقضاء والقدر بمعنيهما الصحيحين أمم لا يمكن أن تحسن في حياتها سوى التخبط والفوضى والإرتباك في شؤونها الخاصة والعامة، صغيرها وكبيرها... ومن أجل هذا كله - ومن أجل أشياء أخرى - كان الإيمان بهما من أركان الدين، وكان شأنهما ومقامهما من الإيمان عظيماً، لأن الدين إنما جاء منظماً ولا نظام مع الكفر بالقضاء والقدر اللذين بينهما. فالإيمان بهما إذن أولى خطوات الأمة في مدارج الكمال ومعارج السمو العقلي والمادي...

ولنختم هذا البحث برواية - هي وإن كانت ضعيفة الأسناد إلا أنها صحيحة المعنى مؤيدة لما قلنا. وذلك ما رواه البزار والطبراني عن ابن عباس وأبي قتادة قالا قال رسول الله: (هلاك أمتي في ثلاث؛ في القدرية والعصبية والرواية من غير ثبت.) والقدرية هنا إن كان المراد بهم المنكرين للقدر كان هذا واضحاً لما سبق من أن الذين ينكرون القدر يرون أن الوجود ليس فيه نظام وليس قائماً على الأسباب والمسببات. ومن كان رأيهم هذا فلن يكونوا هم منظمين لا في تفكيرهم ولا في أعمالهم، ولن تكون أفعالهم قائمة على أسبابها الصحيحة. وتبعاً لهذه الفوضى العقلية والعملية لن يكونوا شيئاً مذكوراً في الحياة... وأما إن كان المراد بالقدرية هم الذين يؤمنون بالقدر إيمان من ذكرنا فواضح أيضاً. فالقدرية على الإحتمالين لن ينجحوا في الحياة ولن يبلغوا منها شأواً عظيماً، ولن يصيروا أهلاً للقيادة والسيادة. وقد يكون المراد بالقدرية القدر، جاء على وزن النسبة.

التوكل - أخطاء الناس فيه
كيف يجب أن يفهم

أراد أحد سلاطين الأتراك في أواسط القرن الثالث عشر الهجري أن يدخل النظام الجديد الغربي على الجيوش العثمانية، فهاج الشعب وهاج الإنكشارية، يؤيدهم شيخ الإسلام والصدر الأعظم قائلين: إنه لا يجوز أن تكون عساكر الإسلام متشبهة بالكفار فأحدثوا شغباً عظيماً في العاصمة وغيرها، وقاموا يطالبون بقتل السلطان ومن معه من الوزراء الذين يريدون النظام الجديد، ويريدون إفساد طهارة الإيمان بأفعالهم الشنيعة. ونشروا منشوراً فيه أسماء الرجال من عظماء الدولة الذين يطالبون بقتلهم. وقد ذكر لهم أسماء أولئك الرجال شيخ الإسلام عطاء الله أفندي. فجدوا في ذلك حتى قتلوهم، ثم خرجوا في الطرقات ينادون: أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم، نسيت أنك أمير المؤمنين، وعوضاً عن إتكالك على الله القادر العظيم الذي يبدد في دقيقة واحدة الجيوش الكثيرة، وأردت أن تشبه الإسلام بالكفار وأغضبت الله، فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين ومحامياً عن الدين، فالعساكر المحافظة على كرسيك لم يبق لها ثقة بك، والمملكة أضحت مضطربة، فيجب عليك أن تلاحظ وأن تفضل على كل شيء شرف الإيمان وسلامة الإسلام... ثم أصدروا إستفتاء فيه: السلطان الذي يخالف القرآن هل يترك على تخت السلطنة! وكانت الفتوى: كلا. ثم صاحوا: قد صار معلوماً عندكم أنه يتحتم عزل السلطان، فما قولكم الآن! هل تسلمون له أن يفعل ما يخل بالإسلام! فصاحت العساكر: كلا كلا. لا نقبله سلطاناً فليعزل... وفي نهاية الأمر خلعوا هذا السلطان ثم قتلوه وألزموا من جاء بعده برد النظام الجديد الذي أريد إدخاله على جيوش الدولة.

«مصادر التاريخ الإسلامية»

* * *

هذه حادثة واحدة سقناها لندل بها على الهوة السحيقة التي سقط فيها الناس من جراء فهمهم التوكل بحيث صار أحد الأمراض الإجتماعية النفسية الإعتقادية التي تألبت عليهم حتى سلبوا الحول والقوة.

وقد اختلف الصوفية والمتزهدون والفقهاء - كعادتهم - في تحديد معنى

التوكل إختلافاً كبيراً، وكتبوا فيه كلاماً كثيراً، وأوردوا تعريفات لمعنى هذه الكلمة الإصطلاحي لا يمكن حصرها ولكن يمكن تلخيصها في كلمة أو كلمات:

فعندهم أن من اهتم لشيء في هذه الدنيا أو عمل له أو اعتقد أن شيئاً فيها يوصل إلى شيء آخر، أو أن شيئاً من الأشياء لا يمكن بلوغه إلا بأسبابه، أو أنه يستطيع أن ينفع نفسه أو يضرها، أو أن أحداً كائناً ما كان يقدر أن ينفعه أو يضره، أو أن أمراً متوقف وجوده على أمر آخر، أو أن أمراً معلل بأمر، فقد خرج من جميع حدود التوكل ومن كل أبوابه... وعندهم وعند الذين أخذوا عنهم أن الواجب على المؤمن المتوكل أن يستسلم وأن يطرح أعباءه وأثقاله كلها على الله، مسلماً نفسه للهدوء والراحة والكسل الذهني والجسدي، معتقداً أن الله سيفعل له كل شيء بأسباب يوجدها هو أو بلا أسباب... ومن رأيهم أنهم كلما غالوا في هذا الإستسلام وهذا التخلي عن العمل والتفكير في المصير والعاقبة لله التفت الله إليهم وسارع إلى قضاء حاجهم وإعطائهم ما يشاؤون وأن إيمان المرء وإسلامه مقيسان مقدوران بهذا الإستسلام والتخلي؛ فكلما تخلى التاجر والزارع والصانع وكل عامل ومفكر عن عمله وتفكيره لله زاد الله تجارته وصناعته وزراعته وعمله وتفكيره نماء وبركة وسداداً ورشاداً - وعلى حسب إهتمامهم والتفاتهم إلى أعمالهم يكون تخلى الله عنها وعنهم - وعلى قدر تخلي الله تكون المصيبة والخسران... ومن مذهبهم أنه يجب أن يتفرد الله لهم بتدبير الرزق والحياة وكل ما يحتاجون إليه، كما انفرد بإيجادهم - وأن من حاول أن يوجد رزقه بنفسه أو أن يشارك الله في إيجاده فهو كمن حاول أن يوجد حياته أو أن يشارك الله في إيجادها، أو كمن زعم أنه موجدها أو شريك موجدها.

وقد ذهبوا إلى أن التوكل هنا مأخوذ من الوكالة الموجودة بين الناس وهي أن الموكل يذهب إلى بيته ويترك لوكيله كل عمل وتفكير في تدبير ما وكل إليه، وأنه كلما تنحى صاحب الشأن عن الإهتمام والتفكير في شأنه، معتمداً على وكيله وعلى إخلاصه وعمله وإجتهاده كان ذلك التنحي أدعى إلى رضا الوكيل وإلى إخلاصه... ونحن هنا نثبت بعض ما ذكروا من عبارات.

فرأى بعضهم أن المتوكل لا يكون متوكلاً حتى يفقد التمييز بين الأشياء! قال أحدهم لأبي يزيد ما التوكل؟ فقال ما تقول أنت؟ فقال إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعي عن يمينك وشمالك ما تحرك لذلك سرك! فقال أبو يزيد نعم

هذا قريب! ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون، وأهل النار في النار يعذبون، ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل.

ورأى بعضهم أن التوكل ترك الإضطراب جملة! سئل ذو النون المصري عن التوكل فقال: خلع الأرباب وقطع الأسباب. وسئل أبو عبد الله القرشي فقال هو ترك كل سبب يوصل إلى سبب! وهذا كثير عنهم جداً.

وقال بعضهم إن أعلى درجات التوكل هو الموت جوعاً - ذكره الغزالي في الإحياء! قال: إن الموت جوعاً قربي إلى الله إذا كان الميت قد مات لأنه توكل على الله فترك العمل فلم يرزقه القوت وإنما رزقه الموت!! قال وموت المتوكل جوعاً يجب أن يعد رزقاً وغنيمة في الآخرة.

ومن رأى فريق أن التوكل ألا يدخر المتوكل شيئاً، فإذا أصاب مالاً أو شيئاً فرقه في الحال - قاله أبو يعقوب الزيات وعبد الله ابن الجلاء والغزالي في الإحياء وآخرون كثيرون.

وقال أبو سليمان الداراني لو توكلنا على الله ما بنينا الحيطان ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص! وقال ذو النون سافرت سنين وما صح لي التوكل إلا وقتاً واحداً: ركبت البحر فكسر المركب فتعلقت بخشبة من خشب المركب فقالت لي نفسي: إن حكم الله عليك بالغرق فما تنفعك هذه الخشبة! فخليت الخشبة فطفوت على الماء فوقعت على الساحل - حكى ذلك عنهما ابن الجوزي في تلبيس إبليس.

ومن قول طائفة أخرى أن التوكل هو ترك التداوي! وهذا مذهب خلائق. وروى ابن الجوزي في تلبيس إبليس عن سفيان بن عينية أن تفسير التوكل أن يرضى بما يُفعل به. وقال ابن الأثير في شرح غريب الحديث: معنى كون الله الوكيل أنه هو القيم الكفيل بأرزاق العباد. وحقيقته أن يستقل بأمر الموكول إليه... وفي قواميس اللغة: توكل على الله واتكل استسلم... وكلامهم في هذا الباب كثير جداً.

* * *

تطايرت هذه الآراء والأقوال في الكتب التي خلفها هؤلاء تطايراً لم يستطع وقفه ولا تحديد مداه، ثم فاضت من الكتب على الألسنة والعقول والأوهام وزخرت بها البيئات والمجتمعات الإسلامية، وشدا بها كل لسان وأشربها كل قلب، فأفسدت روح العمل وحبه والإعتداد بالنفس والتعويل عليها، ثم انجلت في النهاية عن أمم

إتكالية عاجزة لا تستطيع أن تستقل بأمر من أمورها الصغيرة أو الكبيرة، فهزمت هزائم ساحقة في كل الميادين، وصاروا أتباعاً في كل شيء، محتاجين في أقل شؤونهم إلى من يكلون إليه القيام به وإلى من يتوكلون عليه، مستسلمين لما يقوله ذلك الغير ولما يفعله، معترفين له بالعجز والضعف.

إن الشعوب التي تلقن منذ وجودها أنه لا يصح لها أن تعتمد فيما تحتاج إليه على قواها وسواعدها، وتلقن أن هناك قوة عليا مستعدة أبداً للقيام بكل ما يراد منها إستقلالاً، فما عليها إلا الضعف والإستسلام والإنتظار - وتلقن أنها عاجزة عن أن تعمل أو أن تستقل بالعمل لنفسها - وتلقن وجوب الإتكال بالمعنى السخيف الذي فهموه: - إن الشعوب التي يقضي عليها بأن تلقن هذه الخرافات والمحالات لهي شعوب غير جديرة بالحياة ولا بالإستقلال في جانب واحد من جوانبها، بل إن هذه الشعوب تخرج مطبوعة بروح الإتكال على الآخرين والإتباع لهم والإنتظار منهم... ولكن الأمم الجديرة بالكرامة وبالحياة هي الأمم التي تلقن منذ تستطيع الفهم أنها إنما وجدت في الأرض مجردة من كل ما يملك، مسلحة بكل أسلحة الجهاد والنضال، لتوجد حياتها هي بنفسها ولتعمل كل ما يلزم لبقائها وسلامتها وسعادتها - وتلقن أن الإنسانية بمجموعها هي التي أوجدت هذه الحياة وبنت هذا المجتمع وسخرت كل هذه الطبيعة بعقولها وكواهلها، دون أن يعينها معين ويشاركها مشارك - وأن هذه الإنسانية لو أنها انتحت هذا المنحى في الإتكال وراحت تلتمس من تتكل عليه ومن تكل إلى قوته القيام بما تريد وبما لا تستغني عنه لظلت حتى اليوم - أي من يوم وجودها - منتظرة مرتقبة ما لا سبيل إلى حصوله، ولبقيت كإحدى هذه الفصائل الحيوانية، أو لانقرضت كما انقرضت في سالف الدهور الأحياء التي عجزت عن مغالبة الحياة ومجابهة الطبيعة العاتية.

إن المعاني الإنسانية تنمي وتوجه وتمرن كما تنمي وتوجه وتمرن المادة: فإذا مرن عقل الإنسان على أن يباشر شؤونه بنفسه ويقوم بها هو ويخضعها لإرادته إستقلالاً وبلا مساعد، نما عقله واشتد وارتاض على مغالبة الأهوال والشدائد وعلى غلبها واتجه إلى ذلك إتجاهاً طبيعياً، وصار قادراً على حل ما يوكل إليه وعلى إتمامه. أما إذا لم يمرن عقله ولا فكره ولا أخلاقه على شيء من ذلك فإنه يبقى غير مستطيع لشيء غير صالح لشيء، كما أن جسمه إذا لم يمرن على

العمل لم يستطع أن يعمل، وإذا لم ينم بل يبقى هزيلاً عليلاً عاجزاً. ومن ذا يستطيع الكتابة أو السباحة أو ضرباً من ضروب الرياضة البدنية والأعمال اليدوية إذا لم يتعلم ويتمرن... إنك إذا عمدت إلى نوع من أنواع المادة النامية ووجهته غير جهته الطبيعية، وعالجته على ذلك فإنه يتجه غير جهته ويتحول إلى غير سبيله، ثم يأخذ وينمو على الوضع الجديد الذي وضعته فيه، ويصبح رجوعه إلى طبيعته الأولى محتاجاً إلى قوة غير ذاتية ترجعه وتضعه فيه. وهكذا تفكير الإنسانية وفهمها للحياة إذا غير وضعه وأفسد إتجاهه وصرف عن طريقه، فإنه يقبل ذلك ويأخذ يعتاده ويرتاض عليه حتى يتكيف به ويصير له طبيعة – أي إنه يفسد فساداً يمنعه النجاح ويوجهه إلى الفشل... فهؤلاء الذين يربون منذ الساعة الأولى، مفهمين بأن الذي عليهم هو أن يسلموا أمورهم كلها ويسلموا التفكير فيها إلى الله ليفعلها لهم وليبقوا هم متمتعين بالكسل وبلذيذ السبات الدائم، حالمين بأن الله مستعد لأن ينوب عنهم ويتوكل لهم ويحامي عن قضاياهم أمام محاكم النواميس الكونية الصارمة، قوم يربون على الدمار وعلى الموت، وعلى أن يتجردوا من كل قوة ويتخلوا من كل سلاح، متوهمين أن من لا يغلب يقاتل عنهم ويرد عن ساحتهم كل سنة غازية من سنن الطبيعة... ما أرخصها من معان وأضعفها من تعاليم! وما أرخص وأضعف من يتعلمونها.

ليتصور من لا يستطيع أن ينفذ إلى حقائق علم النفس الكبرى طفلاً يولد في بيئة من البيئات، تأخذ هذه البيئة بتلقين هذا الطفل بأن حوله قوة غالبة عزيزة لا يمتنع عليها شيء، وأن هذه القوة على إستعداد لأن تهبه كل ما يشتهي في كل وقت وفي كل مكان بدون عناء ودون عمل ودون ثمن سوى أن يستسلم لها ويركن إليها ويتوكل عليها ويثق بها – ثم يؤمن هذا الطفل بهذا التعليم إيماناً خالصاً – ليتصور منا من لا يستطيع النفوذ إلى الحقائق الكبرى حالة هذا الطفل: كيف يمكن أن يكون وكيف يمكن أن يجابه الحياة؟ هل من الجائز أن يصنع مثل هذا الطفل خيراً أو أن يقوى على شيء؟ ثم ليعلم أن شراً منه ذلك الطفل أو الرجل الذي يعلم هذه التعاليم الإتكالية ويلقن كل هذه الملقنات للإستسلام والإنتظار.

مسألتان متشابهتان: إحداهما أن الإنسان وجد نفسه في مجتمع، ووجد أنه لا يقدر أن يظفر بحق من حقوقه في مجتمعه هذا إلا بالرجوع إلى الوساطات والشفاعات الواقفة على كل باب وأمام كل حاجة، فذهب يعتقد أنه أيضاً في طلب

حقوقه وحاجاته من الله لا يمكن أن يظفر بها إلا إذا اتخذ لديه الوسطاء والشفعاء، ذاهباً بهذه مذهب هذه - وثانيهما أن هذا الإنسان نفسه علم الإتكال وبري عليه مفروضاً في بدء الأمر في الله، فصار هذا الإنسان إتكالياً من كل وجه، مقدراً ومريداً أن يبلغ كل ما يشتهي من غير عمل، تارة من الله، وتارة من المجتمع الذي يعيش فيه أو من إنسان آخر مثله - ذاهباً في هذه مذهبه في تلك. وليس من المستبعد أن يكون مبدأ الوساطة المطلقة قائماً على مبدأ الإتكال المطلق، أي إن الحامل للإنسان على إتخاذ الوسطاء وطلبه أغراضه من طريقهم وبعونهم هو تمكن مبدأ الإتكال من نفسه ومن عقيدته وتربيته. فإن محاولة هؤلاء الضارعين إلى الوسطاء أن يدركوا كل ما يؤملون منهم هي محاولة إتكالية خالصة. ولا يمكن أن توجد إلا في بيئة الإتكاليين المسرفين في الإعتماد على الآخرين المسيئين للظن بأنفسهم وبقدرتها على أن تبلغهم ما يرجون. ولهذا فإنه لا يوجد أكسل ولا أعجز عن العمل وعن مصاولة الحياة من هذه المخلوقات العاكفة على أصنامها وأربابها، سواء أكانت هذه الأرباب والأصنام أمواتاً أم أحياء، وسواء أكانت حيوانات أم جمادات. وإذا أردنا أن ننقذ وننجو بها من كل ألوان هذا الضعف وجب علينا أن ننقذها من كل هذه المحاولات والإعتقادات العقيمة. فإن عوامل الضعف والسقوط في الأمم تتجاذب كالمادة نفسها. والعادة أن الضعف يولد ضعيفاً آخر، وأن الجهل يجر إلى جهل، والخطأ يجذب خطأ آخر، والمرض تكون إحدى مضاعفاته مرضاً، وهكذا، كما أن العكس أيضاً صحيح وأن القوة تولد القوة، والعلم يجر إلى علم، والصواب يجذب صواباً، والصحة تهب صحة.

* * *

نعم، التوكل جاء في أكثر سور القرآن مكرراً، وجاءت الأديان كلها آمرة به، واتفق المسلمون على أنه ركن من أركان دينهم. وليس الخلاف في حسنه ووجوبه ولكن في تفسيره ومعناه. فالجماهير من الخاصة والعامة أخذوه على النحو الذي قدمناه فكانت عاقبتهم وبيلة... أما معناه على حسب رأينا وعلى حسب الدلائل المختلفة فهو ما سنذكره:

إذا وكلت وكيلاً لينوب عنك في أمر من أمورك ورضيت بوكالته ر ضاً مطلقاً واعتمدت عليه إعتماداً تاماً بلا شك منك ولا تردد في عمله، فمعنى هذا أنك معتقد

بأن أعمال ذلك الوكيل وما سيقوم به من أسباب وما يضع من وسائل لإنجاح الغاية التي يراد إنجاحها، أعمال مؤدية إلى الغاية، وأسباب موصلة إلى المسببات، ووسائل مقربة إلى النتائج. وكلما ازددت إعتقاداً بصحة أعماله وأسبابه ووسائله وبتوصيلها إلى أهدافها ازددت عليه توكلاً وبوكالته غبطة، وازداد هو - أي وكيلك - رضاً عنك وسروراً بإيمانك بوكالته... وأما إذا شككت في الوسائل والأسباب والأعمال التي يؤديها، أو شككت في إيصالها إلى المطلوب فإن توكلك عليه يضعف، وإيمانك يهن، وإنه هو حينئذ يغضب من شكك ويساء من ريبك فيه وفيما يصنعه، فلا أنت حينئذ مؤمن به وبأنه الوكيل الناجح الجدير بالإعتماد والثقة، ولا هو راض عنك مسرور بإعتقادك فيه ونظرك إليه... وهكذا لننظر إلى التوكل على الله؛ فالتوكل الصحيح عليه هو أن تثق ثقة مطلقة في أن ما وضعه لعباده من أسباب ووسائل اتبلغهم غاياتهم هي أسباب ووسائل مؤدية إلى مسبباتها ونتائجها بلا تخلف... فالعلاج الصحيح الموافق من كل وجه للمرض - وهو سبب من الأسباب - مؤد بلا ريب إلى الشفاء، ووضع البذر الصحيح السليم في التربة السليمة الصالحة لإنبات ذلك البذر، مؤد بلا ريب إلى الإنبات، ثم إلى الإثمار إذا ما سقي وحفظ من الآفات، وإختلاط الذكورة القادرة على الإخصاب بالأنوثة القادرة كذلك مؤد إلى وجود الولد إلا أن يوجد مانع من الموانع الطبيعية، وسلوكك في الحياة سلوكاً سليماً من العثار والزلل مؤد بك إلى النجاح إلا أن يكون هنالك عقبة طبيعية. وهكذا القول في كل ما يدعى أسباباً ووسائل. فكلما ازددت ثقة بهذه الأسباب التي جدلها الله كذلك، ازددت توكلاً عليه وثقة به وبأعماله وتصديقاً بأخباره حينما أخبر بأن الأسباب موصلة إلى غاياتها. وإذا شككت في الأسباب والطرق التي جعلها الله، وجوزت ألا توصل إلى شيء فقد نقص توكلك على الله وإيمانك بنظامه وأصيب يقينك بأخباره وأضحيت من الشاكين غير المتوكلين. ولا شك أنك إذا وكلت إلى مهندس تصميم منزل له، ووكلت إلى بناء القيام بذلك المنزل فقد أمنت بهما واعتمدت على عملهما، أما لو ارتبت فيهما وفيما يضعان من تصميم وهندسة ومن آلات رفع وأدوات بناء لما وكلت إليهما أمر منزلك ولما أمكن أن تكون متوكلاً عليهما، ولو جوزت ألا يكون البيت صالحاً في النهاية للسكن وجوزت أن يخر بعد الفراغ منه - إما لخطأ في هندسته وتصميمه وإما لضعف في مواد بنائه - لما عددت مؤمناً بهما

ولا متوكلاً عليهما ولا واكلاً إليهما الأمر وكالة صحيحة... فكذلك لو ارتبت فيما وضعه الله من أسباب وما علم من طرق، وجوزت أن تتخلف النتيجة وألا تكون الأسباب موصلة، لكنت من المرتابين في الله وفي أعماله وفي كتبه وأنبيائه الذين جاءوا دالين على الأسباب وعلى ما لها من قيمة... فالتوكل الصحيح إذن هو أن تؤمن بنواميس هذا الوجود وأن تعتقد بأن الخالق، قد وضع له سنناً لا إضطراب فيها، ولا محاباة، وأنه قد ربط بين العلل والمعلولات.

أما غير المتوكلين حقاً فهم أولئك الذين لا يثقون بسنة من سنن الله، ولا بناموس من نواميسه، ويجوزون عليهما الإختلال والإختلاف، زاعمين أنه لا ضبط ولا حساب ولا حدود ولا رسوم يجريان عليها ولا يخرجان عنها... وإذن فهذه الأقوال التي حكيناها عن جماعات الصوفية والمتزهدين ليست بأقوال المتوكلين، وإنما هي أقوال الفوضويين الذين مس عقولهم وأفكارهم الإضطراب المستحكم، فظنوا الله كذلك فقدحوا فيه من حيث لا يشعرون، وخرجوا من كل أبواب التوكل وهم يحسبون أنهم المتوكلون. وقد قال عليه السلام (من استرقى أو اكتوى فقد بريء من التوكل) رواه الترمذي. وعن عمران ابن حصين قال: قال رسول الله (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب) قيل من هم يا رسول الله؟ قال (الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) رواه مسلم. وهذا لأن هذه الأمور ليست من الأسباب الطبيعية، فكان الإعتماد عليها والرجوع إليها رجوعاً إلى غير أسباب وإعتماداً على غير شيء، فكان ذلك منافياً للتوكل، كما ذكرنا هو الإيمان بالأسباب.

لست أريد أن أقول إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الإعتقاد بأن الله قد يدخل فيها فيجعلها إن شاء أسباباً ويجعلها إن شاء غير أسباب، أو مع الإعتقاد بأنه تعالى قد يفعل من غير الأسباب. فإن هذا هو السفه والفوضى التي لا ضابط لها. ولو أنك رجوت من وكيلك أن يدير وكالته على هذا النحو لكنت راجياً المحال والظلم، ولو أنه أدارها كذلك لكان ملوماً ظلوماً... ولكن التوكل هو الإيمان بقدرة الله وبعدله وبحكمته وبأخباره. فالإيمان بقدرته يوجب الإيمان بأن ما جعله سبباً لشيء فسيبقى كذلك ولن تبطل سببيته بحال، ولن يوصل إلى ذلك الشيء شيء آخر غيره، ويوجب الإيمان بأن ذلك الشيء الذي جعله مسبباً عنه لن يوصل إليه بدونه؛ فبوجود السبب يوجد المسبب وبفقده لا يوجد... والإيمان بعدله يوجب

الإيمان بالتسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر إلى الأشياء التي لا تتصل بذلك، وبدون نظر إلى أديانهم ومذاهبهم. فمن أخذ بالسبب بلغ مسببه وإلا فلا، تلك هي العدالة الشاملة... والإيمان بحكمته يوجب الإيمان بهذا أيضاً، إذ لو لم يسر الأمر كذلك لوقع الناس في الفوضى الإعتقادية والعملية. ولن ينجو بهم من هذه الفوضى إلا إيمانهم بالعدل المطلق والإرتباط بين الأسباب والمسببات. وكذلك الإيمان بأخباره، فإنه إذا أخبر أن شيئاً سبب لشيء وجب التصديق ووجب التكذيب لما يخالفه.

ولا شك أن الإعتقاد بأن الله يدخل في الأسباب ويدخل بينها وبين الآخذين بها: فيجعلها حيناً أسباباً لأنه راض عن الآخذ بها، ويجعلها أحياناً أخرى غير أسباب لأنه غاضب على الآخذ بها، ويجعلها في يد فلان أسباباً وفي يد فلان ليست أسباباً، ويعطي أحياناً بها ويعطي أحياناً بدونها، وقد يمنع أحياناً أخرى بها، ويفقدها إنسان ويبلغ كل آماله، ويأخذ بها إنسان آخر، ثم لا يبلغ شيئاً من آماله، وهكذا يتصرف نقضاً وبناء في نواميسه وخلائقه – على حسب رضاه وسخطه وحبه وكراهته وعلى حسب إختلاف الأديان والمذاهب، وعلى حسب تغير مشيئته – نعم، إن الإعتقاد بأن الله هكذا يصنع ينافي التوكل على كل إحتمال. وإن حكومة تعامل شعبها هذه المعاملة فلا تسوي بينهم على مقتضى الأسباب والأعمال، بل تفرق بينهم وتفرق بين نتائج أسبابهم وأعمالهم، لأنها تفرق بينهم في الحب والبغض، لأن منهم الموافقين ومنهم المخالفين على حسب الأحزاب والمبادىء والأشياء الأخرى – إن حكومة تفعل ذلك معدودة من شر الحكومات، وهي حكومة لا يصح الإتكال عليها ولا الإعتماد على حكمها ولا الإيمان بحكمتها. فكيف يسوغ للعاقل أن يصف الله بهذه الصفة.

ومن الإرشادات النبوية اللطيفة الدالة على ما ذكرنا من معنى التوكل ما جاء أنه عليه السلام قضى بقضاء بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل فقال الرسول (ردوا على الرجل) فقال: (ماذا قلت؟) قال: قلت حسبي الله ونعم الوكيل، فقال عليه السلام (إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل.) وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله (إن الله يلوم على العجز فابذل من نفسك الجهد. فإن غلبت فقل توكلت على الله.) وعن أنس بن مالك قال جاء رجل إلى النبي وترك ناقته على باب المسجد

فسأله الرسول عنها فقال أطلقتها وتوكلت على الله فقال عليه السلام (اعقلها وتوكل.)

فقول الرجل: حسبي الله ونعم الوكيل بعد هزيمته في القضاء يوهم أنه يفهم من كون الله وكيلاً أنه يتصرف ويقضي على مقتضى أهواء الناس ومصالحهم وما يريدون لأنفسهم لا على مقتضى الأسباب والنواميس التي وضعها وقضى بها على خلقه قضاء لا راد له. فأرشده مرشد الإنسانية إلى خطئه، وأفهمه أن معنى كونه تعالى وكيلاً أنه وضع الأسباب والمسببات وربط بينها فلا إنفكاك. فالتوكل عليه يجب أن يكون معناه الإلتفات إلى ذلك والأخذ به والإعتماد عليه. وليس هو التوهم أنه يفعل الخوارق والمعجزات محطماً الحواجز، خارقاً النواميس، متجاوزاً الحدود التي حدها هو.

وقوله عليه السلام (فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل) معناه: إذا أعطيت من نفسك المستطاع ثم غلبت وجب عليك أن تعلم أنك إنما غلبت بالحق وبالقوانين التي لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها ويحتكمون إليها. وإذا كان ذلك كذلك وجب عليك الرضا بالحكم وإن كان غلباً وهزيمة لأنه عدل، ووجب عليك الثناء على الحاكم القاضي وإن كان قضاؤه عليك لا لك، لأنه عادل غير محاب، ولأنه عالم غير جاهل، ووجب أن تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، ثم وجب أن تخص نفسك باللوم إن كان ثم ما يدعو إلى اللوم بعجز أو تقصير... وهذا بمثابة قولك: نعم القاضي هذا - مشيراً إلى قاض قضى عليك ولكنك تعرف أنه إنما قضى بالحق.

وأما قول صاحب الناقة أطلقتها وتوكلت فإنه يذهب في هذا القول وهذا العمل إلى أن معنى التوكل هو الإستسلام وترك الحيطة والعقل، مؤملاً أن يفعل الله له ما يشاء وأن ينزل من أجله وأجل ناقته جبريل وميكائيل، في يد أحدهما خطام، وفي يد الآخر عقال ليحفظا له الناقة من الضياع والهرب. فرد عليه الرسول هذا قائلاً: اعقلها وتوكل، مبيناً له أن الإتكال معناه الأخذ بالوسائل مع الإعتماد عليها وعلى إنجاحها، لأنها من خلق الله ومن شرعه، وشرع الله وخلقه خليقان بأن يؤديا إلى النجاح، ومبيناً له أن من سلك الطريق لزمه أن يطمئن وألا يخشى من وراء الأسباب جوراً وعدواناً، كأن يهاجم ناقته المعقولة روح من الأرواح أو عفريت من العفاريت أو شيء آخر خفي، من الأشياء الأخرى الخفية فيسرقها أو

يضيعها أو يحل عقالها كما يظن ضحايا الأرواح، أو كأن يصنع الله بناقته بعض الأشياء التي يزعمون أنه يصنعها - خروجاً على السنن والأسباب والعادات، بقصد الإمتحان أو الإبتلاء، أو لأنه تعالى يحبه والمحبوب مقصود بالأذى والتحدي كما يزعمون... وهذا ما يشير إليه قوله (وتوكل) أي اطمئن وثق بالنتيجة إذا ما أخذت بالحيطة الكاملة.

وإذا ما فهم التوكل كهذا الذي ذكرنا كان قوة من أعظم القوى، وكان مهمازاً يسوق الإنسانية أعنف سوق إلى العمل وإلى إفراغ الجهد كله، وكان قاطعاً لدابر الكسل والركود والإتكال، إنتظاراً لما وراء الأسباب، ولما في الغيب مما لن يجيء، ومما ليس في الحسبان... والتوكل بهذا المعنى هو روح الإنسانية ومتى زايلها فقد حانت وفاتها. وهو بهذا المعنى أيضاً روح الأديان وروح الإسلام. ولهذا جاء ذكره في أكثر سور القرآن مأموراً به ومخبراً عنه. وقد كان بهذا المعنى إحدى القوى الكبرى التي قدمت للعرب مفاتيح البلدان، وأخضعت لهم الممالك، وقهرت بهم الأديان، ووضعت في أيديهم مقاليد الدنيا - الدنيا التي كانت تعوزها هذه الروح، والتي كانت إذ ذاك تتصور التوكل على نحو ما يتصوره المسلمون اليوم: الجمود والإستسلام ورجاء ما لا يكون.

الأسباب - أوهام الناس فيها
كيف يجب أن تفهم

اقصد إلى تربة غنية بالعناصر اللازمة للإنبات والإنماء وادفن فيها البذر الصحيح القوي في الوقت المناسب، ثم اسقها بالماء وفاق أصول الري العلمية الصحيحة، ثم انظر كيف تنبت هذه التربة وكيف يجيء نباتها! إنها سوف تنبت وإن نباتها سوف يخرج جيداً إلا أن تكون هناك آفة من الآفات الزراعية. فإذا لم تنبت أو لم يكن نباتها قوياً صحيحاً فلا ريب في وجود مانع إما في الأرض، وإما في البذر، وإما في طريقة الري، وإما في المناخ، وإما في أحد الأشياء المعروفة... أما أن تجتمع هذه الأمور وتنتفي هذه الموانع ثم لا يخرج النبات - أو يخرج ولا يكون صحيحاً - فمحال.

ثم اقصد إلى أرض غير صالحة للإنبات وضع فيها بذراً، أو صالحة للإنبات ثم لا تسقها بعد وضع البذر فيها مع إمتناع الماء عنها، أو إلى أرض صالحة للإنبات واسقها بالماء راجياً أن تنبت بدون أن يكون فيها البذر، ثم انظر هل من الممكن أن تنبت هذه الأرض مهما دعوت ورجوت. وهنا يورد قول الله: "والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً. كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون."

أو اقصد إلى كائن حي وامنع عنه الطعام والشراب أو امنع عنه الهواء أو أفسد فيه أحد الأعضاء التي لا تكون الحياة بدونه، وانظر هل من المحتمل أن يبقى حياً، أو وفر لهذا الكائن الحي ما يلزم له من طعام وشراب وهواء وادفع عنه الآفات وما تكون به الوفاة وانظر كيف يبقى حياً... والنتيجة لهذا أنه إذا وجدت الأسباب وافية وجدت المسببات وإلا فلا. غير أنه يجب أن يلاحظ أن الأسباب نوعان سلبي وإيجابي؛ فالإيجابي هو الذي يحصل الشيء ويترتب عليه، والسلبي هو الذي يزاوله يحصل الشيء. فإذا توفرت أسباب أمر واندفعت موانعه حصل ذلك الأمر، وإذا لم توجد أسبابه ووجدت موانعه، أو وجدت أسبابه وموانعه، أو لم توجد لا أسبابه ولا موانعه، لم يقع ذلك الأمر وقد دل على هذا كل أصناف الدلائل المعروفة عند البشر - هذه مقدمة نقول بعدها:

أساء المسلمون الظن بالأسباب وأكثروا من القول في تقليل قيمتها وأثرها بل

في تجريدها من كل قيمة وأثر، وملأوا الكتب والمنابر والنوادي والمجالس كتابة وخطابة بأن تحصيل السبب وافياً ليس معناه تحصيل المطلوب، وأن فقده ليس معناه فقد المطلوب فقد تأخذ بأسباب شيء أحسن أخذ ثم لا تنال غرضك، وقد تنال كل ما ترجو بدون أن تأخذ بسبب واحد من أسباب ذلك. وقد زعموا أن القول بذلك قول بعظمة الله وبقدرته الشاملة وتصرفه المطلق! وقد قالوا في تعريف الأسباب: "إنها الذي لا يلزم من وجودها الوجود ولا يلزم من عدمها العدم" أي لا يلزم من وجود الأسباب وجود مسبباتها، ولا يلزم من عدمها - أي عدم الأسباب - العدم - أي عدم المسببات.

وقد صار الناس في هذه المسألة طائفتين: إحداهما أكبر من الأخرى ضلالاً: طائفة تنكر الأسباب والأخذ بها جملة، وتنكر أن يكون لها شيء من الأثر، وتطعن في دين من يأخذ بها ومن يراها شيئاً... وزعماء هذه الطائفة كثيرون منهم الغزالي - على تناقض فيه - ومنهم ابن عطاء الله والحارث بن أسد المحاسبي. قال الغزالي في كتاب منهاج العابدين: "فإن قيل هل يلزم العبد طلب الرزق فاعلم أن الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه، إذ هو من فعل الله للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا دفعه. وأما المقسوم من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه إذ لا حاجة بالعبد إليه، وإنما حاجته إلى المضمون وهو من الله وفي ضمانه. وأما قوله "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله" فالمراد به العلم والثواب... فإن قيل لكن لهذا الرزق المضمون أسباب هل يلزمنا طلبها! قيل لا يلزم ذلك إذ لا حاجة للعبد إليه إذ الله يفعل بسبب وبغير سبب، فمن أين يلزمنا طلب السبب! ثم إن الله ضمن لك ضماناً مطلقاً من غير شرط الطلب والكسب قال: "وما من دابة في الأرض إلى على الله رزقها. ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه... فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه فلا يصح تكليفه... ثم إن الأنبياء والأولياء لم يطلبوا رزقاً في الأكثر وتجردوا للعبادة، وبالإجماع أنهم لم يكونوا تاركين لأمر الله ولا عاصين له في ذلك. فتبين أن طلب الرزق وأسبابه ليس بأمر لازم للعبد"... انتهى. وقد كرر هذه المعاني في الإحياء وجاء فيه: أصاب الربيع فالج فقيل له لو تداويت! فقال لقد هممت ولكن ذكرت عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً، وكان فيهم الأطباء فهلك المُداوي والمداوى. وذكر عن الإمام أحمد أنه أشار بترك

التداوي... وقد ساق هنا عدة أمور تصرف عن التداوي: أحدها أن يكون المريض من المكاشفين فيكاشف بأن أجله قد انتهى وأنه لا فائدة في العلاج وزالتداوي! قال: وذلك كان عنده معلوماً تارة برؤيا صادقة وتارة بحدس وظن، وتارة بكشف محقق!! ثم أورد أن سهلاً سئل عن الغذاء والقوت فقال لمن سأله: ما لك وللجسد؟ دع من تولاه أو لا يتولاه آخراً. إذا دخلت عليه علة فرده إلى صانعه! أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردت إلى صانعها حتى يصلحها!! وقال في فصل آخر من الإحياء: لقد أحسن الشاعر يوم أن قال:

جنون منك أن تسعى لرزق

ويرزق في غشاوته الجنين

قال وقال وهب: لو كانت السماء نحاساً والأرض رصاصاً واهتممت برزق لظننت أني مشرك! وقال الجنيد: الحيلة ترك الحيلة - لما سئل عن طلب الرزق والعمل له. قال والإهتمام بالرزق قبيح يؤذي الدين وهو بالعلماء أقبح... وهذا النوع من الكلام كثير في الإحياء وغيره من كتب الغزالي وغير الغزالي.

أما ابن عطاء الله السكندري فقد ألف كتاباً في هذا سماه (التنوير في إسقاط التدبير.) وجملة هذا الكتاب هو ما جاء في أوله نقلاً عن الشاذلي: "إن كان ولا بد من التدبير فدبروا ألا تدبروا - وقوله - لا تختر من أمرك شيئاً واختر ألا تختار وفر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شيء."... وجاء في هذا الكتاب أن المدبر لنفسه مع الله يبني والله يهدم! ثم أورد قول الشاعر:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه

إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

قال: والتدبير شجرة تسقي بسوء الظن بالله وثمرتها القطيعة عن الله، إذ لو أحسن العبد الظن بالله لماتت شجرة التدبير من قلبه لإنقطاع غذائها! وإنما كان ثمرتها القطيعة عن الله لأن من دبر لنفسه فقد اكتفى بعقله ورضي بتدبيره واحتال على وجوده، فعقوبته أن يحال عليه وأن يمنع واردات المنن أن تصل إليه... وهكذا ساق الكتاب.

وجاء في كتاب عوارف المعارف للسهروردي: قال حكى عن بعضهم أنه خطر له خاطر الإهتمام بالرزق فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قنبرة عمياء عرجاء ضعيفة فوقف متعجباً منها متفكراً فيما تأكل مع عجزها عن الطيران والمشي

والرؤية، فبينما هو كذلك إذ انشقت الأرض فخرج منها إناءات في أحدهما سمسم وفي الآخر ماء صاف، فأكلت وشربت ثم انشقت الأرض وغاب الإناءان. فلما رأى ذلك سقط من قلبه الإهتمام بالرزق! قال: فإذا أوقف الحق عبده في هذا المقام، يزيل عن باطنه الإهتمام، ويرى الدخول في التكسب والتسبب رتبة العوام، ويصير مسلوب الإختيار! قال وسئل التستري عن علم الحال قال: هو ترك التدبير! قال وقيل لأبي يزيد: ما نراك تشتغل بكسب فمن أين معاشك؟ فقال: مولاي يرزق الكلب والخنزير أتراه لا يرزق أبا يزيد - إلى ألوان كثيرة في الكتاب... وقد قالوا في هذا المعنى قولهم المشهور:

لا تدبر لك أمراً
فأولو التدبير هلكى
سلم الأمر تجدنا
نحن أولى بك منكا

ومن الإغراق في الإغراب أنهم لم يجعلوا الأسباب غير مجدية فحسب بل زعموا – وقد أبدعوا في هذا الزعم – أن الأخذ بالأسباب مما يبعد الحاجات ومما يحرم منها وأنشدوا في هذا:

تجد الرزق الذي تطلبه
شبه الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه مستعجلا
فإذا وليت عنه تبعك

فأنت إذا أردت الرزق وجب عليك أن تهرب منه. أما إذا كنت لا تريده فما عليك إلا أن تطلبه وأن تأخذ بأسبابه، فإنه حينئذ يمعن في الهرب منك، وإنك لن تدركه. وليس في الدنيا منطق أفسد ولا أعجب من هذا المنطق. ومن المؤلم أن أحد العلماء نسب هذا الشعر في كتاب له إلى المجاهد صلاح الدين الأيوبي.

أما الطائفة الأخرى فإنها لم تنكر الأسباب جملة ولكنها جردتها من التأثير وزعمت أنها مظاهر صورية يؤديها الإنسان، لأن الله أمر بتأديتها، أو لأن الطبيعة البشرية تطمئن بها وتستريح إليها، لا لأنها تؤثر أو توصل. وهنا تكلموا كثيراً وتكلم علماء الكلام الذين يسمون علماء التوحيد أكثر، وتركوا وراءهم ثروة هائلة ما أخلق وارثها بالفقر... وقد ذكروا في توجيه المسألة إحتمالين

كلاهما عندهم كفر: أحدهما الزعم أن الأشياء توصل إلى نتائجها بطبيعتها، وأن الأسباب تؤدي إلى مسبباتها بقوتها. وثانيهما: الزعم أنها علل تترتب عليها المعلولات. وكلا الأمرين عندهم كفر. فمن اعتقد بأن السيف يقطع بطبعه وأن النار تحرق بطبعها وأن الطعام والشراب يشبع ويروي كذلك، وأن الكائنات الحية من طبيعتها النماء والحركة، أو أن العمل والطلب والذكاء والعلم يوصل إلى النجاح ويعصم من الفشل والإملاق، أو اعتقد أن الأشياء المذكورة علل لما يراد منها ويطلب بها، فهو كافر زنديق مشرك بالله على ما زعموا! وقد نظموا هذا شعراً واستظهروه وأمروا بإستظهاره، فقالوا في إحدى المنظومات الإعتقادية التي تحفظ وتدرس:

ومن يقل بالطبع أو بالعله
فذاك كفر عند أهل الملة

والمسألة إجماعية على حسب قول هذه العقيدة النظمية... ورأيهم في هذا الموضوع أن كل هذه الأشياء وكل ما يسمى في الدنيا وسيلة أو مؤثراً أو علة أو سبباً لا يعدو أن يكون مقارناً لفعل الله فقط. فالآلة الحادة لا تقطع ولكن الله يقطع عند الإهواء بها والنار لا تحرق ولكنه تعالى يحرق حين إتصالها بشيء يحترق، وهكذا يقولون في كل ما يتعاطاه الناس ويفعلونه. وقد أفسدوا على الناس بهذه الآراء حياتهم وأضاعوا عليهم كل ثقة بالأسباب، وصار العامة – بل والخاصة – لا يعقدون على سبب أملاً عقداً حقيقياً. وقد أثرت هذه الأقوال في أعمال الناس تأثيراً وقع بهم على الفشل والخيبة. ومن الملاحظ عليهم – وهذا أثر من آثار هذه الإعتقادات – أنهم لا يبنون أحكامهم على الأشياء ولا يتوقعون حدوث النتائج بناء على قوة الأسباب وضعفها، لأنها على حسب ما قيل لهم وحسب ما عتقدوا، قليلة القيمة ضئيلة الأثر... وقد كانت أحكامهم على هذه الحرب وعلى نتيجتها أحكاماً قائمة على أنهم لا يقيمون للأسباب وزناً؛ فهؤلاء سينتصرون وأولئك سينكسرون، أحكاماً صارمة قاطعة يطلقونها. فإذا قلت لهم: كيف، وأولئك الذين جعلتم نصيبهم من الحرب الإنكسار يملكون وسائل الإنتصار، وأولئك الذين جعلتم حظهم منها النصر فاقدون لآلاته وأسبابه، عجبوا منك ونظروا إليك نظرهم إلى من جعل مع الله شريكاً وحسبوك تتكلم بلسان الكافرين المارقين!! ومن الإغراب في الإغراب أن كثيرين منهم قد زعموا

أن نتيجة هذه الحرب قد تكون إنتصار المسلمين، وأن ثمرتها قد تخص أفواه الشرقيين! فإذا حاولت أن تقول لهم: وأين وسائل هذا عجبوا منك ومن وسائلك.

عقدة نفسية، ومشكلة إجتماعية، وشعب قست عليه الحياة بكل سلطانها يراد له أن يخرج من قسوتها، ولكن أشد جوانب هذه المشكلة أنه لا يدري ما سبيل الخروج ولا ما طريقه؛ صانع يراد له أن يتقن صناعته لأنها منحطة ولكن يمنع من إتقانها ومحاولة إتقانها أنه لا يدري أن الإتقان سبب للنجاح وللشهرة وسعة الرزق، وأن محاولة الإتقان تؤدي إلى الإتقان – وزارع جاهل في زراعته يراد له أن يسمو بها بكل وسائل السمو، ولكن يقعد به عن هذا الغرض أنه لا يعرف ولا يعترف بأن المسببات منوطة – وتاجر صغير في تجارته هابط بها يراد له أن يكون كبيراً وأن تكون هي كبيرة، ولكن يعجزه أنه لم يكن يدري أن لذلك أسباباً... وهكذا القول في كل إنسان من هذه الأمة فما وجه النجاة والخلاص؟ وجه هذا أن يعلّموا وأن يعلموا أن الله قد جعل الأمور هي كل شيء وأنه لم يجعل شيئاً بدون سبب، وأن المرء يتوصل بالأسباب إلى كل أموره ولا يتوصل بغيرها إلى شيء. فهي مؤثرة حقيقة، بل موجدة حقيقة إيجاداً جعله له في طبعها. وقد تقدم في صفة الرسول وصفة أبي بكر أنهما كانا يكسبان المعدوم أي بوحدته.

وقد ذكر الله في كتابه الأسباب في مقام من مقامات الثناء والإطراء حينما ذكر عبداً من عباده المصلحين الأقوياء وهو ذو القرنين فقال": إنا مكنا له في الأرض وهذه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً. "... فامتن عليه بأن آتاه من كل شيء سبباً ثم مضى عليه مرة أخرى بأن اتبع هو سبباً، ثم مرة ومرة: وقد أعقب الإخبار عن التمكين له في الأرض بالإخبار عن إيتائه كل الأسباب. فكأنه تعالى أراد أن يعلمنا أن التمكين له في الأرض كان نتيجة طبيعية لتجمع الأسباب كلها له. فمن ملك الأشباب فقد ملك الدنيا، ومن عجز عنها عجز عن كل شيء. وقد شاهدنا أن لكل ضرب من ضروب السيادة أسباباً خاصة: فأسباب السيادة على الممالك البعيدة البحرية هي الأساطيل المائية، وأسباب السيادة على السماء هي الأساطيل الجوية، وأسباب السيادة على البر هي القوات البرية... وذو القرنين لم يستطع أن يفتح مشارق الأرض ومغاربها وأن يبلغ مغرب الشمس ومشرقها إلا بعد أن كانت لديه كل الوسائل لذلك. وقد أراد الله أن يدلنا بسياق هذه القصة على أن من طلب السيادة وليست لديه أسبابها فقد ذهب يطلب المحال، وطالب

المحال مذموم مدحور. ولو لم ينزل الله على المسلمين سوى هذه الآية "إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً" وعقلوها لكانت كافية وقاضية على كل ما كتبه الصوفية المعطلون للأسباب وللقوى. وما أروع قوله في هذه القصة "فأتبع سبباً حتى إذا بلغ مغرب الشمس"... الآيات، ثم قوله "ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ مطلع الشمس" الآية، ثم قوله "ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين"... الآيات. فإن في هذا التعليل الصريح على أن أتباع الأسباب هو الذي أبلغه ما بلغ وهو الذي وصله بأطراف الدنيا. فأين ما يزعمه المخذلون؟ وقد أراد الله أن يبين عن حالة قوم سقطوا على الهلاك وفقدوا كل أمل في النجاة فقال "وتقطعت بهم الأسباب." وكأن الآية تدل على أن من تقطعت به الأسباب وفاتته فهو الهالك لا محالة، والعكس كذلك. وما جاء عن الله ولا عن رسوله حرف واحد في ذم الأسباب أو ذم الآخذين بها، بل كان التاريخ الإسلامي قبل أن يرتديه هؤلاء قائماً على الإعتراف بطبائع الأشياء، ولم ينكر طبيعة من طبائعها.

ومن أعظم ما جعلهم يسيئون الظن بالأسباب شيئان: أحدهما أنهم حسبوا الإيمان بقدرة الله المطلقة في تصرفها وعملها ينافي الإيمان بالأسباب، وحسبوا أنهم إذا آمنوا بالسبب فقد قيدوا الله به وألزموه بألا يخرج عنه وألا يعمل بدونه! والله عندهم غير مقيد في فعل من أفعاله بل هو يفعل ما يشاء بلا قيد ولا سبب ولا إلزام.

وثانيهما أنهم وجدوا المسببات كثيراً ما تتخلف عن أسبابها، ووجدوا أن الإنسان قد يؤدي السبب على الوجه الأوفى الأكمل في ما يبدو ثم لا يصل به ذلك إلى غرض منشود، كما وجدوا أن العكس أيضاً صحيح، أي وجدوا أن المرء قد ينال حاجته وغرضه بدون سبب... هذان الأمران هما من أعظم ما صار بالقوم هذا المصير في حكمهم على الأسباب وفي تراخيهم عند الأخذ بها وفي شكهم فيها - ذلك الحكم والتراخي والشك الذي جعلهم عاجزين عن الإتيان بها صحيحة سليمة وافية موصلة إلى مسبباتها... ومن أخذ بالسبب شاكاً فيه متراخياً في أخذه فلن ينفعه النفع المطلوب الحاسم، لأنه لن يتقنه ولن يثابر ويصابر عليه، ولن يبدع فيه. بل لا بد من الإيمان به مع الإصرار على هذا الإيمان وإلا فلا نجاح، ولا بد من الإتقان والمثابرة والمصابرة على العمل وإلا فلا أمل في فوز حقيقي، ولا بد من تقليب الرأي على كل وجوهه بحثاً عما يمكن أن يكون قد دق من خفي

الأسباب وضروب الوسائل.

وليس من ريب في أن كثيرين يسقطون دون أغراضهم لأنهم لا يجربون كل الأسباب والوسائل، بل إنهم إذا فشلوا عند تجربة أول سبب تجربة أولى ألقوا سلاحهم ولم ينهضوا لمقاومة ولا لهجوم، ولصقوا بالتراب والذل والمسكنة، حاسبين أنه لم يبق لهم مكان في هذا الوجود، وذهبوا يبكون أقدارهم وحظوظهم، ويلعنون أيامهم وأقوامهم... ولا شك أن نجاحهم كان مضموناً ومحققاً لو أنهم أعادوا الكرة، وأصروا على الوصول إلى الغاية، وجددوا في السبب والوسيلة أو كرروهما. ولا ريب أن من أخطأ الهدف في الرمية الأولى سيصيبه إذا كرر الرميات وعاودها مرات. ومن المعلوم أن بلوغ قصبة السبق لا يكون في الوثبة أو الخطوة الأولى، وإنما يكون في تكرير الخطوات والوثبات، وفي معاودة شد الأعصاب والعضلات... وهذان الأمران اللذان جعلا القوم لا يثقون بالسبب كما يجب أمران يلز النظر فيهما.

أما الإيمان بقدرة الله المطلقة من القيود والحدود فإنه يقتضي الإيمان بالسبب لا الكفر به، لأن الإيمان بالسبب هو في الواقع إيمان بمسببه وصاحبه، والكفر به كفر به... والشاكون في أسباب الله - وكل ما في هذي الدنيا هو من أسباب الله - هم في الحقيقة شاكون في الله وفي عمله، فإن هذا الشك معناه الشك في قدرته تعالى على أن يجعلها أسباباً موصلة مبلغة... وكلنا نؤمن بأن إمتثال أوامر الله الشرعية سبب في دخول الجنة وفي نيل رضا الله، وأنه سبب لا يتخلف عنه مسببه. ولم نقل غير ذلك لئلا نقيد الله ونقيد تصرفه وعمله وقوته... والتقيد بالكمال والخير والحكمة والعدل ليس قيداً إلا في لغة هؤلاء، وإن كان قيداً فليس نماً وإنما هو غاية المدح... أما تخلف المسببات عن الأسباب فهذا ما لا يكون أبداً، ولكن قوماً يبذلون أسباباً ضعيفة ناقصة فلا يصلون إلى أهدافهم، فيتهمون الأسباب، والواقع أن الذنب ذنبهم. فكل سبب لا يوصل إلى الغرض المقصود به هو سبب ناقص ضعيف، وإذا تم السبب وجد المسبب لا محالة. ولا يقع شيء في هذه الدنيا إلا إذا اجتمعت أسبابه، وإذا اجتمعت أسبابه فلا بد من وقوعه على كل حال. ولا يفلت من هذا القانون أمر من الأمور حتى الموت نفسه فهو إنما يقع حيث تجتمع الأسباب - وهي إما الأمراض، وإما عجز الخلايا بسبب الشيخوخة، وإما عجز القلب عن تنظيم نبضه وحركته لآفة فيه، أو لأمر

داهم مفاجىء معجز.

أما الآيات التي تنص على آجال الأفراد والأمم وأنهم لا يستأخرون عنها ساعة واحدة ولا يتقدمونها، فهي كذلك أيضاً، لأن حلول الأجل معناه إجتماع الأسباب، وإجتماع الأسباب معناه حلول الأجل. فمن صدمته سيارة صدمة قاتلة فقد حل أجله، وهي لم تصدمه لأن أجله حل ولكن أجله حل لأنها صدمته، وهكذا يقال في كل شيء فآجال الأفراد وآجال الأمم إنما تنتهي عندما تعجز عن البقاء وعن الحياة عجزاً ذاتياً أي من داخل ذاتها لا من خارجها، ولكنها لا تعجز لأنه وجب أن تنتهي كما يظن كثيرون من الناس.

وتغلط طوائف كثيرة إذا تكلمت في سقوط الأمم وفي نهوضها، إذ ترى أن أمة تسقط وأخرى تنهض لا لأسباب تقضي بالسقوط والنهوض، بل لأن الواجب أن تتناوب الأمم السلطان، وتتداول الأيام، وتتقاسم الحظوظ... وهذا بمثابة الإعتقاد أن آثاراً ومعلولات تحدث بدون علل ومؤثرات...

وآخرون يقولون: إن الأمم تشيخ كما تشيخ الأفراد - يعنون بهذا أن الأمة التي تنهض لا بد أن تسقط، أو لا يقال: كيف سقطت إذا سقطت، لأن سقوطها بعد نهوضها، وشيخوختها بعد شبابها أمران طبيعيان لا يسأل عن أسباب حدوثهما... وإذن فلا بد أن تسقط الأمة التي نهضت وأن تشيخ مهما استمسكت بأسباب نهوضها وشبابها، كما أن الفرد لا بد له من الشيخوخة ومن الموت مهما حاول المحافزة على حياته وشبابه... وكان الواجب على هؤلاء أن يتموا تمثيلهم بأن يقولوا: وإن الأمة إذا شاخت ماتت، وإذا ماتت لم تبعث إلى يوم الدين، كما هو شأن الأفراد، بل كان المنطق يقضي عليهم بأن يزعموا أن الإنسانية كلها تشيخ ثم تموت ثم لا تنتشر حتى يوم النشور. وكل هذي أوهام ليست في سبيل من العلم.

ولا توجد سنة تقضي بشيخوخة الأمم لا محالة. ولكنها تشيخ - أو تضعف وتنحل حينما تتخلى عن أسباب شبابها وعظمتها. ولو أنها بقيت سائرة في الطريق التي أفضت بها إلى الشباب وإلى العظمة لظلت أبداً عظيمة شابة.

وجاء في مطلع القصيدة المشهورة في بكاء الأندلس:

لكل شيء إذا ما تم نقصان

فلا يغر بطيب العيش إنسان

وفي قول آخر: (توقع زوالاً إذا قيل تم.) وهذا كله إنكار للأسباب وقول بأن الحوادث تقع بدون أن تكون لها علل! فإن تمام الشيء ليس سبباً في نقصانه، ولا علة من علل زواله، فكيف نتوقع الزوال أو النقصان حين التمام؟ بل إن أسباب الزوال والنقصان هي غير أسباب التمام، وهي مناقضة لها، وما كان سبباً لأحدهما لا يمكن أن يكون سبباً للآخر، فإذا ما أخذ شيء من الأشياء بأسباب الكمال فكمل ثم لم يحد عن هذه الأسباب، فلن نتوقع له زوالاً ولا نقصاناً إلا على رأي هؤلاء الهائمين في فيافي الأغاليط التاريخية الكبرى! فعند هؤلاء أن كل الأمم التاريخية العظيمة التي نهضت ثم سقطت لا يجب أن يلتمس لسقوطها علل ذاتية! وإنما النهوض نفسه هو السبب في السقوط، ولأن الله يتعابث بهذا العالم وبأممه دائماً؛ فإذا علت أمة أسقطها بنفس علوها وبأسباب علوها، لأنه تعالى قوي، والقوي من شأنه الإستبداد والتصرف الأخرق المتعابث، ولأنه غير عاجز، والعاجز هو الذي لا يستبد، بل يدع الأمور تسير في سبيلها! وقد نظموا هذه المعاني شعراً صاروا يتناقلونه على الألسنة عصوراً غير قصيرة:

واستبدت مرة واحدة

إنما العاجز من لا يستبد

وقد ذكروا أن هذا البيت هو أحد أسباب الإيقاع بالبرامكة لأن هارون الرشيد أقدم على الفتك بهم - لما أن سمع هذا الشعر - ليثبت أنه مستبد، وليثبت أنه غير عاجز، إذ العاجز هو من لا يستبد - أي إنه أخذهم بغير أسباب على قول هؤلاء الرواة إلا إذا كان مجرد الإستبداد سبباً من الأسباب... والعرب في الأندلس وغيرها لم ينحلوا ولم تهو شمسهم من أفقها لأسباب سوى أنهم قد تموا وكملوا في ضروب حياتهم ومجدهم، والتمام سبب للنقصان والزوال - والإنجليز وغيرهم من الشعوب الراسخة الأصول والفروع يجب أن يسقطوا ويزولوا، لأنهم قد تموا وأخذوا حظهم من السلطان والسيادة، ولكل شيء إذا ما تم نقصان!! وقد قال مرة واحد من هؤلاء الذين يتصورون الله بهذه الصفات والأخلاق: إن لم تهزم بريطانيا في هذه الحرب - والإشارة إلى الحرب المنتهية قريباً - كفرتُ بالله! فقيل له. ولماذا؟ قال لأن الله يقول "وتلك الأيام نداولها بين الناس" فيجب أن تخرج الأيام من أيدي الإنجليز إلى غيرهم، ولأن الله يجب أن يسقطها لأنها قد سادت طويلاً وظلمت كثيراً! ولكنها قد خرجت - على رغمنا -

منتصرة. وما أظن صاحبنا قد كفر بالله! وما به حاجة إلى هذا الكفر، لأنه لم يؤمن بالله، وإنما آمن بقوة وهمية تحكم العالم بالجبروت والجبرية! وهذه القوة ليست هي الله العادل الحكيم الرحيم، الذي أخص أوصافه الحب والإحسان، لا البغض والعدوان. ومن تصور إلهه كذلك فلا محالة من أن تفسد أخلاقه وطباعه وتصوره للعدل والحياة وكل شيء!!

وهذه الآراء مصدرها كلها هذه الفكرة الباطلة - وهي فكرة إنكار الأسباب، أو التهوين من شأنها، أو الإعتقاد بأن الله يفعل بدونها أو يدخل بينها وبين مسبباتها ويحول بينها وبين نهاياتها. وابن خلدون نفسه لم يستطع أن يخلص من كل هذه الأغاليط التقليدية حينما نهض لبحث هذه المسائل ودراستها.

ويحسب بعض الناس - وقد تورعنا عن أن نقول: كلهم - أن أمثال قول الله: "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" يدل على ضعف أمر الأسباب، وعلى أن الأخذ بالحيطة والتحصن من أسباب الموت لا يفيد شيئاً ولا يرد آتياً، لأن الله قد حكم بأن الناس كلهم ستدركهم المنايا - مقدرة لهم ومقدرين - لا محالة ولو لزموا البيوت المشيدة... والواقع أن الآية تعطي عكس ما فهم الناس منها لأنها قضت بأن الناس كلهم مقضي عليهم بالموت مهما حاولوا الفرار منه، وهذا صحيح على حسب المعروف المشهود، ولكنها لم تنف أن البقاء في البروج المشيدة يطيل الأعمال ويمد من أسباب الحياة، وأن الذي يذهب إلى الميدان قد يهلك ويقتل، وأن الذي يهاب ويلزم منزله قد يسلم وينجو. وهذه الآية في معنى قول القائل:

وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تكون جباناً

والقصد من هذا أن الحر الكريم يجب أن يخرج إلى الموت، ويثب إلى الأخطار في أماكنها، لأن الدين أو الوطنية أو الحرية أو غير ذلك من معاني وفضائل الإنسانية توجب هذا الخروج والوثوب. ولا يصح أن يفر ويجبن ويعيش ذليلاً مظلوماً مهيناً، فإن ذلك لن يهبه الخلود. فالموت في مواطن العز والكرامة ألذ في أفواه الأحرار من الحياة الطويلة المذلة إلا عند من مرضت فيهم معاني العظمة وغرائز الإباء لطول الإلف وكثرة المقارفة.

أما قوله تعالى: "قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى

مضاجعهم"... فالمعنى فيه أن هنالك أقواماً من أشراف العرب يوجب عليهم شرفهم ومكانهم من قومهم وفي قومهم، وتوجب عليهم سيادتهم ذات الحقوق المعروفة المرعية، وظروفهم القاهرة الحاكمة أن يخرجوا للقتال على أي حال! حتى ولو كان في هذا الخروج الهلاك المحقق، إذا ما أهاب بهم داعي المجد - وإن لم يدعهم الرسول وأصحابه إلى ذلك، كما هو الشأن في كل الأمم، وكما هو الشأن في الجاهلية وفي الإسلام... وحكم هذي الظروف عليهم، المحفوفة بالأخطاب وأسباب الهلاك هو معنى كتب القتل عليهم، ومعنى بروزهم إلى مضاجعهم! وليس معنى هذا أن هناك قوة خفية تلزم قوماً معينين بالخروج، لأنهم مرادون للقتل لأغراض لا تعقل! ولنُعد فهمنا للأشياء كلها من جديد.

ومما يجب فهمه أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤمنون بالأسباب في هذه المسألة إيماناً عميقاً، وقد حكى القرآن عنهم قولهم: "يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا"، يعنون أن الأمر لو كان أمرهم - أو لو كانوا مطاعين - لنهوا عن الخروج إلى القتال، ولما عرضوا أنفسهم على الموت، ولنجوا حينئذ، لأن القتل إنما يقع بالتعرض له ولأسبابه. وفي آية أخرى: "يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزاً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا"، وفي آية أخرى: "الذين قالوا لإخوانهم - وقعدوا - لو أطاعونا ما قتلوا." فهم إذن كانوا يؤمنون بأسباب الموت والقتل وبأسباب النجاة، إيماناً برهانه طول التجربة وصدق الإستقراء؛ فالذين يضربون في وجوه الأرض وعلى متونها، والذين يخرجون غزاة مقاتلين يموتون ويقتلون بأسبابهم وبمساعيهم، والذين يقعدون ويحيدون عن مساقط الردي ينجون ويسلمون. فالمسألة - نجاة وهلاكاً - مقدرة بأسبابها ووسائلها كسائر مسائل الحياة. ولم يترد العرب في الهوة التي تردى بها الآخرون والمتأخرون، من الصوفية وسواهم، ممن باءوا بالفشل، وهوّموا بالجهالة طويلاً، فزعموا أن الموت والحياة ليسا بأسبابهما، وإنما هما مقدران بأوقات مضروبة محدودة، بحيث لا يفيد الفرار ولا يضر الإقدام في سلامة ولا في هلاك! ولهذا فقد نقل شيوخ هؤلاء عن آخرين منهم بأنهم كانوا ينامون بين الصفين المتقاتلين والسهام والنبال تتساقط من ها هنا وها هنا - إمعاناً منهم في إنكار الأسباب وفي أن الحيطة والحذر لا يجديان! وقد سبق أن قلنا: إن الأمة التي لا تؤمن بالأسباب إيماناً صحيحاً لا

يمكن أن تكون أمة عزيزة ولا عاملة ولا منتجة. والعرب في جاهليتهم استطاعوا أن يساحلوا تجاه تلك الجراثيم الإعتقادية المنتشرة التي كان يموج بها الشرق في ذلك العهد، فلم يجدوا من أجل هذا - حينما وجهوا التوجيه السليم - ما يمنعهم من أن يكونوا أقوى الأمم وأعملها.

وحقاً إن طبيعة بلاد العرب لتوحي بالإيمان بالسببية الصارمة القاسية، فليس فيها شيء يؤخذ بالمجان ولا بالسهولة واليسر، بل كل ما هناك لا يستطاع نيله إلا بالأعمال العنيفة المرهقة، وبالأسباب القوية المحكمة - فلا مجان ولا سهل، ولا عطاء بدون ثمن. فليست هنالك أنهار، ولا أمطار غريزة، ولا غابات، ولا مراع لها قيمة كبرى، ولا شيء من هذه الأشياء التي يأخذها كثير من الشعوب بالمجانية - ثم ليست ثمة مناطق زلازل، ولا براكين، ولا مفاجآت طبيعية تفضي إلى الإيمان عند بعض الناس بأن وراء الأسباب والظواهر قوى خفية باطشة، تسيطر عليها وتقف في سبيلها.

إن العربي هناك ليرى الريح الملقحة بالبخار تهب على سمائه الصافية، فتنعقد السحابة الثقيلة المتراكمة، فلا تلبث أن تتهاوى وابلاً مدراراً على أرضه الجديبة اليابسة العابسة، فتوجد الحياة ويوجد الأحياء، ثم يكر الجدب والشمس المحرقة على تلك الأرض الخضراء المعشوشبة، فإذا كل شيء يابس عابس هامد! وهكذا تكرر العمليات أمام بصره وبصيرته - ما بقي - بلا إختلال ولا إختلاف، وبلا تدخل قوة ولا قوى في هذا! فأين ما لا سبب له! وأين السبب بدون مسببه!! وهكذا يرى ويعلم كل شيء حوله مضبوطاً محكوماً بهذه السنة وبالأسباب الآلية، ضبطاً لا أمل في إضطرابه ولا في تغييره: هكذا الشمس طالعة غاربة، وهكذا القمر زائداً وناقصاً، وهكذا الكواكب والنجوم كلها، وهكذا الحرارة والبرودة، والصيف والشتاء، وهكذا كل ما يشاهد ويعلم. إن له لمئات الآلهة العزيزة، الصغيرة والكبيرة، وإن له لعشرات الأرباب المطيفة بالكعبة، المحتضنة لبيته المقدس، وإنه طالما دعا هذه الآلهة والأرباب، وطالما تمنى عليها أن تصير بلاده الجديبة الحبيبة المقدسة - موطن الآلهة المقدسين - مثل السهول التي يعرفها، والتي رآها في الشام والعراق ومصر - تلك التي تفيض بالنماء والماء والبركات والخيرات، وبالأنهار والجداول، ولكنها لم تفعل ذلك، وإنه يعلم أنه ليس في الإمكان أن تفعله، لأن كل شيء مضبوط بأسبابه محكوم بسننه. إنه

ليدرك أن هذه الآلهة يعجبها ويرضيها أن يكون واديها ووادي عبادها العاكفين عليها لا يقل عن غوطة دمشق وسهول حلب ووادي النيل وضفاف دجلة والفرات بركة وفيئاً وزروعاً وخيرات، ولكن ذلك لم يحصل، لأنه لا يمكن أن يحصل، وليس في قدرة الآلهة مجتمعة متعاونة أن تصنعه.

إن أحد هؤلاء ليخرج في جمرة الصيف، فتلفحه الشمس، ويأكل كبده الظمأ، فتستبد به الآمال والأماني، فيأمل أن ينشق ما تحت قدميه عن نهر جار، أو أن تنعقد فوق رأسه سحابة لتنصب في فمه المحرور اللاهث، فيذهب يطوف بآماله هذه – في تلك الساعة القاتلة – على جميع آلهته وأربابه، راجياً منها أن تصنع شيئاً يبقي عليه حياته، ويذهب عنه بعذابه! ولكن أين هي، وأين هو مما يريد ويرجو! إنه المحال الذي لا يكون! فأين الخروج إذن عن الأسباب، وأين ما لا أسباب له!؟

إذن فكل شيء قائم على أسبابه الطبيعية وعلله الحاكمة المحكومة، وإذن لا بد من الإيمان بالأسباب، وإذن فالعربي تلهمه طبيعة بلاده الرتيبة الدائمة هذه الحقيقة، ومن هنا كانت قريش ومن جاورها أمة سببية، وكانت من أجل هذا أمة عاملة منتجة غالبة في وقت من الأوقات! فلما قلت ثقتها بالسببية، وضعف إيمانها بالسبب صار أبناؤها وورثتها ينتظرون الحجاج ليهبوهم الحياة والبقاء قطرات مرة المذاق!

ويجب أن يعلم أن القرآن يوم أن حكى هذه الآراء والأقوال عن العرب لم يرد بحكايتها الإنكار والرد، وإنما أراد أن ينكر عليهم النتيجة التي أرادوا أن يخرجوا بها منها. فهم – لأنهم كانوا غير مؤمنين بالرسول ولا بدعوته – كانوا يعملون على تخذيل من يريدون القتال معه، فيقولون إن هؤلاء الذين يخرجون معه يهلكون أنفسهم بخروجهم، ولو أنهم أطاعونا فلم يخرجوا ولم يقاتلوا ولزموا منازلهم، لما ماتوا ولما قتلوا، وهم – طبعاً – يعنون القتل والموت الناجزين. وعلى هذا فمن الجنون بيع النفوس بيع السماح بدون فائدة ترجى، وأية فائدة لهم في ذلك ما داموا غير مؤمنين؟ فرد عليهم القرآن ردوداً مختلفة، منها قوله: "ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون" يريد أنه لا يصح أن يمتنع العاقل عن التضحية مع عظم الجزاء، فإن الدنيا كلها، وأمور الناس كلهم قائمة على التضحية. ومنها أن الموت لا بد منه، وإذا كان ذلك كذلك

فمن الجنون والغبن الفاضح أن يعيش المرء نليلاً مهيناً، وأن يرفض الجزاء المعروض السخي، إبقاء على شيء لن يبقى، وإستمساكاً بأمر لا يمكن الإستمساك به تخليداً. ومنها أن الجبانة والخوف والفرار من الأعداء قد يكون من أسباب الهلاك، وأن الإقدام ومنازلة الحمام والزحف إلى الأخطار والأهوال قد يكون من وسائل النجاة. وهذا معروف مشاهد، فإن من يستسلم ويفر من كل هول يعترض طريقه يركبه الأعداء ويلهج بتحديه الزمن، ومن يناضل ويقاوم يرهب فيسلم ويعز جانبه. وهكذا كان شأن القرآن معهم، يسلم لهم الدعوى أحياناً - إذا كانت صادقة - ولكنه يكر عليهم وعليها برد النتيجة التي كانوا يرمون إليها - إذا كانت باطلة. وهم ما كانوا يجهلون هذه الأمور، بل هي لديهم من المقدمات المسلمة، ولكنهم إنما كانوا يشاغبون، لأنهم يقصدون التخذيل والتعويق، لأنهم كانوا غير مؤمنين برسولهم... وفهم كل شيء على وجهه الصحيح ضروري، وإلا فلن نبلغ هذه الحياة التي نرنو إليها بعيون حسرى كليلة.

يصادفك، وأنت تسير في الأحياء الوطنية. الحين بعد الأحيان، هذان البيتان من الشعر الركيك، مكتوبين على المتاجر والمصانع:

ملك الملوك إذا وهب
لا تسألن عن السبب
فالله يعطي من يشاء
فقف على حد الأدب

وهذا تعبير بليغ صادق عن الروح الشعبية العامة؛ وكلهم يشتركون في هذه العقيدة، من كتبوا ذلك على متاجرهم ومصانعهم ومن لم يكتبوه. فالله إذا أعطى أحداً مالاً أو جاهاً أو مجداً أو نجاحاً لم يصح السؤال عن تلك الهبات ولا عن أسبابها، لأن الله - وهو ملك الملوك - لا يعطي على السبب ولا على قدر السبب، وإنما يعطي على المشيئة وعلى قدر المشيئة وقدر صاحبها! فالسؤال عن ذلك إذن خروج على الأدب وضلال في جانب الله، لأنه إعتقاد بأنه تعالى إنما يهب جزاء ومكافأة، وبقيود وحدود وأسباب، لا مشيئة وقدرة وإرادة وإطلاقاً! وهذا إتهام لذاته وصفاته وأفعاله! والأدب هو الإعتقاد بأن الأسباب لا شأن لها في نجاح ولا في إخفاق؛ فإذا رأينا ناجحاً لم يجز الإعتقاد بأن لنجاحه أسباباً وموازين وعللاً

تدرس وتفهم وتحتذى ويقاس عليها، وإذا وجدنا مخفقاً فكذلك لم يجز التعليل والتسبيب!! وهذا من شر ما تبتلي الأفراد والجماعات بالإيمان به. ولا ريب في أن هذين البيتين اللذين يحتلان وجوه المتاجر والمصانع شر - في دلالتهما ونتيجتهما - من مئات الجيوش الغازية التي تحتل البلاد إغتصاباً وإقتداراً. ولا يستطيع أن يدرك هذا إدراكاً صحيحاً إلا من علم أن أساس كل شيء في هذه الحياة هو الفكرة وأن من سمت فكرته سمت حياته وأعماله، وأن من ضلت أفكاره وهبطت وانحرفت فلن يسمو في شيء.

أمامنا لا وراءنا

لا يأتي إلا والذي بعده شر منه.

«زعموه حديثاً نبوياً»

أمس خير من اليوم، واليوم خير من غد، وهكذا حتى قيام الساعة.

«زعموه من كلام ابن مسعود»

لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الناس إلى شحاً ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق.

«زعموه أيضاً حديثاً»

كل شيء ينقص إلا الشر فإنه يزيد.

«حديث أيضاً على ما زعموا»

وكل خير في إتباع من سلف
وكل شر في إتباع من خلف

«كتب العقائد المقررة»

* * *

من الحقائق التي ترتفع اليوم على متناول النزاع أن هذا العالم كله – حيوانه ونباته وجماده – لم يزل دارجاً في طريق التطور، متنقلاً من طور إلى طول أفضل ومن حالة إلى حالة هي أدنى إلى الكمال بطريقة منظمة دائبة لا يعروها توقف. وعند العلماء أن شيئاً من هذا العالم لم يوجد بحالة ثابتة دائمة، ولا بحالة فيها الإستعداد للرجوع إلى الوراء ولا للإنتقال من الكمال إلى النقص، بل ثبت لديهم ثبوت الحقائق أن هذا الوجود قد وجد وجوداً بدائياً، وأنه قد ظل يتنقل من وجود إلى وجود ومن شكل إلى شكل وأنه قد ظل في عملية هذا التنقل ملايين الملايين من الأعوام حتى بلغ الحالة التي تصلح لوجود الحياة فيه... علم الكون – أول

ما علم - في حالة غازية منتشرة في الفضاء إنتشاراً متناسباً متسقاً مثل أن تبخر مقداراً من الماء في غرفة تساوى فيها ضغط الهواء، أو مثل أن تنثر مقداراً من الدقائق في مكان نثراً متساوياً. وقد بقي كذلك ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى استطاع بتفاعله المستمر أن يفلت من هذه الحالة الغازية أو السديمية إلى حالة التكتل والتقلص، فأصبح كتلة واحدة هائلة، أو نرة كونية ضخمة اجتمع فيها الوجود أجمع. فبقي على هذه الحالة ملايين السنين أو ملايين الملايين، وهو يتفاعل في حقيقته تفاعلاً مستمراً إستعداداً للإنتقال إلى وجود آخر أفضل وأكمل. وبعد التفاعل اللازم المقدور انفجر هذا الكون المحشوك المحشود في نرته إنفجاراً فجائياً في الظاهر موقتاً معلوماً مقدوراً في الباطن، مثل ما تنفجر قنبلة مملوءة بالمواد المتفجرة. فتطايرت منه الدقائق والذرات تطايراً قائماً على الحساب الدقيق، فتفرق في الفضاء كتلاً هائلة غازية فبقيت هذه الكتل المتفرقة تتفاعل وتتجمع وتتكتل ملايين السنين أو ملايين الملايين، حتى أصبحت نجوماً وشموساً، ثم أخذت هذه النجوم والشموس بالتفاعل نفسه بالإستعداد المخبوء فيها للتطور تنقسم على نفسها وتنفصل عنها النجوم والسيارات والتوابع، ليكون من كل شمس من هذه الشموس مجموعة متماسكة من هذه المجموعات التي يدعونها اليوم المجموعات الشمسية أو المجموعات النجمية التي إحداها مجموعتنا الشمسية التي نحن إحدى رعاياها... وقد راحت هذه السيارات التابعة لغيرها تنقسم على نفسها أيضاً وتنفصل عنها الأتباع وتلد الأقمار لتكون - أي الأقمار - من حولها كما كانت هي من حول شمسها. وهذه العمليات الإنفصالية أو التوالدية تشبه عمليات التوالد والإنقسامات بين الأحياء التي يكون الغرض منها إيجاد مجموعات أو فصائل حيوانية أو نباتية تتعاقب وتتوالد خضوعاً لسنة هذا الوجود. والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة والنواميس التي تحكمها - أي تحكم الكائنات الحية - إنما ورثتها من أصلها الذي هو المادة الجامدة. فلا غرابة إذن في كون القوانين واحدة متفقة في الحي وفي الجماد.

وبعد هذا التوزع وهذه الإنقسامات في نرة الكون الأولى الكبرى لم يكن شيء منه صالحاً للحياة أو للإستقرار، بل لقد قدر العلماء عمر الشمس قبل أن توجد الحياة في الأرض - وهي منفصلة عنها - بنحو خمسة ملايين مليون سنة،

وقدروا عمر الأرض بنحو ألفي مليون سنة، وأن الحياة لم توجد فيها إلى من نحو ثلاثمائة مليون سنة، أي إنها ظلت حوالي ألف وسبعمائة مليون سنة تتهيأ لتكون صالحة لظهور الحياة عليها وقدروا عمر الإنسان في الأرض بثلاثمائة ألف سنة - وهذا إحدى التقديرات كما هو معلوم ومعنى هذا أن الأرض بقيت ما يقرب من ثلاثمائة مليون سنة صالحة لوجود الحياة فيها قبل أن تصلح لوجود حياة الإنسان الذي هو أرقى الموجودات فيها، أي إنها تهيأت لوجود حياة الكائنات الدنيا فيها قبل أن تتهيأ لوجود حياة الإنسان المعدود كائناً راقياً. وما من شيء في هذا الوجود وصل إلى حالته التي هو عليها إلا بعد أن سلك هذه السبيل - سبيل التطور المنظم البطيء؛ فما جاءت الشموس ولا السيارات ولا الأقمار ولا النجيمات ولا كل هذه العوالم إلا من هذا الطريق... وهذه الأرض التي نعيش عليها ونجد فيها كل ما تحتاجه وكل ما يلزم لحياتنا ولسعادتنا ماذا فعل بها هذا التطور؟ إنه لولاه لما وُجدت ولما وجد فيها ما وجد، ولما صلحت لظهور الحياة عليها، ولما وُجدنا فيها، ولو وجدنا لما بقينا أحياء، ولو بقينا أحياء لما وجدنا ما نحتاج إليه وما يلزم لوجودنا ولصناعاتنا ولزراعاتنا... إنه بهذا الناموس تخلت الأرض عن عهودها الجليدية، وعن عهودها النارية إلى عهد الإعتدال الذي تبقى معه حياة النبات والحيوان الذي منه الإنسان وبهذا الناموس تمهدت الأرض وتهذبت وارتفعت فيها الجبال، ونهضت الآكام، ووجدت السهول والسهوب والأودية، وانشقت الأنهار، وغاضت البحار وانحسرت عن الجزائر وعن هذه اليابسة التي عليها نحيا. وبهذا التطور أيضاً وجدت أصناف النباتات والحيوانات والمعادن المختلفة، ووجدت التربة الخصبة التي تنبت لنا كل ما نشاء، ووجدت كل هذه العناصر التي لا بد منها لبناء أجسامنا ولإخصاب أرضنا ولتركيب وتركب كل ما لا بد لنا منه صناعياً وطبيعياً... إن أنفس شيء لدينا، كاللآليء، مثلاً، لا يمكن الحصول عليه لولا خضوعه لهذه العملية.

إننا نزرع الأرض حتى نرهقها بالإستغلال وحتى نسرف في إمتصاصها وإمتصاص قواها إلى أن تعجز عن إعطائنا ما نطلب منها، وإلى أن تكاد تضعف عن القيام بوظيفتها - كما يفعل أحدنا إذا أرهقت قواه بالأعمال الشاقة. فنتركها - لا نعطيها ولا نأخذ منها - ثم نرجع إليها مرة أخرى بعد مدة من الزمان، فإذا بها قد استرجعت قواها وعادت قادرة على أن تعطي بسخاء، فكيف

حصل هذا؟ إن يد التطور ويد الإستعداد للنمو والتحسن قد امتدت إلى هذه الأرض فرجعت إليها ما فقدت وصيرتها قادرة على تأدية عملها.

إننا نعمد إلى الشجرة فنشذب أوراقها ونجور على أغصانها فندعها عارية، ولكن نرجع إليها بعد مدة فنجدها قد اكتست بأوراق وأغصان أخرى. فلماذا هذا؟ إنه الإستعداد الطبيعي للتطور، ولولاه لبقيت كما تركت عارية جرداء.

إن كل شيء أمامنا يقوم بهذه العملية قياماً منظماً، ولولاها لما حصل شيء جديد ولا صورة جديدة. فكل ما يحدث مما يجدد الصور والمظاهر والألوان، ومما يعيد ما فقد، ما هو إلا تطور وقيام بعمليته... إن دفن الحبة في التراب أو ركز الغصن فيه ثم خروج تلك الحبة أو ذاك الغصن وإرتفاعه في الفضاء، ثم تقسمه إلى أغصان وأوراق وسيقان وأزهار وثمار ما هو إلا لون من ألوان التطور وإمتداد لهذه الألوان، وتعبير قوي عن هذا السر الكامن، وتدليل عملي على أن كل ما في هذا الوجود يحمل في ثناياه وطبيعته القدرة على التحسن والتقدم... لقد ثبت أن كل شيء في الحياة يتحسن إذا لم يوجد ما يعوقه، وأن طبيعة كل شيء دائبة على عملية التحسين المستمر الدائب - وثبت أن الأحياء الثلاثة - كما ثبت ذلك للجماد - في عملية متواصلة في سبيل التحسن والتحسين.

أما الإنسان فليس هنالك شك في أنه كان منذ ثلاثمائة سنة - دع أكثر من ذلك - أضعف منه اليوم أجساماً وعقولاً ومعارف. وليس هناك من يرتاب في أنه في هذه الثلاث المائة السنة قد تحسن من ناحية الصورة، ومن ناحية التفكير، ومن ناحية القوة البدنية تحسناً عظيماً. وليس تطور الحضارة إلا تعبيراً عن تطور الإنسانية. فلو أن الإنسان لا يتطور في وجوده العام لما أمكن أن تطور حضارته. وليس ثمة شيء في الحياة يرجع إلى الوراء ويتقدم القهقرى، بل كل ما فيها لا يعرف إلا طريقاً واحدة تؤدي به إلى الأمام وإلى الأمام دائماً... وكما دل على هذا العلم فقد دلت عليه أيضاً نصوص الدين، فقد جاء بأن هذا الوجود كله كان دخاناً كما قال في الآية السابقة" ثم استوى إلى السماء وهي دخان. "ومن هذا الدخان أو الغاز أو السديم خلقت الشموس والسيارات والأرض وكل شيء فيها. وجاء في النصوص أن الوجود كله في تغير وتغيير مستمرين في طريق الكمال. وفي الكتاب الكريم "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات." وهذا يوم القيامة. ومعلوم أنها يوم القيامة تأخذ شكلاً ووجوداً أحسن وأكمل من شكلها

ووجودها الأول، والآية مسوقة لهذا الغرض. وآيات القرآن التي تعرضت لتغيير العالم ولتغيير السماوات والأرض تدل كلها على أن العملية عملية تغيير إلى أحسن وأفضل. والعالم الأخروي بمن فيه؛ على حسب ما جاء في النصوص، ليس إلا برهاناً على الوصول إلى طور الكمال الوجودي في كل وجه من وجوه الكمال والوجود. وفي الكتاب" ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً. "وليس من اللازم أن نلتزم ما قاله بعض الشيوخ في تفسير الأطوار، وإنما اللازم أن نطلق ما أطلقه الله وأن نحمله على أحسن الوجوه والمعاني.

أما الشيخوخة والموت – اللذان قد يحسبان من الرجوع بالوجود إلى الوراء – فهما مظهران من المظاهر المؤذنة بإنقضاء دور من الأدوار التي تقوم المادة والعالم كله دائماً بتمثيلها لتأخذا بتمثيل دول آخر من أدوار الرواية العالمية الإلهية المستمرة. فإن العالم كله يشبه رواية ذات فصول يناسب عددها ضخامة الرواية وضخامة العرض، لكل فصل من فصولها مظاهر ومواقف مختلفة كثيرة، لكل مظهر وموقف معنى ومغزى يؤديه. وكل فصول الرواية ومواقفها ومشاهدها مقصودة، لأنها متممة للأغراض العامة التي رمى إليها بها. وليس في فصل من فصولها، ولا في مشهد من مشاهدها ما يصح أن يعد دليلاً على الخروج عن السبيل المرسومة وعن الغاية المنشودة.

والإنسان في هذه الحياة – كغيره من الأشياء – وجد ليؤدي رسالة الحياة، ثم ليسلمها بعد إنتهاء دوره إلى إنسان آخر، ثم ذلك الإنسان الآخر يقوم بالرسالة نفسها وبالدور عينه. وهذا لتبقى السلسلة متواصلة، لتبلغ الغرض الأعلى المطلوب. ومن أدى رسالته ثم تنحى عن الطريق، أو من قام بدوره ثم اعتزل ليقوم الآخر بدوره لا يقال إن ذلك دليل على الرجوع إلى الوراء، أو على أن جملة القائمين بهذه الأدوار، متعاقبين متناوبين، يرجعون القهقرى... إن الزرع والنبات إذا أخذ في النمو، ثم في الإكتمال، ثم في النضج والإستواء، ثم في الإنتهاء لم يعد ذلك ضرباً من ضروب التأخر والرجوع، وإنما يعد ضرباً من ضروب السير إلى الأمام وضروب الإستمرار في أداء الرسالة العامة ومن إعطاء الثمرة في الأوان المضروب. والشيخوخة ثم الموت لا يعدوان أن يشبها الإستواء والنضج في النباتات ثم الحصاد. وهما – الشيخوخة والموت – مثلان من أمثلة الهدم والبناء، أو الهدم من أجل البناء. والهدم في أحيان كثيرة غرض من أغراض

البناء. والبناء الذي يعقب الهدم ليس إلا سيراً في السبيل، وإتماماً للرسالة، وبرهاناً من براهين الإستمرار في العمل. والإستمرار في العمل بدون إنقطاع دليل على أن الغاية التي يراد بلوغها لم تبلغ بعد، وهذا معناه السير إلى الأمام لا إلى الوراء.

إن عجز الأحياء – ويدخل في ذلك الإنسان والحيوان والنبات – عن الإمتداد في الحياة وعمليتها بدون إنقضاء، هو بمثابة الحجة على أن المادة التي ألفت منها أجسام هذه الأحياء، وبنيت منها أعضاؤها، وشيدت عليها دقائقها مادة لم تكمل الكمال الذي يعطيها قوة البقاء في صورها ومظاهرها. ولكن ليس معنى هذا أنها ليست سائرة الى هذا الكمال وبالغته في أحد الأوقات. ونحن إذا رأينا آلة من الآلات تقوم بعملها ثم يبادر إليها العطب أدركنا من غير تردد أن مادة بنائها مادة رديئة ضعيفة، أو أن صناعتها رديئة ضعيفة، أو أن طريقة إستعمالها طريقة مخربة، وأدركنا أنه إذا عولجت الأمور الثلاثة وجاءت وفاق الغرض أصبحت الآلة قادرة على الإستمرار في عملها. ومبادرة العطب إلى آلة من الآلات لا يمكن أن يتخذ دليلاً على أن المادة التي صنعت منها آخذة في سبيل الإنهيار أو سبيل العجز والتخلي عن حقيقتها وطاقتها، وإنما يجب أن يتخذ ذلك دليلاً على أحد الأمور الثلاثة المذكورة. والإنسان – بل وسائر الأحياء – حكمه حكم هذه الآلة: فموته وعجزه عن الإمتداد في الحياة الفتية القوية دليل على أن مادة بنائه لم تبلغ الحد الذي يستطيع به الإستمرار في عملية الحياة بدون فساد أو ضعف، أو دليل على أنه لم يوصل إلى إستعمال الحياة فيه إستعمالاً يمنحها البقاء والقوة المستمرة المتجددة كإستمرار حياة الشمس وتجددها وبقائها مع عظم ما تنفقه وتبذله في سبيل وجودها. وقد ذكر العلماء أن الشمس تشع يومياً ثلاثمائة وستين ألف مليون طن منذ وجدت شمساً مشرقة، وقد وجدت كذلك منذ خمسة ملايين مليون سنة. ومع إنفاقها هذه المقادير الهائلة في هذه الأحقاب المتطاولة من أصلها ومادتها لم يلاحظ عليها نقص، على ما ذكر العلماء. وإن شاء الله سيبلغ الأتقياء الأبرار في دار الخلد تلك المرتبة من الوجود التي في قوتها الإستمرار في البقاء وفي الحياة الفتية المتجددة. وهذا معناه بلوغ الكمال المنشود المفقود الآن. فالموت إذن ليس بالأمر الذي يجب أن نفزع منه وأن نخشاه وأن يروعنا مرآه، فإنه كما ذكر ليس إلا ترك صورة لأخذ صورة أخرى، وترك لون

من ألوان الوجود من أجل أخذ لون آخر من هذه الألوان الزاهية المتعاقبة. وكما لا يجب الفزع من غروب الشمس وغروب غيرها، ولا من طلوعها وإعتدالها، ولا من ميلها، ولا من الخسوف والكسوف - أو كما لا يجب الفزع من إجتماع السحاب ثم إفتراقه، ومن إشتعال النار ثم إنطفائها، ولا من إيراق الأشجار وإكتسائها بالأوراق والأفنان ثم تجردها من ذلك، ولا من نضج المزروعات والثمار، ولا من مظهر من هذه المظاهر، فكذلك لا يجب الفزع من الموت؛ فما هو إلا ظاهرة من هذه الظواهر التي نراها كل وقت ثم لا تحدث لدينا فزعاً ولا روعاً.

وكما أن الشمس تبدو من جهة في وقت ثم تختفي من جهة أخرى في وقت آخر بدون أن يوجد ذلك لنا هلعاً ولا إنكاراً، فكذلك كان الواجب ألا يحدث عندنا خروج أحدنا في وقت من طريق ثم إختفاؤه في وقت آخر من طريق آخر هذا الهلع والإنكار اللذين يستبدان بنا عند مشاهدة ظاهرة الموت. ولكن يظهر أن الإنسان لأسباب متعددة قد أفسدت عليه أكثر نظراته إلى الوجود، وأن عوامل التضليل كانت مسلطة عليه منذ وجد، وأنه لم يستطع حتى اليوم أن ينجو منها كما يجب أن ينجو. ولكن لا شك في أن الإنسان سيبلغ في يوم ما الغاية المقدورة له من حيث نضج الأفكار والرشد العقلي... فالموت إذن، وكذا الشيخوخة، ليسا من مظاهر الرجوع بالوجود إلى وراء. وإذن فلا يوجد شيء في هذا العالم يعود القهقرى، أو شيء لازم مكانه بحيث لا يتقدم ولا يتأخر، بل كل شيء دائب في طريقه الطويل بلا حيدة أو وقوف.

* * *

أما هؤلاء الذين قُلّدوا الزعامة الدينية، واختيروا لقيادة الفكر الإسلامي في أحوال سيئة قاسية ولأسباب ينكرها الدين والعلم، فقد عصفت بهم نوبة من نوبات الفساد الذهني وموجة من موجات العماية الأصيلة، واجتاحهم إعصار من أعاصير الجهل التليد البليد، فقاموا - وهم يترنحون من الغباوة ويتمايلون على أنغام الشيطان - ليوقعوا على أكذوبة علمية من أعظم وأشهر الأكاذيب العلمية في التاريخ... فقد زعم هؤلاء - بين هتاف الغباء المتواصل - في كل كتاب كتبوه وقول قالوه أن سعادة الإنسان وطريق تقدمه وراءه لا أمامه، وأن عليه أن يتلفت خلفه أبداً وألا يمد بصره بين يديه أبداً، وأن يرجع القهقرى وينكص إلى الوراء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ليظفر بالسعادة وبالعلم وبالعقل وبالأخلاق

وبالعدالة وبالنظام الإجتماعي المبرأ من العيوب والنقائص... وزعموا أن كل خير هو في أعمال الماضين، وكل شر هو في أعمال المتأخرين، وأن كل خير في إتباع من سلف، وكل شر في إتباع من خلف، وأن كل ما يمكن تصوره من الخير فقد مضى، وكل ما يمكن تصوره من الشر فقد بقي، وأن كل ما لم يستطع عمله الأولون وكل ما لم يعملوه ويرتضوه من الأعمال والعلوم والأخلاق فهو شر وجهل وفساد، وأنه إذا كان خيراً وعجزوا عنه فلا بد أن يعجز عنه الأواخر... إذ قد ادعوا أن الإنسان في كل نواحيه، العقلية والعلمية والخلقية والجسمية، قد أخذ حظه من الكمال في الزمان الأول، ثم عاد يتناقص وراح ينحدر مسرعاً في سلم الرذيلة والجهل والإنحطاط والضعف في كل شيء، وأنه لا يمكن أن يتوقف عن إنحداره حتى يقضي عليه القضاء الأبدي الأخير... وادعوا إجمالاً أن الإنسانية - بل الخليقة كلها - تنزل ولا تعلو، وتتأخر ولا تتقدم، وتفسد ولا تصلح، وأن الخير من أجل ذلك - الخير الذي لا خير سواه - هو في الإستمساك بخيوط الماضي والإرتماء في أحضانه والإغماض عن الحاضر والآتي والقنوط منهما، ثم تثبيت الأبصار والبصائر والآمال فيما سلف وفيمن سلفوا للتقليد والإتباع، لا للتفكير والإعتبار... وقد حاولوا - والبلاهة تحدو لهم - أن يعززوا هذه الدعاوى بروايات وأخبار نسبوها إلى الرسول عليه السلام وإلى أصحابه وإلى الأئمة المقلدين، وجدوا في نشر هذه الأخبار والروايات والآراء وفي ترويجها حتى أمكن لهم أن يصيروا لهم من هذه الخرافات ثقافة عامة يلتقي عليها وينضوي إليها أربعمائة مليون من الأجناس المختلفة، المتباينة، الآخذة بأعظم دين جاء لإيجاد إنسانية مهذبة عاملة على الترقي المستمر. وقد استسلم لهذه الثقافة أو لهذه الخرافة كل الطوائف؛ فالأدباء والشعراء والمؤرخون آمنوا بها ونشروها وشهروها في شعرهم وأدبهم وتاريخهم، كما آمن بها الفقهاء والمفسرون والمحدثون والمتصوفون بل والفلاسفة وكل من تعاطى الكلام في الدين أو في الأخلاق أو في الوعظ. وقد غبروا زماناً قد يزيد على العشرة القرون وهم جادون ماضون في تركيزها في النفوس وفي المعتقدات، حتى قام عليها من الإجماع بين الخواص والعوام ما لم يقم على قضية أخرى، وحتى أصبح إعتقادها والتصديق بصدقها مما يتسامى على الخلاف والجدل... ولو أن قائلاً قال إنه لم يدر على خاطر إنسان الشك فيها وفي صحتها كل هذه القرون لما كان

قائلاً باطلاً، ولو أننا سئلنا عن أكبر غلطة نهض عليها الإجماع الحقيقي أكبر مدة من الزمان لذكرنا هذه القضية في أول ما نذكر... وإن مما يدل على شدة إيمان الناس بها وإتفاقهم على نبذ الخلاف فيها أن رجلاً ثائراً بكل ما عرف من آراء وعقائد ونظم وحقائق - بل وغرائز - مثل أبي العلاء - أراد مرة أن يمدح نفسه وأن يبالغ في مديحها ويأتي بالمستحيل الذي لا يكون، ليكون ذلك أدل على ما يتصف به من نبوغ وعبقرية تستطيع أن تصنع ما لا يستطاع أن يصنع وما يعلم الناس كافة أن أحداً لا يستطيعه، فلم يجد شيئاً يقوله أعظم من أن يدعي أنه يقدر على أن يأتي بما لم يأت به الأوائل - وهو الأخير زمانه - لأنه يرى أنه إذا فعل ذلك وجاء بشيء فات الأولين فقد بلغ ما يرمي إليه من نعت نفسه بالقدرة على المستحيلات، فقال بيته المشهور من قصيدة له مشهورة:

وإني وإن كنت الأخير زمانه

لآت بما لم تستطعه الأوائل

ويحكي الرواة أن الناس أنكروا على أبي العلاء هذه الدعوى وأن الإنكار كان عاماً حتى إن غلاماً - كان من جملة المنكرين - تصدى لأبي العلاء متحدياً له غاضباً للأوائل منتصراً لهم وقال له: إن الأوائل قد جاءوا بثمانية وعشرين حرفاً من حروف الهجاء فزدها حرفاً. وقد ذكروا أن هذا التعجيز قد أصاب من شيخ المعرة مقتلاً فأسكت غير واجد جواباً.

وكان أقوى ما عززوا به هذه الأغلوطة أنهم قلدوها مصلح الإنسانية عليه السلام وصحابته، وأنهم ذهبوا يجمعون الروايات من هنا وهناك ويزعمونها من كلامهم إلى أن استقرت في الأذهان هذا الإستقرار الذي صار من العسير التشكيك فيه وزحزحته.

من هذه الروايات الرواية التي أوردناها في مطلع البحث وهي: (لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه.) وهذه الرواية مخالفة للرواية الأخرى الصحيحة القائلة: (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر) لأن نسبة الشر إلى الزمان سب صريح له. والزمان يقيناً لا يفعل خيراً ولا شراً، ولكن أهله هم الذين يفعلون فأنى ينسب إليه الشر؟ فإذا قيل إن المراد من هذه الرواية أن الناس يفسدون تباعاً، وأن أهل كل زمان هم شر من أهل الزمان الذي قبله، وخير من أهل الزمان الذي بعده، وهكذا، فالذم فيها لا إلى أهل الزمان، والرسول لا يمكن أن يقول - ولو

ظاهراً - ما نهى الناس عن قوله لأنه جاء معلماً ولم يجيء ملبساً ولا معمياً، وقد كان من الممكن أن يقول: (لا يأتي زمان إلا وأهله شر من أهل الزمان الذي قبله)، أو ما هذا معناه.

وقيل ثانياً: إن الذين يسبون الدهم هم أيضاً يريدون سب أهل الدهر لا الدهر نفسه، لأنهم يعلمون أن الدهر لا يصنع شيئاً كما قال أحدهم:

إن الجديدين مع طول إختلافهما

لا يفسدان ولكن يفسد الناس

ومع أن هذا هو قصدهم فقد نهوا عن سب الدهر.

وقيل ثالثاً: كيف يصح الزعم أن أهل كل زمان يكونون شراً من الذين قبلهم؟ إن هذه دعوى يكذبها كل شيء؛ يكذبها الدين والحس والعقل والتاريخ. والأديان كلها لا تخرج عن أن تكون بجملتها تكذيباً لهذه الدعوى، لأنها إنما جاءت لنقل الناس من حالة عامة إلى أخرى مغايرة - وقد نقلتهم - وكان الناس الذين قبلوا الدين هم بلا ريب خيراً من الذين قبلهم ممن كانوا على خلاف الدين: فكان الأنبياء والمؤمنون بهم خيراً جداً من الذين قبلهم. ولو كانت هذه الدعوى صادقة لوجب على الأنبياء وعلى المصلحين أن يأمروا الناس بإتباع من سبقوهم من الآباء والأسلاف. بل كانت هذه هي دعوى خصوم الأنبياء لأنهم كانوا يأبون قبول ما جاءوهم به، زاعمين أن الواجب عليهم أن يحافظوا على عهد الأولين وعلى عهد الأجداد، ومدعين أن من الباطل أن يكون الأسلاف في ضلال وأن يكون الأنبياء وأتباعهم من الأخلاف على الهدى وعلى الحق. وقد ذكر القرآن هذه الحجة على المشركين من العرب في مواضع كثيرة، وقد أعلنها الله عليهم حرباً شعواء مسفهاً أحلامهم، مطيلاً جدالهم، ومبيناً ما في هذا الإحتجاج من غواية وجهالة. وقد حكى الله عن إبراهيم أنه قال لقومه" أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون. "الآية. فنص على الأقدمين ليدل على أنه لا قيمة للقدم... فوجود الأديان إذن رد لهذا الزعم القائل: إن أهل كل زمان هم شر من أهل الزمان الذي قبله، بل هو زعم الذين ردوا الأديان، لأنهم استبعدوا أن يهتدي المتأخرون ويضل الأقدمون. فكأن هذه الفكرة هي فكرة أعداء الأديان والإصلاح الذين جبلوا على الجمود والتقليد لمن سلفوا على زعم أنهم أعقل وأفضل وأرشد وأعظم، لأنهم أقدم. أما الأديان ودعوات الإصلاح فإنها ثورة على الجمود

والتقليد لأن هدفها الأكبر تقديم الإنسانية بأفكارها وعقائدها وأعمالها إلى الأمام. وهذا لا يكون ممكناً إلا بالثورة بحجة الحدوث... ولولا هذا لما قامت الأديان، ولما قام شيء من الإصلاح، ولما تقدمت العلوم والمعارف.

وفي الرواية قصة هي كوثيقة الجريمة التي تعلق في عنق المتهم: قالوا أتى الناس أنس ابن مالك وشكوا إليه ما يلقون من الحجاج بن يوسف فقال أنس اصبروا فإنه (لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم) سمعته من نبيكم... وإذن فالرواية إنما سيقت في مقام الأمر بالصبر على مظالم الحجاج بحجة أنه لا أمل في ما يطلبون من العدل ومن الحكم الصالح، ولا أمل في أن يوجد أحسن من الحجاج من خليفته المرخى له في عنانه، ليخوض في عدوانه؛ لأن الناس أبداً يفسدون ولا يصلحون، ولأنهم أبداً يجورون ولا يعدلون، وأنهم سيظلون على ذلك يتتابعون في الإثم والفساد إلى قيام الساعة من غير أن يقوم بينهم صالح عادل... فالحجاج وخليفته شر من الذين قبلهم، وهما خير من الذين بعدهم. فإذا ذهب الحجاج وذهب معه حكمه فلن يجيء خير منه بل شر، لأنه بعده. وإذن فلا معنى للتبرم من حكومته ومن رجاء زوالها، بل يجب العمل على بقائها والإستزادة من أيامها، لأن بعض الشر أهون من بعض، ولأن شر الحجاج أهون من شر من سيأتون بعده... وقد جاء في رواية أخرى أن الحسن البصري سمع الناس يدعون على الحجاج فنهاهم قائلاً: إني أخاف إذا ذهب الحجاج أن تتلوى عليكم القردة والخنازير.

ومن الواضح عند من لم يتخلوا عن عقولهم لشيوخهم، وعند من لم يضيعوا صوابهم بين سطور الكتب الصفراء المظلمة البالية أن هذا وأمثاله إنما وضع بقصد سياسي، يراد به أن تستسلم الشعوب لقتلتها وجلاديها ولصوصها بدون أن تفكر في الخلاص، بل بدون أن تقبل هذا الخلاص لو قدم إليها هدية رخيصة، خوفاً من العاقبة النكراء، لأن الزمان وأهله أبداً يتتابعون إلى الشر ويتقدمون إليه... وهذا كما لا يخفى غرض عظيم من أغراض السياسيين الذين يستعبدون الأمم ويركبونها ويأخذون منها كل شيء ولا يهبونها شيئاً، وينالون منها ما أرادوا ولا ينال أحد منهم ما أراد... وليس هنالك وسيلة أنجع في تلك العصور ولا أقرب إلى تحقيق هذا الهدف ونيل هذا المطلب من أن تحمل القضية برمتها على الدين... وقد لعبت هذه اليد السياسية في هذه المسألة بمهارة ونجاح،

واستخدمت لتنفيذ سياستها هذه جموعاً كبيرة من الأغرار الغافلين الذين أقيموا للناس رجال دين، وزعموا أئمة مصلحين وأتقياء زاهدين... فتكاثرت الروايات الموضوعة لهذه الأغراض، وزحمت الجو الإسلامي أو الشرقي بها زحماً يشهد للقوم بالبراعة ولضحاياهم بالغرارة والغباوة. وقد كان قيام هذه الروايات بعملية التخدير التي كانت هي الحامل عليها قياماً ناجحاً، فقد ظلت الأمم الإسلامية تغط تحت تأثيرها وتخديرها - والسياط تأخذها من كل جانب، وحبال الجلادين تتحكم في رقابها وتعلق منها ما تشاء - كل هذه القرون بدون أن تفيق أو تتألم! وإن آثارها لا تزال اليوم ماثلة في كثير من البلاد مثل ما كانت منذ مئات السنين... أما النفوس فإنها لا تزال مأخوذة مسحورة بسحرها مخيمة عليها بشكل يدعو الى الاستغراب. ومن مظاهر ذلك هذا الذي نشهده في كل الطوائف في البلدان الإسلامية أو الشرقية من الخنوع لخلفاء أولئك الجلادين الذين يحاولون اليوم أن يقوموا بتمثيل أدوار أسلافهم من الطغاة. وقد رأينا البائسين المحرومين يجدون لذة كبيرة وسعادة نفسية، ووجدناهم تشرق وجوههم الكالحة المغبرة إذا أبصروا هؤلاء الذين أخذوا منهم كل شيء ولم يعطوهم شيئاً يمرون بهم، بل إنهم يقفون صفوفاً صفوفاً ليتمتعوا برؤيتهم وليسعدوا بمشهدهم إذا ذهبوا أو جاءوا بمواكبهم التي يجب أن تملأ النفوس حقداً وغضاضة، من غير أن يتألموا من ذلك أو تطرف له أعينهم، بل لعلهم يذهبون يدعون لهم من أعماق صدورهم، يسألون الله أن يزيدهم مما أعطاهم، وأن يرفع من مقاماتهم فوق رؤوسهم أكثر مما رفع! ولا شك أن هذه الروح التي برئت من الأحقاد النافعة، ومن الغضب والغيظ لمرأى المظالم والظالمين - أثر من آثار هذه الروايات، وبقية من بقايا أفعالها بالأولين المستعبدين. وهذه الروح تكاد لا توجد اليوم في البلدان الغربية، ولكنها لجأت بإطمئنان إلى هذه الأركان التي لجأ إليها الجمود والركود والتقليد والإستتسلام للجلادين. ومن عزا إلى أنس - أحد أصحاب الرسول - انه أمر بالصبر والإستسلام لمظالم الحجاج ومفاسده، بحجة أن من بعده شر منه وأنه خير ممن بعده، فقد بالغ في الإساءة.

فهذه الرواية وغيرها من الروايات المسوقة في أول هذا البحث وسواها من النقول الأخرى، المزعوم فيها أن الإنسانية ترتد إلى الوراء، وأن القدماء أبداً خير من الذين يجيئون بعدهم، وأن الشر والفساد أبداً في إزدياد، وأن كل شيء

ينقص إلا الشر فإنه يزيد – روايات من أصر على نسبتها للإسلام وللرسول ولصحبه فقد أصر على التنقيص والإتهام.

* * *

كيف جاءت هذه الفكرة – فكرة إعتقاد الخير في الأولين والشر في الآخرين؟ يغلب على الظن أنها إحدى الفكر الباقية من عهد الطفولة العقلية الإنسانية. ولا تزال الفكرة برمتها مستولية على تصرف الأطفال وعلى حياتهم ومشاعرهم وإتجاههم العام؛ فإنهم يرون أن من هم أقدم منهم سناً أكبر منهم عقولاً وأضخم إقتداراً. ولهذا فإنهم يجهدون على محاولة تقليدهم والإقتداء بهم من غير تفكير أو تردد، وهم مخلصون في هذا التقليد، بل إن كل تفكيرهم وتناولهم الأمور موجه إلى هذا التقليد مقصود به، بل لعلهم يرون ويعتقدون أن الكبار من الآباء والأجداد والأقارب وغيرهم يستطيعون أن يصنعوا كل ما يريدون، وأن قواهم غير محدودة. ومن مظاهر ذلك ودلائله أنهم يطلبون منهم كل ما يخطر لهم على بال دون التفكير في كون المطلوب يدخل تحت القدرة البشرية أم لا. وقد يريد الطفل من أبويه وغيرهما أن يحضروا له القمر وأن يضيفوا الشمس إلى لعبه الخشبية... ففكرة الطفولة قائمة على أمرين: الأول: على أن الأقدم سناً، الأكبر جسماً أحسن منهم تفكيراً وأقوى قوة، والثاني: أن هذه القوة – العقلية والبدنية – غير محدودة وغير عاجزة عن شيء... وقد ترتب على هذين الأمرين أمران: الأول حرص الأطفال على تقليد الكبار الذين اعتقدوا فيهم هذه العقيدة، والثاني تركيز كل رغباتهم فيهم وصرف جميع آمالهم وحاجاتهم إليهم، معبرين عن ذلك بالبكاء والضراعة والطلب الصريح. وليس هناك شك في أن هذه الأفكار الطفلية الخاطئة ضرورية للأطفال أنفسهم وللكبار وللإنسانية أجمع. فلو أنهم لم يعتقدوا هذا الإعتقاد في آبائهم وأمهاتهم وأولياء أمورهم وفي الكبار لما تربوا التربية التي تفرض عليهم، ولما أمكن أن يكونوا بشراً بالمعنى الصحيح، لأنهم إذا لم يروا هذا الرأي فيمن يقومون على تربيتهم وتعليمهم وتوجيههم فإنهم لن يأخذوا عنهم شيئاً، ولن يحاكوهم في شيء. وإذاً كانوا كذلك فلن يقبلوا تعليماً ولا تربية ولا توجيهاً، وإذا لم يقبلوا ذلك فلن تنمو فيهم المعاني الإنسانية والأخلاق ولا أمر من هذه الأمور التي صار بها الإنسان إنساناً مهذباً... وأعظم روح توجه التربية وتسيطر عليها هي روح الثقة والإطمئنان والإيمان – أي ثقة

المربي وإطمئنانه وإيمانه بالمربي. وإذا فقدت هذه الروح أو ضعفت فلن تكون التربية أو محاولتها آتية بالغرض المنشود... فهذا الإعتقاد الذي أسميناه إحدى إعتقادات الطفولة أمر لازم وخطأ لا بد منه من أجل نقل الإنسانية إلى الأمام بعلومها وأخلاقها وكل معانيها.

ولكن كيف نشأت هذه الفكرة عند الأطفال وما مصدرها؟ يظهر أنهم حينما جاءوا الدنيا فوجدوا آباءهم والذين هم أكبر منهم يستطيعون أموراً هم لا يستطيعونها، ورأوهم هم الذين يصنعون لهم ويعطونهم كل حاجاتهم وكل ما يهبهم البقاء، ورأوهم يتصرفون في أملاكهم المحدودة وبيوتهم الصغيرة الخاصة تصرفاً مطلقاً، نشأت لديهم هذه الفكرة، وظنوهم مخصوصين بالقدرة والكمال دونهم، وحسبوا أنهم إذا تصرفوا في أملاكهم ومنازلهم تصرفاً بدون معارضة فإن لهم أيضاً التصرف المطلق، وأنه لا فرق بين التصرف في البيت والملك الخاص وبين التصرف فيما هو خارج البيت وفي العالم كله لأنهم لا يدركون الفرق بين هذا وهذا، والتفكير في مثل هذا الفرق بعيد جداً عن أذهانهم الصغيرة... ثم اعتقدوا أن هذا الإختصاص الذي ظفر به الكبار مرجعه إلى أنهم كانوا أقدم وأكبر منهم، وأن المسألة ترجع إلى القدم والكبر. ويدل على هذا أن الأطفال يصرحون به قولاً، فإذا طلب طفل منك أمراً فقلت له افعله أنت قال معتذراً: أنا صغير أو قال أنت كبير – وهما بمعنى واحد. فالصغير لا يفعل وإنما يفعل من أجله، والكبير هو الذي يفعل، ويفعل من أجل الصغار.

وإذا علم هذا علم أن هذه الفكرة هي إحدى فكر الطفولة. فإذا قيل وكيف إنتقلت للكبار كان الجواب أن الأطفال لما كانت هذه فكرتهم بقيت عندهم وسارت معهم وهم يتقدمون إلى سن الشباب وسن الرجولة، وأصبحت ملازمة لهم وهم شبان ورجال بل وهم أمم وشعوب... وكان الخلاص منها يحتاج إلى مقدرة عقلية فائقة، ليعلموا بها كيف كان الكبار أعلم منهم وأقدر حينما كانوا صغاراً وما سبب ذلك – وهل سببه التقدم الزماني أم سببه النضج العقلي، وأن هذا النضج يكون في الأوان للصغار كما كان في الأوان للكبار، وأن الكبار كانوا صغاراً، وأن الصغار سيكونون أيضاً كباراً، وأن التقدم والتأخر الزمانيين لا شأن لهما في هذه المسألة، وأن الشأن لتبريز العقل، وأن زمان التبريز ليس هو القديم وليس هو ممكناً لقوم دون قوم – وربط المسببات بأسبابها ربطاً صحيحاً

مفقود دائماً عند الأمم التي تبلغ المرتقى الثقافي المطلوب. والأمم المتأخرة الجاهلة مصابة بالفوضى في التسبيب. فهذه الفكرة التي هي شعار للطفولة الميلادية بقيت أيضاً شعاراً للطفولة العقلية. والخروج منها غير ممكن إلا بعد تخطي الطفولتين. وما استطاع الإنسان أن يعرف خطأ هذه الفكرة إلا يوم أن بلغ رشاده الوجودي.

ومن الممكن أن يقال في تعليل الإعتقاد في القدماء أن المرء حينما يفد على الدنيا ويدخل المدرسة للتعليم والتلقين، أو يسمع تعاليم عامة خارج المدرسة، إنما يسمع ويلقن ويدرس ويحفظ كتب الأوائل - الذين هم قبله على أقل تقدير - وآراءهم وأفكارهم وعلومهم... وهكذا يأخذ الإعتقاد فيهم ينشأ ويعظم ويرسخ، ويقع في ظنه أن كتب الأوائل وعلومهم هي التي تدرس وتعلم وتفرض معرفتها على من يجيئون أخيراً من أجل أنهم هم المخصوصون بالمعارف والنبوغ والمقدرة الذهنية... ولا يدري أن مرجع هذا إلى أن علوم الإنسان تتجمع كلها أو أعظمها عند الجيل الأخير، ويأخذها ليضيف إليها علومه هو، وأنه إنما يعلم كتب الأولين ومعارفهم من أجل أنها علوم الإنسانية مجتمعة وأنها التجارب العلمية البشرية كلها، وأنه لا بد من البناء على السابق، لا من أجل أنهم أعلم وأفضل من المتأخرين. ولوجود الآثار تأثير في هذا.

ويمكن أن يقال في تعليل هذا أيضاً: أن المتأخر يقرأ للمتقدم ويقرأ عنه، وقد ثبت أن أكثر ما يكتب ويدون إنما يقوم على المبالغة والتزيد والكذب - إما تزلفاً وإما إرادة للإغراب، وإما لأغراض أخرى. فإذا قرأ المتأخرون كتب المتقدمين عن المتقدمين وعن فضائلهم وقواهم ومحاسنهم وإتساع ممالكهم وعظمة جيوشهم ومعجزاتهم وخوارقهم وغير ذلك، مما أكثره مكذوب أو مبالغ فيه، أخذهم الإعجاب بأصحاب هذا التاريخ السحري وبأصحاب هذه المعجزات والكرامات والخوارق... وهنا لا يجدون بداً من أن يسقطوا صرعى لهذه الأكاذيب، ولا يجدون بداً من أن يحنوا رؤوسهم تحت عروش هؤلاء القياصرة الخياليين، ومن هنا يذهبون يقيمون القدماء مقام الآلهة المعبودين ويضعون أنفسهم موضع العبيد المسبحين. والذنب في هذا يقع على رؤوس الكاذبين والجاهلين من المؤلفين الذين لم يستطيعوا أن يصفوا النهار بأوصاف النهار ولا الليل بأوصاف الليل... وكم لهذه المؤلفات المزورة ولهؤلاء المؤلفين المزورين

من ضحايا! وكم صرفوا طالبي الذهب عن طلبه في مناجمه وشغلوهم عن ذلك بمحاولة تصيير المعادن الرخيصة ذهباً وهَاجاً! وكم سحروا قراءهم المساكين، وأطاروا ألبابهم بأساطيرهم عن الأولين! وكم أخذوا بأبصارهم وشدوها بذلك الفردوس المفقود المنشود الذي لم يوجد إلا في كتبهم وبين سطورها المظلمة وفي عباراتها الركيكة! إن هذه الكتب المسبحة بحمد هؤلاء الأرباب لهي من أعظم ما حاد بالإنسان عن طريقه، وأعظم ما صنع له هذه النظارات التي لم يقدر – وهي على عينيه – أن يبصر الضياء، فبقي يعمه في ظلماته.

ومن الممكن أن يقال في تعليل هذا: إن الإنسان لما كان لا بد له من مثل أعلى يقدم إليه إحترامه وحبه وثناءه – والإنسان بحسب طبيعته لا يمكن أن يحيا أو يسعد بدون ذلك – وكان من غير المستطاع في أحيان كثيرة أن يجعل مثله هذا من الأحياء المعاصرين، لأن مخازيهم ونقائصهم حية تسعى معهم ترفض بقوة هذا الإحترام والحب والثناء. فذهب يتطلع متلمساً هذا المثل والأمل، وهذه القبلة ليستقبلها وليصلّي إليها بآماله وأهوائه. فلم يجد ذلك إلا في بطن الأرض بين الرفات والأموات، لأن حقيقتهم مدفونة معهم لا تستطيع أن تنازع فيما يدّعونه عليها وعلى أهلها من الكمال المنتحل والمجد المكذوب... وهذا من أعظم أسباب الكلف بالميتين عند هؤلاء المسحورين. ولهذا فإنهم لم يجدوا غضاضة في أن يقتلوا قوماً ثم يعكفوا على أجداثهم يعبدونهم، ويخلعون على عظامهم البالية العارية خلع التمجيد والتقديس، بل التنزيه والتأليه! وها هم أولاء اليوم يعبدون قبول أقوام كانوا في حياتهم لا يظفرون من إخوانهم السابقين المعاصرين لهم بالعطف اللساني! وها هم أولاء يقدمون إلى هذه القبور الأموال الطائلة، وقد كانوا يبخلون على أربابها – يوم أن كانوا أحياء يحتاجون إلى المال وينتفعون به – بالقوت لو طلبوه منهم. وقد قيل في هذا المعنى أو ما يشبهه:

لا ألفينك بعد الموت تعبدني

وفي حياتي ما زودتني زاداً

* * *

كل هذا الذي تقدم هو كالمقدمة لما نريد أن نقول – وهو أن هذه الفكرة القائلة برجوع الإنسان إلى الوراء كانت من أعظم ما وقف في سبيل القائلين بها وسبيل نموهم الوجودي... وقد محت من أذهانهم كل ميل للتحفز وللتجديد والإبتكار

ومعالجة الوثوب، وقضت على كل محاولة عقلية أو خيالية قد تتقدم بالعلم أو تسمو بالعاطفة، بل لقد كانت تعجز العقل عن النهوض بوظيفته مرة أخرى لأنها قد ضربت عليه سباتاً طويلاً حتى كاد يفسد فساداً عاماً ويعجز عجزاً أبدياً.

كان رشد الإنسانية وأهدافها أمامها، وهي لن تبلغها إلا إذا سارت إليها، وهي لن تسير إليها إلا إذا اعتقدت أنها أمامها... وهؤلاء اعتقدوا أن الرشد والأهداف وراءهم، فلم يكن بد من شيئين: أحدهما الوقوف عن المسير إلى الأمام، لأن المسير إلى الأمام يبعد عن الرشد والأهداف لأنها وراء، وثاني الشيئين العمل بكل حول على الرجوع إلى الوراء طلباً لهذه الأهداف ولذاك الرشد... فكان لهذا نتيجتان: أولاهما أنهم لم يخطوا إلى الأمام خطوة واحدة، وآخرهما أنهم رجعوا القهقرى أشواطاً وخطوات بعيدة، لأنهم قهروا قواهم على الرجوع وألزموها به، فأضاعوها في التأخر وفي السير خلفاً، وكانوا كلما تقدمت الإنسانية إلى كمالها شوطاً تأخروا هم شوطاً، فتضاعف الفرق، لأنهم كانوا يسيرون بالنسبة لها سيراً عكسياً.

كانت العقيدة التي حكمت هؤلاء كل هذه القرون قائمة على أمرين كما تقدم: أحدهما كل ما عجز عنه الأوائل فلن يستطيعه الأواخر، وثانيهما أن الأوائل قد فعلوا كل خير وبلغوا كل كمال.

أما الأول فقد ترتب عليه أن وقف التفكير في التجديد والإبتكار وقوفاً تاماً، وإن عدل نهائياً - على حسب ما ظنوا - عن محاولة التجربة ومحاولة مواصلة السير إذ قد فرغ من الإنسانية - على ما رأوا، فتعطلت القوى وركب السكون والركود المواهب، فمرت عشرات القرون على هؤلاء وهي تُعد لهم من حيث الوجود والأعداد عليهم من حيث التاريخ والأعمال.

انظر، إن الكتب التي ألفت منذ مئات السنين - بل منذ ألف عام تقريباً - في الفقه أو في التفسير أو في الحديث أو في العقائد أو في التاريخ أو في الأدب أو في النحو والصرف أو في اللغة، بل أو في الطب، إن كان هناك طب، كتذكرة داود وأمثالها، أو في الفلسفة أو في التربية إن كان ثمة تربية - إن الكتب التي ألفت منذ ذاك التاريخ في هذه العلوم وسواها لا تزال حتى اليوم هي المرجع، وهي التي تدرس وتطبع وتنشر وتعرف ويسرع إلى قراءتها وإقتنائها في العالم الإسلامي كله... وإن وجد شيء ضئيل من التجديد والتغيير فهو لا يعدو أن يكون نقلاً

مشوشاً ونسخاً ممسوخاً من هذه الكتب المعمَّرة ذات الألف وذات المئين من السنين، حتى إن المجلات الدينية التي تكاثرت في السنين الأخيرة لا يخرج مجموع ما فيها من تفسير للقرآن وشرح للحديث وتعديد وتقسيم للمعتقدات وسرد لما يحل ولما يحرم في الفقه ولما اختلف الفقهاء فيه ولما اتفقوا عليه، إن كان قد وجد إتفاق - إن مجموع ذلك لا يخرج عن أن يكون محاولة تافهة أراد بها محاولوها أن يقدموا إلى قرائهم فتاتاً متناثراً من تلك الموائد التي قام الآكلون عنها منذ ألف عام.

ولقد يعجب المرء إذا ما أدار نظرة حوله فوجد أن أكبر جامعة إسلامية قد بلغت من العمر أكثر مما بلغه نوح عليه السلام، قد عقمت في عددها العديد، وعمرها المديد عن أن تلد مولوداً واحداً حتى ضرب المثل بقدمها... إن هذه الجامعة في كل هذه المدة وفي جميع هذه الأعداد الهائلة من الطلبة والأساتذة، وفي ذلك الثراء الوفير الذي أرصده لها الواقفون، قد عجزت عن أن تؤلف كتاباً واحداً في نوع من أنواع العلوم التي اختصت بها وبدراستها وتدريسها... والكتب القديمة العقيمة التي جعلت مادة للدراسة فيها ليست من وضعها ولا من تأليفها ونقلها، وإنما هي إستعارة خارجية، وأكثرها من وضع قوم ليسوا عرباً لا في ألسنتهم ولا في أفكارهم ولا في أذواقهم...

وهذان العقم والعجز اللذان ضُربا على هذه الجامعة ضُربا أيضاً على سائر الجامعات والجوامع والمعاهد والبيوت الإسلامية الدينية... وإذا حاول المرء أن يحار في فهم سبب هذا العقم فلا يجب أن تطول به الحيرة كثيراً، فإن السبب في ذلك - أو أعظم الأسباب - لأن المفروض أن لكل علة من عللنا حشداً من الأسباب - هو ما ذكرنا من الحكم على الإنسانية بأنها قد فرغ منها وأن خيرها كله قد تقدم وأنه لم يبق إلا شرها... فإن معنى هذا أن كل محاولة ينهض بها المتأخر فهي لا تعدو أن تكون أحد أمرين: إما خطأ وضلالاً إذا كان الأوائل لم يفعلوها ويحاولوها، وإما صواباً وهداية إذا كانوا قد فعلوها! وإذن فلا معنى للمحاولة، وإذن فلا تجديد إلا في الخطأ والشر، وإذن فقد خاب المجددون والمبتكرون، وطوبى لمن عرف قدره فوقف عنده فسلم واستراح وأراح.

جثمت عليهم هذه الفكرة المدمرة فأذعنوا لها واستسلموا، ووجدوا لذة في الإذعان والإستسلام، لأنهما أراحاهم من تكاليف الوثوب ومحاولة السير،

ووجدوا في أنفسهم ومن أنفسهم ما يشفع لهذه الفكرة وما يقنعهم بها... فأغمضوا أجفانهم على العمى. وعقولهم على العماية، وعقلوا أعضاءهم بالكسل اللذيذ، وقضوها ليلة طويلة في السبات والعالم كله من حولهم يدلج ويسري. ثم تبلج الصباح وقام النهار فإذا بالعالم قد سار ألف عام، وإذا بهم قد رقدوا ألف عام، وإذا ما بينهم من الفرق هو تاريخ ألف عام، ولكنه ليس كالأعوام، بل هو ألف يساوي عمر الإنسانية كله في الإنتاج، بل يفوقه.

وقفت القوى المفكرة عن العمل فضاعت عليها حكمة وجودها وتخلفت عن مسايرة القوة الفكرية العاملة، وتخلفت بأربابها عن مسايرة الآخرين، ثم أصيبت من طول الركود وترك العمل بما يشبه الفساد الطبيعي، كآلة لا تستعمل. ولو أن إنساناً ظل نائماً مدة طويلة ولم يستعمل أعضاءه في قيام ولا مشي ولا حركة لأصيب جسمه وقواه بما يوشك أن يكون فساداً طبيعياً، ولاحتاج - إذا حاول إسترجاع نشاطه وأعضائه كما هي - إلى تدريب ورياضة، ولو أنه أغمض عينيه مدة طويلة ومنعهما النور لأتبعه الإبصار حينما يحاوله، وقد يفقد بصره البتة... فأصبح الفرق بين هؤلاء وبين الآخرين من ناحيتين: الأولى: أن الآخرين قد استخدموا عقولهم فقدمتهم، أما هم ففقدوا عقولهم وحكموا عليها بالإعدام فلم يقدروا على التقدم، لأن التقدم إنما يكون بتقديم العقل وإرشاده، والعقل قد عزل عن هذه الوظيفة. والثاني: أن الآخرين بقيت عقولهم عاملة فبقيت نشيطة سليمة لم تصب بما يشبه الركود أو الفساد، أما هم فأصيبت عقولهم فصارت محتاجة إلى البعث والترويض والتمرين قبل أن تصبح قادرة على العمل، فتعاظم الفرق. ومعلوم أن كل شيء يصلحه العمل على حسب طاقته ويفسده الإهمال والترك. والعلم والتجربة مرشدان الى الاستعانة على الأبدان التي تقل حركتها وعملها بالرياضة لتبقى على سلامتها وطاقتها ووظيفتها في الحياة. فإن من المعروف أن الأبدان التي يكثر سكونها تكون عرضة للإنهيار، وفريسة سهلة للأمراض، وقد تصاب في الآخر بما يجعلها غير صالحة للحياة ولا قادرة على الإستمتاع بنعمة الوجود.

وأما الأمر الثاني - وهو الإعتقاد بأن الأولين قد فعلوا الخير كله وبلغوا الكمال المطلق، وأن أفعالهم كلها أفعال يقتدى بها - فقد ترتب عليه أيضاً نتائجه. فإن هؤلاء الذين اعتقدوا هذه العقيدة قد صرفوا كل قواهم وأوقاتهم

وعنايتهم إلى محاولة الإقتداء بأولئك الكاملين الخيرين ومحاولة الأخذ عنهم والتشبه بهم، بل محاولة إعادتهم ونشرهم لو كان ذلك مستطاعاً... و الفكرة التقليدية كانت مستولية على جميع الطوائف. فالقائد والسياسي والزعيم والملك - كل من هؤلاء يحاول - ويتمنى لو قدر - أن يقتدي بمن خلوا قبله من القواد والسياسيين والزعماء والملوك، ويرى كماله ونجاحه مقدورين بما يحسن أخذه ونقله عن ذلك المثل الأعلى القديم الذي تخيله - والمحدث والفقيه والمفسر والمتكلم والفيلسوف والأديب والنحوي واللغوي وسواهم - كل منهم يدأب على أن يكون كالسابقين في هذه العلوم وعلى أن يخلط نفسه بينهم وأن يفهمهم ويفهم ما قالوا وكتبوا من المؤلفات والعلوم. وكل منهم يرى أن قيمته العلمية مقدرة بما يأخذ ويفهم عن هؤلاء وعن كتبهم، بل والزهاد والعباد وأضرابهم عملوا على أن يكونوا نسخاً مكررة لمن تصوروهم مثلهم العليا من الأقدمين في العبادة والزهادة، وهكذا كان جميع الناس. وقد كان لهذا نتائج عديدة:

منها أن جميع البارزين الذين اشتغلوا بالتفكير وبالبحث العلمي قد وجهوا كل تفكيرهم وبحثهم إلى كلام الأولين وإلى ما خلفوا من كتب وآراء، محاولين فهمها ووضع الشروح والتفاسير عليها دون أن يحاولوا إبداء فكرة مستقلة أو إيجاد رأي جديد - وهكذا أضاعوا قواهم في غير ما شيء وفي غير أن يفيدوا أو يستفيدوا. فكانت الخسارة الإنسانية في هؤلاء لا يمكن تعويضها، كما لا يمكن تصورها ولا تقديرها لجسامتها.

وكم يأسى المرء إذا علم أن آلاف العقول الممتازة في إستعدادها - أو مئات الآلاف - أو أكثر من ذلك - تلك العقول التي عدت لامعة في ظلمات القرون الوسطى - قد بددت وأنفق ما في إمكانها في إيراد الإحتمالات والإمكانات التي قد يحتملها كلام الشيوخ المتقدمين وقد يكون غير محتمل لها! وكم يأسى إذا تذكر تلك المعارك الهائلة التي أداروها بإخلاص وتقى وعناية وبلا إنقطاع، في الخلاف على فهم كلامهم - أي كلام الأولين - وفيما أرادوا وعنوا بما قالوا وكتبوا، وإذا نظر إلى هذه الجبال من الكتب التي لا يمكن تعدادها ثم رأى أن كل ما فيها لا يخرج عن تفسير لكلمة قالها أحد القدماء أو عن إختلاف عليها أو عن إيراد الوجوه التي يمكن أن تكون مرادة بها أو عن تبيان لفضائله أو لكراماته وخوارقه، ونحو ذلك مما يدور هذا المدار.

إننا لو جمعنا جميع الكتب التي تزخر بها المكتبات الخاصة والعامة مما وضع في الألف السنة الماضية، ثم أردنا أن نخرج بكتاب واحد لم يوضع هذا الوضع ولم يقصد به هذا القصد، لأعجزنا الخروج! وأدهى من ذلك هذا الركام من المؤلفات التي وضعت خاصة بالأولياء وبتراجمهم وبسرد ما كانوا يتمتعون به من سلطان روحي قهر لهم الطبيعة وأذل نواميسها فجعلها طوع أهوائهم... معنى هذا كله أن عشرات الأجيال قد تنازلوا عن كل قواهم الذهنية لتضيع وتنفق في البحث عن كمال الأولين، وفي التدليل عليه وفي التمسح بأركانهم، والطواف بحرمهم، وفي الحج الروحي الفكري الذي لا إحلال منه إلى مشاعرهم. وسبب هذا هو إعتقاد الكمال فيهم. فيا لها من خسارة إنتزعت من الإنسان أجل ما فيه مدى ألف عام، بل إنتزعت منه معناه كله بدون أن تعوضه شيئاً.

ومنها - أي من النتائج المترتبة على تصور هذا الكمال - كثرة العمل مع قلة الإنتاج، ونشاط الحركة التأليفية مع ركود الحركة الفكرية - أي إن المؤلفين والمتكلمين والناعبين في العلوم والحقائق يكثرون جداً ولكنهم يقلون أيضاً جداً، لأنهم لا يصنعون شيئاً ولا يأتون بشيء. وذلك أن عملهم حينئذ لا يجاوز أن يكون ترديداً وتمديداً لما قاله وكتبه الأولون، وإيجاد نسخ متعددة بأسماء متعددة لشيء لا يتعدد. لأن الإنسان لا يريد بما يعمله سوى الكمال الذي يتصوره إذا استطاعه ولم يمنعه منه مانع، فإذا اعتقد معتقد بأن الكمال إنما يلتمس عند الماضين وفيما ألفوا وحكموا ورووا فلا محالة من أن يقضي حياته جاثياً أمام تلك الهياكل المقدسة جثو العابد أمام صنمه المقدس، إلتماساً للفيوضات والإمدادات والبركات. ولو أننا نظرنا في مئات الكتب وآلافها الموضوعة في علم واحد لما ألفيناها إلا كتاباً واحداً أخذت منه صور عديدة منها الصغيرة ومنها الكبيرة، ومنها المشوهة ومنها المقاربة، ثم نحلت أسماء على عددها. إننا نعد في علم التاريخ مئات الكتب وألوفها - وكذا في الحديث والفقه والتفسير وفي كل علم - ولكننا عند التحقيق لا نجد إلا كتاباً واحداً! فإنسان ألّف منذ ألْف سنة مثلاً مؤلفاً في علم من هذه العلوم وأودع فيه ما أودع من أباطيل وأكاذيب وغيرها، فإذا جاء بعده ألْف مؤلف في هذا العلم فإنهم جميعاً سيأخذون علومهم وحقائقهم عنه وعن كتابه بلا نظر أو تفكير. وهذا هو الشأن في جميع المؤلفات التي تغص بها المكتبات والفهارس العامة اليوم والتي يفوت إحصاؤها. وعلى

هذا فمن الخطأ الذي يقع فيه الجميع أن نجد رواية أو رأياً في مئات الكتب لمئات المؤلفين فنزعم أن تلك الرواية أو ذلك الرأي قد قال به ورواه هذا العدد العديد. والصحيح أن نقول إنها أو إنه رواية أو رأي إنسان واحد في مؤلف واحد نقله عن هؤلاء الجاهلون المقلدون بلا بحث وبلا عقل، فلا ننخدع ونخدع بالكثرة ونقول: كيف لا تكون تلك الحكاية أو الرواية صحيحة وقد رواها وصدقها عشرات العلماء أو مئاتهم! وكيف تكون كذباً ثم يخفي حالها على كل هؤلاء! إن من السهل على الإنسان ألا يثق برواية إنسان واحد وبرأيه، ولكن من العسير عليه أن يشك في رواية العشرات ورأيهم، ولا سيما إذا كانوا ممن يجل ويحترم. وقد طارت أغلب الأباطيل في أرجاء العالم الإسلامي بهذه الوسيلة حتى صارت من الحقائق التي يرد النزاع فيها ولا يقبل.

وكثرة العمل مع قلة الإنتاج على النحو الذي ذكرناه لها مفاسد: فهي تسرق أوقات القراء كما سرقت أوقات المؤلفين بلا فائدة؛ فإذا قرأ القارىء عشرة كتب من هذا النوع فهو إنما قرأ كتاباً واحداً، والوقت والجهد اللذان بذلا في قراءة التسعة إنما ذهبا في غير شيء سوى التكرار والإعادة للكتاب الأول - ثم الكتاب الأول ماذا فيه!! ومن المشكوك فيه أن يكون لهذا التكرير نتيجة - وهي أيضاً تزحم المكتبات والمطابع، وفي ذلك من التكاليف ما هو معروف - وهي أيضاً تعين على نشر الأباطيل والتمكين لها لأن الباطل الذي ينشر في عدة كتب ويقول به عدة كاتبين ينتشر أكثر مما ينتشر الباطل الذي يكتب في كتاب واحد ويقول به كاتب واحد - إلى مفاسد أخرى كثيرة.

ومنها - أي من النتائج المترتبة على إعتقاد كمال الأولين - إستدامة الخرافات وإستدامة الإيمان بها وإباء النزوع عنها، لأن من آمن بكمال قوم وبأن كل ما يصنعون خير وحق، وبأنهم مطبوعون على الصواب والحكمة فسيأخذ عنهم كل ما بلغه ووصله، وسيصر عليه ويأبى الشك فيه وإن كان فيه ما فيه من الفساد والبطلان، بل سيكافح ويناضح عن كل ذلك، ملقياً بعقله تحت قدميه، بل غير مفكر بأن له عقلاً يجب أن يرجع إليه. ومعنى هذا أن خرافة يكتبها مخرف في عصر من العصور تبقى متنقلة مع كل العصور، مؤمناً بها في كل العصور بلا تفكير في تركها أو شك فيها، بل تصبح عقيدة جامعة لكل من يجيء بعد قائلها وكاتبها. وهكذا تظل الخرافات تتكاثر حتى تخرج من ذلك مجموعة لا شبيه لها

عند أمة من الأمم سوى الأمة التي ذهبت هذا المذهب وقالت هذه المقالة. وهذا هو ما حدث؛ فإن الأباطيل التي كتبها الشعراني أو الغزالي أو غيرهما من المصابين بعقولهم ومعارفهم منذ مئات السنين لا تزال اليوم يؤمن بها مثل الإيمان بها يوم أن قبلت، ولا يزال الإيمان بها يحمل تلك الحرارة التي حملت مؤلفها على وضعها في كتابه مزهواً فخوراً، بل إن حرارة الإيمان بها لا تزال تتزايد وترتفع على رغم القرون التي مرت بها، وعلى رغم المعارف المتجددة التي اجتاحت في البلاد الأخرى أمام سلطانها وجبروتها جيوش الجهالات إجتياحاً مبيداً.

إن العاقل لتأخذه الحيرة البالغة متى أتيح له أن ينظر في هذه الكتب المسنة التي تخرجها المطابع تباعاً ليلتهمها القراء بشره ولذة، وأتيح له أن يرى ما تحمل من جهالات بل من جنون وخبل ومن كفور ومروق، ثم رأى كيف يقبل عليها ويقبلها قوم قيل: إنهم عقلاء، وقيل إنهم مؤمنون، وقيل إنهم خيرون، بدون أن يجدوا فرصة للشك فيها، وبدون أن يجدوا أذناً تصيخ لنقدها والإعتراض عليها، بل بدون أن يتركوا لغيرهم أن ينقد أو يعترض أو يشك. وقد تخف أو تتلاشى هذه الحيرة التي تأخذ بالعاقل إذا علم أن سبب هذا الإستسلام الفظيع لهذه الكتب ولكاتبها يرجع إلى هذه العقيدة القائمة على إعتقاد الأوائل من نسل الشموس، ومن حفدة الآلهة المبرئين من الخطأ ومن الجهل ومن الضلال والخبث وإرادة السوء ومن الضعف والعجز. ولو أن شيئاً من الشك نفذ إلى هذا الإعتقاد فأوهاه وأصاب حرمه المحرم بشيء من الخروق لكان من المحقق ألا يجد هؤلاء المضللون لهم أتباعاً ورعايا يسيرون خلفهم وبين أيديهم كالقطعان المذعورة.

يجد المصلحون اليوم عناء وإرهاقاً في محاولتهم هدم ما شاده الجهل الأول، ويلقون إعراضاً مزعجاً وبلادة منكرة، ويذهب كل ما يبذلونه أو أكثره في هذه المحاولة هباء: فالبراهين لا تجدي بل لا تسمع، والعظات لا تؤثر، وكل شيء يروح كما جاء. والعائق الأكبر هو أن هؤلاء الذين يراد إصلاحهم يرون الكمال في أولئك القدامى الذين يجدون هذه الأباطيل والخرافات في كتبهم. فمن المستحيل أن يجمعوا بين الكفر بأباطيلهم وبين إعتقاد الكمال المطلق فيهم. والسبيل التي لا سبيل سواها، لإخراج هذه الجماعات المنكودة مما هي فيه، أن تعلّم الكفر بهؤلاء والشك فيهم وإساءة الظن بهم وبعلمهم، وأن تعلم أنهم كانوا تحت ظنهم بهم جداً، وأنهم أبعد عن الكمال من المعاصرين ومن المتأخرين، وأن

تعلم كيف تثق بنفسها وبعقلها وإستعدادها.

إني لأنظر إلى هذا الميراث الثقيل الباهظ الملقى في طريق المسلمين، وإلى هذه الأسفار التي تروع أعدادها ويعجز تعدادها - وما فيها مما لا يستقيم لأمة أمرها ووجودها معه، فأفزع وتذهب بي الأفكار في كل وجه، ثم تؤوب بي مجتمعة مجمعة على أنه لا خلاص إلا إذا استطعنا أن نكفر بهذا الميراث، وعلى أنه لا يمكن الكفر به إلا إذا عرفنا كيف ننزل مورثينا إياه عن هذه العروش السماوية التي صنعناها لهم على حساب قوانا العقلية والدينية ثم أجلسناهم عليها، ثم جثونا تحتهم نسبح بحمدهم ونقدسهم وننزههم عن كل ما يخطر بالبال من إثم أو نقص أو ضعف! فهل من سبيل إلى هذا؟ على أنه لا سبيل سواه.

ومنها - أي من نتائج هذا الإعتقاد أن وقع معتقدوه بين عاملين يتنازعان قواهم ويتجاذبانهم. وذلك أن الإنسان - كائناً ما كان إعتقاده وتفكيره - لا يستطيع أن يكون غير لبنة في هذا الوجود المتطور المتقدم، فهو من حيث هذا سائر مع الوجود السائر، أراد هذا أم لم يرده، عرفه أم لم يعرفه. فإذا كانت له أفكار وإعتقادات لا تعترف بهذا التقدم والتطور، بل تنكره وتجحده وتحاول الرجوع به إلى الوراء، فهو من حيث هذا متخلف عن الوجود السائر، أو سائر سيراً مضاداً. فهو إذن واقع تحت حكم عاملين متضادين كل منهما يؤثر فيه ويعمل فيه عمله، وهو حينئذ عاجز عن أن يخلص لأحد العاملين ويكون له وحده، فلا مفر من أن يصبح متقسماً وأن تضيع قواه هباء، بل لا مفر من أن يتمزق بين هذين العاملين كما يتمزق كل شيء وقع بين أمرين قويين متنازعين. ولهذا فإن هؤلاء الذين يتلفتون إلى الوراء ويحاولون - لو أمكن - أن يرجعوا بزمانهم ومكانهم وبالوجود كله إلى ذلك العصر الذي تخيلوه وتخيلوا أهله يصبحون أهدافاً سهلة للأفكار المضطربة السوداء وللعقد النفسية والإرتباكات العصبية وللمشروعات الخيالية التافهة التي يولدها الإعياء والعجز والحيرة الغالبة. والحيرة والتردد لا مثيل لهما في تخذيل الشعوب وقتلها، وفي تبديد قوى النفس وإصابتها بالعجز عن كل ما فعل له قيمة وأثر باق... والذين يصابون بالحيرة والتردد من غير المنتظر أن يصنعوا شيئاً يحوز الإعجاب والخلود، كما أنه من غير المنتظر أن يجدوا في هذه الحياة سعادة حقيقية.

والشعوب - بل والأفراد التي تصيب النجاح - هي التي ترزق القدرة على

التصميم وعلى التخلي عن كل حيرة وتردد. والتصميم ضروري في الحالة العادية وفي الطارئة أيضاً وفي كل حالة، فهو ضروري في حالات الحروب وفي حالات السلم؛ فلا بد من التصميم على الحرب في أوانها، كما أنه لا بد من التصميم على السلم في إبانها، وإلا فلا ظفر لا في هذه ولا في هذه. ولو أن إنساناً حاول أن يقوم بعمل صغير ثم لم يعرف كيف يذود كل حيرة وتردد لما كان من المأمول نجاحه.

وإذا كان هذا كله صحيحاً - وهو صحيح بلا شك - فهؤلاء الذين يقولون إنه يجب الرجوع إلى الماضي في كل شيء، ويجب هجر الحاضر في كل شيء، ويقولون إن الخير كله في الأزمان الذاهبة، والشر كله في الأزمان الحاضرة والمقبلة، ويقولون إن قلوبهم معلقة بالماضي البعيد أبداً، وإنهم يعملون على الرجوع إليه - هؤلاء لا بد أن يصابوا بالحيرة التي يعي الخروج منها. وذلك أنهم يقولون هذه المقالات ويعتقدونها ويرونها حقاً، ولكنهم من ناحية أخرى يرون الدنيا وما فيها تدور أمام أعينهم ماضية ممعنة في المضي، مصيبة من النجاح والفوز ما لا تمكن المماراة فيه. فالواقع المشهود المنظور الملموس يقول لهم - إذا قالوا هذه المقالات: - كلا إنها غير صحيحة وغير صادقة، وإني - أنا الواقع المشهود - أشهد ببطلانها وكذبها، ثم تصيح بهم هذه العقيدة من ناحية أخرى مؤكدة صحتها وصدقها وتأييد الأديان كلها وأهلها لها. فتركبهم الحيرة ويركبهم الشك المتولدان من الواقع المشهود ومن هذا الإعتقاد المكين القديم فيصيرون نهباً متوزعاً، وتذهب هذه الحيرة وهذا التردد يأكلان عقولهم وأفكارهم وأعصابهم وأعمالهم، ويعجزانهم عن أن يصنعوا شيئاً عظيماً... وهذا كله ملاحظ على هؤلاء الذين لا يفتأون ينادون بالماضي - وقد عجزوا عن أن يرجعوه، وعجزوا عن أن يعيشوا فيه، فهو لا يستطيع المجيء إليهم، وهم لا يستطيعون الذهاب إليه، لأنهم ليسوا من أبنائه. وسنة الحياة لا تقاوم. وعجزوا من الناحية الأخرى عن أن يعيشوا في هذا الزمان الذي هم فيه لأنهم يحاولون دائماً التملص منه والخروج عنه - ولأنهم لم يهبوه حبهم وتفكيرهم وهواهم وإتجاههم. فصاروا منقطعين عن هذا وعن هذا، وأضحوا مجندلين بينهما، ينظرون إلى هذا الجانب تارة وإلى الجانب الآخر تارة أخرى. ومن المعلوم أن إنساناً ما لا يستطيع أن ينتزع نفسه من العصر الذي يعيش فيه إنتزاعاً، وأن ينقلها إلى العصر الذي يحبه ويتمناه. فإن الإنسان ابن زمانه وابن نظمه وتقاليده

وتعاليمه وعاداته وأفكاره. وهذه الأشياء تحكم على الإنسان وإن كان من الممكن أيضاً أن يحكم عليها، ولكن من غير الممكن أن يخرج من كل سلطان لها وتأثير. ولعل من العجب أن البشر هم الذين يوجدون هذه الأمور ثم يتعبدونها ويصبحون من أرقائها الخاضعين لأمرها، بل ثم تصبح هي التي توجدهم وتصنعهم وتكيفهم.

فهؤلاء الذين يجهرون كل وقت بالدعوة إلى الإنسلاخ من عصرهم ومن علومه وأخلاقه وعاداته ونظمه، ليحملوا أنفسهم على أزمان قصية عشقوها، وليعيشوا بأخلاقها وعلومها وعاداتها، ما مثلهم إلا كإنسان قد شد شداً محكماً لا خلاص منه بعربة متجهة بسرعة إلى جهة من الجهات، يحاول الرجوع إلى الجهة الأخرى بكل ما فيه من تحفز وتوثب وإهتمام وأعصاب. إن مثل هذا الإنسان لن ينال من هذه المحاولة سوى إجهاد أعصابه وسوى عذابه النفسي المتواصل، ولكنه لن يتخلى عن عربته ولن يرجع إلى جهته.

وعلى هذا الإعتقاد - إعتقاد كمال الأولين ونقص الآخرين - قامت أكبر جهالة رضيها الإنسان لنفسه، واستعبد بها عقله ونزل بمقتضاها عن أجل ما وهب - عن الفكر الحر الباحث الناظر في الأشياء كيف شاء بلا قيد أو حرج - هذه الجهالة هي إلزامه نفسه بما سماه (التقليد!) وقد نظم ذلك شعراً يحفظه ويدرسه في قوله: (وواجب تقليد حبر منهمو) أي من الشيوخ المتقدمين! من المعقول أو من شبه المعقول أن تفرض العبودية الفكرية على أمة من الأمم أو على الأمم كلها بالقوة وبالسلطان العاتي، كما يفرضان سائر المظالم والجبروت، ولكن من غير المعقول أن يفرض الإنسان ذلك على نفسه طائعاً مختاراً وأن يلزمها به إلزاماً، وألا يلتفت إلى من أراد رجع حريته إليه وإعطاءه ما سلب، بل يعد ذلك عدوه وخصمه فيصاوله وينازله.

طغت هذه الجهالة على العالم الإسلامي، واستبدت به إستبداداً مبيناً، وأجهزت على كل حرية فكرية عنده، وسرقت من العقل وظيفته، فاعتاد أن يأخذ الأشياء قضية مسلمة وألا ينظر أو يفكر أو يبحث أو يشك... بل اعتاد أن يأخذها أخذ تسليم بدون فهم وبدون رغبة في الفهم وبدون أن يرى ذلك مطلوباً. فأصبح من أخلاقه التي تكاد تكون طبيعية أن يصدق كل شيء وأن يقبل كل شيء وألا يحاول فهم شيء. وصار التصديق وتبلد الحاسة العقلية من الصفات

الميزة له والمسيطرة عليه... فبالتصديق آمن بكل الخرافات التي يلقنها بدون عناء حتى صار أعجوبة في إستسلامه المخجل لكل هنة فكرية - وبتبلد الحاسة العقلية وقف دون الأشياء، ودون النفوذ فيها، ودون فهمها بل ودون الرغبة في فهمها حتى عد الشك في الأشياء ومحاولة الفهم للأمور من خصال الكافرين والملحدين المارقين، واعتبر سرعة التصديق وسهولته والوقوف أمام الأشياء ببلاهة وبلادة، كوقوف الأصنام أمام عابديها، من علامات القبول والإيمان. فالشك في المتن أو في الشرح أو في الحاشية أو في التقرير كفر، والإيمان بكل ذلك - فهم أم لم يفهم، صدقه الواقع أم لم يصدقه، ائتلف أم اختلف، صلاح وورع وسلامة عقيدة! والمفروض المأمور به أن يتهم الإنسان عقله ونفسه وأن يجعل أصحاب المتون والشروح والحواشي والتقارير من وراء التهم وفوق الظنون. فمن وجد في كتاب من هذه الكتب تناقضاً أو باطلاً أو كذباً أو جهلاً أو سخفاً وكفراً وجب عليه أن يعتقد أن ذلك من نقص فيه لا في المؤلف، ومن تناقض أو باطل أو كذب أو جهل أو سخف أو عجز في فهمه هو، أما المؤلف فالواجب تنزيهه وتقديسه وتصديقه... وقد غبروا مدى ألف عام وهم مصلتوها سيوفاً مرهفة في وجه كل من يحاول أن يعترض أو يصحح أو يشك بل أو أن يفهم ويعقل... وإلى اليوم لا يزالون شاهري هذا السلاح.

ومن الحقائق المعروفة في المعاهد الدينية الكبرى أن المفروض على الأستاذ المدرس وعلى الطالب أن يصححا عبارة الكتاب وأن يخرجاها تخريجاً صحيحاً وأن يوجدا لها المحمل الحسن وإن كلفهم ذلك التضحية بالعقل وباللغة وبالذوق وبكل شيء.

فجهالة التقليد من الجهالات ذات الآثار القاتلة. وأظهر آثارها كما سبق شيئان: التصديق بكل ما يقال ويسمع وينقل، وغل العقل عن الفهم! ولا يمكن أن تبلغ أمة من الأمم مبلغاً من الحضارة والمدنية ما لم تشك وما لم تفهم. فالشك والفهم شرطان ضروريان في تحصيل الحضارة والعلم والقوة. والذي لا يعرف أن يشك لا يعرف أن يفهم، والذي لا يعرف أن يفهم لا يعرف أن ينبغ ويمتاز، وبالنبوغ والإمتياز فقط تتقدم المعارف وتخلق الشعوب وتقوم الحضارات.

* * *

ومن الواجب أن نعلم أن الوجود الإنساني كله والحضارات الإنسانية أجمع

إنما قاما على فكرة التطور، وعلى فكرة أن الإنسان مستعد دائماً للتقدم والترقي بكل معانيه، وعلى أن ما أمامه أفضل مما وراءه، وعلى أنه يلزمه أن يبتسم للمستقبل ويبسط إليه يديه، وأن يعبس للماضي وينقبض منه ويقبضهما عنه. على هذه الأفكار الجامعة الصغيرة الكبيرة معاً سارت الإنسانية بخطاها الوئيدة الثابتة نحو هذه الحياة التي تحياها اليوم، وستبقى سائرة في طريقها بإرشاد هذه الأفكار أيضاً وبحفزها وتحريضها حتى تصيب أهدافاً وأغراضاً أخرى تهون في سبيلها كل مشقة. ولو أن الإنسانية كلها آمنت بهذه الفكرة - أي فكرة الرجوع إلى الوراء - كما يريد هؤلاء وعقلت قواها بها لما كان من المستطاع أن تعمل خيراً ولا أن تقضي على شيء من الشرور الموروثة عن الأزمان الأولى وعن أخلاق أهلها. ومن الواجب أن يعلم أيضاً أن نظر الأمة إلى هذه الفكرة مقدور برقيها؛ فالأمة التي بلغت القمة في الرقي وسمو التفكير وفي الإستعداد لأخذ أسمى ما في الحياة من معنى ومن فن تكون أكفر الأمم بها وأكثرها إبتساماً إلى المستقبل وتطلعاً إليه وثقة به وعملاً له. والأمة التي يندر نصيبها من الرقي تأوى إلى هذه الفكرة بعلمها وعملها بقدر ذلك. وعمل الأمم للمستقبل وللعبث وللتجديد إنما ينهض على هذه القاعدة. وقد جلت هذه الحرب ما لهذه الفكرة - قبولاً ورداً - من آثار في الشعوب ومن تقرير لمصايرها وقيادة لها: فلو أن ألمانيا أو إنجلترا أو أمريكا أو غيرها من الدول الكبرى اعتقدت بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان وبأن ما عجز عنه القدماء فلن يقدر عليه أبناؤهم وأبناء أبنائهم، لما استطاعت أن تحسن وتجدد في أسلحتها وقواها وعلومها وفنونها وأساليبها، ولقرت عيناً بما صنع قبل ذلك، ولما أمكن أن تخرج القنبلة الذرية ولا غيرها مما دان لقدرة المتأخرين، وكان فوق قوى المتقدمين. ولعل أعجب أسرار هذه المسألة وهذه الفكرة إسقاط بريطانيا للرجل الذي أعطاها النصر وانتزعه لها من بين لهوات الهزيمة، إذ لا شك في أن الإنجليز إنما أسقطوا تشرشل لإيمانهم بأن من الممكن أو من المحقق أن من سيخلفه سيجيئهم بأفضل وأعظم مما يجيئهم به واهب النصر لو أبقوه مكانه... ولا ريب أن شعباً يعتقد هذه العقيدة في تشرشل وفي خلفه شعب يؤمن أشد الإيمان بالمستقبل وبالتطور وبأن المستقبل وأهله دائماً أفضل وأكمل من الماضي وأهله... وإن شعباً تقوده هذه الأفكار الجميلة لعسير جداً مباراته أو إنزاله عن سلطانه الضخم الواسع. ولو

أن رجلاً كتشرشل كان لنا معشر المؤمنين بهذه الفكرة وأعطانا هذا الذي أعطى أمته لكان من المستيقن أن نعد من الجنون ومن الخيانة - بل ومن الكفر بالله - التفكير في إبعاده عن الحكم والقيادة ولكان من المستيقن أن هذا التفكير لا يمكن أن يصيب نجاحاً لو أريد العمل به، ولكان من المستيقن أيضاً أن نعبده بعد وفاته عبادة تفوق عبادتنا لكل هؤلاء الأموات المتناثرين في أرجاء العالم الإسلامي ممن عبدوا مجاناً، لأنهم لم يصنعوا شيئاً يستحقون عليه هذه العبادة التي يخصهم ويقصدهم بها ملايين المسلمين العاكفين على الأضرحة وعلى الذكريات والأسماء، بل صنعوا ما يستحقون عليه الرجم والتدمير والكفران الأبدي.

وفكرة المغالاة في الأموات الماضين هي فكرة من هذه الفكر - أي من فكر عجز المتأخر عن مباراة التقدم ومساواته.

وقد اتضح لنا بعد هذا كيف يجب أن ننظر إلى الماضي وأهله، وكيف يجب أن ننظر إلى المستقبل وإلى أهله، وكيف يجب أن نضع أنفسنا. والويل لمن قعد والناس حوله قيام.

المشكلة التي لم تحل

يتبين للقارىء، إذا كان قد قرأ فصول هذا الكتاب كلها، أن أساس هذه المزالق الفكرية قائم كله على التدين الباطل، أو على الفكرة الدينية من حيث هي. فالمشكلة التي ما أظن أحداً قد درسها دراسة صحيحة وافية، هي أن فكرة التدين قائمة على الإيمان بسبب ترجع إليه جميع الأسباب، لأنه هو خالقها، المهيمن عليها، المتصرف فيها كيف شاء. وهذا السبب الذي هو سبب الأسباب - أي الله على إختلاف كبير بعيد بين أصناف المتدينين فيه وفي حقيقته - لا يحتاج هو إلى سبب في وجوده وقيامه بنفسه وفي فعله وصنعه. فإذا وصلوا إلى الإيمان بهذا السبب وإلى الإيمان بقدرته الكاملة التي لا يعجزها شيء ولا يند عن سلطانها وقبضتها أمر، شكوا في الأسباب الأخرى التي هي دونه، والتي هي من خلقه وصنعه! وإذا ما صاروا إلى هذا الشك في الأسباب تراخوا فيها وفي الأخذ بها، وفي العمل على إتقانها والتعويل عليها، وحينئذ تصاب قواهم كلها بالضعف وبالعجز عن الإبداع والتبريز وعن الإنتاج والعمل البارع العظيم. فإن الإنسان لن يكون سببياً محضاً إلا متى آمن بأن هذا الوجود كله مربوط بأسباب آلية طبيعية، تسير إلى نهاياتها ونتائجها أيضاً سيراً طبيعياً، ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها أو أن تتحكم في نهايتها. وهو - أي الإنسان - لن ينجح النجاح المرجو إلا إذا كان سبباً محضاً؛ فالإيمان بسبب الأسباب يمنعه - على حسب ما توصل وبلغ - من أن يكون سببياً، وعدم كونه سببياً يمنعه من النجاح - هذا هو كله ما استطاعت مدارك البشر الدينية أن تبلغ وأن تعرف. تلك لعمر الله هي المشكلة الحقيقية الكبرى التي لم يوجد لها حل حتى اليوم.

فالتصور الديني البسيط الأول يدرك بالضرورة أن هذا الإله إما أن يكون له فعل وعمل في هذا الوجود، أو لا فعل ولا عمل له؛ أما الفرض الأخير فمعناه بلا شك نفي الإله، إذ لا إله بدون عمل وأثر. أما الإفتراض الأول الذي لا بد من الإقتناع به فإنه على حسب الفكرة الدينية - أو على حسب تصور المتدين - يوجب الإرتياب والإستهانة بالأسباب وينزع الثقة بها منها. فإن تصرف هذا الإله حينئذ وعمله لن يكون إلا دخولاً في الأسباب وتصرفاً فيها أو عملاً بدونها، أو إيجاداً وخلقاً لها، فهو قد ابتدأ الأمور بدون أسباب، فلا محالة من إفتراض قطع

سلسلة الأسباب ومن الأخذ بها ابتداء، ثم هو إذا فعل وصنع فلا بد أن يكون فعله وصنعه إما وقفاً لسبب وإبطالاً ومنعاً له من بلوغ غايته، وإما إعانة له وإبلاغاً للغرض والنتيجة بدونه، وإما إيجاداً وخلقاً له. والإحتمالات كلها معناها الشك في الأسباب والتهوين لشأنها.

وقد يقال بعبارة أخرى - على حسب تصور المتدين: - إن المسألة لا بد أن تفهم هكذا: الأسباب إما أن تكون كافية للآخذين بها أو غير كافية، فإن كانت كافية فأين الإله وأفعاله وألطافه؟! فهي إذن غير كافية، وإذا كانت غير كافية فهي إذن غير خليقة بأن يعول عليها المؤمن تعويلاً صحيحاً ولا أن يلتفت إليها. ومن هنا يصبح غير سببي.

وجهة أخرى، تلك هي أن المتدينين عجزوا عن أن يتصوروا إلههم تصوراً يسمو كثيراً على ما يعرفون ويشاهدون من القادرين الآخرين؛ فالله في تقديرهم وتصويرهم - وإن اختلفوا في هذا وتخالفوا كثيراً - لا يعدو أن يكون - في أفعاله وقضائه وقضاياه وحكمه على الأشياء وعلى الآخرين وعلى سائر عبيده ورعاياه - بشراً مقتدراً، كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم. ولهذا فإنه - أي الإله - يغضب عندهم ويرضى وينتقم ويثيب ويجازي ويعامل على مقتضى إنفعالاته وعواطفه، ويلجأ إلى المحسوبية وإلى الإعطاء والمنع على الشفاعة، ويتحكم في هذا العالم كله على ما تشير به هذه الإنفعالات والتطورات عنده، وعلى مقتضى تطورها وتغيرها - لا على مقتضى نواميس شاملة ثابتة... فإذا بلغوا هذا المكان من الإيمان هبوا يلتمسون رضا هذا الإله على ما تصوروا، وهبوا يتملقونه وينافقونه ويصنعون على ما يحسبون أنه ينيلهم رضاه وعطفه، وأرصدوا جل قواهم وأوقاتهم وأعمالهم لهذه السبيل، ليدركوا لديه ما يشتهون ويبتغون؛ فشغلوا بذلك عن سلوك السبيل، وعن محاولة القيام بالأعمال النافعة المجدية. لأن تصورهم للأشياء قد أصيب بالفساد، وإذا فسد التصور فسدت الأعمال لا محالة. وأصبح مثل هؤلاء كمثل أولئك الزعانف المتملقين المنافقين الكذابين الذين يحدثنا التاريخ كيف كانوا ينالون رضا ملوكهم وخلفائهم وأمرائهم، وكيف كانوا ينالون ذهبهم وفضتهم وضياعهم وجواريهم وكل ما يحبون بالملق والكذب والنفاق والعبودية والإمتداح وكل تلك المخازي الخلقية التي أثبتتها لنا كتب الأدب والتاريخ وأسمتها مكارم ومكافآت وأدبيات.

إننا إذا وضعنا أمامنا ملكاً أو خليفة من أولئك الملوك والخلفاء، وتصورنا كيف كان الناس يلقون الجزاء والخير والشر عنده، وتصورنا كيف كان يعطي ويقرب الشعراء والشفعاء، وصنوف المتملقين لكبريائه، وكيف كان يحرم ويقصي أهل الجد والصدق في القول والعمل، وكيف كان يتخرق عطاء بدون حساب، لأنه أراد ذلك ولأنه رضي، ولأنه أحب أن يمدح؛ وكيف كان يسيل نقمة وعذاباً، لأنه أراد ذلك، ولأنه غضب، ولأنه أحب أن يرهب، ثم تصورنا كيف كان يتصرف في إقطاعياته وفي عبيده، وكيف كان يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً، ولا عقلاً ولا سفهاً، ولكنها الخطرات والوساوس تلم بالرجال فتصيبهم بالخبال، وكيف كان ينتقم ويثيب: - إننا إذا تصورنا مثل هذا الخليفة أو الملك، ثو تصورنا كيف يمكن أن يكون فساد من يعكفون على الطواف بكعبته ومن ينقطعون إليه، يلتمسون رضاه وهباته، ويتعرضون لمواقع مجازفاته، وكيف يصبحون شر الأنام طراً، وكيف يعجزون عن أن يفعلوا الخير والصواب، ثم تصورنا قوماً يؤمنون بقوة مطلقة عليا يسمونها إلهاً، ويفهمونها كما يفهمون هذا الملك أو الخليفة: - إننا إذا تصورنا ذلك كله لم يعسر علينا أن ندرك كيف عجز المتدينون - على إختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم - عن أن يهبوا الحياة شيئاً جديداً أو أن يكونوا فيها مخلوقات متألقة.

وأمر آخر، ذلك أن المؤمنين يرون دائماً أن الله حينما خلق العالم وخلقهم قد ضمن أرزاقهم وكفلها وتعهد بحمايتهم ورعايتهم في كل أمورهم أو جلها، لأنهم لا يتصورون أن يتخلى الله - وهو الكريم القادر - عمن صنع بيديه وعمن أوجدهم إختياراً وإقتداراً... فيصيبهم هذا الإعتقاد بمثل ما يصاب به الطفل المدلل المكفول بين والدين مدللين رحيمين ثريين - أي يصاب بالتواكل والإعتماد على القوى الخارجية. وحينئذ لا يصنعون لأنفسهم ما يجب أن يصنعوه وما لن يظفروا به الا إذا صنعوه هم. ولا يمكن أن يكونوا في أفكارهم وأعمالهم مثل أولئك الذين يرون أنهم متروكون موكولون لقواهم ولأنفسهم، كما أن ذلك الطفل المدلل المكفي لا يمكن أن يكون مثل ذلك الرجل العصامي الذي يعلم بأن الواجب عليه أن يعمل ويناضل ليعيش وإلا فلا سبيل له إلى البقاء.

ثم إن المؤمن يعتقد - عادة - بأن الله إذ تفضل عليه فخلقه وأوجده من صميم العدم فمن الواجب عليه أن يشغل بخدمة ذلك الرب المتفضل وبالإنقطاع إلى

عبادته، زاهداً في خدمة نفسه وخدمة شهواته وحاجاته وشؤونه الخاصة، وأن يصرف - إن استطاع - كل قواه وأعماله وأوقاته - أو أكثر ذلك - إلى القيام بشكر ذلك المنعم الخالق المتفضل، وإلا فإنه عبد سوء، لا يجزيه الله إلا الحرمان والطرد. وحينئذ يجيء عاجزاً في تناوله الأمور والحياة، ويكون دون ذلك الذي صرف جميع قواه وأوقاته في سبيل الإنتصار في معركة الوجود والبقاء. وما من شيء ينجح فيه المرء إلا على قدر إنصرافه إليه وإعطائه من نفسه ووجوده. وهنا يتجلى الفرق بين الرجلين.

على أن هنالك ما هو أكبر وأظهر في إيجاد الإختلاف بين المتدين وغيره في هذه القضية؛ ذلك أن الإنسان - مهما كان تافهاً وصغيراً - لا يمكن أن يحيا بدون أمل وبدون شيء يرجيه. والعادة أن الإنسان يحاول أبداً أن يجعل أمله أحسن الآمال وأفضلها إن استطاع. وإذا خير بين أملين - أو آمال - فلا بد أن يختار أكبر هذه الآمال في رأيه وأجملها إلا أن يحول بينه وبين ذلك حائل - وهكذا هو في حياته وفي تصوره آماله وطلبه لها وسعيه وراءها. ومن هنا اختلفت الآمال واختلفت وتعددت الطرق التي تسلك إليها، لإختلاف الناس في تصورهم وفي إستعدادهم وظروفهم وقواهم وصحتهم، وغير ذلك مما يوجه المرء ويسيطر على مسالكه. وقد يصرف الأمل الواحد عن عشرات الآمال أو عن كل الآمال التي يطلبها الآخرون ويعملون من أجل الظفر بها. وإذا وجدت الناس مختلفين فاعلم أن كل واحد منهم مشغول بأمل قد ملأ عليه آفاق نفسه، وأن هذا الإنسان لا يعمل كما يعمل الإنسان الآخر لأن له أملاً آخر، ألهاه عن ذلك الذي شغل الآخر، أو لأنه تصور الطريق تصوراً لم يتصوره الآخر، أو لأمر آخر من هذه الأمور التي تصنع الخلاف والإختلاف بين البشر في أعمالهم وسبلهم ووجهات نظرهم.

على أنه لا خلاف في أن أسمى هذه الآمال وأقواها في الإجتذاب والتوجيه والسلطان هو ذلك الأمل الضخم الأبدي في تلك الحياة الضخمة الأبدية التي ينال فيها المرء الخلود وكل ما يرجى من حاجات الجسم والنفس بدون أن يكدر ذلك شيء من المكدرات المعروفة التي تشوب لذائذ هذه الحياة الأولى القصيرة، والتي تملؤها بالخوف والإكتئاب. فإذا ما استطاع إنسان أن يتمثل هذا الأمل وأن يَغْنى ويتغنى به، وأن يصرف إليه تصوره والتفكير فيه وفي لذة الظفر به والوصول إليه والحصول عليه، فلا محالة من أن يشغله ذلك عن كل شيء في هذا

الوجود، وقد يطغى عليه وعلى وجوده حتى لا يدع منه لهذه الحياة شيئاً، وقد يدع شيئاً قليلاً أو كثيراً. والإختلاف في هذا راجع إلى الإختلاف في قوة إجتذاب هذا الأمل الأخروي وضعفه. وقد يفنى عن هذه الحياة ويغيب عنها مع أنه فيها لأنه ليس من أهلها، لا ينافس ولا يغاضب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يحارب أو يسالم من أجلها شيء فيها، ويصير كذلك الرجل الورع الطيب الذي صرفه ورعه ودينه عن كل ما هنا حتى قال فيه معاوية بن أبي سفيان – وهو يضع خطوط الطريق لإبنه يزيد: "– أما فلان فقد أعجزه الورع، فدع له دينه يدع لك دنياك –" يعني أنه لا يبالي بشيء من أمور الدنيا لأن همه وأمله مصروفان إلى الآخرة وإلى الإستعداد للقائها.

فإذا لاحظنا على المتدينين – أفراداً وشعوباً – عجزا عن إيجاد الحياة وعن التحليق بالصناعة أو الزراعة أو التجارة أو العلوم المادية الإنسانية، أو عن شيء ما من وسائل الحياة وأسبابها، فلنعلم أن أحد أسباب هذا العجز هو هذا التصور لهذا الأمل العظيم والإنصراف إليه بأكثر العقل وأكثر وأعظم الإهتمام؛ وإذا عقلنا هذا لم يطل تعجبنا إذا وجدنا علي بن أبي طالب وأمثاله وجيوشهم ينهارون بلا عناء حينما نازلوا أمثال معاوية وجنودهم ورجالهم، وإذا ألفينا الرجل التقي الورع المحافظ على فروضه وعباداته ينهزم شر هزيمة في كل عمل يتناوله أمام ذلك الذي جعل فرضه ودينه وعبادته هو التحليق بتجارته أو صناعته، مصيراً ذلك إلهه المطاع المعبود وربه.

فالمؤمنون إذن يشغلون بأملهم في الآخرة عن أن يصنعوا لهم في الدنيا أملاً جسيماً عظيماً، فيأتون عادة عاجزين عن اللحاق بالآخرين الذين صنعوا لهم هذا الأمل ثم أعطوه كل نشاطهم وإبداعهم، فأصبحوا فيها السادة الغالبين.

ومن المعلوم أن أوروبا يوم أن كانت مؤمنة بالكنيسة متدينة كانت في ذلك الهوان والضعف والعجز الذي نعرفه ونقرأه، فلما أن مرقت من إيمانها وتنازلت عن ذلك الأمل الأخروي وجعلت الصناعة والتجارة والحياة الكبيرة القوية هي آلهتها التي وحدتها وأبت الإشراك بها، صعدت بالحياة هذا الصعود الذي أعجز أبصارنا تنوره والنظر إليه. وقد قال أحد فلاسفة الإنجليز المعاصرين المدرسين اليوم في إحدى الجامعات البريطانية – وهو ملحد كما هو ظاهر: "– إن أوروبا لم تستطع أن تكون أوروبا إلا بعد أن إعتقت نفسها من رق الإيمان

بالآخرة وبالله."

وقد كانت روسيا القيصرية المسيحية منذ أقل من ثلاثين عاماً مثلاً طيباً للفقر والضعف والمسكنة والجهل، حينما كانت مسيحية متدينة صالحة! فلما أن مرق بها البلاشفة وصنعوا لها أرباباً آخرين وعبادة أخرى، صارت هي روسيا اليوم، قاهرة ألمانيا التي لم تكن تقهر! ولعل من الطريف أن روسيا هذه قد كفت لهزيمتها وإخراجها من الحرب العالمية الأولى معركة واحدة رماها بها قائد ألمانيا العبقري. وقد لخص أحد أدباء الروس المخضرمين الذين عاصروا العهدين: القيصري والبلشفي، أسباب الفروق بين أولئك الروس وهؤلاء، وعوامل التحول قائلاً: "لقد شاهدت الزراع والعمال البائسين اليائسين في الزمان القيصري يوم أن كانوا يشكون بؤسهم وجهلهم وفقرهم وأمراضهم وسائر فسادهم الإجتماعي إلى القوى الخفية المجهولة، فكانوا يومذاك مثلاً رائعاً في الإنحطاط، ثم شاهدت هؤلاء أنفسهم وهم يشكون ذلك إلى المصنع والمحراث والمدرسة، فصاروا هم الروس الذين نالوا إعجاب العالم ورضاه سنة ١٩٤٤ وما بعدها."

وكذلك القول في تركيا وفي كل الأمم الحديثة والقديمة.

ولعل الفرق يظهر جلياً في دولتين شرقيتين متجاورتين، وهما اليابان الفتية المتوثبة والصين الواهنة الكسول. فاليابان، وأن كان للدين البوذي وبقايا ومعابد وتماثيل، إلا أنها قد نضت حقيقة هذا الدين فلم تدع على روحها منه شيئاً، وإن أبقت بعض تلك الأشياء على جسمها الخارجي! والدين الشنتوي الذي تقمصته الروح اليابانية هو الدين الذي يوجهها ويمثلها، وهو دين الطبقات العليا والأشراف هناك. وهو دين يقوم على عبادة الطبيعة وعبادة مظاهر هذا الكون الجميلة المختلفة، وعلى عبادة الجمال والقوة المادية. ولهذا فإن اليابانيين يبالغون جداً في تصور الجمال وفي إدخاله على كل وجوه الحياة، حتى على لعب الأطفال وأحذيتهم الخشبية وأصغر الأمور التي يعملون. وهو دين ليست له طقوس ولا فروض ولا عبادات خاصة ولا كتب ذات نصوص، يتعبد بها وبتلاوتها، وهو لا يؤمن بالآخرة ولا بالحساب والعقاب والجزاء. وخلاصته أنه دين طبيعي أو أنه دين الطبيعة في أعم معانيها! ومن ثم كان أهله من أشد الناس إتصالاً بالطبيعة وحباً لها.

أما الصينيون فقد رماهم الدين الكنفشيوسي وسواه بما لم يستطيعوا القيام منه، لكثرة ما فيه من الأوهام والخيال، ومن التأميل بالمستحيل والتحويل على ما لا حقيقة له، فعجزوا عن النهوض، وعجزوا عن الإفاقة، على رغم القوارع والمنبهات التي تطرقهم كل حين من الداخل ومن الخارج، وعجزوا عن أن يتخلصوا من تلك الأكفان البالية الزرية التي لفهم - بمهارة فائقة - فيها كنفشيوس وغيره من سحرة المتنبئين! ومن أشنع ما في هذا الدين، الذي يتصوره أهل الصين، أنه يجعل السعادة والراحة والحياة الصحيحة في هذه الحياة مستحيلة، وأن من الواجب طلبها وتأميلها وإنتظارها بعد الموت لا قبله، ثم ما يوصي به من التلفت إلى الماضي السحيق المظلم، ومن الإحتذاء والإقتداء بالماضين الذاهبين.

ومن أجل الإختلاف بين هذين الشعبين الشرقيين وجدت الأمة اليابانية المخيفة - على رغم هزيمتها الحربية الأخيرة - ووجدت الأمة الصينية الفقيرة المغلوبة على جميع أمرها.

أما الهند فإنها تعد اليوم - وقد كانت كذلك قبل اليوم، وأظنها ستبقى هكذا زماناً طويلاً - أحد الأمثال المضروبة العقيمة التي تصنعها الأوهام الدينية، ويشوه وجودها الخيال المشوه الكذوب، على رغم سابقة هذا الشعب المعترف بها في الحضارة القديمة والفلسفة العريقة، التي كانت أحد الأضواء المضيئة للإنسانية يوم أن كانت تعيش تحت الظلام... وقد عجز الهنود عن أن يجدوا لهم في هذا الوجود أملاً حاراً ملهماً ملهباً يحفزهم على النشاط وعلى الإحسان في وجودهم. وقد تقطعت أنفسهم إعياء، تطلعاً إلى تلك الآمال والأماني المذكورة المذخورة لهم وراء هذا العالم، وسعياً وراء تلك الخيالات الدينية الساحرة اللذيذة، التي لم يستطع طول تناولهم لها أن يصيبهم بالإقهاء أو بالملل والسأم الذي يحدثه عادة طول الملازمة والمقاربة. ولا شك في أن من أعظم أسباب إنحدار هذا الشعب العريق في التاريخ وعجزه عن حياة السيادة والإستقلال، وعن الحياة الإنسانية المحترمة، هو كثرة أديانه وما فيها من سخافات ومجالات ومعوقات. وليس مما تقر له عيون أنصار الأديان أن نقرأ في هذه الأيام أنباء الإختلاف الكبير المرير بين الهندوس والمسلمين على مصير الهند إذا تبرع الإنجليز وخرجوا منه! وهذا كما لا يخفى قبل أن يفعل الإنجليز ذلك، بل قبل أن

يفكروا فيه تفكيراً جاداً! فأعجب له من خلاف، وأعجب لهم مختلفين! ولعل مسألة البقر المقدس ومسألة نبحه وأكل لحمه من أعظم ما يشغل الفريقين اليوم، ومن أعظم ما يهيء للبريطانيين البقاء هناك والتدخل للحماية والفصل والحكومة! والعقلاء يعلمون اليوم جميعاً أن الهند لن تظفر بالحياة المرتجاة ما لم تغير أديانها أو تغير فهمها لها أو تتركها - وهكذا القول في كل الأمم والشعوب التي مثلت دورها في رواية التاريخ العامة وفرغت منه، والتي لا تزال تؤدي دورها، والتي لم توجد بعد. وما أبدعت أمة من الأمم إلا بقدر ما كان لديها من التأميل في هذه الحياة ومن الدوران حولها. وقد أبدع الإغريق والرومان والمصريون القدماء وغيرهم من الشعوب القديمة، لأنهم كانوا يبالغون في حب مظاهر هذه الطبيعة حتى عبدوها وصيروها كل أملهم ورجائهم المنشود. ومن جميع الأمم التي تصرفت بآمالها عما ترى وتحس وتجد، إلى ما لا تحس ولا تجد ولا ترى حتى إن رجلاً فيلسوفاً عظيماً، هو الدكتور جستاف لوبون، لما أن لاحظ هذا في كتابه الموسوم "بالآراء والمعتقدات"، "إن الإيمان بالله وحده كان نكبة على البشر". لأنه - على ما زعم - قد وقف بالحضارة عن التقدّم والسير إلى الأمام "ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة القوية إلا في عهود آنية وعبادة الأصنام!!"[1]...

وهو يريد بعهود الوثنية تلك العهود التي سادت فيها عبادة الطبيعة ومجاليها الجميلة، كالذي كان يصنعه اليونان والرومان والهنود والمصريون، ويعنى بعهود التوحيد والإيمان، التي تزعم أنها وقفت بالإنسانية، تلك العهود التي أعلن فيها الدعوة إلى عبادة الله وحده، وإلى العمل للآخرة وحدها والتأميل فيها دون الدنيا، كعهود أنبياء بني إسرائيل وأسباطهم، وجود الكنيسة في القرون الوسطى بالنسبة للمسيحيين، وعهود الغزالي والشعراني وغيرهما وعهود شيوخ الطريق بالنسبة للمسلمين؛ فإن هذه العهود - على حسب ما رأى وقال - كانت نكبة على البشر أجمع، لأنها لم تستطع أن تصنع لهم شيئاً سوى التأميل في الآخرة. أما تلك العهود الوثنية فإنها - كما يرى ويقول - ناهضة على حب هذا الوجود إلى حد العبادة، فاستطاعت - يدفعها هذا الحب وهذه العبادة - أن

(١) ونحن نبرأ من كل إلحاد وزيغ. وليس عرضنا لهذه الأقوال من اجل الإيمان بها، ولكن من أجل الإعتبار وطلب الفائدة.

تضع أساس هذه الحياة التي يتمتع بها إنسان هذا العصر السعيد. فكأنها قضية مفروغ منها، تلك هي أن الأمم المتدينة عاجزة عن الصعود بالحياة وبنفسها.

ومن الملاحظات الفردية في هذه القضية أن الآحاد الذين نراهم ينجحون في التجارة أو الصناعة أو العلوم أو غيرها من الجوانب الإنسانية هم دائماً من غير الأتقياء الورعين وأنه لا يقدر على المنافسة القاصمة إلا أولئك الذين تركوا الأوامر الدينية وراءهم. حتى إننا إذا حاولنا أن نلتمس في تاريخنا نفسه مكان أولئك الأفذاذ القلائل الذين لمعوا في سماء الشعر أو الأدب الخالد، أو قاموا بنظريات علمية لها بقاء وخلود، أو جاءوا بفلسفة ذات شأن معترف به بين الفلسفات، لم تجدهم إلا بين أولئك الذين وصفوا بالتمرد والإنحلال الديني؛ أمثال المتنبي وأبي العلاء وابن الرومي والجاحظ وابن سينا والرازي والفارابي وابن رشد وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم وسواهم... ولا نزال حتى اليوم نرى أنه لا يقوم بتصريف شؤون الدولة الكبيرة، كالوزارة والسفارة وأمثالهما، إلا جماعات تختار من غير الأتقياء، حتى أممنا التي شهرت بالتدين وبتأسيس ملكها وحكمها على أوامر الله، نجدها تعرف هذا وتعترف به وتكل أمورها الرسمية ذات الشأن إلى غير المتدينين. وهذا لأنها تعلم بالإستقراء والتجربة أن هذه الشؤون إذا أسندت إلى جماعات الصالحين لم يحسنوا أو لم يستطيعوا القيام بها – ولأن هؤلاء من جهة أخرى لا يستطيعون بنبوغهم وسعيهم أن يصلوا إلى رضا من إليهم المصير ومن بيدهم الحل والربط والإعزاز والإذلال. فيبقون خاملين منسيين مبعدين. وقد قال الخليفة الملهم عمر بن الخطاب: "لوددت أني وجدت رجلاً تقياً قوياً مسلماً استعمله..." وقال مرة أخرى حينما حار بين الأتقياء والأقوياء:

"أشكو إلى الله جلَد الفاجر وعجز الورع." وكلنا الآن إذا أردنا أن نشتري شيئاً أو أردنا من أحد أن يصنع لنا شيئاً – حتى لو أردنا أن نطبع مثل هذا الكتاب – لم نجد بداً من الذهاب إلى غير الأتقياء ليقوموا لنا بهذه الأمور، إذا كنا حقاً نرغب في الإتقان والجودة والكمال أو القريب من الكمال. أما إذا شئنا لأنفسنا الصناعة الرديئة أو الصنف الرديء أو إخلاف الوعود أو الحصول على الأكاذيب المتلاحقة، فإننا حينئذ لا نجد بداً من أن نقوم بعملية تفتيش عن هؤلاء

الأتقياء وعملية تلمس لهم في جحورهم المظلمة.

ثم إنه قد علم بالتجربة أن المتدينين يفقدون الميزان الفكري الذي توزن به الأمور في الغالب، ويصبحون من الناحية النفسية أناساً طيبين خيرين، فاقدين لكل مناعة عقلية مستعدين إستعداداً غريباً للوقوع في حبائل المشعوذين والدعاة المضللين، عَمَيْن عن كل الحقائق التي يراها ويستفيد منها الآخرون، ويرتفع لديهم سعر التهريج والدجل إرتفاعاً عجيباً، وتنفق بينهم سوقه، وتنبت أرضهم الدعاة الكثيرين - دينيين وغير دينيين، ويصيخون لكل ناعق، ويهبون - بسخاء نادر - جيوبهم وقلوبهم وعقائدهم لكل سائل. لأنهم بعد أن عزلوا العقل وتنازلوا عن تحكيمه عجزوا عن أن يعرفوا الحق من الباطل، والصادق من الكاذب، والقائد من الصائد، فصدقوا المستحيلات والمتناقضات وآمنوا بأشنع الترهات، لأن العاصم من كل ذلك - وهو العقل - قد أبعد وعزل.

وقد دلتنا هذه الحرب الماضية والإشاعات التي كانت تروج وتنفق فيها على مبلغ إنهيار هؤلاء من الناحية العقلية ومبلغ إستعدادهم لتصديق ما لا يجوز على العاقلين، بدون مقاومة أو إباء. وقد كنا نعجب من الإذاعات الأجنبية التي كانت توجه إليهم، ونتعجب من السخف والكذب الذي يجيء فيها، ونقول كيف يرجو هؤلاء العقلاء - إذ هم عقلاء بدون ريب - أن يؤمن لهم قومنا بكل هذا أو بشيء منه! ولكن هؤلاء المذيعين كانوا أعلم منا بأنفس قومنا وبضعف المناعى العقلية لديهم! فإن هذه الدعايات والإذاعات كانت تسمع وتصدق أيضاً - وكانت تنفع.

ومن أجل هذا الضعف في المقاومة الفكرية لدينا نبغ بيننا الدعاة الكثيرون وأسرفوا من العدوان على صميم الإنسانية وعلى أفضل صفات البشر؛ فإنك لن تلقى في حياتك - ما عشت - منظراً أبشع من أن ترى الجموع من حملة الشهادات العالية، في سائر العلوم التي قاومت الجهل والسخف عند غيرنا وطاردتهما، يحشدون بشكل يزري بالإنسان، تحت ركاب رجل هو أقل منهم في كل شيء مما يتصل بالقيم الإنسانية، ليسوقهم - بدون وعي ولا معارضة منهم - ويوجههم حيث تشاء رغباته ومطامعه، ثم ليملي عليهم ما يشاء وما تشاء له أنانيته وكبرياؤه وسغبه القاتل إلى المجد الذي حرم آباؤه وأجداده من الفروض والواجبات والقداسات التي يفرضها لشخصه الكريم، بإعتباره الإنسان المقدس الطاهر المعصوم الذي يجب أن يطاع طاعة عمياء، والذي يجب ألا يخطر

على البال، بالنسبة لذاته الكريمة، توجيه عبارة من عبارات الإستفهام – دع الإعتراض وما هو أشد منه – فترتفع من المعاملة القائمة بين هذا الداعي الخير وبين أتباعه الخيرين كلمات: "لم" "كيف" "من أين" "إلى أين." وليس لهذا الصنم الأرضي الذي ظفر من عبيده الصالحين الطيبين بكل هذه العبادة المطلقة من قوة خفية أو سحرية سوى كلمات جوفاء فوارغ مبهمة يتمتم بها ويطلقها على ضحاياه وعباده كما يفعل مخاطبو العفاريت وضاربو الرمل ومطلقو البخور.

وليست روح التسليم العقلي عند المتدينين بجديدة، بل هي روح ملازمة لهم منذ وجدوا وكيف وجدوا. حتى لقد وجد الأدباء والشعراء والمتهكمون في ذلك مجالاً لا بأس به للسخرية، فأرسلوها عليهم لاذعة قاسية! وقد طار في كل المحافل قول شيخ هؤلاء المتهكمين الساخرين – وهو أبو العلاء، وقد قسا كثيراً:

إثنان أهل الأرض ذو عقل بلا

دين، وآخر دين لا عقل له

* * *

ما لي أرى كل الأنام لجهلهم

بالدين أشباه النعام أو النعم

لو قال ذئب غضاً بعثت بملة

من عند ربي قال بعضهمو نعم

ومن الواجب أن نعرف سبب هذا الإستسلام والضعف الفكري لدى هؤلاء المتدينين. والذي يظهر لنا كثيراً أن من أسبابه أنهم ينكرون أن يكون بين أحداث هذا الوجود ترابط عقلي وتعليل ثابت! بل يرون أن الوجود كله – بما فيه من حوادث وأحداث – محكوم بقوة مجنونة – أو هي كالمجنونة – في أفعالها وتصرفها! ولهذا فلا قوانين ولا ضوابط للمعجزات والخوارق، فكل شيء جائز، وكل شيء مستحيل... فيصابون بالفساد الفكري العام، وإذا اختلت الوسيلة فكذلك النتيجة، وإذا انهار الأساس انهار بلا شك ما رفع عليه!! ولن تجد ميزاناً فكرياً لدى هؤلاء الذين يعيشون في هذا الجو المسحور المجنون المائج بالخوارق والمعجزات والكرامات التي صنعها الشيوخ والصالحون – ساخرين من القوانين الطبيعية!

وهذا التعليل صحيح على وجه الإجمال كما يبدو لنا، كما علل بعض علماء

النفس والإجتماع القسوة التي يتصف بها المتدينون غالباً إذا قدروا، وأخذهم خصومهم أخذاً خالياً من الشفقة والإنسانية - بكثرة ممارستهم صناعة التخويف والتهويل للعصاة والكافرين، وكثرة قراءتهم النصوص التي تصف الأهوال المعدة لأهل الآثام والشهوات. فقد صاغوا طباعهم وأنفسهم بطابع الغضبية والقسوة والعنف فارتاضوا على ذلك كثيراً حتى أصبحوا وحوشاً تنطق باسم الدين، وتفترس على حسابه! ومن ثم فإننا نعتقد أن هذه الجماعات المنسوبة إلى الدين، الناطقة بإسمه لو أنها استطاعت الوثوب على الحكم ووضعت السلاح في يدها لحكم البشر عهد من الإرهاب يتضاءل إزاءه كل إرهاب يستنكره العالم اليوم. وهذا أمر يجب أن يعرفه أولو الرأي والمقدرة وأن يحسبوا له الحساب قبل فوات الأوان. ولن تجد أقسى قلباً ولا أفتك يداً من إنسان يثب على عنقك ومالك، يقتلك ويسلبك. معتقداً أنه يتقرب إلى الله بذلك، ويجاهد في سبيله، وينفذ أوامره وشرائعه!! والسوء لمن ناموا على فوهة البركان قائلين: لعله لا ينطلق.

كل هذه الحقائق لا ريب فيها. ولكن ما معنى هذا؟ هل معناه أن الدين مفسد للبشر، حائل بينهم وبين الكمال، وأنه بطبعه مناف للروح العملية الإنسانية المبدعة؟ كلا، ليس هذا هو المراد ولا هو الصحيح، بل الدين بطبعه وروحه لا يعدو أن يكون وثوباً بالعاطفة وبالخلق والعقل والعمل. وإنه لكذلك إذا أخذ وفهم على وجهه.

ولكن ها هنا شيئان: أحدهما أنه إذا أخذ على غير وجهه وقصده جاء ضاراً ومفسداً لأخلاق الإنسان وكل معانيه الطيبة، أو التي يجب أن تكون طيبة، كما سبق البيان.

وثانيهما أن البشر عاجزون - في ما يبدو لنا حتى اليوم - عن أخذه وفهمه وتصوره على وجهه النافع المفيد، بل هم إما أن يبقوا غير متدينين، أو متدينين تديناً باطلاً - كما أثبت هذا جملة تاريخ الإنسان. ولا بد من استثناء فترات أو ومضات قليلة خافتة.

ويظهر أن المبادىء الإنسانية العظيمة تأتي دائماً سابقة لإستعداد الجماهير من البشر. فإذا دعوا إليها أو فرضت عليهم - قبل تمام هذا الإستعداد - أخذوها أخذاً سيئاً ضاراً بهم وبالمبادىء نفسها، وذهبوا يعملون بها على غير

وجهها وصوابها. ومن هنا تأتي النكبة. وكلما تقدم نضج الإنسان قرب من الإحسان ومن الفهم الصحيح والتصور الصحيح لهذه المبادىء الجميلة التي تسبق إستعداده. ولا شك في أن الناس اليوم يتصورون الديمقراطية والعدالة الإجتماعية والنظام العام للسلام، وكيف يجب أن يكون الحكم والحكومات، ولغير ذلك من مسائل الإنسان العظمى، تصوراً هو أرقى جداً من تصورهم لها منذ ألف سنة أو بضعة آلاف من السنين، كما أن تصورهم لهذا الوجود نفسه وفهمهم له يتقدم ويرقى ويصح ويصدق دائماً. وهم أبداً يقومون بعملية تخل مستمرة عن تصوراتهم وأفهامهم الأولى القديمة لأمور هذا الوجود، ليحلوا مكانها تصورات وأفهاماً أرقى وأفضل. والدين هو أحد هذه الأمور الجميلة التي عجز الناس عن تصورها تصوراً صحيحاً، لأنها جاءت قبل إستيفاء إستعدادهم الموقوت، فراحوا ضحايا هذا التصور الباطل. وكان من نتائج ذلك أن نهض في الأمم كلها أقوام يحاربون الأديان ويعملون على إبطالها وتدميرها، لأنها في ما بدا لهم واقفة متحجرة تسد الطريق. والواقع أن الذين تحجروا وسدوا الطريق هم المتدينون لا الدين نفسه. ولا ريب عندنا في مجيء ذلك اليوم الذي يقدر البشر فيه أن يدركوا من حقائق الأديان ما لم يدركوا، وأن يفهموها ويفهموا مراميها السامية كما أريد منها وبها. وحينئذ - حينئذ فقط - تبلغ بهم السمو المقدر لها ولهم.

والإنسانية - كما تحصل من مجموع تاريخها المعروف - لها ثلاث حالات: إحداها أن تكون بلا دين، لا باطل ولا صحيح، وثانيها أن تكون على دين باطل - أي على دين نتصوره بالصورة التي شرحناها في هذا الكتاب، وثالثها - وهذا خيرها بلا شك عندنا - أن تكون على دين صحيح، تدركه إدراكاً صحيحاً. وهذه الحالات الثلاث هي على ثلاث درجات. ولا شك أن الحالة الثانية هي شر الحالات، وأن الأمة التي تكون متدينة بهذا الدين تأتي عاجزة عن مقارعة الأمتين الأخريين، وأن الأفراد الذين يكونون متدينين كذلك سيصرعون لا محالة إذا حاولوا منافسة الآخرين ومقاواتهم من أفراد هاتين الأمتين أيضاً. ولا يجب أن تغبط الأمة التي تحرص على مثل هذا الدين، إذ أن مصيرها بين الأمم مقرر معروف. وما هو إلا مصير هذه القطعان الآدمية المتزاحمة على البؤس والشقاء والجهل والإستعباد، في آسيا وأفريقيا، التي نسميها أمماً وشعوباً، تلك القطعان

التي تلهب جلودها الملونة سياط هؤلاء البيض منذ قرون، بدون أن تستطيع المقاومة أو الهرب والشرود!! وهنا يجب أن يعلم الغافلون من إخواننا في سائر بقاع الأرض أن سادتنا الغربيين، ومنافسينا من الشرقيين لا يؤذيهم أبداً أن نكون متدينين بهذا الدين المحرف، بل إن ذلك ليعجبهم ويرضيهم! وإنهم لعلى إستعداد تام لأن يشيدوا لنا المساجد والمعابد، وأن يطبعوا لنا الكتب الدينية، وأن يصنعوا في هذا الغرض كل شيء وأن يعينونا على أداء كل فريضة من هذه الفرائض! إذ أي ضير يصيبهم من ذلك؟ ولكنهم من جانب آخر مستعدون أتم إستعداد - إذا لم يمنع من ذلك مانع - أن يهدموا كل مصنع نشيده وكل حياة صحيحة قوية حرة نحياها. وإنهم يخشون ويحترمون في وقت واحد أمثال مصطفى كمال موجد تركيا الحديثة، ويقرون عيناً - مع الإحتقار الشديد والفرح البالغ - بأمثال ذلك الرجل الجامد - ذلك الرجل الذي قتل شعبه بالجهل والفقر والمرض، والذي أمر رعاياه في العام الماضي بقراءة القرآن والبخاري لرفع الوباء الذي اجتاح بلاده التي ليس فيها وسيلة واحدة من وسائل مقاومة المرض الصحيحة؛ هذا الرجل الذي عرضت عليه المساعدات الطبية دولة مجاورة، لإنقاذ بلاده البائسية الشقية من طاعون وفد عليها منذ سنتين فقط بشدة مزعجة، فرد هذه المساعدات قائلاً: إن الطاعون رحمة يخص الله بها بعض عباده فكيف نعمل على رفع الرحمة؟! هذا الرجل الذي يمضي في بناء السجون في بلاده، بينما تمضي كل الأمم في بناء المدارس والمصانع والمصحات!! وإن هؤلاء الدعاة الدينيين أقرب إلى قلوبهم وإلى رضاها من أولئك الذين يوسمون بالإلحاد والزيغ، ممن يعملون على إيقاظ الشعور القومي وعلى بعث الكرامة الوطنية السجينة في النفوس تحت هذه الأنقاض المحطمة المتراكمة. وقد حدثني أحد الرجال المشهورين أنه حاول مرات أن يسافر إلى بلاده التي يقبض عليها الإستعمار بقسوة وإحكام، فلم يستطع أن ينال التصريح الذي يبيح له السفر، فلجأ إلى حيلة لطيفة، هي أنه تزيى بزي رجال الدين الذين يقومون بوظيفة الوعظ والإرشاد، واضعاً على رأسه عمامة تزري بالهرم، وعلى كتفيه جبة تتسع لإيواء كل الشياطين، وتحت إبطيه من كتب التفسير والحديث والفقه والعقائد ما ينوء بحمله أحد حمر الحي. قال وقد نجحت هذه الحيلة أعظم نجاح، فأعطيت جواز السفر والدخول مع الإحترام والتوقير والسرور. وقريب من هذا ما حدث قبيل

هذه الحرب في البرلمان الفرنسي، إذ قام أحد الأعضاء - على أثر حملات تبشيرية مسيحية قام بها رجال الدين الفرنسيون في المغرب العربي - قائلاً: إن فرنسا دولة علمية إلحادية، فما لها وللتبشير!؟ فنحن نستنكر ما يقوم به رجال الدين هناك. فقام الرئيس فرد عليه رداً ما أعجبه! إذ قال إن هذه - يعني العلمانية الإلحادية - بضاعة محلية لا تصدر إلى الخارج!! وقصده من هذا أن الدعوة إلى الأديان يجب أن تبقى مستمرة نشيطة في المستعمرات وإن حرمت في فرنسا نفسها. ويجب أن لا يخفى على أحد أنهم - أي الفرنسيين - لن يصدروا الخير إلى الخارج مجاناً ويحرموا بلادهم منه. ودهاة الإستعمار في العالم يعلمون أن نفوذهم وبقاء سلطانهم في بلادنا المغلوبة مقدور بما في هذه البلاد من رجال الدين ومن شيوخ الطرق الصوفية، وأنه بمقدار ما ينقص هؤلاء ينقص نفوذهم ويدنو أجلهم، وبمقدار ما يزيد ذلك ويأخذ في الرسوخ والبقاء. ولهذا فإنهم يعضون على هؤلاء الشيوخ والعلماء بالنواجذ، ويعملون على توسيع سلطانهم ورفع مكانهم بين الجماهير والدهماء، إذ هم أحسن لهم من الجيوش المدججة بالسلاح؛ من شر ذنوب الإستعمار دأبه دائماً على نصرة الرجعيين وتحطيم الأحرار وعلى البسط للأفكار والعقائد المؤخرة ومطاردة المقدمة. وكل هذا لا يخفى إلا على من أضله الله ولم يرد هو أن يهدي نفسه.

هذه قضايا قد آن الأوان لأن تكون معلومة؛ نعم، ولكن ماذا أريد أن أقول؟ أقول إن التدين المحرف الواهم نكبة على الجماعات وعلى الأفراد؛ ولكن هل يصح أن يفهم أحد من هذا أني أريد الإستغناء عن الدين؟ كلا، فالدين حاجة من حاجات الإنسان التي لا يمكن أن يستغني عنها. ولكن ثبت أن البشرية عاجزة - إلا في ما ندر - عن فهمه على وجهه الصحيح، هذه هي المشكلة التي لم يستطع حلها بعد. وإلا فكم استطاع الدين أن يهب الإنسانية الأمل الحار والوقود لتسير في سبيلها الطويل الشاق، لتبلغ هذه الغاية التي بلغتها! وكم أضاء لها طريقها يوم أن كان يتعثر في الظلام! وكم حبب إليها الألم والعذاب في تحويمها حول أهدافها الكبرى! وإن كل ما نحن فيه اليوم ما هو إلا إحدى نتائج هذا التحويم. ومن المحقق أنه لولا هذه الهبة الإلهية السماوية - التي هي الدين - لتقرر مصير الإنسان على نحو آخر من النهايات - وما كان مستطاعاً أن يستغني البشر عن الدين إلا إذا كان من المستطاع أن يستغنوا عن الأمل في حياتهم أو يصنعوا لهم

أملاً آخر، إذ لا حياة بدون أمل.

وإذن فهل معنى عجز الإنسان عن أن يفهم التدين والدين فهماً صحيحاً أن الواجب عليه، أو المستحسن له، أن يتركه وينأى عنه! كلا، وإنما الواجب أن ننفق القوى والأوقات على محاولة فهمه وإفهامه، وهذا هو عين ما فعلناه في كتابنا هذا.

وقد كانت أعظم رسالات الأنبياء موجهة إلى تصحيح التدين وتصحيح الأديان. وهذا التصحيح هو إحدى رسالات الإنسان الكبرى.

أيها القارىء الكريم:

من الجائز أن أكون قد أخطأت أو بالغت في بعض المواضع، ولكن أمرين يجب ألا يقع عندهما خلاف ولا يسوء فيهما فهم؛ أحدهما أني كنت مخلصاً في جميع ما كتبت، وأني ما أردت إلا خدمة الحق وخدمة أمتنا العزيزة. وليكن هذا شفيعاً لي عند من يخالفني في بعض المسائل أو بعض الشروح والتفصيلات. وثانيهما أني لم أحاول إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، ولكني حاولت أن يكون هذا الإيمان سليماً قوياً، وأن يكون كإيمان عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص وخالد ابن الوليد وأمثال هؤلاء، وأبيت أن يكون مثل إيمان الشعراني والغزالي وابن عطاء الله والأسيوطي وغيرهم من شيوخ الطريق وحداة الجهالة ورسل الفقر – ممن نكبوا البشر وانحرفوا عن الغاية التي يجب أن يبلغوها.

عناوين الكتاب الرئيسية

مرفوع إلى ٦

قبل البدء ١٣

لقد كفروا بالإنسان - الإيمان به أول ٢٧

العلم حجاب - الجهالة أم الفضائل - أكثر أهل الجنة البله -

هكذا قالوا ٧٧

الإنسان هي أم سلعة ٩٥

كراهة الحياة الدنيا - إمتداح الجوع والفقر والمرض - الدعاية

الواسعة للزهد المخدر - هل جاء الدين لمحاربة العمران؟ ١٣٦

هل في سنن الله محاباة - الجهل بنواميس الحياة مانع من التقدم-

كيف يجب أن تفهم قوانين الطبيعة ٢٠٧

كيف فهما وكيف يجب أن يفهما وكيف قررا مصاير الشعوب ٢٥٥

التوكل - أوهام الناس فيه - كيف يفهم ٢٨٠

الأسباب - كيف فهمها الناس وكيف تفهم ٢٩١

أمامنا لا وراءنا ٣٠٧

المشكلة التي لم تحل ٣٣٧

أيها القارىء الكريم ٣٥٣

منشورات الجمل

الجمل يمرّ والأفق يتحرّك

الحسين بن منصور الحلاّج

الديوان، يليه كتاب الطواسين

تحقيق: كامل مصطفى الشيبي، بولص نويا اليسوعي

* * *

الشيخ ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني

منامات الوهراني

* * *

أبو حيان التوحيدي

الرسالة البغدادية، تحقيق عبود الشالجي

* * *

محمد بن المرزبان

ذمُّ الثقلاء، تحقيق: د. محمد حسين الأعرجي

* * *

النفّري

كتاب المواقف والمخاطبات، تحقيق: آرثر آربري

* * *

نعيم قطّان

الواقعي والمسرحي

ترجمة: صباح الخراط-زوين، مراجعة: هاشم صالح

* * *

عبدالله القصيمي

لئلا يعود هارون الرشيد

* * *

عبدالله القصيمي

عاشق لعار التاريخ

* * *

سيد قطب

طفل من القرية

* * *

سيِّد قطب

مهمة الشاعر في الحياة

* * *

شاكر حسن ال سعيد

وقفات تأملية

* * *

علي الشوك

الموسيقى بين الشرق والغرب

* * *

د. منصور فهمي

أحوال المرأة في الاسلام

ترجمة: رفيدة مقدادي، مراجعة: هاشم صالح

* * *

د. علي الوردي

هكذا قتلوا قرّة العين

* * *

الجنس عند العرب -١-

نصوص مختارة

* * *

الجنس عند العرب -٢-

نصوص مختارة

* * *

الجنس عند العرب -٣-

نصوص مختارة

* * *

د. جليل العطية

الجواهري، شاعرٌ من القرن العشرين

* * *

سركون بولص

الأول والتالي، شعر

* * *

سركون بولص

اذا كنت نائماً في مركب نوح ، شعر

* * *

سركون بولص

حامل الفانوس في ليل الذئاب، شعر

ديوان أبي حكيمة

ت. د.محمد حسين الأعرجي

* * *

بسّام حجّار

بضعة أشياء ، شعر

* * *

ساران الكسندريان

جورج حنين، تـ: كميل قيصر داغر

* * *

عبدالرحمن طهمازي

أكثر من نشأة لواحدٍ فحسب، شعر

* * *

خالد المعالي

الهبوط على اليابسة، شعر

* * *

كرستيان مورغنشترن

سماء وأرض، تـ: فاضل العزاوي

* * *

جورج حنين

أعمال مختارة، تـ: بشير السباعي

* * *

غوتفريد بن

مختارات شعرية ، تـ: خالد المعالي

جويس منصور

أعمال مختارة، تـ: ب. السباعي

* * *

ابراهيم الملا

صحراء في السلال، شعر

* * *

نيكولاس بورن

التزوير، رواية، تـ. حسين الموزاني

* * *

رينيه الحايك

بيوت المساء، قصص

* * *

واسيني الأعرج

ذاكرة الماء، رواية

* * *

واسيني الأعرج

سيدة المقام، رواية

* * *

واسيني الأعرج

حارسة الظلال، رواية

* * *

حسين الموزاني

إعترافات تاجر اللحوم، رواية

* * *

هذا الكتاب

«من الجائز أن أكون قد أخطأت أو بالغت في بعض المواضع، ولكن أمرين يجب ألا يقع عندهما خلاف ولا يسوء فيهما فهم؛ أحدهما أني كنت مخلصاً في جميع ما كتبت، وأني ما أردت إلا خدمة الحق وخدمة أمتنا العزيزة. وليكن هذا شفيعاً لي عند من يخالفني في بعض المسائل أو بعض الشروح والتفصيلات. وثانيهما أني لم أحاول إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر. . .»

عبد الله القصيمي



